

تعويذة الحسد

تأليف: ديڤيد ابرام

ترجمة: ظبية خميس

404



المشروع القومى للترجمة

تعويذة الحِسّى

تـأليف : ديڤيد أبرام

ترجمة : ظبية خميس



٢٠٠٢



المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٠٤
- تعويذة الحسِّى
- ديڤيد أبرام
- ظبية خميس
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة كاملة لكتاب :
THE SPELL OF THE SENSUOUS
تأليف : David Abram
الصادر عن : Random House, Inc,
New York
Vintage Books
عام : 1996

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

المحتويات



... إلى أولئك المُهدَّدين والمنقرضين



تعويذة الحِسّى

اللغة والتلقى فيما هو أكثر من عالم بشرى



مقدمة

تعويذة الحِسّ

فن التذكر .. والمعايشة

على شرفة فى فندق « السراب الأعظم » فى جزيرة بالى الإندونيسية ، أقف مع ميلاد فجر استوائى ممطر بصحبة عدد من السحالى ، والعصافير ، والغربان . أمامى تمتد غابة استوائية كثيفة ، أمامها يمتد بحر الصين بأمواجه الطولية الشاهقة ، وراء ذلك البحر يقف الجبل ببركانه المشتعل بهدوء . بين المـاء ، والهواء ، والنار ، وتلك التربة الحمراء لا أعود أنا ، أتوحد مع ذلك كله فأصبح هو أو أننى أظن نفسى مقطوعة موسيقية تنتمى إلى أروقة معابد بالى الهندوسية ، ولوهلة لا أحس بشىء آخر سوى الاكتمال والسعادة القصوى .

ذلك النوع من الوجود كنت قد خبرته فى طفولتى فى حضور الصحراء والبحر والنجوم وأشجار النخيل والنبق واللوز والوجوه القديمة لبشر البحر والصحراء فى الخليج العربى ، غير أننى كثيرا ما أضعته بشكل غامض عندما كبرت بين مدن نيويورك ، ولندن ، والقاهرة ومدن الخليج الحديثة ، وعندما أصبح الاضطراب الوجودى طريقة وأسلوباً للحياة التى أحياها بين المدن صار جزء منى يلح فى طلب الهروب ولو لقليل من الوقت إلى عوالم لا تشبه ذلك ، خارج إطار الكلمة المكتوبة ، وأصوات البشر المتوترة ، كان حنينى يأخذنى إلى أشكال مرئية وغير مرئية أخرى وكذلك إلى أصوات تتجاوز الحنجرة البشرية . هكذا قادتنى الروح إلى آسيا مرارا وتكرارا فى رحلة لم تنته بعد لأصغى إلى صوت بوذا فى بوبال ، وحفيف شجر المطاط فى بينانج ، وأزهار اللوتس فى حدائق سنغافورة الاستوائية ، وأجراس المعابد فى بوكيت ، وآلهة البركان وحقول الأرز فى بالى .

كنت أرتحل بعيدا لأصل إلى جزر المالديف ، أعانق كائنات البحر هناك ، وأصغى فى جزر صغيرة معزولة إلى أصوات الليل حيث ابتعاد اليابسة الكبرى هو اقتراب لسؤالٍ وجودى لحظى : هل مازال العالم بمدنه وضجيجه موجوداً خارج هذا الصوت الكثيف لليل الجزر التى لاتصغى لأى صوت آخر غير الطبيعة ؟

وفى كل مرة كنتُ أعود فيها إلى ضجيج المدن الصاخبة كنت أجلب شيئًا من تلك السعادة ويقظة الحواس معى لتدوم بعض الوقت قبل أن تلتهمها وحوش المدنية المتوحشة ، لأبدأ بعد ذلك فى أحلام اليقظة كى أجد صفائى المفقود ونداوة حواسى التى تُراكم المدن عليها غبارها ودخانها وقسوتها .

فى إحدى رحلاتى تلك عثرت على كنز رائع ، كتاب غرقت فى قراءته وعندما أنهيته كانت روحًا رائعة تقفز منه لتحل فى بدنى وحواسى ، روحًا استطاعت أن تأخذنى فى رحلة حول أطراف المدينة كى أصغى إلى أحجار المقطم ، وحفيف نخل سقارة ، وصوت باطن الأرض فى حقول الفيوم ، بل إنها أطلقت سراحى فى لحظةٍ عبقرية لم أعرف حدودها وأنا أوشك على النوم لأجد نفسى قد تحولت إلى شرارة مضت فى صحبة خيرة من الكائنات اللطيفة فى رحلة حول الأرض ، عبر النجوم وعبر تاريخ الخليقة والضوء ، لأعود إلى جسدى الأرضىّ بعد ذلك مفعمة بالمعرفة ، فى حقل ميدانى لا أعرف له تقنينا لأسميه ، وفى ظل إيمان عميق بأن هنالك فى وجودنا ما يتعدى التجربة المبتسرة لأنصاف الحواس التى نوظفها فى حياتنا اليومية ؛ لإنجاز نهاراتنا التى تدور فى رحى آلية البشر الوظيفية والمشوشة فى خطاها الحديثة بحلم التكنولوجيا المتفوقة ، المال والنفوذ ، السيطرة والهيمنة والتصنيع الذى جاوز إخضاع الطبيعة إلى إخضاع الكائنات البشرية لشرط التقدم والتجريب العلمى والتكنولوجى .

كان الكتاب الذى عثرت عليه لمؤلف يدعى ديفيد أبرام من مدينة نيويورك ، بعنوان يمكن ترجمته « بسحر الحواس » غير أننى وجدت « تعويذة الحِسِّى » أقرب وأدق لتوصيف ذلك العمل . كتاب يتجاوز حدود التخصص الأكاديمى الضيق إلى تعددية فى مسارات منهجه وطرحه ، وإن كانت الطبيعة وإعادة الاعتبار إلى علاقتنا بها على المستوى الفردى الحسى ، أو الجماعى الثقافى هى جوهر العمل . كتاب يبحث فى نظرية التلقى والاستيعاب والمشاركة فى عالم أكثر مما هو بشرى وفى مجالات عديدة :

السحر ، وعلم اللغة ، وعلم البيئة ، وعلم الأنثروبولوجى ، وصولاً إلى الوجدانيات الحساسة ، وعلم مقارنة الأديان واللغات .

فى ذروة حماسى لكتاب تحدثت عنه كثيراً مع معارفى وأصدقائى ، وقمت بإعارته للعديد من الأصدقاء لقراءته ، بل إن الحماس جعلنى أعيره لبعض المترجمين ليقوموا بترجمته للعربية آنذاك ، غير أن القليل منهم كان قد أكمل قراءته ، ولا أحد تقريباً رغب فى ترجمته ؛ ربما لصعوبة ذلك وعدم توازى الجهد الذى سوف يبذل مع المقابل المادى الذى لايتوفر عادة فى مدننا ، وإذا ما توفر فإنه يكون أبخس بكثير من قيمة الجهد الذى يضعه المترجم فى عمله ، وفى ظل تفهم ذلك كففت عن إعادة المحاولة بإقناع هؤلاء الأصدقاء والمعارف للإقدام على تلك التجربة .

بتأثير من « تعويذة الحسّى » كنت قد انتقلت من الحياة فى قلب حى المهندسين المكتظ بعماراته ، وزحام المرور ، والمحلات التجارية لأنتقل للسكن على أطراف المدينة ومشارف سقارة ، وكنت سعيدة بذلك فى بادئ الأمر ، أمامى ترعة ووراء منزلى ترعة أخرى ، ورقعة من العشب الأخضر ، وبعض الأشجار ، وهدوء يسمح لى بالإصغاء إلى أصوات الجنادب ليلاً وإلى غناء الكروان الذى كثيراً ما كان يقف على شرفة منزلى فجراً ، اكتشفت آنذاك أنواعًا من الطيور والعصافير لم أكن أعرف أنواعها ، كما سنحت لى الليالى أن أرقب النجوم فى السماء الصافية وأن أرى جلال الأهرامات وهى تقف هناك كرمز لاتحاد الكائن والحجر فى صناعة الحضارة الإنسانية ، واستطعت أن أستوعب ذلك التقديس الفرعونى لأنواع كثيرة من فصائل الحيوانات فضلاً عن الشمس والكواكب والنجوم .

كان القمر بدراً يتسلل من نوافذ بيتى فأكتفى بضوئه الذى تتراقص روحى فيه مع موسيقا السيتار والسنتور وأعواد البخور .

غير أن ذلك لم يدم طويلاً . فى البدء وجدت من يسرق منى نور القمر ، مسجد فى عمارة مقابلة قرر أن يضع أنوار « نيون لايت » خضراء ضخمة تستمر إضاءتها من أذان المغرب وحتى ما بعد طلوع الشمس صباحاً ، ثم قرر أن يسرق منى صوت الليل ، والنجوم ، والكروان ، والجنادب – عبر مكبرات صوت ضخمة تكاد جدران الأهرامات تنشرخ بسبب صدى أصواتها .

ثم إن مساحة الأخضر الصغيرة أمامى حلت محلها عمارات تستطيل بمعجزة بالطوب الأحمر وتأخذ أشكالاً وألوانا شائهة كصناديق من الكبريت العملاق ، وبعدها بقليل تم افتتاح طرق دائرية صارت تقذف بالشاحنات وسيولاً من السيارات المسرعة والضوضاء ليلاً ونهاراً حيث حلت صفارات سيارات الشرطة والإسعاف بدلاً من أصوات الجنادب وغناء الكروان .

إذن ، هذه هى المدينة ، ولافرار !

فى صباح يوم من أيام الربيع ، يوم لم تغتله عواصف الغبار الملونة التى تهاجمنا فى كل ربيع فى القاهرة استيقظت على أصوات ، وهدير وزمجرة ، وصراخ غريب على أذنى ، لم أعرف مصدره بالتحديد غير أننى أحسست وأنا مازلت فى سريرى بأن مجزرة أو مذبحة ما تحدث من حولى فى مكان ما .

عندما فتحت النافذة لأستطلع برعب ذلك الذى يحدث ، لم أجد الترعة خلف بيتى ، كانت قد اختفت تمامًا ، وفى مشهد سريالى من كوميديا الجحيم فركت عينى لأتحقق من حقيقة ما كنت أشهده فى تلك اللحظة :

كانت الترعة بأكملها قد تحولت إلى «مقلب زبالة» مهول وكانت مئات الشاحنات تلقى بآلاف الأكياس السوداء من القمامة كى تدفن تلك الترعة بهمجية وغوغائية لاتشبه أى شىء آخر سبق أن رأيته فى حياتى ، أما «التراكتورات» فقد سحقت كل أشجار النخيل ، والصفصاف وبقية النباتات على طرفىْ الترعة وقذفت بكل ذلك مع جبال «الزبالة» إلى عمق الماء .

أصابنى الغضب والذهول وأنا أتنشق تلك الروائح السامة والنتنة من حولى وأرى مشهد جبال القمامة وهى تحتل ترعة تتوسط حيا سكنيا يخلط ما بين البيوت البسيطة والعمارات ، ووجدتنى أرتدى ملابسى وأركض نحو أولئك الذين ينفذون تلك المجزرة مهددة إياهم ببلاغ سوف أقدمه إلى وزيرة البيئة ، استقبلونى بلا مبالاة ، وسخروا من بلاغى الذى أهددهم به ، وأوضحوا أنهم ينفذون أوامر المحافظة لردم الترعة تمهيداً لعمل طريق عام فى تلك المنطقة . لم أكن أعرف قبل ذلك أن ردم الترع وإقامة الطرق العامة يبدأ بمقتل الأشجار ودفن المخلفات والقاذورات لقتل الترعة وصناعة الطريق العام .

لقد بقيت تلك المخلفات وجبال القمامة تتراكم أمام عينى لمدة عام ونصف ، كان أطفال الحى يمشون من حولها أو خلالها ؛ ليذهبوا للحضانات والمدارس ، ثم إن المياه فاضت من تحت تلك القاذورات وتدفقت إلى جراجات العمارات وأحواش البيوت مهددة بتقويض أساسات تلك العمارات ، وحوادث المس الكهربائى ، والأوبئة الصحية المختلفة التى قد تنجم عنها ، وبعد شهر ونصف من الاتصالات الهاتفية مع جهات مختلفة ، ونزح المياه وجلب التراب لردم تلك المستنقعات الصغيرة تم إرسال عمال جدد لإعادة ردم تلك الترعة بالصخور والرمال هذه المرة .

وهذه الحكاية لم تنته بعد !

لماذا أسردها إذن ؟! لأن المشهد نفسه الذى أثار رعبى جعلنى أقرر أن أفعل شيئا لم أنجح فى إقناع الآخرين بعمله مسبقًا ، لقد قررت أن أستعين بديفيد إبرام وتعويذة الحِسِّى لإعادة السلام إلى نفسى ، ولمحاولة إيقاظ حواسنا الجماعية عبر ذلك الكتاب ، فكان أن شرعت فى ترجمته ومعايشته لمدة قاربت الستة شهور ، آملة أن يكون فى نقله إلى اللغة العربية أصداء همسة منسية كنت أطلبها فى علاقتى بالقمر ، والكروان ، والجنادب ، والنخيل ، وتلك الترعة التى لم تَعُدْ .

لقد أثار الكتاب عند صدوره اهتمام الكثير من الكتاب الآخرين ، والحركات المناصرة للدفاع عن البيئة والحياة ، كتب المؤلف توماس بارى صاحب كتاب « حلم الأرض » حوله :

« الريح ، المطر ، الجبال والأنهار ، أراضى الأشجار والغابات وكل سكانها ، إننا نحتاج إلى هؤلاء ربما لسبب نفسى أكثر مما هو ضرورة بقاء جسدى ، ليس هناك من شخص ما أعرف عنه أنه قد استطاع أن يقدم كل ذلك بمثل تلك المهارة الأدبية التى تضاهى ، أيضًا ، الفهم الذى نجده فى هذا العمل لديفيد أبرام . إن هذا الكتاب يتوجب أن يكون أكثر الكتب قراءة وانتشارًا وموضوعًا للنقاش لهذه الأزمنة » أما جارى سنايدر ، مؤلف « جبال وأنهار دونما نهاية » فقد ذكر « إن هذا الكتاب لديفيد أبرام يضىء أرضية اللغة ، واللحم ، والعقل ، والتاريخ ، واضعًا إيانا من جديد على خارطة العالم » .

وبالفعل فإن « تعويذة الحسّى » وديڤيد أبرام يفعل كل ذلك . إنه إنارة للروح ، والجسد ، والحواس فى علاقتنا العضوية بالعالم وتذكير عارم بأننا والعالم واحد ، وكما هو كتاب حول البيئة فإنه حول اللغة والتواصل التشاركى فى عالم يتجاوز البشرى إلى كل ما يحيط بذلك البشرى ويتفاعل معه وينفعل به .

والكتاب بفصوله السبعة لا يقصر ذاته على المتخصصين والأكاديميين فقط ، وإنما هو كتاب مفتوح يحتوى فى خطابه على ما يصل إلى أذهان وقلوب القراء لأنه يناقش مسألة وجود وكينونة لا البشر فقط ولكن الطبيعة التى تدفع الثمن فادحًا لتطور الحضارة البشرية التكنولوجية والصناعية ، والتى بدورها تخضع الإنسان فى كل مكان إلى دفع الثمن الباهظ من إنسانيته ، وسلامه ، وصحته الجسدية والعقلية والروحية .

إن ديڤيد أبرام يعود فى تفسيره لما حدث إلى عدد من الخبرات التى تشتمل الشخصى والوجدانى ، والثقافات الشفاهية الحية بالإضافة إلى الخبرة التاريخية وتاريخ اللغة والكتابة الأبجدية ، ولقد وضّح منطلقاته فى المقدمة التى كتبها حول الكتاب ، كما أنه ناقش أطروحات عدد من علماء اللغة والفلاسفة حول تاريخ العلاقة ما بين البشر والطبيعة وبداية ذلك الانفصال الذى يعزوه إلى الثقافة الأبجدية ، خصوصًا بعد انتقالها من منطقة الشرق إلى الغرب مُمَثلاً ذلك فى التعامل مع الأبجدية السامية فى الأصل ومقارنا ذلك بما آلت إليه تلك العلاقة مع الطبيعة عندما اقتبست الثقافة اليونانية تلك الأبجدية ، ناقلة إياها من إطار حسى حميم إلى إطار ذهنى تجريدى صار هو القاعدة فى التعامل مع الطبيعة ، والإنسان فى الحضارة الغربية الحديثة التى يدفع العالم بمجمله من حياته ثمنا لمنطلقاتها التجريدية والمنفصلة باغتراب عميق عما يحيط بها من طبيعة ولغة منسية مع تلك الطبيعة .

وفى الجهد المبذول لرصد ماضى اللغة والكتابة الأبجدية فإن الكاتب ديڤيد أبرام يربط حصريًا ما بين اللغة السامية واللغة العبرية على أنها واحدة ، ويعزو الخلل الذى حدث فى علاقة اللغة بالطبيعة إلى الحركات الصوتية التى لم تكن مكتوبة فى اللغة العبرية القديمة ، والتى تمثلت كإضافة صنعتها الأبجدية اليونانية وبذلك قامت بتجديد المعنى ضمن أفق واضح ومحدد ، فيما اللغة العبرية والأبجدية القديمة كانت تكتسب

حيويتها من تعدد مستويات التأويل فى القراءة لتلك الأبجدية التى كانت خالية من التشكيل والحركات الصوتية فى نصها القديم . ونظراً لعدم إشارة المؤلف إلى اللغات السامية الأخرى فى كتابه فلابد من إضافة أن اللغة العربية تتشارك فى كثير من الصفات التى تحدّث عنها الكاتب فيما يخص اللغة العبرية ؛ فالألفاظ المتقاربة لفظاً ومعنى هى تنويعات للفظ واحد فى اللغة العربية كما أنها مؤلفة أصلاً من أصول قليلة أحادية المقطع معظمها مأخوذ من محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التى ينطق بها الإنسان غريزياً .

والطائفة السامية من اللغات - كما يذكر جرجى زيدان - هى نسبة إلى سام بن نوح وإشارة إلى كون القسم الأعظم من المتكلمين بها هم من نسله ، وتتضمن ما يسمى أحياناً باللغات الشرقية . وهى بوجود اللغة العربية بينها تُعَد من أرقى اللغات بياناً وأوسعها نطاقاً وتعبيراً ، وتمتاز بكونها الحافظة لأقدم التواريخ أى التوراة المكتوبة بالعبرانية ، ومن المعلوم أن التمدن نشأ أولاً ما بين المتكلمين بها كالبابليين والآشوريين والفينيقيين غيرهم . وهى تنقسم إلى ثلاثة أقسام هى :

١ - الآرامية : وفرعيها السريانية والكلدانية ، فالآرامية لغة بابل القديمة وآثارها مكتوبة نقشا على بقايا بابل وآشور بالحروف الأسفينية ، والأنبارية ، والكلدانية ، وقد كتبت بها بعض أسفار العهد القديم كسفر دانيال وغيره ، كما أن السريانية هى اللغة التى حفظت الكتاب المُقدَّس .

٢ - العبرانية : وقد امتازت هذه بحفظها للتاريخ القديم ومحور جميع ما أُلِّف فى هذه اللغة إنما هو العهد القديم ، والعبرانية هى فرع من الكنعانية ، والكنعانيون كانوا قد تحركوا من الجزيرة العربية نحو الشام وسواحل البحر الأبيض المتوسط ، وقد اخترع الكنعانيون الخط الأبجدى وعنهم انتشر فى العالم ، ومن أقدم النصوص نصوص رأس شمرا التى كان يطلق عليها « أوغريت » . وفى هذه الحقيقة التاريخية اختلاف واضح عن الأساس النظرى التاريخى الذى طرحه ديفيد أبرام فى رؤيته للعبرانيين على أنهم أول من اخترع اللغة الأبجدية (الألف - باء) المكتوبة .

و العبرية أهم فروع اللغة الكنعانية - كما قد ذكر جرجى زيدان - وهى لغة القبائل التى انفصلت عن سائر الكنعانية وتجولت فى صحارى الشام والعراق واستقرت آخر الأمر فى فلسطين ، وأصبحت اللغة العبرية منتشرة فى فلسطين منذ

القرن الحادى عشر ق . م . تقريبًا ، ولايُعرَفُ من آثار العبرية القديمة إلا ما جاء فى العهد القديم ، وما وصل إلينا من النقوش العبرية القديمة فى فلسطين .

ومع مجيء العصر الإسلامى دخل التجديد إلى اللغة العبرية فى نحوها وأدبها ، ذلك أن العبريين قلدوا المسلمين وتبينوا أن العبرية أخت للعربية ، واجتهدوا فى أن يطبقوا قواعد اللغة العربية على العبرية وأسسوا بذلك النحو العبرى فى القرن الرابع الهجرى حين كان النحو العربى قد اكتمل فى ظل ازدهار الحضارة العربية وتمتع اليهود بالأمان والاستقرار داخل مجتمعاتها .

٣ - العربية : تعتبر أسمى اللغات السامية ومعرفتها ضرورية لإتقان أخواتها ، وهى إحدى اللغات السامية الجنوبية التى تتفرع منها لغات أخرى ، أما أصل كلمة « عرب » فهناك أقوال حول ذلك منها أنها « عبر » بعد القلب ، وقال آخرون بل هى مأخوذة من « عَرُب » أى فصُح اعتمادًا على أن العربية من أفصح اللغات ، كما قيل إنها مأخوذة من لفظة « يَعرُب » التى هى اسم أول من نطق العربية على ما يزعمون . واللغات السامية الجنوبية التى تنتمى إليها العربية تنقسم بدورها إلى شمالية وجنوبية ، والشمالية هى الصفوية والثمودية واللحيانية والعربية الفصحى . والجنوبية هى لغات نقوش بلاد اليمن وهى المعينية والسبئية والحضرمية والقتبانية والأوسانية ، ثم لغات الحبشة : الجعز والأمهرية والتيجرى والتجرينا والهررية والجراجوى .

وقد رصد ديڤيد أبرام مراحل تطور الكتابة حتى وصلت إلى شكلها الأبجدى والذى رده إلى الابتكار العبرانى على أنه الموازى للسامى ، وإذا كان من المتفق عليه أن اختراع الكتابة لم يأت دفعة واحدة بل إنه مر فى خطوات من التصوير إما بالرسم أو النقش ، ثم الدور الصورى الذاتى ، ثم الدور الصورى الرمزى ، تلته صورة الشيء للدلالة على أول مقطع من اسمه أو الدور المقطعى وصولاً إلى اختراع الحركات أو الدور الهجائى .

وتطرح المراجع أن العلماء ذهبوا فى نشأة الأبجدية مذاهب شتى ، فالبعض رأى أن نشأتها هو من أصل مصرى قديم ، وتفاوتت الآراء حول إمكانية نشأتها من الخط الكريتى ، إما عن طريق الفلسطينيين الذين حملوها إلى الساميين ، وإما عن الخط

الكريتى بتوسط من الخط المصرى القديم ، كما رأى البعض نشأتها من الخط الحثى القائم على الصور ، ورأى البعض الآخر نشأتها عن أبجدية جبيل الشبيهة بالهيروغليفية والتى تأثرت بدورها بالمصرية القديمة .

آراء أخرى رأت إمكانية نشأتها من الخط القبرصى المقطعى ، أو من الخط الأسفينى وخصوصًا بعد أن كشفت سنة ١٩٢٩ فى رأس شمرا عن خط أبجدى أسفينى ، حيث تعرف اللغة التى كُتبت بهذا الخط الآن باللغة الأوغرتية ، والرأى الأخير يرى أنها نشأت من الفينيقية القديمة ، أما زمن النشأة فيحدد بعد القرن الرابع عشر قبل الميلاد وقبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد .

إن جوانب عديدة خاصة بأصول اختراع الأبجدية والتفريق ما بين الأبجدية السامية والأبجدية اليونانية تمثل قاعدة أساسية يبنى عليها المؤلف ديڤيد أبرام عددًا من فرضياته المتعلقة بعلاقة الإنسان بالطبيعة وتدهور تلك العلاقة فى اللحظة الراهنة ، غير أن تحديده للغة العبرية دون أى من اللغات السامية الأخرى على أنها الأصل فى ابتكار الأبجدية يطرح تحيزًا واضحًا لابد من توضيحه والبحث فيه من أجل المصداقية العلمية فى هذا الجانب .

غير أنه أيًا كانت الاختلافات فى وجهة النظر هذه من منظور علم اللغة ؛ فإن ذلك لا يقلل إطلاقًا من مساحة الاتفاق مع منطلقات ديڤيد أبرام والتى ربطها باللغات الحية للمجتمعات الشفاهية ، أوما قد تبقى منها فى عالمنا اليوم ، وارتباطها الوثيق بالعالم الطبيعى من حولها والذى يتضمن تفاهمًا ، وتناغمًا ، وكذلك تواصلاً مبنيا على الاحترام والإجلال للكائنات الطبيعية الأخرى من حيوانات ، ونباتات ، أو ظواهر طبيعية مرئية وغير مرئية .

إن ذلك الإجلال والانتماء للطبيعة هو من أصول التراث العربى والشرقى القديم فها هو آدم فى «رسالة الغفران» يقول :

« نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليها نعود » ، فيما كانت الحضارة الفرعونية القديمة ترى «بتاح» العظيم هو قلب الآلهة ولسانهم ، وترى كما قد ورد فى نصوصها القديمة « حدث أن القلب واللسان تغلبا على كل عضو فى الجسم وعلما

الإنسان أن « بتاح » كان فى كل صدر على هيئة القلب ، وعلى هيئة اللسان فى كل فم ، سواء فى ذلك جميع الآلهة وجميع الناس وجميع الماشية وجميع الزواحف وسائر الأحياء ، وفى الوقت نفسه يفكر بتاح فيما يشاء ويأمر بكل ما يريد » ، كما قد ورد فى «فجر الضمير» لجيمس هنرى برستيد .

لقد قدست الحضارات القديمة سائر أشكال الحياة وأسبغت عليها روحانية خاصة تستدعى التعامل مع الطبيعة بإجلال واحترام ، وإن دراسة الميثولوچيا والأساطير القديمة تمتلئ بكل ذلك ، وما يحاول ديڤيد أبرام عمله فى هذا الكتاب هو إيقاظ تلك الحواس والعلاقة المنسية لا كشكل انتكاسى من أشكال أطوار الحضارة وإنما فى عملية متكاملة مع ما قد وصل إليه الإنسان من تقدم وتطور لا يمكن المحافظة عليه إلا بأنسنته ، ولايمكن لتلك الأنسنة أن تأخذ حضورها الحقيقى إلا عبر التواصل الحميم مع الجذور الطبيعية لأصل هذا الكائن وحضارته التى أخذت أول أصواتها من الطبيعة .

« تعويذة الحِسِّى » تدور حول ذلك السحر المرتبط باللغة ، اللغة التى هى ملك كل الكائنات والكينونات ، وما لغة البشر إلا واحدة من تلك اللغات ، إن كل شىء يستطيع أن يتكلم ونحتاج إلى أن نستمع إليه ، وكل شىء أيضًا يستطيع أن يصغى ويمكننا أن نتكلم معه ، لقد عرف سليمان لغات الكائنات ، وصورها ابن المقفع وهى تتحدث فى « كليلة ودمنة » ، وتمثلها الجاحظ فى « الحيوان » . وفى رواية ابن طفيل الفلسفية « حى بن يقظان » يحكى فيقول :

« فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان وتدرج فى المشى وأثغَر ، فمازال الطفل مع الظباء على تلك الحال ، يحكى نغمتها بصوته ، حتى لا يكاد يفرق بينهما ، وكذلك كان يحكى جميع ما يسمع من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده . وأكثر ما كان محاكاته لأصوات الظباء فى الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع ، إذ للحيوانات فى هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة » وقد استطاع حى بن يقظان دون عون من الكلام المنطوق ودون معلِّم أن يعلِّم نفسه بنفسه ، ويكتسب تدريجيًا معرفة الأمور الطبيعية والأمور الإلهية .

إن إخوان الصفا من المعتزلة والصوفيين قد عاشوا وكتبوا حالة الإنسان على أنه الكون الأصغر ، هذا الكون الذى يطابق الكون الأكبر بكل ما فيه ، ولعلها هذه الحالة الصوفية - الحسية هى ما يقصد إليه ديڤيد أبرام فى التواصل الذى يطرق أبوابه ليحييه لدى الإنسان الحديث كى يستعيد علاقته العضوية والمنسية مع أصل الكون ، وبالتالى مع ذاته التى صارت موضع تشيىء تمامًا كما هو وضع الكون والطبيعة فى مواجهة الإيمان المطلق بعالم بشرى مغلق الحدود حتى فى وجه إخوانهم من البشر .

ولأن اللغة هى مفتاح هذا العمل فإننى سوف أعطف نحو تجربة الترجمة لهذا العمل . كنت قد ذكرت سابقًا أن الكتاب قد أثار ولعى ومحبتى ، ومن روح المحبة تلك كان التماس مع كلمات ديڤيد أبرام . كنت أترجم ما أقرأه سطرًا سطرًا بضوء القلب ، لم ألتزم فى الترجمة بالمصطلحات الجاهزة فى علم اللغة ، أو البيئة ، أو الفلسفة ، أو الأنثروبولوجيا ، كنتُ أقاربُ المعنى كما أفهمه وأُحسُّه وفى بعض الأحيان عندما تستعصى المفردة المقابلة للكلمة الإنجليزية كنت أقدم الموازين لها بشرح من الكلمات ، كان أقرب المقاطع إلىّ تلك التى يتدفق فيها ديڤيد أبرام فى تأملاته الشخصية فى بعض الفصول مما أشعرنى بأننى كنت أترجم نصوصًا أدبية وفنية بحتة ، غير أنه كما قد فعل ذلك فى شكل نسيج حساس ، فعل الشىء نفسه فى توصيفه الفكرى والنظرى فى الفصول والمقاطع التى تحمل تلك السِمَة .

ولأن ديڤيد أبرام كان يتحدث عن اللغة فإنه قد طرح نماذج من لغات كثيرة بعضها لغات منطوقة حية ولكنها غير مكتوبة ، وقد حرصت فى هذه الأجزاء على أن أضع المقطع الحرفى الإنجليزى ، والموازى الصوتى باللغة العربية ، وكذلك المعنى فى السياق نفسه ، وقد تعددت تلك اللغات ما بين لغات الإسكيمو ، والهنود الحمر ، وجنوب شرق آسيا وغيرها ، بالإضافة إلى العبرية واليونانية بالطبع .

أخيرًا أقدم هذا الكتاب بلغته العربية إلى القارئ العربى الذى آمل أن يشفع لى الهنات والأخطاء والقصور الذى ربما انتاب بعض جوانب هذه الترجمة ، وعذرى أن حبى واقتناعى بمضمون الكتاب قد طغى على كل شىء آخر ، وأتمنى أن يصل إلى روح وحواس القارئ الكريم كما قد وصلنى .

ظبية خميس

٢٠٠١/٨/٢٧ القاهرة



تمهيد وتقديم

البشَر مُعَدُّونَ للعلاقة ، العينان ، البَشرَة ، اللسان ، الأذنان ، فتحتا الأنف - كلها بوابات تتلقى أجسادنا عبرها غذاء الآخر والمختلف . إن أرضية أصوات الظلال والأشباح - هذه الأشكال التى تتنفس هى عائلتنا ، الكائنات التى تُشاغلنا والتى نتصارع معها نتعذب بها ونحتفل . فى الجزء الأكبر من وجود نوعنا البشرى حاور البشر فى علاقاتهم كل نواحى المحيط الحسِّى ، متبادلين الإمكانيات مع كل الأشكال ، وكل أنسجة السطح والكينونات التى تثير القشعريرة التى يحدث أن نركز اهتمامنا عليها . كل شىء يستطيع التحدث ، معبراً عن نفسه فى حركة ، تصفير ، همسة مغيراً خارطة من المعانى نُحِسُها على جلودنا أو نتنفسها من خلال أنوفنا أو نصغى إليها عبر آذاننا ، والتى نجيب عليها إما عبر الأصوات ، أو الحركات ، أو التغيير الطفيف فيما بين الأمزجة التى نشعرُ بها . إن لون السماء ، هدير الموج وكل جانب من الوجود الأرضى الحِسى يستطيع جذبنا إلى علاقة يغذيها الفضول ، ويتبلّها الخطر ، إن كل صوت كان يتكلم ، كل خدش أو برق كان لقاء مع الرعد ، مع شجرة صفصاف ، مع تنين طائر ، وعبر كل هذه العلاقات تغذت صحوتنا الجماعية .

اليوم نحن نتحاور ونشارك بشكل استثنائى تقريبا مع البشر الآخرين ومع التكنولوجيا والآلات التى صنعها البشر فقط . إنها وضعية مُقلقة وغير مطمْئنة ، عندما نأخذ بالاعتبار تاريخنا العريق فى التواصل والتلقى للأصوات الكثيرة لأرض الطبيعة ، ونحن لانزال بحاجة إلى ذلك الذى هو ليس بنحن ولا من اختراعنا ، إن الفرضية البسيطة لهذا الكتاب هى أننا كائنات إنسانية فقط عبر التواصل ، والإصغاء لما هو غير بشرى .

هل تعنى هذه الفرضية أن علينا التخلى عن كل التكنولوجيا المعقدة التى ابتدعناها ؟ كلا إنها لا تعنى ذلك ، لكنها تعنى أن نسعى لتجديد معرفتنا بالعالم

الحسى حيث تجذّرت منه كل تقنياتنا وأدواتنا التكنولوجية . وبدون أوكسجين أنفاس الغابات ، وبدون قبضة الجاذبية الأرضية وسحر جريان الأنْهُر ، لن يكون لدينا مسافة من التكنولوجيا التى ابتدعناها ، ولاكيفية لتقييم محدوديتها ، ولا طريقة لمنع أنفسنا من التحول إلى آلات . إننا بحاجة إلى أن نعرف الملمس ، والإيقاعات ، والذائقة للعالم الأرضى ، وأن نستطيع التمييز بسهولة ما بين هذه الذائقة وذلك الذى اخترعناه . إن الحقيقة الحسية المباشرة فيما هو أكثر مما هو بشرى غامضة ، وتبقى الحجر الوحيد الصلب لعالم من الخبرة المعرفية مستبدلاً فى اللحظة الراهنة بمتع مستمدة من الذبذبات الإلكترونية واللذة المهندسة تقنيا : إنه عبر التلامس المستمر مع الأرض الهشة والسماء ، فقط سوف نستطيع أن نتعلم كيف نتكيف ونُبحر فى الأبعاد المتعددة التى تستولى علينا ، الآن .

هذا الكتاب تمت كتابته من أجل هدفين فى المخيلة ، لقد أَملْت أولاً فى تقديم منظومة قوية من الأدوات المفاهيمية من أجل زملائى فى العالم الفسيح للنشاط البيئى ، ومن أجل المدافعين عن البيئة ، والمنادين بالحياة الطبيعية ، ومنظمى المجتمعات ، وعلماء المواد العضوية ، وكتاب الطبيعة ، وعلماء البايولوجيا الخاصة بالمحافظة على الحياة ، وعلماء النفس ، وكل أولئك الآخرين الذين يناضلون بالفعل لخلق منطق ما ، ولرفع مستوى وعينا المعاصر ؛ كى نتخلص من اغترابنا المعاش مع الطبيعة وحميمية العلاقة مع الأرض ، ومع ذلك فإننى قد تمنيت أيضًا أن أستثير بعضًا من التفكير الجديد داخل المجالات المؤسساتية للأكاديميين والدارسين والمعلمين - والذين كثيراً منهم يبدون صامتين بشكل مريب كرد فعل على التحلل السريع للطبيعة ، والانقراض المتنامى للمخلوقات الأخرى ، والعلاقات البشرية التى أخذت فى الاضمحلال على المستوى الإنسانى .

وفى ضوء هذين الهدفين التوأمين حاولت جاهداً أن أحرص على مستوى عال للرؤية النظرية والأكاديمية بدون أن أضع أقنعة على العواطف ، والحيرة والمتعة التى تنبع من انشغالى بالأرض الحية .

إن القارئ سيكتشف ، على سبيل المثال ، أن هناك مقدمتين فى هذا الكتاب ، فهنالك أولاً « مدخل شخصى » ، والذى يفصِّل بعضًا من المغامرات غير العادية والتى

قادتنى فى البداية نحو طرح الأسئلة المختلفة التى واجهتها فى هذا العمل ، إن هذا الفصل يركز على تجاربى وتأملاتى حينما كنت أعيش متدربًا وساحرًا بين سحرة أصليين فى الأرياف الآسيوية ، أما المدخل الثانى فيحتوى « مدخل تقنى » وطارحًا المنهج النظرى الذى استحضرته لمواجهة الأسئلة المطروحة ، وبشكل أكثر خصوصية فإن هذا الفصل يناقش التطور فى القرن العشرين لتقاليد « علم الظواهرتية » – وهى دراسة التجربة المباشرة – وفى الأصل كان مقصودًا دراسة التجربة المفاهيمية وبشكل غير متوقع بدأت تكشف بشكل واضح المركزية الخفية للأرض فى كل التجارب البشرية ، وبالفعل فإن بحث الظواهرتية بدأ يطرح اقتراحًا بأن العقل البشرى كان معتمدًا بشكل كبير على (ومتأثرًا بعمق) بعلاقتنا المنسية بالأرض والكون الحاضن والعَطوف .

وفيما التجربة السحرية ، والتأمل الفلسفى ، والمعلومات البحثية والعلمية تتواءم بتناسق من خلال هذا الكتاب فإن أولئك القُرّاء الذين لديهم قليل من الصبر على القضايا الفلسفية سيشعرون بالحرية لتجاوز الفصول التقنية فى المقدمة (الفصل الثانى) ملامسين – ربما بشكل مختصر – الموضوع لاستكشاف الأقسام المختلفة التى تحتوى عناوين مثيرة أكثر لفضولهم المعرفى ، أما الآخرون فقد يرغبون فى الرقص عبر أجزاء من الفصل الثالث ، والذى يحوى بالضرورة بعضًا من الأقسام التقنية فيما يخص الطبيعة الجسدانية للغة ، ومع نهاية الفصل الثالث هناك ملخص مختصر لإعداد خشبة المسرح لما يليه . (*)

(*) تم إلغاء ترجمة الجزء الأخير من هذا التمهيد والخاص بشكر المؤلف لعدد كبير من الأشخاص والمؤسسات التى أعانته فى الإعداد لهذا الكتاب . (المترجم)



« مثل ما هى أصوات الجنادب الناعمة
في الخريف لنا
نحن كذلك بالنسبة للأشجار
كما هى للصخور والتلال »
جارى سنايدر



(١)

إيكولوجيا السحر (*)

مدخل شخصى إلى البحث

فى وقت متأخر من المساء خطوت خارج كوخى الصغير فى حقول الأرز فى شرق جزيرة « بالى » ووجدت نفسى أهوى فى الفضاء ، فوق رأسى كانت السماء تضجُّ بالنجوم ، متجمعة ومزدحمة فى بعض المناطق ، سَادّة تقريبًا فجوة الظلام فيما بينها ، وفى مناطق أخرى كانت تتناثر بشكل فسيح وهى تنبض وتهمس لبعضها بعضا ، وخلفهم جميعًا جرى النهر العظيم من الضوء مع روافده المختلفة . غير أن الدرب اللبنى كان يجرى تحتى أيضًا ، ذلك أن كوخى كان يقع فى منتصف تجمع كبير لحقول الأرز ، حيث يفصل ما بين الأكواخ قنوات ضيقة ذات ارتفاع يبلغ قدمين وكانت كلها تمتلئ بالمياه . كان سطح تلك البرك - فى النهار - يعكس زرقة السماء بشكل كامل ، انعكاسا يُكسر فقط بالرؤوس الخضراء اليانعة للأرز الجديد ، غير أنه فى الليل فإن النجوم نفسها تلمع من سطوح بِرَك الأرز ، ويدور نهر النور فى الظلام تحت الأقدام وفوق الرؤوس . كان يبدو أنه لا أرضية هناك أمام قدمى ، ولكن متاهة وفضاء من النجوم تتساقط منذ الأزل .

إننى لم أعد ببساطة تحت سماء الليل ، ولكن فوقها ، أيضًا - كان الانطباع الأول هو فى انعدام الوزن ، ولربما كنت قادرًا على إعادة تكييف ذاتى ، لاكتساب إحساس ما بالجاذبية الأرضية ، لولا الواقع الذى أحاط بكافة حواسى : بين المدارات السفلية والمدارات العلوية كانت تسبح مخلوقات النار التى لا تحصى ، كان نورها يشتعل

(*) إيكولوجيا : أى علم التوازن البيئى فى الطبيعة .

كالنجوم ، بعضها ينجرف بعيداً لينضم إلى سحب النجوم العلوية ، والآخر مثل شهب مباركة تهبط من الأعلى لتنضم إلى المدارات السفلية ، وكل هذه الطرق الضوئية فى الأعلى والأسفل كانت تتراءى كما لو أنها فى مرايا - أيضا - على السطوح الهادئة لمياه الأرز . لقد أحسستُ بنفسى أحياناً أتساقط خلال الفضاء ، وفى لحظاتٍ أخرى أطفو وأنجرف على سطح الماء ، إننى لم أستطع ببساطة أن ألغى سحر العلوى والسفلى . دروب مخلوقات النار وانعكاساتها على سطح الماء سحرتنى فى تحليق طائر ، وحتى عندما زحفت عائداً إلى كوخى وأغلقت الباب على العالم الذى يدور ، أحسست أنه الآن حتى الغرفة الصغيرة التى أستلقى فيها كانت تطفو بحرية على سطح هذا الكون .

مخلوقات النار الطائرة ! لقد كان ذلك فى إندونيسيا ، وكما ترى ، كان ذلك المكان الذى تعرفت فيه للمرة الأولى على عالَم الحشرات ، وهناك أيضاً تعلمت التأثير العظيم لتلك الحشرات - ما أدق وأصغر تلك الكائنات - على الحواس البشرية ، لقد ارتحلت آنذاك إلى إندونيسيا وفق منحة علمية بحثية لدراسة السحر - وبدقة أكثر ، لدراسة العلاقة بين السحر والطب ، أولاً بين السحرة الأصليين التقليديين ، أو « دَكونز» ، بين القبائل الإندونيسية ، ثم بعد ذلك بين « الدزانكريس » السحرة الشافيِّين فى النيبال ، أحد جوانب تلك المنحة العلمية كان خاصاً نوعاً ما : كان علىّ أن أرتحل إلى الريف الآسيوى دون أن أتخفى فى دور عالم الأنثربولوجى أو الباحث العلمى ولكن كساحر ممارس حقيقى على مسؤوليتى ، على أمل أن أكتسب منافذ مباشرة أكثر إلى السحرة المحليين ، لقد كنت ساحراً محترفاً متخصصاً فى خفة اليد منذ خمسة أعوام مضت فى الولايات المتحدة الأمريكية ، مستعينا بذلك لأعين نفسى على الأقساط والتكاليف الدراسية الجامعية التى كنت أقوم بها فى الكلية عبر الأداء الترفيهى للسحر فى النوادى والمطاعم هناك فى نيو إنجلند ، وكذلك قمت بأخذ إجازة لمدة عام أيضاً من دراستى ؛ كى أجوب كساحر متجول فى شوارع أوروبا ، ومع نهاية رحلتى تلك قضيت بعض الشهور فى لندن- بريطانيا-باحثاً فى فائدة سحر خفة اليد فى العلاج النفسى كطريقة للتواصل مع الأفراد المأزومين نفسياً ، والذين لا يتعامل مع أحوالهم العلاج الإكلينيكى المعتاد ، وقد قادنى نجاح ذلك العمل إلى تصور أن السحر الشافى

اليدين يمكن له أن يقود إلى فنونٍ علاجية شافية متعددة ، وهكذا أصبحتُ لأول مرة مهتمًا بالعلاقة بذلك العالم الذى صار منسيًا فى الغرب ما بين الطب الشعبى والسحر.

كان هذا الاهتمام هو ما قادنى إلى المنحة العلمية ، وإلى ارتحالى كساحر فى الريف الآسيوى ، وهناك أثبتت مهاراتى اليدوية السحرية قيمتها العالية فى إثارة الفضول لدى السحرة « الشامان » المحليين ، فبالنسبة للسحرة - سواء كانوا مُرَفهين عصريين فى المدن ، أو سحرة أصليين ، أو سحرة قبائل - فإن العنصر المشترك بينهم هو حقيقة أنهم يعملون مع النسيج الغامض للتلقى ، وعندما لاحظ السحرة المحليون أنه كان عندى - على الأقل - القدرة على التلاعب بمجالات مشتركة فى السحر والتلقى دُعيت إلى بيوتهم ، وطلب منى أن أشاركهم الأسرار ، ومع الوقت تم تشجيعى بل والطلب منى أن أشارك فى الطقوس المختلفة لاحتفالاتهم .

غير أن مجال التركيز فى بحثى تحول تدريجيًا من التساؤلات الخاصة بتطبيقات التقنيات السحرية فى الطب وطقوس الاستشفاء إلى أسئلة مُلحَّة أكثر عمقًا حول العلاقة بين السحر التقليدى والعالم الغامض للطبيعة ، لقد بدأ هذا الاهتمام الأوسع وكأنه يمتلك المفاتيح للأسئلة الأولى ، لأنه لم يكن أيًا من السحرة العديدين فى جزيرة بالى ، أو أيًا من « الدزانكريز » الذين عشت معهم فى « النيبال » ، من أعتبر عمله كمعالج فى طقوس سحرية هو دوره الأول والأساسى فى مجتمعه ، كان معظمهم بالتأكيد مداوين أو أطباء فى القرى المحيطة بهم ، وكان الجميع يتحدث عنهم بتلك الصيغة فى تلك القرى ، غير أن القرويين كانوا أحيانًا يتحدثون عنهم فى أصواتٍ خفيضة وحوارات خفية وخاصة كسحرة (أو « ليجاك » فى بالى) يمارسون السحر الأسود ويكونون فى الليل ربما يمارسون تعاويذهم السحرية لجلب الداء بدلاً من الدواء (أو ينقلبون إلى اليسار بدلاً من اليمين) حتى يؤذون الناس بالأمراض والعلل نفسها التى يعملون على مداواتهم منها فى النهار ، مثل تلك الشكوك بدت مألوفة فى إندونيسيا ، وكانت دائما تحوم حول المعالجين الأكثر قدرة ونجاحًا ، والأكثر شهرة فى تخليص الناس من أمراضهم ، لأنه كان مفترضًا أن الساحر حتى يستطيع أن يطرد الشر لابد له من وجود قدرة تفاهم قوية وتأثيرات على الشياطين ومعها ، حتى إنه فى بعض المناطق كانت تعتبر ممسوسة بتلك القوة ، وبالنسبة لى - عن نفسى - فأنا لم أر

بشكل واع أيًا من أولئك السحرة أو « الشامان » الذين تعاملت معهم يتورط فى ممارسات سحرية لدواعى الأذى والشر ، ولا أية بينة مقنعة بأنهم قد فعلوا ذلك بالفعل (البعض القليل من السحرة الذين عرفتهم كان يقبل النقود كأجرٍ لخدماتهم ، بالرغم من أنهم لم يقبلوا أبدًا الهدايا فى شكل طعام، أو أصخيات ، أو أغطية وما شابه ذلك) غير أننى بالرغم من ذلك صُدمت بحقيقة أن أيًا منهم لم يقل أو يفعل شيئًا لمواجهة تلك الشائعات المزعجة والتكهنات ، والتى كانت تدور بهدوء فى كافة المناطق التى يعيشون فيها ، وببطء بدأت أعى أنه من خلال تلك الشائعات والمخاوف الغامضة التى تثيرها فى أهل القرى كان السحرة يستطيعون الاحتفاظ بمستوى ما من الخصوصية ، فإذا لم تُروَّج مثل تلك المخاوف بين القرويين حول السحرة المحليين فإنهم سوف يتوافدون لكل علة صغيرة إلى أولئك السحرة ويزعجونهم ، وبما أنه على الساحر المتمكن تقديم خدمات لعدد كبير من القرى حوله ، فإنه قد يغرق من الصباح وحتى الليل بطلبات لطقوس تُعينهم ، وعبر السماح بالشكوك والمخاوف المختلفة بأن تدور بين سكان المناطق (وأحيانًا عبر تشجيع تلك الشائعات وتبهيرها) يضمن الساحر أنه سيأتى إليه فقط أولئك المتضررون الحقيقيون الذين لاملاذ لهم غير مهاراته وقدراته التى يتجرءون على الاقتراب منها واستحثاثها .

الخصوصية بدورها منحت الحرية للساحر للتفرغ لما كان يعتبره مهنته الأساسية وفنه ، أحد مفاتيح ذلك العمل يمكن أن يوجَد فى الظروف التى يصعب على الساحر أن يعثر عليها فى قلب قريته ، فمعظم تجواله واحتياجاته موجودة بالشكل الاعتيادى فى الهوامش الفارغة من فضاء مجتمعه أو ، بشكل أكثر ، خارجًا هناك أبعد فى حواف القرية - فى منتصف حقول الأرز ، أو فى أعماق الغابة ، أو فى تجمعات التلال والكثبان ، وأستطيع ببساطة أن أعزو ذلك إلى الاحتياج الحق للخصوصية والعزلة ، غير أنه بالنسبة للساحر فى ثقافة تقليدية كان ذلك يبدو من أجل هدف آخر ، أيضًا ، للحصول على فضاء معبر عن وضعه أو وضعها الرمزى فيما يتعلق بالمجتمع ، ذلك أن ذكاء وحساسية ومعرفة الساحر غير محدودة داخل المجتمع ، إن مكانها حافة المجتمع متوسطًا بين المجتمع البشرى والمجتمع الأكبر لكائناتٍ تعتمد عليها القرية من أجل غذائها وبقائها ، وهذا المجتمع الأكبر يضم - بالإضافة إلى البشر - الكينونات

المتعددة غير البشرية والتى تشكل الأرضية المحلية من النباتات المتنوعة والحيوانات - الطيور ، والثدييات والأسماك ، والزواحف ، والحشرات - التى تستوطن أو تهاجر فى المكان ، بالإضافة إلى رياحٍ مُعينة وأشكال للطقس توضح الجغرافية المحلية ، كما هو أيضًا حال الأراضى المختلفة - الغابات ، والأنهار ، والكهوف ، والجبال - وهذه كلها تمنح شخصيتها الخاصة للأراضى المحيطة .

والساحر أو الشافى المدعو « بالشامان » التقليدى أو القبلى ، والذى سنح لى أن أرقبه يتصرف كوسيط ما بين المجتمع البشرى والحقل الإيكولوجى الأوسع فى البيئة الطبيعية ، ساعيًا نحو تدفق صحيح وطبيعى للتغذية ، ليس من الأراضى لمستوطنيها من البشر ، ولكن من المجتمع البشرى إلى الأرضى والمحيط المحلى أيضًا ، وعبر طقوسه الدؤوبة ، وتجلياته الغيبية ، ونشواته ، و« ارتحالاته الروحية » يقوم على المحافظة على العلاقة بين المجتمع البشرى والمجتمع الأكبر للكائنات ، والتأكد من توازن تلك العلاقة وتبادليتها ، وأن القرية لاتأخذ أبدًا من الأرض الحية أكثر مما تعطيها - ليس فقط على المستوى المادى ولكن بالصلوات أيضًا ، والتقدير ، والنسب المتعادلة من الأخذ والعطاء . إن كمية الحصاد ، أو حجم القص دائما ما تكون موضوع مفاوضات بين المجتمع القبلى والعالم الطبيعى الذى يحيون فيه ، وإلى حَدٍ بعيد كل شخص بالغ فى المجتمع ينشغل فى عملية الإصغاء والإنصات إلى الحضور الآخر الذى يحيط بالحياة اليومية ويؤثر عليها ، غير أن « الشامان » أو الساحر هو المسافر الاستثنائى فى العالم الوسيط ما بين البشر والعوالم الأكثر من بشرية ، والمخطِّط الاستراتيجى الرئيسى والمفاوض فى أية صفقات مع الآخرين .

وإنه نتيجة للجهود المستمرة فقط مع القوى الخفية التى توجد فيما وراء المجتمع البشرى تتمكن الساحرة التقليدية من رفع معاناة الكثير من الأفراد مع المرض والعلل المختلفة التى تظهر داخل ذلك المجتمع ، تستمد الساحرة قدرتها على علاج العلل من جهودها المبذولة ومرانها على « المداواة » أو إعادة توازن العلاقة بين المجتمع والأرض المحيطة به . الأمراض - فى ثقافات كهذه - عادة ما يتم استيعابها ذهنيًا كنوع من فقدان توازن منتظم داخل الشخص العليل ، أو بشكل أكثر خصوصية كاختراق لحضور شيطانى أو إبليسى شرير لجسد المريض ، وهنالك فى بعض الأوقات تأثيرات

شريرة داخل القرية أو القبيلة نفسها تنغص حالة الصحة والهناء لبعض الأفراد داخل المجتمع ، وبالرغم من ذلك فإن مثل هذه القوى والتأثيرات المدمرة داخل المجتمع البشرى يمكن ردها – تقليديا – إلى حالة عدم توائم ما بين المجتمع والحقل الأوسع للقوى التى تهيمن عليه . إن أولئك الأشخاص فقط ، والذين عبر نشاطهم اليومى منشغلون بقياس والمحافظة على الجهود ؛ لتوازن العلاقات ما بين القرية البشرية والمحيط الأرضى الغامض – هم القادرون بشكل صميم على تشخيص ومعالجة وبالتالى الإعانة على العلل الشخصية والأمراض الناجمة من داخل القرية ، وإن أى معالج لم يكن حاضراً بشكل متقصٍّ للعلاقة المتشابكة ما بين المجتمع البشرى والحقل الأوسع والأكبر من البشر سوف يتمكن ربما من فك تعويذة مرض ما لشخص ليجد المشكلة نفسها تنجم (ربما فى قناع جديد) فى مكان آخر فى المجتمع ، وهكذا فإن وظائف الساحر التقليدى أو الطبيب الشعبى الأساسية كوسيط ما بين البشرى وغير البشرى من عوالم هى الأساسية فيما دوره كمعالج دور ثانوى ، وبدون وعى مَرِن ومستمر للعلاقة النسبية أو عدم التوازن ما بين المجموعة البشرية ومحيطها غير البشرى مع القدرات اللازمة لتنمية هذه العلاقة الأساسية فإن أى « مداوٍ » فاقد لقيمته وبالفعل لن يكون معالجًا أبدًا . إن الالتزام الأساسى – إذن – للطبيب الشعبى ليس تجاه المجتمع البشرى بقدر ما هو للشبكة الأرضية من العلاقات التى تحيط بذلك المجتمع – ومنها تنبع قدراته أو قدراتها للتخفيف من المعاناة البشرية – وهذا يضع الساحر المحلى فى مكان مختلف عن غيره من الأشخاص .

إن خاصية الساحر هى من طبيعة غير بشرية – فى المركزية الخاصة بعلاقته مع الكائنات الأخرى والأرض – ليست دائمًا واضحة لدى الباحثين الغربيين ، عدد كبير من الأنثروبولوجيين تجاهلوا النظر إلى البعد الإيكولوجى البيئى لفن ومهنة « الشامان » فيما كانوا يكتبون بإسهابٍ عن طرق تعامل « الشامان » مع القوى المافوق طبيعية وكائناتها ، وتستطيع أن تعزو هذا التجاهل إلى الفرضيات المعاصرة للحضارة الحديثة ، التى ترى أن العالم الطبيعى هو مُسَيْطَر عليه بشكل كبير وتمت « مكنَنَتُه » ووضعه تحت هيمنة الآلات البشرية ، وأن ذلك الذى يُعتبرُ غامضًا ، ونفاذا ، وخارج

النفـــوذ البـشرى لا بد له أن يكون وجوداً غير فـيزيائى أو تجسـيدى لعـالم يتعـدى الطبيعة ، « فوق طبيعى » .

ويمكن استيعاب المشهد أكثر عندما نلاحظ أن عددا كبيرا من المفسرين الأوروبيين لطرق الحـيـاة لدى السكان الأصليين فى مناطق مـختلفـة من العـالم كـانوا عـبارة عن مـبشرين مسـيـحيين وبعثات دينية ، ذلك أن الكنيسـة قد افترضت منذ زمن طويل أن البشر وحدهم هـم من يمتلكون الأرواح الذكية ، وأن بقية الحيوانات - مع تجاهل كامل للأشجار والأنهار - قد « خُلقوا » لا لسبب آخر غير خدمة البشرية ، نستطيع أن نفهم بيسر لـماذا افترضت البعثات التبشيرية الأوروبية القائمة على مؤسسات مسيحية دوغمائية اعتـقـادا فى قوى ما فوق الطبيعة كقوى عوالم أُخرى ما بين أفراد القبائل ، والتى رأوها مأخوذة ومحلقة تحت سيطرة قوى غير بشرية (ولكنها طبيعية مع ذلك) ، لم نَعُدْ نصف روح « الشـامـان » الملغزة والمحيِّرة - كـمسـاعـد شـرير لقـوى الوثنيـة البـدائيـة - لقـد نظفنا أنفسنا على الأقل من مـثل تلك المركزية الحـضـارية ، ومع ذلك مـازلنا نذكر تلك القوى الملغزة بشكل محترم الآن « كقوى فوق طبيعية » - ذلك أننا عاجزون عن طرح فـهم مقنع للحضـارة العلمية عن طبيعة ذات وجود يمكن شرحه أو التنبؤ بمسيرته ، وغير مناسب لمثل تلك الغوامض ، وبالرغم من ذلك فإن ذلك الذى يُقدر بعظمة وإعـجاب من قبل الحضـارات والثقافات الأصلية البدائية والشفـهيـة هو كما أقترح ليس شيئا آخر غير الطبيعة نفسها . إن القوى الغامضة بعمق كياناتها التى يلج إليـهـا « الشـامـان » فى مـهنتـه هى القوى نفسـهـا - النباتات نفسـهـا ، والحـيوانات ، والغـابات ، والريـــاح - التـــى هـــى بالنســبـة للأوروبيـــين المتـعلمين « والمتـحضـرين » مـجرد مشـاهد جـميلة للرؤية ، الخلفية ، المتعة لاهتمامنا الأكثر أولوية من مشاغلنا البشرية .

إن أرقى تعريف « للسـحر » يدور الآن فى ثقافات أمريكا المتفتحة هو : « قدرة القوة فى تبديل وعى الشـخص عبر الإرادة » ، ولا يرد أى ذكر لأى سبب لتبديل ذلك الوعى ، ومع ذلك فإنه فى الثقافات القبلية فإن ذلك الذى ندعوه « سحر » يستمد معناه من واقع أن البشر - فى مضـمون بدائى وشفهى - يختبرون وعيهم ببساطة كشكل من أشكال الوعى بين كينونات أخرى كثيرة ، إن الساحر التقليدى يرعى القدرة فى التحكم

في توجيه حالة وعيه أو وعيها المعتادة تماماً من أجل أن يتواصل مع الأشكال العضوية الأخرى للحساسية والوعى الذى يشتبك معها الوجود البشرى ، وعبر طرح الظلال مؤقتا على المنطق المقبول العادى للاستيعاب يستطيع الساحر أن يأمل فى الولوج إلى علاقة مع الكائنات الأخرى ووفق شروطها ، عبر استبدال التنظيم العادى لحواسه يمكن له أن يدخل إلى محاورة مع القدرات المتعددة وغير البشرية والتى تسكن الأرض المحلية ، إن ذلك - يمكن أن نقول - هو ما يحدد الشامان : القدرة على الخروج الجاهز من حدود الاستيعاب التى ترسم خارطة ثقافته المحلية - حدود تم تثبيتها عبر التقاليد الاجتماعية ، والمخاوف والتابو ، والأهم من ذلك اللغة المشتركة - حتى يتم التمكن من عمل الاتصال ، والتعلم من القوى الأخرى فى الأرض . إن سحره هو بالتحديد تلك القدرة العالية على التلقى للتعبيرات ذات المعنى - أغان ، وبكاء ، ووقفات - للحقل الأعظم والذى يتعدى الوجود البشرى .

إن السحر - إذن - فى أكثر المفاهيم بدائية - ربما - هو خبرة الوجود فى عالمٍ مكون من ذكاء ذى أبعاد متعددة ، والحدس بأن كل شكل يتلقاه الشخص - من السحب المنتفخة فوق الرأس إلى الذبابة على حواف العشب ، وإلى العشبة نفسها - هو شكل من الخبرة والإحساس ، وكينونة تمتلك قدراتها وحواسها ، حواس خافتة ومختلفة جدا عن حواسنا .

للتأكد ، فإن دور « الشامان » الإيكولوجى كوسيط ما بين المجتمع البشرى والأرضى ليس واضحًا دائمًا من النظرة الأولى حتى للمراقب الحساس والمتبصر ، نحن نرى الساحر يُدعى لعلاج مريض فى القبيلة يعانى من الأرق ، أو ربما ببساطة للعثور على بعض الأشياء المفقودة ، ونشهده يدخل فى حالة التجلى واللاوعى مرسلاً بوعيه إلى أبعادٍ أُخرى باحثا عن رؤية تعينه ، ومع ذلك لا يجب علينا أن نسارع لتفسير تلك الأبعاد « كقوى ما فوق الطبيعة » ، ولا أن ننظر إليها كعوالم « داخلية » تماما للسايكولوجية الشخصية للممارس ، لأنه من الممكن أن تكون « العوالم الداخلية » فى ثقافتنا النفسية الغربية تشبه الجنة السماوية فى المعتقد المسيحى ، متأصلة فى فقد جذورنا الأصلية مع عالم الأرض ، عندما تكون القوى الخفية التى تحيط بنا يتم النظر إليها على أنها أقل أهمية منا ، وعندما يتم تعريف الأرض الحية

كشىء مادى خال من حواسه ومشاعره فإن الإحساس بتعددية أخرى وحشية (بالمقارنة بالوجود الإنسانى الذى اعتاد مثل هذه الرؤية) عليه أن يهاجر ، إما إلى الجنة الأبعد من العالم الطبيعى ، أو إلى الجمجمة البشرية نفسها - الملجأ الوحيد المتاح فى هذا العالم لما هو غامض وغير مفهوم .

ولكن فى الثقافات الأصلية والشفاهية فإن العالم الحسى نفسه يبقى مكان التجوال للآلهة ، والقوى المتعددة التى تستطيع المحافظة أو تدمير الحياة البشرية . ليس عبر إرساله لوعيه خارجًا هناك فيما وراء عالم الطبيعة يتمكن « الشامان » من التواصل مع معالجة أمور الحياة والصحة ، ولا بالارتحال فى عوالمه النفسية الداخلية ، ولكن بتوسيع مدى وعيه بالخارج هناك فى أعماق الأرض بشكل حسى ونفسى ، الحلم الحى الذى نتشاركه مع الصقر المحلق ، والعنكبوت ، والحجر الصامت الذى يتكلم عبر تشققات سطحه الخشن .

إن العلاقة الحميمة ما بين الساحر والطبيعة غير البشرية تبدو أكثر وضوحًا عندما نميل إلى وعى خلفية مهنته - ليس فقط تجاه مهامه الواضحة فى العلاج وإقامة الطقوس التى يدعوه إليها الأشخاص الذين يلجأون إليه ، أو تجاه الاحتفالات الأكبر التى يترأسها ويرقص فيها ، ولكن تجاه المحتوى للصلوات التى يُحَضِّرُها لمثل تلك الاحتفالات ، وتجاه حركات الطقوس التى لاتحصى التى يقوم بها لوحده ، والاستعدادات اليومية ، والتقدير الذى ينبع منه للأرض وأصواتها الكثيرة .

كل هذا الاهتمام بالطبيعة غير البشرية كان - كما قد ذكرت - بعيداً جداً عن هدفي الرئيسي عندما شرعت في بحثي حول استخدامات السحر والطب في إندونيسيا ، وقد حدث ذلك بالتدريج عندما أخذ وعيي في إدراك هذا البعد الخفي لفن السحر الشعبي . كان أول تحول لمفاهيمي السابقة هادئًا ، عندما كنت أمكث لبعض الوقت في منزل شاب من جزيرة « بالي » ، أو ممارس للسحر في دواخل ريف بالي ، كان قد أمدني بسرير بسيط في مبنى منفصل مكون من حجرة واحدة في المجمع العائلي « البالي » (معظم المجمعات السكنية في « بالي » مكونة من مبانٍ صغيرة منفصلة للنوم وللطهو ، مقامة في بقعة من الأرض المحددة) وفجر كل صباح كانت الزوجة « البالية » تأتيني بإناء صغير ولذيذ من الفواكه ، والتي كنت آكلها لوحدي على الأرض بالخارج ، متكئا على الجدار الخاص بكوخي ومراقبًا بزوغ الشمس وسقوط أشعتها على سعف نخيل جوز الهند المتمايل ، وقد لاحظت أنها عندما كانت تحضر إليَّ الفاكهة كانت مضيفتي توازن أيضًا صينية تحتوي على عدد كبير من الصحون الخضراء الصغيرة : في الواقع كانت الصحون على شكل قوارب صغيرة ، كل منها قد تم نسجه بأناقة وبساطة من سعف جوز الهند ، كانت الأطباق بطول اثنين أو ثلاث بوصات ، وفي كل منها كمية من الأرز الأبيض ، بعد أن تسلمني فطوري تختفي المرأة والصينية عن مرآي خلف الأكواخ الأخرى ، وعندما تعود بعد دقائق قليلة لأخذ طبقي الفارغ تكون الصينية التي تحملها فارغة أيضًا .

وفي المرة التالية التي رأيت فيها صفوف أطباق الأرز الصغيرة ، سألت مضيفتي عن ماهيتها ، وبصبر وتأن شرحت لي أنها تقدمة لأرواح المسكن ، وحينما سألتها حول المصطلح « البالي » الذي استخدمتْهُ « أرواح » ، كررت الشرح نفسه ، الآن في إندونيسيا هذه كانت هدايا لأرواح مسكن التجمع العائلي ، وحاولت أن أفهمها بشكل صحيح ، أسلمت إلى طاسة تحتوي على فاكهة « الپاپايا » والمانجو المقطعة ، واختفت خلف زاوية الكوخ ، ترددتُ لمدة دقيقة ، ثم وضعت الطاسة على الأرض ، مشيت إلى جانب كوخي ، وتلصصتُ عليها عبر الأشجار ، في البداية لم أستطع أن أراها لكنني سريعًا ما قبضتْ عيناي عليها وهي «مُقرفصة» بجانب أحد زوايا كوخ آخر ، واضعة باهتمام ما افترضتُ أنه أحد أطباق التقدمة على الأرض في تلك البُقعة ، ثم وقفتْ وهي تحمل الصينية ، وسارت إلى الزاوية الأخرى الواضحة للكوخ نفسه ، وهناك وببطء

واهتمـام وضـعت صـحنًا آخـر من التـقـدمـة على الأرض ، عُدتُ إلى طاسـة الفـواكـه ، والتـهمت فطورى . فى تلك الظـهـيـرة وعنـدمـا كان أهل المنزل منشـغلين ، سـرت خلف الكوخ الذى رأيتها تضع خلفه التقدمات ، كانت الأطباق الصغيرة الخضراء لاتزالُ هناك موضـوعة بأناقة فى الزوايا الخلفية للكوخ ، غير أن كميات الأرز الأبيض التى كانت فيها قد اختفت .

فى الصـبـاح التـالى أكملت أكل شـرائح الفـاكـهـة ، وانتظرت مضـيـفتى كى تعود بالصينية لاستعادة طاستى الفارغة ، ثم تسللت بهدوء نحو خلفية المبنى ، كان هناك تقدمتان على أوراق جوز الهند موضـوعتان فى البقعة نفسها حيث كانت تقدمات اليوم السـابق ، هاتان كانتا ممتلئـتـان بالأرز ، ولكننى حينمـا حدقتُ فى إحداهمـا لاحظت مباشرة ، بدهشة ، أن أحد كرات الأرز كانت تتحركُ بالفعل .

وحينمـا ركعت على الأرض فقـط لأرى عن كـثبٍ ذلـك الذى يحدث لاحظتُ صفًا من النمل الأسود الصـغير يزحف عبر الطين إلى التقدمة ، وبالنظر عن قربٍ أكثر رأيتُ أن نملتين قد صـعدتا إلى التقدمة وكانتا تكافحان مع كرات الأرز، وفيما كنت أراقب ذلك كانت أحداهما تسحب كرة الأرز خارج ورقة جوز الهند ، وجرتها إلى صف النمل الذى كان يتقدم نحو التقدمة ، أما النملة الأخرى فقد أخذت كرة الأرز الثانية وصعدت إليها ساحبة ودافعة إياها ، وسقطت على حافة ورقة جوز الهند ، ثم تسلقت نملة ثالثة تلك التقـدمة ، بزغ صف النمل من أعلى ذلك المرتفع من الطين ، حوالى خـمسـة عشر قـدمًـا من المبنى ، كـانت هنـاك تقدمـة على الأرض فى أحد زوايا المبنى أيضًـا ، وكـان هناك صف مشابه تقريبا من النمل ، مشيتُ إلى حجرتى وأنا أحدث نـفـسـى . كـان الشـاب « البالى » وزوجته قد قاما بجهدٍ كبير لغمر أرواح البيت بتلك العطايا ، فقط لتتم سرقة عطاياهم عبر مخلوقات صغيرةٍ ذات ستة أقدام .

أى هـدر هـو ذلـك ! غـيـر أن فـكـرة غريبـة طرأت لى : مـاذا لو كان ذلك النمل هو بالتحديد « أراوح البيت » والتى من أجلها تم تقديم تلك العطايا ؟

وسـريعًا مـا بدأت أحلل ذلك المنطق ، إن مجمع العائلة مثل كثير غيره فى هذه الجزيرة الاستوائية كان قد تم إنشاؤه فى محيط من مستعمرات عديدة للنمل ، وبما أنه قـد تم عمل عـمليـات طهو كـثيـرة فى المكان (والذى كـان يضـم مع الشـاب « البـالى »

وامرأته وأطفاله ، عدداً كبيراً من أفراد العائلة الممتدة) وتحضيرات كثيرة للتقدمات الكريمة من الأغذية من أجل الطقوس والاحتفالات المختلفة فى القرى المجاورة ، فإن الأرضية والمبانى فى التجمع السكنى معرضة لأن تكون محفلاً ضخما للعدد الكبير من النمل ، مثل تلك الغزوات كان يمكن أن تتنوع ما بين هجوم نادر أو حصار دائم ، وبدا واضحًا أن التقدمات اليومية على أطباق أوراق جوز الهند كانت تخدم غرض الحماية من تلك الهجمات للقوى الطبيعية التى تحيط (وفى باطن) أرض العائلة . إن عطايا - هدايا - الأرز اليومية شغلت مستعمرات النمل ويفترض أنها أرضتها ، موضوعة فى أماكن معتادة ومألوفة فى زوايا المبانى المختلفة ، بدت التقدمات فى تأسيس حدود معينة ما بين البشر وتجمعات النمل ، وعبر تكريم تلك الحدود بالهدايا كان البشر يأملون بشكل واضح إقناع الحشرات باحترام الحدود وعدم الدخول إلى المبانى .

ومع ذلك فإننى بقيتُ متحيراً من تأكيدات مضيفتى أن تلك كانت هدايا « من أجل الأرواح » ، وللمزيد من التأكد وكان هناك دائمًا تشوش ما بين مفهومنا الغربى « للروح » (والتى طالما تم تعريفها كمضاد للمادة أو « الجسد ») وذلك الحضور الغامض الذى يتقدم له أهل الحضارات الأصلية والبدائية بالاحترام الجم . كنتُ قد أشرت من قبل إلى سوء الفهم الفادح الذى نجم عن ظروف أن عدداً كبيراً من الباحثين الغربيين لتلك العادات الأخرى كانوا من البعثات التبشيرية المسيحية ، والذين كانوا جاهزين لرؤية الأشباح والكائنات الشيطانية حيث كان أهل القبائل يقدمون ببساطة مظاهر الاحترام للرياح المحلية ، وفيما أصبحت فكرة « الروح » - لنا نحن فى الغرب - موضوعة مرتبطة بالوجود الإنسانى فإن لقائى مع النمل كان تجربة أولى من تجارب كثيرة طرحت على أن « الأرواح » بالنسبة للثقافات الأصلية هى أساساً تلك الأمزجة من الذكاء أو الوعى التى لا تتخذُ أشكالاً بشرية .

وكبشر نحن جميعا على معرفة باحتياجات وقدرات الجسد البشرى - نحن نحيا أجسادنا وهكذا نعرف من الداخل إمكانيات أشكالنا ، نحن لايمكن أن نعرف بالقدر نفسه من الألفة والحميمية التجربةَ الحية لثعبان العشب أو السلحفاة ، ولايمكننا أن نخبر مباشرة الحواس الدقيقة لعصفور يُغنى ويمتص رحيق زهرة أو شجرة مطاط تتشمس تحت نور النهار ، ومع ذلك فإننا نعرف ماهية الإحساس بالشرب من حوض

ماء أو أن نتمدد تحت أشعة الشمس . إن تجربتنا بالفعل قد تتراوح ما بين الأمزجة المختلفة من الحساسية ، غير أنه بالرغم من ذلك نحن لا نستطيع كبشر أن نجرب بدقة الحواس الحية لأشكال أخرى من الكائنات ، نحن لا نعرف بوضوحٍ كامل رغباتها أو دوافعها ، أو لا يمكننا التأكد أبداً بأننا نعرف ذلك الذى يعرفونه ، ذلك الذى تحس به حواس الغزال ، وأنها تحمل معرفة فى كيفية التجوال والتعامل مع الأرض ، ومن أين تحصل على الغذاء وكيف تحمى صغارها ، وأنها تعرف جيداً كيف تحمى وجودها فى الغابة بدون الأدوات التى نعتمد نحن عليها ، هذه كلها شواهد لوعينا البشرى . إن لشجرة المانجو القدرة على خلق الفاكهة ، أو نبتة « اليارو » على تخفيف حمى الأطفال هو من الشواهد أيضا ، بالنسبة للبشرية فإن هؤلاء الآخرين هم مجموعة من الأسرار والغوامض ، حملة لذكاء ووعى نحن أنفسنا بحاجة إليه فى كثير من الأحيان : إنهم هم أولئك الآخرون الذين يمكنهم أن يُعْلِمونا بالتحولات غير الفصلية فى الطقس ، أو يحذرونا من وقوع زلازل غير متوقعة ، والذين يرينوننا المكان الذى نعثر فيه على التوت الناضج أو الطريق الأفضل للعودة إلى المنزل .

وعبر رصدنا لهم وهم يبنون أعشاشهم أو محمياتهم نكتسب مفاتيح فى كيفية تقوية أهدافنا ، وموتهم يعلمنا معنى موتنا ، إننا نتلقى منهم هدايا غير محدودة من الغذاء ، والحماية ، والملبس ، ومع ذلك فإنهم يبقون « آخرون » بالنسبة إلينا ، يستوطنون ثقافاتهم ويعرضون طقوسهم ، وغير معنىّ بهم أبداً .

الأكثر من ذلك ، إنها ليست الكينونات المعترف بها فى الحضارة الغربية بأنها « حية » ، ليس فقط الحيوانات الأخرى والنباتات التى تتكلم كأرواح لحواس ومنطق الثقافة الشفاهية ، ولكن النهر أيضا الذى ترتوى منه تلك الأحياء ، وأمطار « المنسون » الاستوائية ، والحجر الذى يقبع فى باطن الكهف بأناقة ، الجبل أيضًا له أفكاره ، عصافير الغابات التى تزقزق وتتحادث عندما تنزلق الشمس خلف الأفق هى أعضاء صوتية لمطر الغابة نفسه .

إن جزيرة « بالى» – بالطبع – يصعب أن ندعوها بالحضارة «الأبورجينية» البدائية ، إن مدى رُقى وتركيب هندسة معابدها ، ودقة نظام الرى فيها ، وفنون النحت

والاحتفالات والفن اليدوى توحى وتتحدث عن تأثير الحضارات المختلفة فيها ، وخصوصًا الكتلة الهندوسية من الهند .

فى « بالى » – على كُلٍ – هذه التأثيرات تتواءم بشكل دقيق مع العبادات الوثنية الأصلية للإندونيسيين ، إن الآلهة الهندوسية قد تمت مباركتها حسب رؤيتهم بأرواح البراكين فى الأراضى المحلية .

ومع ذلك فإن الثقافات الوثنية فى إندونيسيا – ومثلها مثل عدد من جزر المحيط الهادى – تتسم كما فى المعتقدات التى يرجع إليها علماء الإثنولوجى – « بعبادة الأسلاف » ، وقد يناقش البعض أن مرجعية الطقس إلى ذكر الأسلاف البشريين من الموتى (وافتراض تأثيرهم فى الحياة الحالية) يمكنه أن يدحض بسهولة تأكيدى على مفهوم « القوى » أو « الأرواح » المتعددة التى تتحرك من خلال الثقافة البدائية أو أن الناس الشفهيين مرتبطون بالتالى بما هو غير بشرى من القوى فى الأراضى المحيطة بهم .

يعتمد ذلك الاعتراض على بعض الفرضيات الضمنية فى الثقافة المسيحية ، مثل الافتراض بأن « الأرواح » الخاصة بالأشخاص الموتى تقتضى الضرورة أن يكون لها أشكال بشرية ، وأنها تسكن فى نطاق خارج العالم المادى والتى يمكن لحواسنا أن تدلف إليها ، غير أن معظم القبائل البدائية الأصلية لاتملك مثل هذا المفهوم للوجود غير المادى خارج الطبيعة الأرضية . إن مفاهيمنا المتصلبة حول الجنة والجحيم البشرى قد تم غرسها حديثًا – فقط – عن العالم الحسىِّ الذى يُحيط بنا ، من ذلك الأكثر مما هو بشرى كوجود تتماسك فيه أجنحة الذكاء وحوافر القوى ، لأن معظم الثقافات الشفاهية بالنسبة لها ، فإن الأرض المحتوية والحسية تبقى هى نفسها مكان التجوال للاثنين معًا : الأحياء والأموات . إن « الجسد » – سواء كان بشريا أو غير بشرى – ليس هو بعد مادة ميكانيكية فى مثل هذه الثقافات ، لكنه كينونة سحرية ، الجانب الحسى للعقل ، وفى الموت يتحلل الجسد إلى تراب ، ودود ، وغبار مما يؤشر إلى إعادة التشكيل التدريجى لأسلاف الشخص وشيوخه فى الأرض الحية ، والتى يولد منها الجميع .

إن كل ثقافة أصلية تصعد من هذا المفهوم حسب نوعها ، آخذة بمفاتيح المفهوم من أراضيها الخاصة التى تقع فيها كثقافة ، غالبًا المزاج الخفى الذى يسكن العالم المرئى - الوجود الخافت الذى يدور فى دواخلنا وبين كل الأشياء - يحمل فى داخله روح أو نَفَس الشخص الميت حتى يحين الميقات لذلك النَفَس أن يدخل ويسكن كائنا واضحا - عصفورا ، أو غزالا ، أو حقل قمح برى - بعض الثقافات ربما تحرق الجسد حتى يعود تمامًا كشخص ، كدخان إلى حركة الهواء ، فيما ذلك الذى يسقط من اللهب يتم تقديمه للشمس والنجوم ، وذلك الذى يبقى كرماد يقدم للأرض الكريمة ، كما أن هناك ثقافات يمكن لها أن تبتر الجسد ، تاركة بعض الأجزاء منه فى أماكن محددة يمكن أن يعثر عليها أنواع من الطيور الجارحة ، أو حيث يمكن أن تلتهمها أسود الجبال أو الذئاب ، مسهلة بذلك عودة الخلق لذلك الشخص فى وجود حيوانى محدد فى تلك الأرض . مثل هذه الأمثلة توضح ببساطة أن الموت فى الثقافات القبلية يُنشئ وجودًا خاصًا للشخص لا « يختفى » فيه من العالم المحسوس (فإلى أين سوف يذهب ؟) لكنه يبقى كقوى داخلية فى الأراضى الشاسعة ، سواء بخفوت فى الرياح ، أو بشكل أكثر وضوحًا فى الشكل الحيوانى ، أو حتى فى «اللافا» البركانى . إن « عبادة الأسلاف » فى شكلها المفترض إذن هى بالضرورة مزاج وشكل آخر من الاهتمام والإصغاء للطبيعة غير البشرية ، إنها تُشير إلى لا تقديس وتعظيم للقوى البشرية ، ولكن لكل أشكال الوعى الذى تتخذه عندما لاتكون فى الشكل البشرى ، عندما يموت الجسد البشرى ويتحلل ويتحول إلى عنصر من عناصر الكون الحى .

إن هذه الدورة للبشر بعودتهم إلى العالم الأكبر للوجود تؤكد على أن الأشكال الأخرى من التجارب التى نواجهها - مثل النمل ، أو الأشجار ، أو الغيوم - ليست أبدًا غريبة عنا ، بالرغم من الاختلافات الواضحة فى الشكل ، والقُدرة ، وطريقة الوجود ، فإنها تبقى مألوفة بشكل ما ، وجزءًا من عائلتنا الكونية ، إنها مُركبة تلك العلاقة من القرابة التى تحيط بالمختلف ، والمغاير وترى من خلال إمكانياته المخيفة .

بعد شهور عديدة من وصولى إلى جزيرة « بالى » غادرت القرية التى كنتُ أمكث فيها لزيارة أحد آثار ما قبل الهندوسية فى هذه الجزيرة ، وصلت على دراجتى مبكرًا فى فترة ما بعد الظهيرة ، بعد أن غادرت حافلة السياح من واجهة المحيط ، أخذتنى سلالم طويلة إلى وادٍ أخضر كالزمرد ، محاطًا بمرتفعات صخرية من الجانبين ، مغتسلاً بكلام النهر وتنهد الرياح من خلال الحشائش الطويلة التى لم تُحصَدْ ، على جسر صغير يعبر النهر قابلتُ امرأة عجوزًا ، تحمل سلة كبيرة على رأسها وتمسكُ بيد طفلا صغيرا خجولاً ، ابتسمت المرأة فى وجهى ابتسامة خالية من الأسنان وبلثة حمراء من علك ثمرة « البيتل » ، فى الجانب الآخر البعيد من النهر وقفتُ أمام مبنى ضخم من الممرات مغطى بالطحالب ، ويقود إلى حجرات ، وساحات منحوتة باليد من مادة صخور البركان السوداء .

لاحظت على حافة الوادى المزيد من الكهوف المنحوتة فى باطن الصخور ، وقد بدت هذه الكهوف أكثر عزلة وبعدًا ، ولا آثار لخطوات الأقدام على الطرق المؤدية إليها ، عبرتُ الحشائش للوصول إليها واكتشافها ، وقد أثبت ذلك صعوبة أكبر مما توقعت ، ولكن بعد أن تُهت بين الحشائش الطويلة ، والوقوع فى النهر لأكثر من ثلاث مرات وجدتنى أخيرًا عند قعر مداخل تلك الكهوف ، وكان علىّ أن آخذ فى تسلق قصير للصخور إلى فم أحد تلك الكهوف ، ودخلت إليه وأنا أحبو على يدىّ وركبتىّ ، لقد كانت فتحة واسعة غير أنها كانت منخفضة ، ربما لا تزيد عن أربعة أقدام فى ارتفاعها ، فيما كان باطن الكهف لايزيد عن خمسة أو ستة أقدام داخل المنحدر الصخرى كانت الأرضية والسقف مغطاتين بالطحالب ،راسمة الكهف بأشكال خضراء ومُملسةً خشونة الصخر ، المكان رغم ضآلة حجمه - أو ربما لهذا السبب - كان مُحاطا بجو من المودة العظيمة ، لقد تسلقت إلى كهفين آخرين ، كل منهما بالحجم نفسه ، غير أننى أحسست بأن ثمة ما يشدنى إلى الكهف الأول ، للجلوس مقرفصًا على وسادة الطحلب هناك والتأمل عبر وادى الزمرد أمامى ، كان هادئا وساكنًا فى الداخل ، مثل محراب خاص منحوت فى الصخر ، بدأت فى اكتشاف الداخل ، كنت أُهمهم فى البداية ، ثم بدأت فى إنشاد أغنية بسيطة كان قد علمنى إياها أحد مواطنى « بالى » منذ بضعة أيام ، كنت مسرورًا بالنغمات التى أضافها الكهف إلى صوتى ، وجلست هناك أغنى

لزمنٍ ما ، لم أكن قد لاحظت تغير الرياح فى الخارج ، أو شحوب السحب وهى تعتم الوادى حتى بدأ المطر فى الهطول فجأة بقوة عظيمة . كانت أولى عواصف « المنسون » الذى بدأ موسمه !

كنتُ قد جربت بعض هبات المطر فى الجزيرة من قبل ، وأصابنى الذهول تجاه ذلك الطوفان من المطر الذى يهطل الآن قاذفًا بالأحجار إلى قعر الجرف ، مكومًا إياها وصانعًا بحيرات صغيرة وبرك من الماء فى الأراضى الخضراء ، ونافخًا فيضه فى النهر . لم يكن هناك من بد من العودة إلى المنزل - فأنا لن أستطيع أن أجد طريق العودة عبر الفيضان عند مدخل الوادى .

وهكذا وحامداً الله على الملاذ أعدت قرفصة قدمى انتظاراً لانتهاء العاصفة ، وقبل أن يمر الوقت كانت الشلالات التى تتساقط من على الجرف قد تجمعت على شكل ينابيع ، وشلالين صغيرين عند فوهة الكهف ، وسريعًا ما كنتُ أشهدُ ستائر صلبة من الماء ، رقيقة فى بعض المواضع ، حيث يتبدى مشهد الوادى على شكل ومضات غير ثابتة ، وثقيلة فى معظمها تتراكض المياه فيها نحو بعضها بعضا . كانت كل حواسى تغشاها عذوبة وسحر الجمال الوحشى للحدائق الممطرة وزمجرة المطر ، كان جسدى يرتجف ويرتعش فى الداخل من إحساسه بأنه مختوم عليه فى ذلك الملاذ الذى يقبع فيه .

وفيما بعد ، فى منتصف ذلك الذهول لاحظتُ نشاطًا صغيراً ، هشًا ، ورقيقًا أمامى مباشرة ، وعلى بعد بوصة أو اثنتين من جانبى على جدار الكهف ، كان هناك عنكبوت يصعد على خيط رقيق يمتد على فوهة الكهف ، فيما كنتُ أرقبهُ كان قد نسج خيطًا آخر فى أعلى الفوهة ، ثم زحف عائداً إلى الخيط الأول وشد الاثنين معًا فى نقطة تقع فى المنتصف بين السقف والأرضية ، فقدت رؤية العنكبوت آنذاك ، ولوهلة بدا وكأنه قد اختفى ، الخيط وكل شىء ، حتى أعاد تركيزى اكتشافه . كان خيطان جديدان يلمعان الآن من منتصف الأرضية ، ثم آخران ، وسريعًا ما بدأ العنكبوت فى التأرجح فيما بينها فى حركات دائرية ، شاداً وراءه خيطًا طويلاً جداً يثبته على كل خيط من الخيوط التى نسجها ، كان العنكبوت يبدو غير عابئ بالمرة بسيول المياه التى

كان بعضـهـا يرش رذاذه عليـه ، بالرغم من أنه من حين لآخر كـان ذلك الرذاذ يوقف رقصته إلا أنه كان يعاود التسلق إلى السقف أو النزول إلى الأرضية ؛ لإعادة تثبيت خيوطه هناك ، مثبتًا كل منها ومتأكدًا من قوة بنيان بيته ثم يعود للاختفاء مجَّددًا وراء ذلك النسيج ، وكنت كلما فقدت التركيز الصحيح أنتظر من جديد أن يقبض بصرى على الحركة المغزلية للخيوط ، وعبر رقصه الدؤوب يتبدى لى العنكبوت من جديد رابطًا تـركيزى مع كـل عقـدة جديدة من الحرير الذى يحركة ، وغازلاً نظرى فى التشكيل الذى يزداد عمقًا لبيته .

وفـى تلك اللحظـة لفت انتـباهى البصـرى حركـة غـريبـة : خيط آخـر ممتـد على الشـبكة ، لم يكن يلمع ولايُغزَل من منتصف الشـبكة مـهـدداً الشكل الفنى لـهـا ، فيـمـا تابعته بعينى باحثًا عن الهدف منه فى التشكل النهائى لشكل الشبكة ، بدأت ألاحظ أنه كان على مستوى آخر مختلف عن الشبكة ، لأنها بدأت تنزاح عن مستوى تركيزى كلما ظهر ذلك الخيط أكثر وضوحًا ، وسريعًا ما أبصرت أنه كان يقود إلى مركزه ، حوالى اثنتى عشرة بوصة إلى اليمين من الشبكة الأولى ، مشكلاً قوة أخرى تتدلى منها خيوط عديدة تمتد من السقف حتى الأرضية ، ورأيت آنذاك أنه هناك عنكبوتا مختلفًا يغزلُ هذه الشـبكة ، مـخـتـبراً قوتهـا بالرقص حـولهـا مثل العنكبـوت الأول ، ناشراً صليبـه الحريرى الآن إلى الخارج ، كان العنكبوتان يغزلان شبكاتهما كل منهمـا بمفرده بشكل مستقل ، ولكن بالنسبة إلى عينى كانا ينسجان شكلاً واحداً ، وفيمـا اتسـعت نظرتى تكشف لى وجـود عنكبوت آخـر يغزل شبكتـه على فوهة الكهف ، وفجـأة اكتـشـفت أن هناك الكثير من البيوت المتداخلة التى تولد للتو أمـامـى ، ناشـرة إيقاعات مـختلفة من مراكزها المختلفة - البعض أعلى ، البعض أقل ، والبعض أقرب إلى بصـرى والبعض أكثر بعداً - بين الصخرة العليا والصخرة السفلى .

جلست مذهولاً ومأخوذاً أمام هذه العملية المعقدة والمكتسحة لأشكال حية تقوم على أشكالٍ أخرى ، بدأ تحديقى بذلك مثل نفس غارقٍ فى مجموعة من الخطوط ، ثم تنفست فى الأفق المفتوح ، ثم انتقلت النظرة نفسها إلى أفقٍ أبعد ، لقد أصبحت ستارة المـاء صامتة تماماً - حاولت عند نقطة ما أن أصغى إليها ، لكننى لم أستطع .

كانت حواسى مُخدَّرَة .

كان لدى الانطباع البعيد بأننى كنت أرقبُ الكون وهو يُولَد ، مجرة فوق مجَرة ...

ملأ الليل الكهف بالظلام . المطر لم يتوقف ، وبالرغم من ذلك ، وللغرابة لم أشعر بالبرد ولا بالجوع ، كنت أشعر بالسلام فقط وبأننى فى بيتى ، متمدداً على الطحالب الرطبة على أرضية الكهف فى قعره ، كنت أنام .

عندما استيقظت كانت الشمس تحملق فى الوادى ، والحشائش فى الأسفل تتراقص بألوانٍ مشعة من الأزرق والأخضر ، لم أعثر على أثر لشبكات العناكب ، ولاخيوطها، فكرت فى أنها قد تكون غير مرئية لبصرى بدون وجود ستائر الماء خلفها ، تحسست بحذرٍ بيدى حول وداخل فوهة الكهف ، غير أن الشبكات كانت قد زالت ، نزلتُ إلى النهر واغتسلت ، ثم عبرت الوادى إلى حيث كانت دراجتى تجف تحت الشمس ، وعدت أدراجى إلى الوادى الذى أعيشُ فيه .

لم أستطع منذ ذلك الوقت أن ألتقى مع عنكبوت دون الشعور بالعظمة الغريبة والتعجب ، وبالتأكيد فإن الحشرات والعناكب ليست القوى الوحيدة ، أو الحضور المركزى فى الكون الإندونيسى ، غير أنها كانت مدخلى إلى الأرواح ، إلى السحر الذى يمشى فى الجزيرة ، لقد كان الفضل لها فى أن أبدأ فى العلم حول الذكاء الذى يشع من الطبيعة غير البشرية ، القدرة لشكل غريب فى أن يجد صداه لدىّ ، وإنارة ذلك التأمل الذى يُشظى بعيداً الثوابت المعتادة للرؤية والإحساس ، تاركًا المرء منفتحًا على عالم حى بأكمله ، يقظ ، وواع . لقد تعلمت حواسى من تلك الكائنات الضئيلة الحجم العوالمَ اللامتناهية داخل عوالم أخرى تغزل نفسها فى أعماق هذا العالم الذى نعيش فيه جميعًا ، ومنها تعلمت أيضًا أن جسدى يستطيع بالمران أن يدخل بحواسه فى تلك الأبعاد ، لقد كانت دقة ومهارة وحرفية العنكبوت قادرة على تركيز وعيى الخاص بنسيج شبكة العمل للكون ، والذى لحمى هو جزء منه ، وقد تم نسجه بالقدرة العالية نفسها لذلك الفن ، لقد قمت بالتحدث بالفعل عن النمل ، وكائنات النار والتى علمتنى حواسها وحبها لأضواء الليل وسمائها عن هشاشة الجاذبية الأرضية . إن تلك الدورة من الحذر الطويل الذى ندعوه بالملاريا جاءت إلىّ أيضا عبر الحشرات ، فى هذه الحالة كان البعوض ، وعشت لمدة ثلاثة أسابيع فى رجفة الحمى ، والعرق ، والهلوسات البصرية .

كنتُ من النادر قبل ذلك أن أمنح اهتمامى للعالم الطبيعى ، غير أن فرصة تعرفى

على السحرة التقليديين والرائيين كانت قد بدأت في تحويل مسار حواسي ، لقد أصبحت أكثر قابلية لفهم خصوصية الأشياء غير البشرية ، في مسار الجهد المبذول الذي كنت أصارع معه لفهم مفاتيح عالم السحرة ، وحركاتهم الغريبة ، أو مبهمات مرجعيتهم الدائمة في الحديث عن القوى غير المرئية وغير المسموعة . بدأت أرى وأسمع بطريقة لم أعهدها من قبل ، عندما كان ساحر يتحدث عن قوة أو«حضور » متواجد في أحد زوايا البيت ، تعلمت أن ألاحظ شعاع الشمس الذي كان آنذاك يتدفق من خلال شرخ في السقف ، مضيئا عموداً من الغبار المتحرك ، وألاحظ أن ذلك العمود من النور كان قوياً بالفعل ، مؤثراً في حركة الهواء بدفئه ، ومؤثراً بالفعل في المزاج الكامل للغرفة ، بالرغم من أنني لم ألحظه بوعيي في السابق ، كان قد بدأ في تشكيل تجربتي ، بدأت أذناي في الإصغاء وبطريقة جديدة لأغاني العصافير – لم تعد مجرد خلفية من الزقزقة للحديث البشري ولكن حديثاً ذا فحوى بطريقته وحقوقه الخاصة ، مستجيباً ومُعلقاً على أحداث تحيط بالأرض ، لقد تحولت إلى تلميذٍ للاختلافات الخافتة : الطريقة التي يهز بها النسيم ورقة شجر معينة لشجرة بأكملها ، تاركاً بقية الأوراق في صمت دون حركة (ألم تكن تلك الورقة إذن قد مُسَّت بالسحر ؟) أو الطريقة المكثفة لحرارة الشمس للتعبير عن ذاتها في الإيقاع الدقيق للجنادب ، سائراً في الطرق الطينية الموحلة ، تعلمت أن أبطئ إيقاع خطواتي حتى أشعر بالفرق ما بين خطوة بقرب التل وأخرى ، أو لأتذوق خضرة حقل معين في وقت محدد من النهار ، عندما – كما قد أخبرني « الدوكان » المحليون – يكون للمكان قوة خاصة يمنح عبرها هدايا مميزة ، لقد كانت قوى تتواصل مع حواسي عبر طريقة الظلال التي تتساقط من الأشجار في تلك الساعة ، وعبر الروائح التي تعبق بها أعالي الحشائش في ذلك الوقت فقط دون أن تذروها الرياح بعيداً ، وعناصر أخرى أستطيع أن أعزلها فقط بعد أيام كثيرة من التوقف والإصغاء . وبالتدريج ، آنذاك ، بدأت حيوانات جديدة تدخل إلى مجال وعيي في تجوالي ، وكأن مستوى ونوعية ما من تحركي وإيقاعي أو تنفسي جردهم من خوفهم وتخفيهم ، كنتُ أجدُ نفسي وجهاً لوجه مع قرود ، وسحليات ضخمة لم تكن تفر بعيداً عني عندما أتحدث ، لكنها كانت تقترب نحوي في فضول ما ، في أرياف « جاوا » كنت غالباً ما ألاحظ قروداً تصحبني على الأغصان فوق رأسي وغرباناً تمشي نحوي على الطريق ، وهي تنعق ، فيما في « بانجاندران » محمية طبيعية في

الجزيرة فى الساحل الجنوبى « لجاوا » (« مكان لأرواح كثيرة »)، كما قد قيل لى من قبل الصيادين هناك ، خرجت من كثيب أشجار ووجدت نفسى أنظر فى وجه أحد الجواميس النادرة والجميلة التى انقرضت من العالم وتوجد فى هذه الجزيرة فقط ، تشابكت نظرات عيوننا ، وعندما صاح ؛ صحتُ أنا أيضا ، وعندما حرك كتفيه حركت كتفى ، وعندما هززت رأسى ؛ هز هو رأسه أيضًا مجيبًا إياى . وجدت نفسى متلبسًا فى حوار غير شفهى مع هذا الآخر ، رقصة مشتركة (دويتو) كان لوعيى اليقظ دور صغير فيها ، كان كما لو أن جسدى فى حركته ملهما فجأة بحكمة أقدم عن طريقة تفكيرى ، كما لو أنه كان ممسكًا به ومتحركًا بقوانين أعمق من الكلمات ، يتحدث بها الجسد الآخر ، والأشجار ، والأرض الصخرية التى كنا نقف عليها .

إن عجز الأنثروبولوجيين (أو علماء الإنسان) عن كشف حلف « الشامان » مع الطبيعة غير البشرية قد قاد إلى ظروف غريبة في « العالم المتطور» اليوم ، حيث الكثير من الأشخاص يتسابقون على ورش العمل المعنية بالطرق « الشامانية » لتكشف الذات وتجلياتها ، علماء النفس التحليليون وبعض علماء الفيزياء بدأوا في التخصص في « تقنيات العلاج الشاماني » . « الشامانية » تحولت بذلك إلى أشكال بديلة للعلاج النفسي ، والتركيز عند هؤلاء الممارسين الجُدد للشامانية التجارية المنتشرة في الغرب هو على الرؤية الشخصية وعلاجها ، هذه هي أهداف سامية بالتأكيد غير أنها ثانوية وشكل منتزع من الدور الأساسي « للشامان » الأصلي ، إنه دور لايمكن ملؤه دونما تكشُّف طويل ومُستوعِب للطبيعة الوحشية ، لطرقها ووسائل تعبيرها . إن تقليد طرق العلاج « للشامان » الأصلي دون اكتساب معرفته الحميمة لمجتمع الطبيعة الأكبر لايمكن له – إذا كنتُ محقًا – أن يعمل أي شيء أكثر من التجارة ببعض المظاهر للآخرين ، أو يحول منطق عدم الاستسهال من مكانٍ لآخر في المجتمع البشري ؛ لأن مصدر المعاناة يكمنُ في العلاقة ما بين المجتمع البشري وأرضه الطبيعية .

إن المجتمع الصناعي الغربي – بالطبع – بقدراته الواسعة واقتصاده ذي المركزية الهائلة ، يمكن أن يرى صعوبة علاقته بأي أرض مميزة أو نظام بيئي ، إن إيكولوجيا ما هو أكثر من بشري والذي ينشغل مباشرة بالفضاء الطبيعي نفسه هو المجال الحقيقي ، وللأسف فإن علاقة حضارتنا للفضاء الأرضي لايمكن اعتبارها بأية طريقة كانت حضارة متلقية أو متوازنة مع الطبيعة : مع وجود آلاف الهكتارات من الغابات الطبيعية تتلاشى وتنعدم في كل ساعة ، ومئات من الكائنات المصاحبة لنا تتحول إلى كائنات منقرضة في كل شهر جديد كنتيجة لحضارتنا الحديثة ، فإننا يصعب أن نستغرب من كمية الأمراض الوبائية في حضارتنا : من فقد المناعة المرير والمتزايد إلى أمراض السرطان ، إلى الأمراض النفسية المنتشرة ، الاكتئاب والإحباط ، وتزايد نسبة الانتحار فيما بيننا ، إلى التزايد الفظيع لعدد جرائم القتل المنزلية والعائلية والجرائم الجماعية التي تُرتكب لسبب غير واضح لأشخاص يبدون طبيعيين .

من المنظور الحـي فإن المصـدر الأوضح لـكل تلك المعـاناة سـواء الجسدية أو النفسية يكمن فى العنف *المُصَمَّم* دون حاجة إليه والذى هو فى صميم حضارتنا ضد الإيكولوجـي لهـذا الكـوكب الأرضى ، إننا عبر تخفيف معاناته فقط نستطيع أن نخفف من معاناتنا ونشفى منها ، وفيما قد يبدو هذا مثل جملة بسيطة للإيمان فإنه يصنـع منطقًا حصينًا وواضحًا كلما سـارعنا فى *الاعتراف* باعتمادنا الشديد على كائنات أخرى لاتُحصى كنا قد نشأنا وتطورنـا معها كبشر ومخلوقات ، واقعين فى مصيدة المفاهيم فإن وعينا منوم مغناطيسيًا بضيوفنا مـن التـكـنولـوجـيا التى قد صنعـها الإنسـان والتى تعكس لنا فقط أنفسنا ، إنه من *السهل* علينا جدًا أن ننسى ميراثنا الحى فى العالم الذى هو أكثر من البشرى بحواسه وقدراته وتوازنه معنا ، إن أجسادنا قد شكلت نفسها فى توازن رهيف مع الكائنات والأشياء الأخرى . الملمس ، والأصوات ، وأشكال *الكون الحى* ، إن عيوننا قد تطورت فى تقاطع خافت مع العيون الأخرى ، كما هى آذاننا التى أصغت بتركيبها الخاص إلى عواء الذئاب وصوت الأوز ، أن نُغلق أنفسنا عن هذه الأصوات ،هو أن نتابع بطريقة حيواتنا ، أن نلعن هذه القدرات الحية الأخرى إلى فضاء الغثاء ، هو أن نجرد أنفسنا وحواسنا من كرامتها ، وأن نسرق من عقولنا سلامها ، إننا بشر فقط عبر التواصل ، والعلاقة المتوازنة مع ذلك الذى هو غير بشرى .

بالرغم من أن جزر إندونيسيا موطن أنواع مدهشة وكثيرة من الطيور إلا أننى حينما كنت أدرس ما بين أناس « شيربا » فى أعالى الهملايا كانت تلك هى المرة الأولى التى تم تقديمى فيها فى الحقيقة إلى عالم الطيور والطيران .

إن الهملايا جبال شابة ، ذروتها لم تستدر بعد بفعل عمل الريح والثلج الدائم والدؤوب ، وهكذا فإن البعد الأساسى للأراضى الواضحة عمودى بشكل مذهل ، وحتى فى الحواف العالية من الجبال من النادر أن يحصل المرء على مشهد للأفق البعيد ، وبدلاً من ذلك فإن رؤية المرء ترتفع إلى الأعلى للواجهة المقابلة للجبل المجاور . إن الأرض بكاملها تتجه نحو السماء بطريقة ما تزال مشهودة فى خطوط وتعاريج جدران الجبال ، وهذه التركيبة العتيقة تتواصل جاهزة مع الجسد الحساس .

فى عالم مثل هذا فإن أولئك الذين يجولون ويحلقون فى السماء هم القوى الرئيسية ، إنهم وحدهم يحومون بيسر فى مثل ذلك الفضاء ، ويهبطون برشاقة وحدة ليلامسوا أرض الوادى ، أو يتماوجون فى ذرى الجبال فى موجات واضحة ، إن المجنحين وحدهم يحملون معهم العلم المباشر لما يتبين فى الجانب البعيد لحواف الجبال الأخرى ، وهكذا فإنه عبر مراقبتهم فقط يستطيع المرء أن يعرف عن التحولات الطقسية والمناخية فى المنطقة ، بالإضافة إلى التحولات الخافتة فى حركة كثافة الهواء وموجاته فى الوادى الذى يعيش فيه المرء . إن عدداً من « الشامان » الذين التقيتهم فى « النيبال » كان لديهم طيور لها صفة الأقارب بالنسبة إليهم ، إن الغربان هى الفئة التى تعلق باستمرار على شؤون القرية ، الطيور الأصغر تقوم بأداء حركات رياضية فنية بشكل جماعى فوق أسقف القرية ، تتراقص وتهتز بعاطفة كاملة فى الحركة ، ويبدو كل السرب مثل علَمٍ سحرى يطفو ويتراقص فى موجات الهواء فوق القرية ، ثم يهبط على كثيب لتحمله الريح بعد قليل وهو يتراقص ويملأ الدنيا بأصواته .

لمدة ما كنت أزور « دزانكرى » من ناس « الشيربا » كان منزله الصخرى مبنياً فى أحد منحدرات الجبل الجانبية لمنطقة « خومبو » فى « النيبال » ، فى أحد نزهاتنا على الأقدام بقرب منحدر ضيق يتبع الريح حول الجبل ، أشار الـ « دزانكرى » لى إلى

جرف يمتد من المنحدر ، حيث كان قد « رقص » عليه هناك من قبل محاولاً العثور على علاجات صعبة بشكل خاص ، تذكرت الجرف بعد أيام عديدة تلت ذلك عندما كنت أعبر لأهبط إلى بيت « الدزانكرى » من الحقول الجبلية العليا ، وصعدت إلى الصخرة لا لأرقص بل لأتأمل الأبيض الشاحب والخطوط الحمراء التى منحت الحياة لسطح الصخرة ، ولكى أرتاح عبر الوادى الجاف . كان هناك اثنان من النسور الجارحة يطوفان ما بين الذرى اللامعة بالثلج الذى يغطيها ، لقد كان يومًا يرن بالأزرق الهملايى ، واضحًا مثل الجرس ، بعد دقائق قليلة أخذت عملة فضية من جيبى وبدأت بلا هدف ألعب لعبة سحرية يدوية ، محركًا العملة فوق مفاصل يدى اليُمنى ، كنت معتادًا هذه التمارين المألوفة كشىء موازٍ لصلوات المسابح التى تمر بين أيادى شيوخ « الشيربا » ، وهو طقس مصحوب عادة بدعوات وابتهالات مكررة : يكون التسبيح هكذا « أوم ما فى بأدام هَم « (أو يا أيتها الجوهرة فى *اللوتس*) غير أنه لم يكن هناك من تسابيح تصحب تحريكى للعملة ، بخلاف تنفسى الهادئ وأشعة الشمس «المزغللة» للعيون ، لاحظت أن أحد النسور فى البعيد ابتعد عن صاحبه وكان الآن يحلق فوق الوادى مشرعًا أجنحته ، فيما كنت أراقبه وهو يبدو أضخم وأضخم ، لاحظت ببعض السرور أنه كان يتجه صوب اتجاهى العام ،توقفت عن التلاعب بالعُملة وحملقتُ فيه ، غير أنه فى تلك اللحظة أوقف النسر الجارح تحليقه بلا حراك لدقيقة فوق الذرى ، ثم غيَّر اتجاهه والتف ليعود إلى صاحبه فى البعيد ، وإذ خاب أملى أخذت العُملة وعدت ألعب بها فوق مفاصل يدى من جديد ، كان وجهها الفضى يلتقط أشعة الشمس وهو يلتف ، عاكسا الأشعة إلى السماء ، ومباشرة ، خرج النسر الجارح من مساره وبدأ يحلق عائدًا مرة أخرى . راقبت شكله يزداد ضخامة ، وفيما تبين لى الحجم الضخم للنسر أحسست بجلدى يقشعر ويستعد للحياة ، مثل فصيل من النحل كله فى حركةٍ واحدة ، وصوت يعلو عاليًا فى أذنى ، استمرت العملة فى الدوران على مفاصل يدى وبين أصابعى ، وبدا المخلوق الطائر أضخم ، ويزداد فى ضخامته وهو يدنو منى ، حتى – فجأة – كان هناك ظل أسود مهول يحلق فوق رأسى تمامًا ، أجنحة هائلة من الريش تتحرك وهى تسيطر على حركة الهواء ، تجمدت أصابعى ،

وشلت عن الحراك ، وسقطت العملة من يدى ، وأحسست آنذاك بأننى عارٍ ومجرد من ملبسى عبر تلك النظرة الغريبة والرهيبة التى بدت أكثر خلوداً ودقة عن نظرتى ، لا أعرف كم طال بى الوقت وأنا جامد مكانى وسيطر علىّ كالمنوم مغناطيسيًا . فقط أحسست بالهواء يعبر على رُكَب عارية وسمعت الريح تهمس عبر ريشى بعد أن غادرنى ذلك الزائر بمدة طويلة .

عدتُ إلى أمريكا الشمالية والتى يتعرض نوعها الأصلى الوحيد من النسور الجارحة للانقراض ، فى الأغلب كنتيجة للتسمم بمادة الرصاص فى الجيف التى تستهلكها ، غير أننى لم أفكر بذلك ، كنت متحمسًا لتلك الحواس التى تحركت بداخلى ، وعن الجديد بذلك الذى هو أكثر من بشرى فى العالم ، وبالقدرة الباطنية العظيمة للأرض ، وبالتحديد لذلك الذكاء المميز للحيوانات الأخرى الكبيرة والصغيرة ، والتى حيواتها وثقافاتها لها تفسيراتها الخاصة . لقد أفزعت الجيران بتحدثى مع السناجب الذين كانوا يتسلقون بنعومة جذوع أشجارهم ليرقبونى ويبادلونى الحوار ، أو بالتحديق لساعات طويلة فى طائر اللقلاق وهو يصطاد السمك عند نهر قريب ، أو فى نورس يفتح المحار عبر إسقاطه من العلياء على الصخور بجانب الشاطئ .

ومع ذلك فإنه بالتدريج بدأت أفقد حاستى بوعى الحيوانات ، إن تقنية النورس لفتح المحارة بدأت تبدو لى مثل سلوك آلى فى معظمه ، ولم أستطع أن أشعر بيُسر بذلك الانتباه الذى يجلبونه لكل محارة جديدة ، ربما كانت كل محارة مختلفة تمامًا شبيهة بالأخرى ولم يكن هناك من أهمية تلقائية لذلك الانتباه ....

وجدت نفسى الآن أرقبُ اللقلاق خارج عالمه ، ملاحظا باهتمام خطواته الحذرة ومنقاره الذى يغطس فجأة فى المياه ، غير أننى لم أعُد أشعر بذلك الانتباه الحاد والممتع فى عضلاتى الخاصة ، وللغرابة لم تعد سناجب الضواحى تستجيب لدعواتى لها ، وبالرغم من أننى تمنيت أن يحدث ذلك ، لم أعد أستطيع أن أركز وعيى على التفاعل مع عوالمهم كما كنت أفعل ذلك بسهولة منذ أسابيع مضت ، لأن اهتمامى كان سرعان ما يخفت ويتشتت عبر حوار داخلى ، شفهى من نوع أو آخر ، عبر محادثة بدأت الآن أنشغلُ بها فى داخل نفسى تمامًا . لم يكن للسناجب نصيب من تلك المحادثة .

لقد بدا يزداد وضوحاً – من الكتب والمقولات والحوارات مع أشخاص مختلفين – أن بقية الحيوانات ليست بتلك اليقظة أو الوعى الذى افترضتهُ ، وأنها كانت تفتقد للغة حقيقية وبذلك إمكانية التفكير ، وأنه حتى ما يبدو من استجابات عفوية لها للعالم من حولها كان سلوكًا « مُبرمجًا » ، « مصمما » فى المادة الجينية لها والتى يرسم لها علماء الأحياء الخرائط الآن . وبالفعل وكلما ازداد حديثى حول الحيوانات الأخرى قلت الإمكانية فى تحدثى معهم ، وبالتدريج توصلت إلى أنه لامجال للمقارنة مابين الذكاء البشرى غير المحدود والإمكانيات الضئيلة للكائنات الأخرى ، وأنه ليس هناك من طريقة تواصل نستطيع أن نتواصل نحن من خلالها معهم لنتفاهم كما ينبغى .

وفيما كانت الأرضية الطبيعية الساحرة والمُعبرة تتلاشى أمام اهتماماتى الأخرى البشرية بشكل استثنائى ، مهددة المعرفة القديمة التى توصلت إليها بأن تتحول إلى مجرد وهم أو خيال فانتازى بدأت أشعر – وخصوصاً فى صدرى ومعدتى – وكأنما أنا عُرضة لأن أنقطع عن مصادر حيوية لإنعاشى وتغذيتى . كنت قد أعدت تأقلمى مع ثقافتى الغربية ، وتحولت إلى وضع أكثر تعايشاً مع أساليب الحياة والتعامل والتعايش فيها ، ومع ذلك بدت حواسى الجسدية تفتقد إلى حدتها ، وأقل يقظة تجاه التغييرات الخافتة وتبدل الأشكال . إن صوت الجنادب وحتى زقزقة العصافير السوداء المحلية تلاشت بالفعل من وعيى بعد دقائق قليلة ، وكان عبر الجهد وبذل السعى الخاص فقط كى أخضع وعيى ليعود إلى حقل التلقى والتأمل ، إن طيران عصافير السنونو ومخلوقات النار لم يعد نقطة تركيزى لفترة طويلة ، إذا كانوا بالفعل يسترعون منى أى انتباه ، لم تعد بشرتى تسجل التحولات المختلفة فى النسيم ، والروائح بدأت تتلاشى من العالم بالكلية « تقريبا » وكان أنفى يتيقظ مرة أو مرتين تقريبًا فى اليوم ، ربما أثناء الطبخ ، أو عندما آخذ القمامة إلى الخارج .

فى « النيبال » كان الهواء يبدو عابقا بالروائح – سواء فى المدن ، حيث تختلط رائحة البخور مع ما يفوح من روائح شواء اللحوم والكعك المعسل والفواكه المعروضة فى الأسواق المفتوحة ، وروائح بقايا المواد العضوية واللحوم المتروكة للغربان ، وأحيانًا روائح جثثٍ لموتى يتم حرقها وذرها بقرب النهر ، أو على ذرى الجبال العالية ، حيث

تأخذها الرياح مع روائح الورود البرية التى لا تُحصى ، ورائحة الأرض الجديدة التى تُقلَّب فى القرى لموسم الزراعة الجديد حيث روائح الروث وأشكاله التى يتم تجفيفها على شكل أقراص دائرية فى أفنية المنازل ؛ لاستخدامها عندما تجف كوقود لنار المنازل ، حيث الدخان من تلك البيوت الكثيرة ونيرانها كان يعلق برائحته دائما فى الهواء بالخارج ، والأصوات كذلك أيضًا : الإنشاد الدينى للرهبان مختلطًا بأجراس الصلوات التى كانت تُقرَع فى المرتفعات القريبة والبعيدة ، مصحوبة بنعيق الغربان ، وتنهدات الرياح التى تهب على الممرات ، وخفق أجنحة النسور ، مع خرير الأنهار فى الوادى .

هناك كان الهواء كثيفًا وغنيًا فى ملمس حضوره ، عابقًا باللامرئى الذى يمكن استشفافه والإصغاء إليه ومراقبة تأثيراته على الكائنات . فى الولايات الأمريكية المتحدة ، فى الجانب الآخر ، كان الهواء يبدو شاحبًا وفارغًا من الشخصية والتأثير ، إنه لم يكن هنا أداة تواصل حسية – ذلك الشعور بالامتزاج ما بين أنفاسنا وأنفاس الكائنات الأخرى من الحيوانات والنباتات والتربة – لكنه كان مجرد غياب ، وبالفعل فإنه غالبًا ما يشار إليه فى الحياة اليومية كمجرد فراغ أو مكان فارغ . وهكذا فى أمريكا وجدت نفسى أتجول ملتصقًا بروائح نيران الخشب الموقدة أو حتى المزابل حيث أكوام النفايات – وما أشد ما أثار ذلك أصدقائى ضدى – لمجرد أن أكون قريبًا من روائح كثيفة ومركزة تخدمنى لأتذكر ويتذكر جسدى حواسه الحية فى ذلك العالم الذى كان يغمرنى ، ومع هذه التجربة للكينونة فى عالم من المؤثرات جاءت إلى ذاكرة عامرة لجسدى عن ذلك العام الذى قضيته بين « الشامانيين » وأهل القرى فى الريف الآسيوى .

لقد بدأت فى إيجاد طُرقٍ أُخرى ، أيضًا ، للطرْق على الحواس المختلفة وتصعيدها فى التلقى فى المكان الذى نشأت ألفتى معه فى « العالم غير المتطور » ، عبر الحياة لمدد ٍ طويلة فى محميات الهنود الحمر الأصليين فى الصحراء الجنوبية الغربية على سواحل الشمال الغربى ، أو عبر نصب خيمتى لمدة أسابيع فى غابات و بر أمريكا الشمالية ، فى غضون ذلك الوقت بدأت فى التساؤل حول فرضيات حضارتى وثقافتى

الغربية فيما يتعلق بالمقولات الخاصة بافتقاد الوعى فى الحيوانات الأخرى وفى الأرض نفسها ، والذى كان نتيجة لضآلة المنطق المعنى والأحكام المسبقة أكثر منه عجزًا غريبًا عن تلقى ورؤية كينونة الحيوانات الأخرى - لقد كان عجزًا حقيقيًا عن الإبصار الواضح أو التركيز على أى شىء آخر خارج عالم التكنولوجيا التى صنعها الإنسان ، أو الإصغاء بشكل له معنى إلى أى شىء آخر سوى الكلام البشرى . إن النتيجة المحزنة والمؤسفة لتعاملنا مع بقية الطبيعة كان يتم نقله فى كل صحيفة - من موات الأرض الخصبة بسبب تقنيات الزراعة الصناعية إلى تسمم المياه الجوفية بسبب النفايات الصناعية ، من التدمير السريع للغابات القديمة إلى ما هو أسوأ من كل شىء ، الفناء والانقراض المتنامى لكائنات حية تعيش معنا فى هذا الوجود - وهذه الأحداث المؤلمة والمزعجة والكبيرة - كلها يمكن إرجاعها إلى النشاط المستمر لبنى جنسنا من البشر « المتحضرين » - أوحت بالفعل بإمكانية وجود مشكلة فى التبصر والتلقى والفهم فى حضارتنا العصرية المتقدمة ، بين بشرية « متحضرة » لاتستطيع ببساطة أن تعى الطبيعة المحيطة بها بشكلٍ واضح ، إذا كنا نحاول أن نفهم على الإطلاق .

إن الخبرات التى لفتت انتباه تركيزى فى الريف الإندونيسى وفى « النيبال » قد أرتنى أن الطبيعة غير البشرية يمكن أن تُفهم وتُستوعب وتُخبَر بعاطفة وانفعال أعمق مما نعترف فى الغرب ، ما الذى كان يجعله ممكنًا ارتفاع تلك الحساسية لما هو أكثر من بشرى كواقع ، ربما كان الإصغاء والانتباه العميق للكائنات الأُخرى وللأرض والذى يتضح فى الكثير من الثقافات والحضارات الأُخرى ، وذلك قد بدل درجة وعيى حتى صارت حواسى الآن مختنقة وجائعة إلى درجة الحرمان فى حضارتى الغربية ؟ أو ربما ، بقلب السؤال ، ما الذى جعله ممكنًا ذلك الغياب أو التغييب لهذا النوع من الإصغاء والوعى فى الحضارة الغربية الحديثة ؟ ذلك أن للحضارة الغربية أيضًا أصولها البدائية وثقافاتها الأصلية عبر جذورها القديمة . إذا كان الوعى النسبى والتعايش مع البيئة الطبيعية الواضح فى الثقافات الأصلية مرتبطًا إلى شكل أكثر بالمزاج التعايشى المشارك فى طريقة وعيه بالآخر والطبيعة ، فكيف استطاعت الحضارة الغربية أن تصل إلى أن تكون خاوية إلى هذه الدرجة من الوعى واليقظة الحسية ؟ أى كيف وصلنا إلى هذه الدرجة من الصمم والعمى إلى الوجود الحيوى

للكائنات الأخرى والأرض الحميمة التى نحيا فيها ونستوطنها ، والتى نقوم الآن بشكلٍ مستهتر بجلب الدمار والخراب إليها ؟

إن من المؤكد أن لامبالاتنا وجهلنا التام بالطبيعة غير البشرية اليوم مرتبط فى المكان بطرق الكلام والحديث ، والتى ببساطة ترفض الاعتراف بفضيلة الذكاء لدى الكائنات الأخرى والطبيعة بشكل عام ، بالإضافة إلى أنه عبر التشكل الرئيسى لوجودنا « المتحضر » وعبر دخان السيارات الذى يُخرِسُ أصوات العصافير والرياح ، والإضاءة الكهربائية التى تخسف لا بضوء النجوم فقط بل بالليل نفسه ، وبأجهزة « التكييف الهوائية » التى تخبئ الفصول ، وبالمكاتب ، والسيارات ، والمراكز التجارية التى تلغى فى النهاية أى حاجة للمشى خارجًا تمامًا من العالم البشرى الخالص على الإطلاق ، إننا وبوعى نواجه الطبيعة غير البشرية فقط عبر ختاننا لها بوسائلنا الحضارية وآلاتها التكنولوجية : عبر حيواناتنا المنزلية الأليفة ، أو على شاشة التليفزيون ، أو فى حديقة الحيوانات (أو فى أفضل الأحوال فى « محميات طبيعية » مسيطر عليها بشكل حذر) إن النباتات والحيوانات التى نستهلكها لا نحصل عليها لا بالجمع ولا بالقنص إنها تُربى وتُحصَد فى حقول ضخمة بأدوات وآلات ميكانيكية ، « الطبيعة » كما قد يبدو تحولت ببساطة إلى قطيع من « المصادر » للحضارة البشرية ، وهكذا فإنه من الصعب أن نتفاجأ بأن عيوننا « المتحضرة » وآذاننا تبدو جاهلة تمامًا بوجود أبعاد غير بشرية على الإطلاق ، أو أن شخصًا سواء كان يدخل إلى أو يعود إلى الغرب من ثقافة أو حضارة غير صناعية سوف يشعر بالذهول والصدمة والتشوش والحيرة بكل ذلك المحسوس به من غياب القوى غير البشرية .

ومع ذلك فإن التسليع الحالى « للطبيعة » عبر الحضارة الغربية الحديثة يخبرنا بالقليل أو المعدوم عن نقله التلقى والوعى الذى جعله ممكنًا ذلك التقليص للحيوانات (والأرض) إلى مجرد شيء ، قليلاً عن العملية التى احتقرت فيها حواسنا فى البداية كل ذلك الآخر ، والرؤية والتى لمُدًى طويلة حركت نوازعنا نحو الطقوس الأكثر قداسة : رقصاتنا ، وصلواتنا .

لكن هل يمكن لنا حتى أن نأمل بالقبض على مجرد شذرات من تلك العملية التى منحت بزوغًا للكثير من العادات والتعصب اللغوى ، والذى يشكل الآن طريقة تفكيرنا

بالتحديد ؟ بالتأكيد إذا ما حدقنا نحو ذلك الأصل والذى من وسطه من منتصف تلك الحضارة بالتحديد التى هددها ، ولكن ربما قد نستطيع صنع موقفنا على أطراف تلك الحضارة ، مثل ساحر ، أو مثل شخصٍ كان قد عاش بين قبيلةٍ أُخرى ، ولايستطيع بعد أن يعود كاملاً إلى نفسه أو حضارته ، إنه معلق ، نصفه فى الداخل ونصفه خارج مجتمعه ، ومنفتح أيضًا عندئذٍ على الأصوات المتحركة والأشكال غير المحددة التى تزحف وتحلق أبعد من مرايا الجدران فى المدينة ، وحتى هناك متحركًا بين تلك الجدران ، لعله مازال يتمنى أن يجد المفاتيح المحددة للغموض الذى يكتنف نشأة هذه الجدران ، وكيف أن حدودًا بسيطة قد تحولت إلى حواجز ، فقط لو كانت اللحظة مؤقتة ، فقط لو كان الحيز الذى يُداخله مؤقتًا وعلى حافة الفضاء ، وذلك الأساس الذى يؤطره على وشك التفكك والزوال ، أو التحول إلى شىء آخر .



(٢)

الفلسفة فى الطريق إلى الإيكولوجى

مدخل تقنى إلى البحث

الجزء الأول

إدموند هسيرل وعلم الظواهر

إنه من الطبيعى أن نلتفت إلى تقاليد علم الظواهر لكى نفهم الاختلاف الغريب بين العالم المُجرَّب ، أو العوالم الخاصة بالشعوب الأصلية والثقافات المتنوعة وعالم أوروبا الحديثة وحضارة أمريكا الشمالية ، ذلك أن علم الظواهر هو التقليد الغربى الفلسفى الذى يمتلك الدعوة الأقوى للتساؤل حول الافتراض العصرى المبنى على فرضية مُصممَّة بشكل كلى وعلى فكرة الحقيقة الموضوعية .

إن هذه الفرضية تضرب بجذورها إلى رينيه ديكارت ، وفصله المعروف للتفكير العقلى ، أو الخاص ، من الوجود المادى للأشياء ، أو العالم الموضوعى ، وفى الحقيقة كان جاليلو قد قام بالتأكيد بالفعل بأن تلك الصفات الخاصة بالمادة فقط هى القابلة للقياس المباشر رياضيًا (مثل الحجم ، والشكل ، والوزن) وهى الوحيدة التى تأخذ صفة «الحقيقية» ، أما الأمور الأخرى فهى « خاصة » فى ميزاتها مثل الصوت ، والطعم واللون وهى مجرد انطباعات وهمية ، بما أن « كتاب الطبيعة » مكتوب باللغة الرياضية وحدها .

وبكلماته يقول :

« إن كتاب الكون العظيم هذا .. مكتوب باللغة الرياضية ، وإن صفاته هى من المثلثات ، والدوائر ، والأشكال الهندسية الأخرى والتى بدونها يكون من المستحيل بشريًا فهم كلمة واحدة منها ، من غير ذلك سوف يتوه المرء فى متاهة مظلمة ».

ومع ذلك فإنه بعد نشر كتاب ديكارت فقط « التأملات » فى عام ١٦٤١ ، تحول الكلام الشائع عن الحقيقة المادية كحيز ميكانيكى جامد ، وكتشكيل حتمى لايمكن فك شفرة قوانينه إلا عبر التحليل الرياضى الصرف ، وبالتأكيد على فرضيات الحقيقة المادية للتجربة الخاصة فإن جاليلو قام بتمهيد الأرضية كى يضع ديكارت أسسه لبنائية الموضوعى أو العلوم « غير المعنية » ، والتى عبر بحوثها المحمومة والمسيطرة دعت إلى الكثير من المعرفة وأسست لتقنيات حديثة صارت اليوم هى الشىء المعهود فى الغرب . إن الجداول الكيميائية للعناصر ، والسيارات ، والتلقيحات المضادة لمرضى الجدرى ، والخيالات « المنغلقة » عن الكواكب الأخرى - بدرجة كبيرة أوصلتنا إلى فرضيات نعتمد عليها قد نشأت من التجريبية الجريئة فى العالم عبر العلوم الموضوعية .

وبالرغم من ذلك فإن هذه العلوم تتجاهل باستمرار تجربتنا العادية واليومية مع العالم من حولنا ، إن تجربتنا المباشرة خاصة بالضرورة ومتعلقة بالضرورة بموضعنا أو مكاننا وسط الأشياء ، ومتعلقة برغباتنا المحددة ، وأذواقنا ، واهتماماتنا . إن العالم اليومى والذى نجوع فيه ونمارس الحب يصعب أن يكون هو نفسه « الموضوعى » المحدد حتميًا بعلم الرياضيات « ومادة » العلوم التى تكرس له نفسها ، فبالرغم من كل تلك الحقائق الميكانيكية التى تحيط بنا الآن فإن العالم الذى نجد فيه أنفسنا قبل أن نبدأ بإحصاء وقياس دنياه هو ليس مادة ميكانيكية ولكنه حقل حى ، مفتوح ، وديناميكى حيوى فى أرضيته وعرضه لمزاجياته وروحانياته الخاصة .

إن حياتى وحياة العالَم مشتبكتان بعمق ، عندما أستيقظ فى الصباح لأجد أن مرض أسبوع بكامله قد خفّ ، ولأجد أن طاقتى وصحتى قد عادت إلىّ ، فإن العالم حين أخرج إليه يشرق ويضىء بالطاقة والنشاط والحيوية : إن عصافير السنونو تطير وتحلق بمرح ، أمواج من الحرارة تتصاعدُ من الشوارع المرصوفة حديثًا وهى تعبق

برائحة الإسفلت ، ومخزن الغلال الأحمر القديم عبر الحقل يقف بجمال نحو السماء بزاويته الحادة . وكذلك بالمثل عندما تهبط النظرة إلى الوادى الذى أعيش فيه فإنها تهبط إلى وعيى أيضًا ، داخلة إلى أفكارى ، وداعية عضلاتى إلى النوم ، إن العالم وأنا نعتاش من بعضنا البعض ، إن الأرض الطبيعية كما قد جربتُ مباشرةً من الصعب أن تكون شيئًا حتميًا ، إنه وجود ملتبس يستجيبُ إلى عواطفى ويستدعى إليه عواطفًا منى بالمقابل ، وحتى أكثر العلماء برودًا وانفصالاً عن العواطف يبدأ وينُهى دراسته فى هذا الحقل غير المصمم حتميًا فى التجربة ، حيث التحولات فى الطقس أو المزاج يمكن أن تنبه تجربته أو تفسيره للمعلومات أو « الحقائق » : إن العالِم ، أيضًا ، يتوجب عليه أن يأخذ عطلة فى وقته من قياساته وتحليلاته ليأكل ، أو يستريح ، أو يتحدث مع أصدقائه ، وأن يتفاعل مباشرة مع عالَمٍ مألوف لايمكن قياسه خارجيًا بالحسابات والتعاريف . وبالفعل فإنه من خلال تجربته بدقة فى هذا العالَم الذى يسبق المفاهيم والملتبس ينجذب الفرد فى البداية إلى أن يصبح عالِمًا ، أن يصبح لديه طرق الكلام والرؤية المعترف بها والمكرسة فى المجتمع العلمى ، وأن يتخذ ذلك الموقف الموضوعى أو غير المعنى شخصيًا تجاه بعض الظواهر فى الأحداث الطبيعية ، إن العالِم لايختار عشوائيًا مجالاً محددًا أو تخصصًا ، لكنه ينشدُّ وينجذب إلى حقل معين عبر تجارب وخبرات مركبة وخاصة ، والتى تتجلى وتتضح بعيدًا جدًا عن المختبرات العلمية وأجوائها الجافة ، والأكثر من ذلك فإن العالِمَ لاينجح أبدًا بشكلٍ كامل فى أن يصنع من نفسه مراقبًا محايدًا وخالصًا للعالَم ، ذلك أنه لايستطيع التوقف عن العيش فى العالم كإنسان ، بشر ما بين بقية البشر ، أو مخلوق كائن ما بين الكائنات الأخرى ، وإن مفاهيمه العلمية ونظرياته تستلفُ بالضرورة جوانب من شخصيتها وكثافتها من التجربة الحية ، التلقائية ، وغير المُصمَّمَة نظريًا .

وبالفعل فإن تلك النتائج « الخالية من القيم » فى بحوث حضارتنا فى مجالات علم الأحياء ، والفيزياء ، والكيمياء تصل بالضرورة فى النهاية إلى عرض نفسها فى المجال المفتوح وغير المؤكد للحياة اليومية ، سواء كانت معزَّزَة فى السياسات الاجتماعية التى علينا أن نقبلها ، أو معزَّزة فى التقنيات والتكنولوجيا الجديدة والتى نضطر جميعًا إلى استيعابها واستخدامها ، ومن ثَمَّ فإن العالم الحى - هذا الوجود الملتبس الذى نشعر

به فى الغضب والفرح ، فى الحزن والحب – هو مزيج يشمل كلاً من التربة التى تتجذر فيها كل علومنا وذلك الخصب الغنى الذى تعود فيه نتائج كل تلك العلوم بالضرورة مشحونة بالخاص ، العاطفى ، والمضمون الحَدْسى ، وتبقى الأرضية الحيوية والـُمظلمة لكل موضوعيتنا الـُمدّعاة .

ومع ذلك فإن هذه الأرضية تغيب غالبًا عن الانتباه والاعتراف بها فى الثقافة العلمية فى مجتمع يضع الأولوية لذلك المتوقع وموقع الجدارة على التأكدية ، فإن تلقائيتنا وتجربتنا غير المطروحة كمفاهيم عندما يتم الاعتراف بها ، إذا تم ذلك على وجه الإطلاق فإنه يشار إليها على أنها « مجرد حالة شخصية أو خاصة » كنقيض للحالة العلمية أو الموضوعية ، إذ ذلك الوجود المتدفق للخبرة المباشرة أصبح يُنظرُ إليه كبُعد ثانوى ، وهامشى وفرعى ، ومجرد توابع لأحداثٍ لم تتضح بعد فى العالم « الأكثر حقيقية وعلمية » من العوالم الحسابية والقياسية المدعوة علميًا « بالوقائع » . إنه تفسير غريب للحالة العامة الفعلية والواضحة فى الحياة ، إن حيز الذرات صار أساسيًا أكثر و « حقيقيًا » أكثر من العالم الذى نحيا فيه ونحسه بحواسنا المجردة ، إن الأعضاء الحية ، والحساسة ، والمفكرة يتم الافتراض بأنها تتفرع بطريقة ما من الجسد الميكانيكى والذى يتم قياس ردود فعله « ونظامه » ورسم خرائط لذلك بحيث يتحول الشخص الحى الآن إلى مجرد جثة قابلة للاختزال عبر علوم الذرات والبايولوجى ، بمعنى أنه يأخذ المواد الحية والتى تحس وتشعر بكاملها مع عواطفها وأحاسيسها الجياشة لتكون ضمن حقل علوم الذرة البشرية ، أو لتشريح أجسادها وخلاياها مما يتجاهل بشكل جاهز كينونتها خارج ذلك الإطار .

وعلى كلٍّ إن غموض التجربة صار بالفعل جزءًا من أية ظاهرة تجتذب انتباهنا ، ذلك أن كل ما نستوعبه لا بد أن يكون ممتزجًا مع رؤيتنا الشخصية الخاصة ، والتى هى بالفعل مختلفة مع حيوية الحياة عمومًا وحالتها ، إن النبض الحى للتجربة الشخصية لايمكن فى نهاية الأمر أن يُجرد من الأشياء التى ندرسها (لكى تكشف الحقائق الخالصة وغير الملُوثة) دونما أن تفقد الأشياء نفسها كافة وجودها بالنسبة إلينا . إن مثل هذا المجال من الوعى والفهم غالبًا ما يترك فى تخصصه لعلم النفس ، ذلك العلم الذى يدرس الوعى الشخصى والتلقى ، وهكذا فإننا ربما بالالتفات إلى علم

النفس نستطيع أن نتوقع أن نجد اعترافًا بذلك البُعد الذى يسبق الموضوعى والذى يمنح التماسك لجميع الحقائق التى نعرفها ، وبالتالى الفهم للطريقة التى تمنح فيها التجربة الشخصية السند وكذلك تضع الحدود فيها للعلوم الإيجابية .

فى علم النفس - على كُلٍّ - لا نكتشف أى شىء من هذا الأمر وبدلاً من ذلك نجد اجتهادًا ومجالاً هو نفسه تم إخضاعه لإيجابية ومستويات العلوم « الصعبة » ، إن علم النفس ذاته قد تحول إلى علم « موضوعى » للأشياء التى يمكن دراستها وفحصها كأى شىء آخر فى العالم الموضوعى الجاهز . إن معظم العالم المعرفى يطمح إلى أن يكون نموذجه هو النموذج المجرب عبر جهاز الكمبيوتر بما فيها تلك العلوم التى تُعنى بالحالة العقلية والتجارب الإنسانية ، وفيما كان بالنسبة لكل من جاليلو وديكارت ميزات التلقى مثل اللون والطعم مجرد خيال وهمى ، وخصائص غير حقيقية بسبب غموض وعدم وضوح مواصفات ذلك ، فإن الفرضيات الرياضية قد تم استحداثها من أجل دراسة مثل هذه الخصائص أيضًا ، وبعبارة أخرى إن تلك الميزات قد أصبحت الآن قيد الدراسة لمجرد أن يتم تحويلها علميًا إلى كميات وتحليلات ، وهنا مثل أى مكانٍ آخر فإن العالم اليومى - ذلك العالم الخاص بخبراتنا المباشرة والتلقائية - مازال يُفترض أنه متفرع من بُعد موضوعى وغير شخصى ومن « حقائق » خالصة نستطيع أن نلمحها عبر الأجهزة والمعادلات .

لقد كان نتيجة لتأزمه مع مثل تلك الفرضيات ، ومع بدايات علم النفس - والتى هى أبعد من تركيز الانتباه على الحيز المتدفق للتجربة والخبرة المباشرة ، والذى كان فى بداياته مع أوائل القرن العشرين مُيِّبسًا العقل ومحولاً إياه إلى « موضوع » وشىء آخر فى الكون الرياضى والميكانيكى - أن يبدأ إدموند هسيرل فى إنشاء المجال الفلسفى فى علم الظواهرتية . الظواهرتية كما قد عبر عنها فى بدايات القرن العشرين سوف تتحول فى اهتماماتها إلى « الأشياء فى حد ذاتها » ، إلى العالم كما يتم الإحساس به واختباره فى الشعور المباشر ، وعلى خلاف العلوم القائمة على الرياضيات ، فإن علم الظواهرتية سوف يسعى لا لشرح وتفسير العالم ، ولكن للوصف بقدر الإمكان للطريقة التى يجعل بها العالم نفسه جليًا للوعى ، الطريقة التى تبزغ فيها الأشياء لوعينا للوهلة الأولى ، الوعى المباشر والحِسِّى المجرب ، وهكذا بالعودة إلى

حيز الوجود - المفترض سلفًا - للخبرة الخاصة ، لا من أجل تفسيره ولكن ببساطة للتنبه إلى إيقاعاته وفحواه ، لا للقبض أو السيطرة عليه ولكن ببساطة لكى نصل إلى ألفة مع أمزجته المتنوعة ومظاهره - وبالتالى لمنح صوت لنماذجه الجذابة والمتحولة على الدوام - إن علم الظواهرتية سوف يصيغ الأرضية للعلوم الأُخرى . لقد كان أمل هسيرل أن تضع أسس علم الظواهرتية « كعلم الخبرة » القاعدة للعلوم الأخرى على أرضٍ متينة - ليست ربما بثبات « الشىء أو الموضوع » الجاهز والكلى والتى تدّعى هذه العلوم أنها تقف عليها ، ولكن الأسس الوحيدة الممكنة من أجل معرفةٍ تنبع بالضرورة من تجربتنا الحية والمعاشة عن الأشياء التى تُحيطُ بنا ، وبكلمات عالم الظواهرتية الفرنسى موريس ميرلو - بونتى :

« إن كل معرفتى حول العالم ، وحتى معرفتى العلمية تم اكتسابها من وجهة نظرى الخاصة ، أو من بعض الخبرات والتجارب فى العالم والتى من دونها سوف تكون الرموز العلمية خاوية من المعنى ، إن كامل الكون العلمى تم بناؤه على العالم كما تمت خبرته مباشرة ، وإذا أردنا أن نضع العلم نفسه تحت البحث الدقيق والمراقبة والتوصل إلى تقييم دقيق لمعناه ومداه لابد أن نبدأ بإعادة إيقاظ التجربة الأساسية للخبرة مع العالم ، حيث العلم هو تعبير فى الدرجة الثانية فى الأهمية ... أن نعود إلى الأشياء فى حد ذاتها هو أن نعود إلى ذلك العالم الذى يسبق المعرفة فى الوجود ، والذى دائما يتحدث عنه العلم ، وفيما يتعلق بكل ما هو متقصٍّ ، ومفاهيمى ، ومشتق من لغة الإشارة ، كما هو علم الجغرافية فى علاقته بالريف الذى تعلمنا منه فى البدء معنى الغابة ، والبرارى ، والنهر، قبل أن تتحدد معانى ذلك فى الكلمات العلمية » .

تداخل الخاص

فى المراحل الأولى من مشروعه تحدث هسيرل حول عالم التجربة (العالم « الظواهرتى ») كحيز خاص بشكل كثيف ، ومن أجل البحث فى تكشفات هذا الوجود الفلسفى ، أصر على أن يُنظرَ إليه كبعد ذهنى بشكل كامل ، وحقل غير مادى للمظاهر ، هذا الذى يجرب هذا البعد - التجريب فى ذاته ، أو الموضوع - تم وصفه بشكل مشابه عبر هسيرل كوعى خالص ، عقل أو وجود « متسامٍ » .

ربما عبر توصيف الخاص أو الحقيقة غير الموضوعية كشىء غير مادى ووجود متسامٍ كان هسيرل يأمل فى عزل هذا البعد القيمى عن العالم الميكانيكى الواضح للمادة « الحقائق » والتى كانت آنذاك تحت الإنشاء من خلال العلوم الوضعية (وبذلك يكون من المكن حماية هذا الحيز من الاحتلال الذى تمارسه تلك الطرق البحثية والتكنولوجية) ، ومع ذلك فإن إصراره هذا على العنصر الذهنى للحقيقة الظواهرتية قاد النقاد إلى الهجوم على طريقة هسيرل وكونها مُغلقة بالضرورة - ومنهج يختم الفيلسوف ويغلق عليه داخل التجربة الأحادية المعزولة ، مسلمًا إياه بذلك إلى عدم القدرة على الاعتراف بأى شىء أو أى شخص آخر خارج حدود ذهنه الخاصة .

لقد صارع هسيرل طويلاً وبقوة وصعوبة للرد على هذا الانتقاد المهم ، كيف يمكن لتجربتنا الخاصة أن تمكننا من الاعتراف بحقيقة الذوات الأُخرى ، والأشياء التى تشعر ؟ الحل بافتراض الجسد - جسد الشخص بالإضافة إلى أجساد الآخرين - كبنائية مهمة ومتفردة لحقل الظواهرتية - إن الجسد هو تلك الظاهرة الغامضة والمتعددة الوجوه والتى تبدو دائما مصاحبة لوعى المرء ، والمكان الوحيد بالفعل لحيز وعى الشخص داخل حقل الظواهر ، ومع ذلك فإن حقل الظواهر يحتوى أيضا على أجساد أخرى كثيرة ، أشكال أخرى تتحرك بإيقاعها فى وضع شبيه بوضع الشخص نفسه ، وفيما يجرب الإنسان جسده الشخصى كما يكون من الداخل فقط فإن تلك

الأجساد الأُخرى تُجرَّب من الخارج ، ويستطيع المرء أن ينوع فى مسافاته من تلك الأجساد كما يستطيع التحرك حولها ، فيما يبدو ذلك مستحيلاً فيما يتعلق بفعل ذلك مع جسده الشخصى .

وبالرغم من هذا الاختلاف فإن هسيرل أكد على أنه هناك تواصل لايمكن الفرار منه بين تلك الأجساد الأخرى وجسد الشخص نفسه ، إن تعبيرات وحركات تلك الأجساد الأخرى يتم النظر إليها من الخارج ، وتكون هى الصدى والمثيل لحركات الشخص نفسه وتعبيراته التى تُجرَّبُ من الداخل ، وعبر التعاطف الإسقاطى تستطيع القدرة الشخصية الاعتراف بتلك الأجساد الأُخرى كمراكز أُخرى للتجربة ، أشخاص آخرين .

بهذا الشكل ، وهو يصف بدقة الطُرق التى عبرها يتوسط الحقل الشخصى للتجربة من خلال الجسد الذى ينفتح على الأجساد والأشياء الأخرى - الذوات الأخرى إلى جانب ذاته - هدف هسيرل إلى مواجهة ذلك الانتقاد بعزلة الفيلسوف والذى كان قد وُجِّه إلى علم الظواهرتية . إن حقل الظواهر فيما هو لا يزال حيزاً خاصاً إلى حَدٍ كبير صار يُنظرُ إليه الآن على أنه موطن مواد وذوات متعددة ، لم يعد حقل الظواهرتية مجرد عزلة للذات ، ولكن أرضية جماعية مكونة من خبرات أشخاص آخرين بالإضافة إلى خبرة المرء الشخصية .

يبقى هناك - على أى حال - ظواهر كثيرة فى الحقل التجريبى لا يمكن لها أن تكون جماعية أو مشتركة ، حين أعيش أحلام اليقظة - على سبيل المثال - فإن اهتمامى يكون ضمن ظاهرة أستطيع أن أُغيّر من خطوطها وموجاتها ، خيالات كاملة ، شخصية بشكل فردى لا تفتقد مع ذلك صلابة الأجساد ، مثل هذه الأشكال لايمكن لها أن تقاوم تحديقى ، إنها ليست محصورة فى مكان ما عبر تحديقى بها إلا فى رأسى ، إنها وبشكل كامل ملكى كخيالات وصور ، إنها أحلامى ومخاوفى ، إنها الحلم الذى أعيشه . وهكذا فإننى أضطر مثل هسيرل أن أعترف بمنطقتين على الأقل فى الحقل التجريبى أو الظواهرى : الأول هو الظاهرة التى تتجلى كلية لى - خيالات تنبثق ، كما قد كانت ، فى هذا الجانب من جسدى - ومنطقة أخرى من ظاهرة تستجيب بشكل واضح لخبرات كائنات أخرى بالإضافة إلىّ ، إن الظاهرة الثانية ما تزال شخصية -

إنها تتبدى لى فى حقل تجربتى ملونة بمزاجى واهتماماتى الحالية - ومع ذلك لايمكن لى استبدالها بالإرادة فقط ؛ لأنها ممتلئة بتأثيرات أخرى لكائنات أخرى غير شخصى الخاص . إن هذه الشجرة المنحنية فى اتجاه الريح ، وهذا المنحدر الصخرى ، وتلك الغيمة التى تجوب السماء فوق رأسى : إن كل ذلك ليس مجرد شىء شخصى ، إنها ظواهر متداخلة - ظاهرة تُجرَّب ويُحس بها من خلال تعددية الأشياء التى تشعر وتُحس .

إن فكرة هسيرل حول تداخل - الخاص توحى بتفسير جديد ومميز لذلك المدعو « بالعالم الموضوعى » ، ذلك أن التضاد المتعارف عليه ما بين « الخاص » و « الموضوعى » فى مجال الحقائق يمكن له الآن أن يُعاد تأطيره كتضادٍ داخل الحقل الخاص للتجربة نفسها ، ذلك التضاد المحسوس ما بين الخاص وظاهرة تداخل الخاص .

من المعروف بشكل شائع عن العلوم أنها تهدف إلى معرفة واضحة لعالم موضوعى مستقل تمامًا عن الوعى أو الخاص، ومع أخذ التجريب بالاعتبار - على كل - فإن الطريقة العلمية تمكِّن من الإنجاز لتداخل الخاص الأعظم ، والمعرفة الأكبر لذلك الذى هو أو يمكن أن يكون قابلاً للتجريب عبر ذوات كثيرة مختلفة أو مواد . إن الطموح نحو الموضوعية يمكن له أن يُفهم كظاهرة ، كطموح لإنجاز موافقة أو قبول إجماعى ما بين مواد أو مواضيع متعددة ، بدلاً من فهمه كمحاولة لتجنب تداخل الخاص كلية ، إن « الموضوعية » الخالصة المفترضة بشكل شائع فى العلم الحديث أبعد ما تكون عن كونها الأساس الصلب الذى يشكل قاعدة لكل التجارب ، كانت كما قد ورد فى البنائية النظرية لهسيرل مثالية غير مضمونة لتجربة تداخل خاص .

إن « العالم الحقيقى » الذى نجد أنفسنا فيه إذن - العالم نفسه الذى يسعى علمنا إلى أن يحنطه - ليس مجرد « موضوع » أو مادة ثابتة منتهية « كمعلومات » يمكن من خلالها دراسة كل الأشياء بخصوصياتها وتصنيفاتها، لكنه حواس متشابكة ، وحقل مشترك للتجربة المُعاشة تكون زوايا مختلفة لبلورة الرؤية . إن التأثيرات الأخرى للآخرين والأشياء فى تجربتى ، و (علىّ أن أفترض) تأثيرى على تجاربهم مؤثر على تداخل النسيج فى حقل الظاهرة الفردية إلى نسيج متفرد ودائم التحول لعالم كونى واحد أو « حقيقة » .

ومع ذلك ، وكما نعرف من تجارب خبراتنا اليومية ، إن العالم الكبير مستقر بشكل مدهش وصلب ، يمكن لنا الاعتماد عليه بطرق كثيرة ، ونأخذ بشكل يقيني تركيبته وصفاته ، إن تلك الصلابة الُمجَرَّبة قوامها بدقة ذلك التداخل مع الآخرين ، مع المواضيع والذوات المجسَّدة ، مراكز أخرى للتجربة والخبرة . إن الالتقاء بالمتلقِّين الآخرين يؤكد لى دائمًا أن هنالك جوانب أكثر للشيء مما يبدو عليه ، أو للعالم ، ومما أستطيع أنا شخصيًا أن أستوعبه فى أية لحظة ، إلى جانب ذلك الذى أراه مباشرة وأنا أنظر إلى شجرة معينة أو مبنى ، أعرف أو أدرك بالحدس أن هناك جوانب أخرى للشجرة أو المبنى واضحة لمتلقين آخرين أراهم ، أحس بأن تلك الشجرة المعينة هى أكثر بكثير مما تراه عينى مباشرة ، بما أنها أيضًا الشيء الذى أرى الآخرين يبصرونه ، أحس كحضور مستوعب هو موجود قبل أن آتى لأراه ، وبالفعل إن ذلك الحضور لن يتبخر عندما أذهب بعيدًا عنه ، بما أنها تبقى مجال خبرة لآخرين - لا لأشخاص آخرين فقط ولكن (كما سنرى لاحقًا فى هذا الفصل) لكائنات أخرى ، للعصافير التى تعشش على أغصانها ، وللحشرات التى تتحرك على جذعها ، وحتى أخيرًا للخلايا الحساسة للشجرة نفسها ، تشرب الشمس بهدوء من خلال أوراق الشجرة ، إنها تلك المعلومات التى تتلقاها حواسى عبر التلقى الواضح والإحساس بالكائنات المتجسده الأخرى التى تؤسس - بالنسبة لى - الصلابة النسبية والاستقرار فى العالم .

عالم - الحياة

بالرغم من أن هسيرل فى البدء كتب حول جوانب ذهنية غير مادية عن الحقيقة المُجرَّبة أو المختبرة إلا أن إقراره المتنامى لتجربة تداخل - الخاص أو الشخصى وأهمية الجسد فى مثل تلك الخبرات قاده بالضرورة إلى الإقرار ببعد أساسى كبير فى المنتصف مابين « الوعى » المتسامى لتحليلاته الأولى و « الشىء » الموضوعى المفترض عبر العلوم الطبيعية . لقد كان ذلك هو عالم تداخل الخاص فى الحياة أو عالم - الحياة .

إن عالم الحياة هو عالم تجاربنا الحية المباشرة كما نعيشها ونحياها ، سابقة لكل أفكارنا حولها ، إنه ذلك الحاضر بالنسبة إلينا فى مهامنا اليومية ومُتعنا ، الحقيقة كما تشغلنا قبل أن يتم تحليلها بالنظريات وبالعلوم التى نبتكرها ، إن عالم الحياة هو العالم الذى نعتمد عليه دون أن نمنحه بالضرورة الكثير من الاهتمام ، إنه عالم السُحب فوق الرؤوس والأرض تحت الأقدام ، الصحو من السرير وإعداد الطعام وفتح صنبور الماء . يسهل تجاهله ذلك العالم الأساسى . وهو دائما موجود هناك عندما نبدأ فى التأمل والتفلسف ، إنه ليس ببعد فردى ولكنه جماعى - الحقل المشترك لحيواتنا وحيوات أُخرى تتشابك مع وجودنا - ومع ذلك فهى غامضة وملتبسة بعمق ، بما أن خبراتنا فى هذا الحقل دائما نسبية إلى أوضاعنا بداخله . إن عالم الحياة هو بالتالى العالم كما نختبره ونحسه عضوياً بأبعاده المختلفة ونهاياته المفتوحة ، والسابقة للمفاهيم المتجمدة والمحولة إياه إلى فضاء فارغ « للحقائق » ، إن عالم الحياة سابق لاستيعابه مفاهيمياً فى أى شكل مكتمل ونهائى ، إن جُل مفاهيمنا ومعلوماتنا - علمية أو غيرها - تتغذى بالضرورة من ذلك الوجود غير المحدد ، وفيما يحل الفيزيائى

المعلومات فهو لايزال يتغذى بالهواء الذى يتنفسه ، وبالإحساس بالكرسى الذى يجلس عليه وبالضوء الذى يتدفق عبر النوافذ ، دون أن يكون واعيًا أو منتبهًا لكل تلك العناصر .

إن عالم الحياة إذن حاضر بشكل هامشى فى أية فكرة أو نشاط نقوم به ، وبالرغم من ذلك حينما نحاول أن نشرح هذا العالم مفاهيميًا يبدو أننا ننسى دورنا المشارك والنشيط فى داخله ، طامحين إلى أن نمثل العالم ننسى بالضرورة وجوده المباشر ، لقد كانت عبقرية هسيرل تلك التى لاحظت أن فرضيات الموضوعية قد قادت إلى خوف كلى تقريبًا لعالم الحياة فى الزمن الحديث ، وإلى نسيانٍ شبه كلى لذلك البُعد الحى الذى تتجذر فيه كل أنشطتنا بل وجودنا أيضًا . فى جهودهم من أجل إنجاز خارطة جاهزة للعالم تحولت العلوم إلى وضع مغترب بشكل مخيف عن حياتنا وتجربتنا البشرية المباشرة ، إن مساراتهم الكثيرة المتخصصة ، التقنية والتكنولوجية قد فقدت أى علاقة واضحة مع العالم الحسى لمشاغلنا العادية واليومية ، إن الفقر الناتج فى اللغة ، والفقد للعوامل المشتركة فى مستويات الحياة المعاشة قد قادت -كما أحس هسيرل - إلى كوارث واضحة فى الحضارة الأوروبية ، غائبين فى وعيهم وجاهلين لطبيعة عالم الحياة الذى يعتمدون هم أنفسهم عليه لمعنى وجودهم ، فإن العلوم الغربية والتكنولوجيا المصاحبة لها قد بدأت تسيطر بشكل أعمى على العالم - الحى - حتى درجة التهديد الكامل لعالم الحياة .

من المفترض أن يكون واضحًا أن عالم الحياة هذا ربما يكون مختلفًا جداً من ثقافة أو حضارة لأُخرى ، العالم الذى يخبره الناس ويتعودون الاعتماد عليه هو عالم متأثر بعمق بالطرق التى يعيشون بها وبممارساتهم فى هذا العالم . إن أعضاء أية ثقافة بمعطياتها لابد أن يستوطنوا عالما مجربًا مختلفا تمامًا عن عالم آخر لثقافة أُخرى بلغة مغايرة ومختلفة وطريقة أخرى للحياة ، وحتى ذلك العالم أو « الكون الموضوعى » العلمى والمغلق على نفسه للحضارة الغربية الحديثة لايمكن له بشكل اعتباطى أن ينفصل عن مؤسساته الخاصة ، وتقنياته وأدواته التكنولوجية ، وطرق الحياة المعتادة والمبنية فى هذا المجتمع منذ القرن السابع عشر .

إذا كانت العوالم المجربة عبر البشر متنوعة إلى هذا الحد كم سيكون التنوع فى درجاته إذن عالم الحياة ذلك للحيوانات الأخرى - الذئاب ، أو البوم ، أو مجتمعات النحل ! - ومع ذلك فبالرغم من هذا التنوع وتلك التعددية سيبدو أن هنالك تكوين أساسى لعالم الحياة فيه عوامل مشتركة ، وعناصر تتشارك فيها الثقافات المختلفة حتى يمكن لنا أن نحمى المخلوقات والكائنات المختلفة . إن كتابات « هسيرل » تبدو وكأنها تقترح أن عالم الحياة له تكوينات أو طبقات متعددة ، وأنه تحت تلك الشريحة للثقافات المتنوعة لعالم الحياة يكمن مستوى أعمق وأكثر توحداً لعالم الحياة ، كان دائمًا هناك تحت سطح كل ما قد تحقق فى حضاراتنا أو ثقافاتنا بُعد واسع يتم تجاهله باستمرار للتجربة والخبرة غير أنه برغم ذلك يدعم ويقوى كل وجهات نظرنا للعالم ، تلك المتنوعة واللامتناهية .

لقد نشر هسيرل الضوء على ذلك البعد الأساسى والأكثر عمقًا لعالم الحياة عبر عدد من المذكرات والملاحظات كُتبت حول البعد الخاص والمتداخل فى عام ١٩٣٤ . لقد وصفت تلك الأوراق منظومة من البحوث الظواهرتية فى الفهم المعاصر للفضاء ، تحت سطح المفهوم الحديث والعلمى للفضاء كفراغ رياضى متجانس ولانهائى ، كشف هسيرل عن تجربة الفضاء للأرض نفسها ، إن الأرض الحاوية - كما يقترح - تقدم الوعى الأكثر مباشرة وتجسيداً للفراغ أو الفضاء ، والذى ينبع منه كل تلك المفاهيم التالية والمتكونة عن الفضاء ، وفيما يرى علمُ الفيزياء الحديث الأرضَ على أنها مجرد تجسيد آخر بين التجسيدات الثانية « فى » الفضاء ، فإن علم الظواهرتية يعتبر أن كل الأجساد أو التجسيدات (بما فيها أجسادنا) يمكن تحديد مكانها فى علاقتها النسبية لأرضية الأرض ، فيما الأرض نفسها ليست « فى » الفراغ أو الفضاء ، بما أن الأرض نفسها منذ البدء هى التى تقدم الفضاء ، وبالنسبة لخبرات حواسنا المباشرة وخبراتها فإن « الأجساد كمعطيات لها حس الأجساد الأرضية ، والفضاء كمعطيات له حس كينونة الأرض - الفضاء » . الأكثر من ذلك ، فيما يطرح العلم الحديث أنه « فى الحقيقة » الأرض فى حركة (حول مدارها ، وحول الشمس) يطرح هسيرل أن المفهوم نفسه « للحركة » و « السكون » يشتق معانيه كلها من خبراتنا الجسدية الأساسية فى كوننا فى حركة أو سكون فيما هو نسبى ومتعلق بالسكون « الكلى » « للأرض - القاعدة » .

لقد عُثِرَ على ملاحظات هسيرل فى مظروف كتب فيه بعض الكلمات التى تلخص ذلك : « الانقلاب على النظرية الكوبرنيكية ... إن الأرض الأصلية لاتتحرك » . إن مثل ذلك التأكيد المهم يوضح بشكل جيد الطبيعة المتطرفة لأفكار هسيرل ، إنه يقترح فى تلك الملاحظات أن هنالك عدم اتزان عميق فى وجهة نظر العالم العلمية ، ناتجة عن التضارب المستمر ما بين قناعاتنا العلمية وتجاربنا الحية التلقائية فى هذا العالم ، بعد بحوث كوبرنيكوس ، وكيبلر ، وجاليلو تم استيعاب الشمس على أنها المركز للعالم الكونى ، غير أن هذا المفهوم ببساطة لم يتوافق مع تلقينا ووعينا الحسِّى ، والذى بقى مجال الخبرة للأفق الذى يبزغ على شمس الأرض المستقرة . إن مُخططًا محبكًا تم استحضاره ما بين قناعتنا الفكرية والقناعات الأساسية لحواسنا ، ما بين مفاهيمنا العقلية ومفاهيمنا الجسدية (إن الفصل الفسلفى لديكارت ما بين العقل والجسد تم تعزيزه عبر هذه الحالة الجاهزة للأشياء ، لقد كان ضروريًا من أجل الإبقاء والمحافظة على وجهة النظر الجديدة الكوبرنيكية من العالم أن يمسك المفكر العقلانى بنفسه بعيدًا عن العالم الحسى التجريبى للجسد) ، ومع ذلك فإن كلماتنا نفسها تابعت خيانة الفكر وأن تمنع الارتفاع النظيف للنظام الكوبرنيكى : مازلنا نقول « الشمس تبزغ » و « الشمس تغرب أو تغيب » سواء كنا فلاحين أو فيزيائيين ، إنه بهذا الحس ، الكتابة من منظور الجسد التجريبى ، استطاع هسيرل أن يدعى بأن « الأرض » لا تتحرك .

أخيرًا بدا هسيرل أنه يقترح أن الأرض ترقد فى قلب مفاهيمنا عن الزمن والفضاء ، إنه يكتب عن الأرض على أنها « منزلنا البدائى » و « تاريخنا البدائى » ، إن كل تاريخ متميز - ثقافى أو حضارى - هو حكاية من قصة أكبر : كل مفهوم تم إنشاؤه ثقافيًا حول الزمن يفترض تاريخنا العميق ككائنات تنتمى إلى أرض واحدة .

إن الأرض إذن ، بالنسبة لهسيرل ، العمق السرى لعالم الحياة ، إنها المنطقة الأكثر حيوية للتجربة والخبرة ، إنها لغز يتجاوز التشكيلات الفكرية المختلفة لثقافاتنا ولغاتنا ، وبكلماته إن الأرض الحاوية هى « صلب العالم » ، و « أسس الجذر » المشترك لكامل عالم الحياة . إن رؤى هسيرل الأخيرة حول أهمية الأرض لكل المفاهيم البشرية ستكون - كما سنرى - ذات أبعاد ونتائج عميقة لكشف تطور الفلسفة الظواهرتية فيما بعد .

إن عمل هسيرل لم يكن بأى شكل من الأشكال رفضًا للعلم ، لقد كان نداءً بأن العلم من أجل كرامته ومعناه لابد له من الاعتراف بأنه متجذر فى العالم نفسه الذى ننشغل به جميعًا فى حياتنا اليومية وحواسنا المجردة ، وأنه بكل تقنياته المتطورة وعلومه القياسية يبقى مجرد تعبير عن العالم النوعى فى خبرتنا الإنسانية المشتركة ، وعليه أن يكون تحت قيادة ذلك العالَم . إن المهمة الحقيقية لعلم الظواهرتية كما قد رآها هسيرل نفسه فى نهاية أبحاثه وأعماله تكمن فى الاستعراض الحذر للطريقة التى تنمو بها كل نظريات العلوم وممارساتها ، وتبقى مسنودة بتلك الأرضية المنسية لحيواتنا وتجاربنا المعيشية المباشرة ، ويكون لها معنى وقيمة فقط فى علاقتها بالوجود المفتوح والأساسى للأرض وكائناتها .

فى الأصل كانت محاولة للاعتراف بالوعى النظرى عبر وضعه على قدمٍ ثابتة ، هكذا كانت مشاريع هسيرل تنمو فى المحاولة المستمرة لإحياء العالم المتدفق بالدماء لحواسنا وخبراتها الطبيعية ، ومن ثم فى عودة الوعى بالاعتراف بالأرض بوصفها القاعدة المنسية لكل أشكال وعينا . أما الآن فسوف ألتفت إلى أعمال عالم الظواهرتية موريس ميرلو بونتى ؛ حتى أتمكن من إيضاح كيف أن عبقرية هسيرل تم أخذها وتحويلها بطريقة عززت هذه الفلسفة بقوة خاصة ومتعلقة بالسؤال الإيكولوجى – البيئى الذى يواجهنا الآن فى اللحظة الراهنة .



الجزء الثانى

موريس ميرلو - بونتى والطبيعة
المشاركة للتلقى

إن موريس ميرلو بونتى وضع مشروعه ليزيد من أفق هسيرل لعلم الظواهرتية عبر توضيح وتنقية التناقضات الموجودة من الشوائب فى تلك الفلسفة ، وعبر طرح طرق أكثر أناقة للحديث ، أسلوب للغة عبر تدفقه وسلاسته وتماسكه ، وتجنبه للمصطلحات التجريدية يمكن له نفسه أن يجذبنا إلى البعد الحسى لعالم الحياة .

حياة العقل الممتلئ للجسد :

لقد رأينا - على سبيل المثال - أن الجسد الفيزيائى قد اتخذ أهمية متزايدة فى دوره فى فلسفة هسيرل ، وعبر الاعتراف بالطبيعة المتجسدة فقط للذات المجربة وخبراتها كان هسيرل قد استطاع أن يتجنب ضيق أفق الأحادية المحدودة للذات ، إنه واضح أن الأجساد والذوات الأخرى أو المواضيع يجعلون أنفسهم جليين فى تجربتى الشخصية ، وإننى كجسد فقط أستطيع أن أكون جليًا وواضحًا ومفهومًا للآخرين ، إن الجسد هو وسيلتى الدقيقة فى الحقل المشترك لخبرات وتجارب الخاص - المتداخل .

غير أنه بالرغم من ذلك فإن الجسد يبقى مجرد مظهر مميز وقوى وحساس فى فكر هسيرل ، إن الجسد قد كان بالتأكيد المركز الرئيسى لخبرات الذوات أو المواضيع فى العالم الظاهرى - فى الحقل الأساسى للمظاهر - غير أن الذات كما قد أكد هسيرل هى حضور متسامٍ منفصل بالضرورة عن الظاهرة (بما فيها الجسد) ، وبالرغم من تزايد اعترافه بالمركزية للجسد الحى فى كل الخبرات ، وبالرغم من كشفه العميق لمغاليق الوجود المتداخل فى خصوصيته فى حياتنا السابقة للمفاهيم فإن

هسيرل كان غير قادرٍ على الرمى بعيداً بالأبعاد النظرية المثالية المتسامية فى بداياته الفلسفية .

ولقد كانت هذه الفرضية حول تلك الذات المشطورة وغير المجسدة للوعى المتسامى هى بالتحديد مارفضه ميرلو بونتى ، إذا كان هذا الجسد هو حضورى الخاص جداً وشكل وجودى فى العالم ، إذا كان الجسد هو وحده ما يمكننى من الدخول فى العلاقات مع حضور الكائنات الأُخرى ، إذا كان بدونما هذه العيون ، وهذا الصوت ، وهذه الأيادى فإننى لن أستطيع أن أرى ، ولا أتذوق ، أو ألمس أى شىء ، أو أن أُلمسَ عبر أى من الكائنات الأخرى والذوات من خلال حضورها - لولا وجود هذا الجسد ، أو بكلماتٍ أُخرى ، لن يكون هناك أى مجال للخبرة - فإن الجسد نفسه إذن هو موضوع الخبرة والتجربة . ميرلو بونتى يبدأ ، إذن ، عبر تعريف الموضوع - الخبرة « نفسها » - مع أعضاء الجسد .

إنها بالفعل حركة متطرفة ، إن معظمنا معتاد على اعتبار نفسه، وجودنا الأعمق ، كشىء روحى ، ومع ذلك تأمل : إنه من دون هذا الجسد ، من دون هذا اللسان أو هاتين الأذنين ، فإنك لن تستطيع أن تكلم أو تسمع صوتًا آخر ، ولن يكون بإمكانك أن تملك شيئًا للحديث عنه ، أو حتى أن تتأمله ، أو تفكره ، بما أنه من دون الصلة ، أية صلة ، أو حواس حسية يقظة لن يكون هناك أى شىء لنتساءل عنه أو نعرفه .

إن الجسد الحى - إذن - هو الإمكانية الحقيقية للتواصل ، لا مع الغير فقط ولكن مع الإنسان نفسه ، إنه الإمكانية الحقيقية للتأمل ، وللفكر ، وللمعرفة ، إنه الفحوى المشتركة للخبرة نفسها ، أو للعقل ، كوجود غير مادى مستقل بالضرورة عن الجسد فقط عبر الوهم أو السراب : ميرلو بونتى يدعونا إلى الاعتراف ، فى قلب حتى أكثر مفاهيمنا تجريدية ، بالحياة الحسية والذكية للجسد نفسه .

إن هذا الجسد الذى يتنفس ، وهو يجرب ويسكن العالم ، مختلف جداً عن ذلك الجسد « الموضوع » المخطط فى كتب التشريح والأحياء والفيزياء ، مع « أنظمته » المنفصلة (النظام الخاص بالدورة الدموية ، نظام الهضم ، نظام التعرف ،... إلخ) والموضوعة عارية على كل صفحة كوحدة منفصلة فى هذه الأنظمة .

إن الجسد الذى أتحدث عنه هنا مختلف جداً عن الجسد الذى تعلمنا أن نراه وأن نشعر به ، ومختلف جدا - أخيراً - عن تلك الآلة المعقدة والتى هى بأجزائها المتكسرة أو أنظمتها المحددة تتم معاينتها عبر أطبائنا و« إصلاحها » عبر تقنياتنا الطبية ومعداتها ، تحت سطح ذلك الجسد المُشرَّح والميكانيكى الذى تعودنا على تلقيه وقبل تكوُّن أىٍّ من مفاهيمنا يعيش الجسد كما يخبر الأشياء بالفعل ، هذه القوة التى تحرك كل مشاريعنا وتتعذب بسبب كل رغباتنا وأهوائنا .

إن الجسد ، الحى ، الحساس - والذى دعاه ميرلو بونتى « بمادة الجسد » - هو ذلك الكائن نفسه الذى ينبض منذ دقائق مضت ، فجأة أخذ هذا القلم وكتب هذه الأفكار ، إنها القوة نفسها التى أملكها لكى أرى أو أسمع الأشياء ، أو لألتفت لأنظر إلى مكانٍ آخر ، وهو القدرة التى أملكها للبكاء أو الضحك ، أو لكى أعوى ليلاً مع الذئاب ، ولكى أبحث عن الأكل وأجمعه من الغابة أو السوبر ماركت ، إنه القوة لكى أستطيع المشى على الأرض ولكى أتنفس الهواء ، ومع ذلك « فأنا » لا أملك هذه القوى مثل قبطان يدير سفينة ؛ لأننى أنا - فى أعماقى - غير مميز عن تلك القوى ، وكما هو حزنى مميز أو منفصل من ثقلٍ معين فى أعضاء جسدى ، أو كما هى متعتى منفصلة اصطناعيًا عن ذلك الاتساع فى حدقتىْ عينى ، من تنقل خطواتى وتلك الحساسية المرتفعة لجلدى ، وبالفعل فإن تعابير الوجه ، وحركات الجسد ، وبعض الأفعال التلقائية كإطلاق التنهيدة والدموع ، تبدو وكأنها تعبر عن خلق مشاعر مباشرة ، وأمزجة ، ورغبات دونما أن يستطيع « كائنى » أن يقول أيًا منها قد جاء أولاً : التعبير الجسدى أو الإحساس غير المادى أو غير المُجسَّد .

لكى أقِر بأننى « أنا هو هذا الجسد » ليس لتقليل وتقليص ذلك الغموض لأشواقى وأفكارى المتدفقة لتتحول إلى طاقم ميكانيكى ، أو« ذاتى » لتتحول إلى رجل آلى مُصمَّم ، إنه ليس للإغلاق والإقفال على وعيى داخل كثافة المواد المغلقة والمحيطة بى ، لأنه كما سنرى أن حدود الجسد الحى مفتوحة وغير محددة ، أقرب إلى الخلايا المرنة المفتوحة عن الحواجز والسدود ، إنها تحدد سطح المتغيرات والتبادل . إن الجسد المتنفس الحساس يجتذب قوامه وكينونته من التراب ، والنباتات ، والعناصر التى تحيط به ، إنه باستمرار يمنح نفسه بدوره إلى الهواء ، إلى تكوين التراب ، إلى تغذية

الحشرات والأشجار والسناجب ، ناشراً نفسه وهو يتنفس العالم ويتبادل العطاء والأخذ معه ، لذلك فإن هذه الدرجة من التبادلية يصعب معها الكشف بدقة وفى أية لحظة أين يبدأ ذلك الجسد الحى وأين ينتهى ، ومع أخذه بالاعتبارات الظواهرتية - أى بمعنى ، كما نجرب ونشعر بالفعل وكما نحيا الجسد - فإن الجسد مبدع ، وكينونة قادرة على تحويل أشكالها ، بالتأكيد إن له شخصيته النهائية وأسلوبه وملمسه الخاص ودرجات حرارته والتى يمكن تمييزها عن الأجساد الأخرى ، ومع ذلك فإن هذه الحدود البشرية لا تعيقنى أبداً عن الأشياء من حولى أو تمنع علاقتى بها أو تجعلها متوقَعة وآسنة ، على العكس من ذلك إن جسدى بحضوره وحده هو ما يمكننى من التعامل بحرية مع الأشياء المحيطة بى ، أن أختار التعامل مع أشخاص معينين أو أماكن ، وأن أدخل بذاتى فى حيوات الآخرين ما أبعده عن تقنين أو منع مداخلى إلى الأشياء والعالم ، إن الجسد وسيلتى المحددة للدخول فى علاقة مع كل الأشياء .

وللتأكد بكشف الجسد نفسه كموضوع للوعى فإن ميرلو بونتى حطم أى أملٍ بأن الفلسفة يمكن أن تقدم مع الوقت صورة كاملة عن الحقيقة (لأن أى حساب شمولى « للماهية » يتطلب عقلاً أو وعياً يقف بطريقة ما « خارج » محيط وجوده ، سواء لتراكم الحسابات أو - فى النهاية - لتلقى تلك الحسابات وفهمها) ومع ذلك فإنه بالحركة ذاتها قد فتح أخيراً الإمكانية لعلم ظواهراتى حقيقى وأصلى ، فلسفة سوف تطمح لا إلى شرح العالم وكأنها من خارجه ، ولكن لتمنح صوتاً للعالم من خلال الوضعية المجربة من داخله ، منبهةً إيانا ومعيدة إيانا إلى دورنا كمشاركين فى اللحظة التى هنا والآن محتفية بحواسنا اليقظة وقدرتنا على التعجب والاندهاش من الأشياء ، والأحداث والقوى التى تحيط بنا فى كل يد .

بالضرورة أن تعترف وتقر بحياة الجسد وأن تؤكد تضامننا مع هذا الشكل الجسدى هو أن تُقر بوجودنا كواحدٍ من حيوانات الأرض ، وبالتالى أن تتذكر وتحتفى بالقاعدة العضوية لأفكارنا وذكائنا . وبالنسبة إلى الموجة الرئيسية أو المركزية لتقاليد الفلسفة الغربية من مصدرها الأساسى فى أثينا القديمة وحتى اللحظة الراهنة فإن الكائنات البشرية وحدها هى التى تملك العقل والفكر ، و« الروح المعترف بها ، العقلانية » أو العقل الذى عبر إلحاقه بالبعد الخالد والسامى خارج العالم الجسدى فإن

ذلك يضعنا في موضع منفصل بشكل حدى عن أو فوق مستوى كل الأشكال الأخرى للحياة ، في كتابات أرسطو – على سبيل المثال – فيما النباتات معززة بالروح النباتية (والتي توفر الغذاء ، والنمو ، وإعادة الإنتاج) ، وفيما الحيوانات تمتلك – بالإضافة إلى الروح النباتية – روحًا حيوانية (وهي توفر الإحساس والقدرة على الحركة) فإن هذه الأرواح غير منفصلة عن العالم الأرضي الحائل للفناء والفساد ، أما البشر فهم يملكون بالإضافة إلى تلك الأرواح أرواحًا أخرى عاقلة أو ذكية ، وهي وحدها التي تستطيع الولوج إلى أجواء أقل فسادًا وهي مرتبطة « بالمحرك الذي لايتحرك» ، السامي في حضوره في حد ذاته ، وعلى يد ديكارت بعد ألفي عام من ذلك فإن هذا المدرج الهرمي في ترتيبه للأشكال الحية ، والمدعو عادة « بالسلسلة الأعظم للوجود » قد تم استقطابها إلى ثنائية خالصة ما بين المادة الميكانيكية الآلية غير المفكرة (بما فيها كل المعادن ، والنباتات، والحيوانات ، بالإضافة إلى الجسد البشرى) والعقل المفكر الخالص (ذلك الوجود الاستثنائي للبشر والإله) وبما أن البشر وحدهم هم ذلك الخليط ما بين المادة الممتدة والعقل المفكر ، فإن نحن وحدنا القادرون على الإحساس والتجريب بحواس جسدنا الميكانيكية، وأثناء ذلك فإن كل الأحياء الأخرى مكونة من مادة ممتدة فقط ، وهم في الحقيقة لاشيء سوى ذرات وخلايا غير قادرة على الإحساس والخبرة الحقيقية ، وعاجزة عن الشعور بالسعادة أو الألم ، وهكذا نحن البشر لاحاجة لنا في الكتابة عن الاحتكار ، والهيمنة ، والاستغلال ، أو استغلال الكائنات مخبريًا كما يعجبنا أو يناسبنا .

وللغرابة فإن مثل هذه الآراء حول خصوصية البشر قد تم استغلالها باستمرار عبر المجموعات البشرية لتبرير ذلك الاستغلال ليس فقط للكائنات الحية الأخرى بل لاستغلال « بشر» آخرين أيضًا (شعوب أُخرى ، أجناس أُخرى ، أو ببساطة الجنس « الآخر») ، مسلحين بهذه الآراء والتبريرات ، فإنه ما على المرء سوى أن يستعرض أن أولئك الآخرين ليسوا بشرًا « كاملين » ، أو هم أقرب إلى الحيوانات الهمجية ، وحتى يستطيع الشخص أن يؤسس حقه الخاص بالسيطرة والهيمنة ، فبالنسبة إلى أرسطو – على سبيل المثال – فإن النساء ناقصات فيما يتعلق بالروح العقلانية ؛ ولذلك

« فإن علاقة الذكر بالأنثى فوقية بالطبيعة وتتعلق بالعلاقة مع كائنات دونية - علاقة الحاكم بالمحكوم » . إن مثل هذه التبريرات للاستغلال الاجتماعى تستند فى قوتها إلى تلك الهرمية السابقة للطبيعة ، إلى تلك الهرمية وأوامرها التى تحدد مكان « البشر » ، حسب ذكائنا وقوانا العقلية ، فوق ومنفصلا عن كل الكائنات الأخرى ، « والتى هى مجرد أشياء » .

إن مثل تلك التراتبية الهرمية تكون عرضة للتهديد أمام علم الظواهرتية الذى يأخذ مأخذ الجد مجال خبراتنا الحسية المباشرة ، ذلك أن حواسنا تكشف لنا جوانب مزهرة ووحشية لكائنات وعناصر يغرق فيها البشر بعمق ، وفيما تتنوع الأشكال الحسية وتعرض بالتأكيد بعض النظام غير الثابت فإننا نجد أنفسنا فى وسط - بدلاً من فوق - ذلك النظام . ربما نستطيع أن نوجه نظرتنا إلى الأسفل لكى نشهد فأر الحقل والحشرات التى تحوم فوق الحشائش ، أو نلقى نظرة على الثعابين التى تزحف إلى جحورها تحت الأقدام ، ومع ذلك وفى اللحظة نفسها هناك صقور تحلق عالياً مع الريح وهى تنظر إلينا نحن هنا فى الأسفل ، كائنات الريش الميلودية المفردة تحط مثل الفانتوم أو الشبح على الأغصان العالية للأشجار ، فيما قوى داخلية خفية أُخرى تُعرف بآثارها تتحرك داخل العمق الخفى للغابات ، داخل المياه التى تتحرك أمواجها فى مواجهة شواطئ أراضٍ بعيدة ، ثمة قوى أكثر غرابة ، صامتة ومتعددة ، تتحرك محتشدة ما بين الغابات الغريبة للشُعب المرجانية والصخور ...

هل يستطيع الذكاء البشرى ، أو « العقلانية » أن تحررنا فعلاً من ميراثنا فى عمق هذه الأشكال الوحشية والبرية ؟ أو أنه على العكس من ذلك ؟ هل الذكاء البشرى متجذر فى ، ومولود سرياً عبر تواصلنا المنسى مع التعددية غير البشرية للأشكال التى تحيط بنا ؟

الحوار الصامت للجسد مع الأشياء

بالنسبة لميرلو بونتى فإن كل الإبداع والحركة الحرة - المسافات التى صرنا نربطها مع الذكاء البشرى - هى فى الحقيقة تصعيد لإبداع عميق موجود تحت سطح المستوى الأكثر مباشرة لتلقينا الحسى ، إن الجسد الحساس ليس بآلة مبرمجة ولكنه شكل مفتوح ، نشيط وحيوى ، باستمرار يشرف على علاقته بالأشياء والعالم . إن أفعال الجسد وانشغالاته ليست أبدًا حتمية تمامًا ، بما أنها عليها تعديل نفسها مع العالم والوجود الذى يتغير باستمرار ، لو أن الجسد كان حقيقة مجرد طاقم من الميكانيكية المصممة سلفًا والمحددة فإنه ما كان ليستطيع التواصل الحميم والأصلى مع أى شىء خارج حيزه ، وما كان ليستطيع استيعاب أى شىء جديد بالفعل ، وسيفقد قدرته على الدهشة والذهول ، إن كل خبراته وتجاربه ، كل ردود فعله كانت ستكون متوقعة من البداية لو كان مبرمجًا كما هو فى الإنسان الآلى ، ولكن هل نستطيع حتى إذن ، أن ندعوها خبرات آنذاك ؟ أليست الخبرة ، أو بدقة أكثر الاستيعاب والتلقى هى شىء لانهائى ، وغير معد سلفًا ؟

تصور عنكبوتا نسج بيته ، مثلاً ، وتلك الفرضية التى مازالت عند علماء كثيرين بأن السلوك لكائن ضئيل مثل العنكبوت هو « شىء مبرمج فى الجينات » ، بالتأكيد إن العنكبوت قد تلقى ميراثًا ثريًا فى خلاياه الحيوية من والديه وأسلافه ، أيا كانت « التعليمات » - على كل - المودعة بداخل خلاياه الحية فإنه من الصعب أن تتنبأ بالتفاصيل المحددة لوجوده « المايكرو » والذى يستطيع العنكبوت عبره أن يجد نفسه فى أية لحظة محددة ، إنه يصعب أن تحدد تلك الجينات بشكل حتمى سلفًا المسافات الدقيقة ما بين جدار الكهف والفرع الذى يستخدمه العنكبوت الآن كمنطلق لبيته الذى ينسجه ، أو القوة الدقيقة لأمطار المنسون الاستوائية الموسمية التى تجعل غزل بيت العنكبوت أشد صعوبة فى هذا المساء ، وهكذا فإن الخارطة الجينية لايمكن لها بشكل

واضح أن تهيمن على نظام كل حركة أو امتداد للمفاصل المختلفة فيما العنكبوت ينسج ذلك البيت فى مكانه ، ومهما كان تعقيد وتركيب كل « البرامج » الوراثية الأشكال ، فإنها تظل قيد ضرورة التأقلم للأوضاع المباشرة التى يجد العنكبوت نفسه فيها ، غير أنه مهما كانت درجة تصميم ميراث الخارطة الجينية فإنه مازال لابد لها - كما هو حادث - أن يتم نسجها فى اللحظة الراهنة ، إنه نشاط يحتوى بالضرورة الاثنين معًا : القدرة على الاستيعاب والتلقى للأشكال المحددة للحاضر ، والإبداع العفوى والتلقائى فى تأقلمه مع الحاضر ، إنه ذلك النشاط المفتوح ، والخليط الحيوى من التلقى والإبداع الذى يستطيع فيه كل كائن حى بالضرورة أن يؤقلم نفسه عبره مع العالم (ويؤقلم العالم معه) ذلك الذى نتحدث عنه عندما نتكلم عن مصطلح « الاستيعاب » .

لكن دعونا الآن نتأمل ونفكر فى حدث التلقى كما نجربه ونعيشه نحن أنفسنا ، إن الجسد الإنسانى مع تنوعه المميز هو - بالتأكيد - ميراثنا الخاص وجذورنا الشخصية فى تاريخ التطور والخليقة عبر أسلافنا المحددين ، ومع ذلك فهو أيضًا مدخلنا إلى عالم يتجاوز فهمنا فى كل اتجاه ، وهو أيضًا وسيلتنا للتواصل مع أشياء وحيوات مازالت غير متكشفة ، مفتوحة ، وغير محددة تحيط بنا ، وبالفعل من منظور حواسى الجسدية ليس هناك من شىء يتضح كمادة نهائية ، وكاملة ، ومحددة ، كل شىء ، كل ذات يراها جسدى تقدم وجها ما أو واجهة لنفسها أمام نظرى فيما تحجب جوانب أخرى عن مجال الرؤية بالنسبة إلىّ .

إن طاجن الفخّار الموضوع على المائدة أمامى يلتقى بعينى بسطحه المستدير والخشن ، ومع ذلك فإننى أستطيع أن أرى جانبًا واحدًا من هذا السطح ، إن الجانب الآخر للطاجن خفى بالنسبة إلىّ ، غير مرئى عبر الجانب الذى أنظر إلى زاويته الآن ، ومن أجل أن أرى الجانب الآخر ، فإنه يتوجب علىّ أن أحمل الطاجن وأديره فى يدى ، أو أن أقوم وأمشى حول المائدة الخشبية ، ومع ذلك ، وحينما أفعل ذلك فإننى لا أعود أتمكن من رؤية الجانب الذى نظرت إليه أولاً من زاويتى ، بالتأكيد أنا لا زلت أدرك أنه موجود ، وأستطيع حتى أن أشعر بوجوده من هذه الناحية التى أراها وأنا أنظر إلى الطاجن أمام المصباح ، ومع ذلك فإننى أنا نفسى غير قادر على رؤية الطاجن بأكمله مرة واحدة .

الأكثر من ذلك ، وفيما أتفحص سطحه الخارجى فإننى قد قبضت على لمحات من الداخل الناعم الملمس للطاجن ، عندما أقف لأنظر إلى هذا الباطن الذى يلمع مع انعكاسات مستديرة من نور السماء فوقى فإننى لا أستطيع أن أرى سطح الخارج الخشن فى تلك اللحظة ، إن هذا الوعاء الأرضى يكشف لى هكذا جوانب من حضوره فقط عبر حجب جوانب أخرى من ذاته من أجل المزيد من التفحص والبحث ، لايمكن أن يكون هناك تساؤل عن مدى استنفاد ذلك الحضور للطاجن بالنسبة لحواس التلقى لدىّ ، إن وجوده فى محض ذاته كطاجن يؤكد بأن هناك أبعاداً كاملة غير متاحة لى ، أكثرها وضوحاً الأشكال المخفية ما بين باطنها الناعم وخارجها الخشن . وتلك الكثافة الداخلية لجسد الفخار إذا ما حطمتها إلى قطع أملاً فى اكتشاف تلك الأشكال والتصميمات الداخلية أو التكوين الرقيق لأبعادها الدقيقة فإننى سأكون قد دمرت كينونتها كطاجن ، وما أبعد ذلك عن قدرتى على إدراكها ككلية واحدة ، سوف أكون ببساطة قد خربت أية إمكانية للوصول إلى معرفة أبعد ، كونى قايضت العلاقة ما بين نفسى والطاجن من أجل العلاقة مع مجموعة من الشظايا .

وحتى وجهًا واحداً من هذا الطاجن يقاوم احتواءه كاملاً بنظرتى ، ذلك أنه مثل نفسى ، فإن الطاجن هو كائن مزاجى ، وكينونة تتحرك وتتغير عبر الزمن ، بالرغم من أن إيقاع تحولاته قد يكون أكثر بطءاً من تحولاتى ، فى كل مرة أعود فيها إلى التحديق فى السطح الخارجى الخشن للطاجن فإن عيناى ومزاجى يكونان قد تحولا ، حتى ولو قليلاً مستعينين بالمعلومات السابقة لرؤيتى للطاجن ، إن حواسى الآن أكثر اعتياداً على الطاجن ، وباستمرار أكتشف جوانب جديدة وغير متوقعة ، غير أن هذا جزئيًا بسبب أن الطاجن قد تغير أيضًا كنتيجة - ربما - لتحولات الضوء المنصبّ من النافذة والغبار ، والإرهاق ربما كنتيجة من تفحصاتى السابقة له ، إننى عندما أنظر الآن إلى سطحه الخارجى الخشن حيث كنت قد رأيت سابقًا امتداداً متجانسًا من الرمادى المشع فإننى أرى الآن بعض الداكن المتنوع ، بعض البقع قديمة وبعضها حديثة - وهذا هو تسجيل للأيادى الكثيرة التى لامسته خلال الفصول - إن كل بقعة تدعونى إلى التحديق فيها عن قرب أكثر حتى أُميز هذه البقعة من غيرها ، وحتى أميز أيًا منها

كانت من أثر يداى ، وأيًا منها كان لأيادٍ أخرى ربما أضخم من يداى ، أو أدق ، وأيًا منها هو آثار تلك الأيادى الأولى التى صنعت هذا الطاجن من الفخار منذ أعوامٍ طويلة مضت .

وفيما ينتظر الطاجن اشتباك عيناى الأعمق معه ويداى ، فكذلك هو وضع كل شىء أو مادة فى هذه الغرفة حيث الدعوة مفتوحة وموجهة لمشاركة حواسى فى ذلك – الخزانة الخشبية بأدراجها الممتلئة ، والنباتات فى الأصص وهى تلتف بهدوء لمواجهة نور الشمس ، والكؤوس المختلفة ، والأطباق الموضوعة فى أعلى المغسلة القديمة بأنابيبها الخفية والقديمة ، والطاولة الأثرية المصنوعة من أخشاب شجر الصنوبر التى أكتب عليها الآن ، وبقع القهوة عليها وجروح السكين الكثيرة التى تركت آثارها على الخشب ، وتلك الأقلام التى التصقت بأصابعى عليها ، والكتب التى تناديني من على الأرفف كى أقرأها بعمق أكثر ، بعضها يذكرنى بطفولتى ، وبعضها ينتظر ببرود كما يبدو حتى أعيده إلى المكتبة العامة . مثل الطاجن الفخارى فإن كل حضور يقدم بعض أوجهه التى تلتقى ببصرى فيما بقيته كامنًا فى الخفاء وراء أفق وضعى اللحظى ، كل منها يدعونى للتركيز بحواسى عليه ، وأن أدع الأشياء الأخرى تسقط فى الخلفية فيما أنا أدخل فى عمقه الخاص ، وعندما يستجيب جسدى للحضور الأخرس لكائن آخر فإن هذا الكائن يستجيب لى بدوره ، كاشفًا لحواسى بعض الجوانب الجديدة أو الأبعاد التى تدعونى بدورها لتكشّفاتٍ أبعد ، إنه عبر هذه العملية تستطيع حواسى بالتدريج أن تعوِّد نفسها على أسلوبية الحضور الآخر – إلى الكيفية التى تكون فيها هذه الصخرة ، أو الشجرة ، أو المائدة – فيما يبدو الآخر أنه يضبط وضعه نفسه مع أسلوبى وحساسيتى . بهذه الطريقة والتصرف فإن أبسط الأشياء يمكن أن يتحول إلى عالم بالنسبة إلىّ ، فيما عبر المحاورة ، الشىء أو الكائن يأخذ مكانه بعمق أكبر فى داخل عالمى .

إن التلقى والاستيعاب فى أعمال ميرلو بونتى هو تمامًا هذا التلقى ، ذلك التداخل والتبادل المستمر ما بين جسدى والكينونات المحيطة به ، إنه حوار صامت نوعًا ما ذلك الذى أحمله مع الأشياء ، وحوار ديالوج مستمر يتكشف ببعد أكبر من وعيى الشفاهى

- وغالبًا حتى بشكل مستقل عن وعيى الشفاهى ، مثلما حين تكون يداى جاهزتين لتفحُّص الفضاء ما بين هذه الصفحات المكتوبة وفنجان القهوة على الطاولة دونما أن أضطر إلى التفكير فى ذلك ، أو عندما تتسلق ساقاى مكانًا وترتب أمر أوضاعها دونما وعى شفاهى يوجه تلك الترتيبات . كلما هدأتُ من الثرثرة المعتادة للكلمات داخل رأسى فإننى أجد هذه الرقصة الصامتة بدون كلمات تمضى لوحدها - ذلك الدويتو المُنَسَّق ما بين جسدى الحيوانى وهذه الأرض الطيعة ، المتنفسة ، التى يحيا فيها جسدى .

الحضور الروحى للعالم المحسوس

من أين ينبثق التلقى والاستيعاب ؟ إننى لا أستطيع القول فى الحقيقة إن استيعابى المتلقى لزهرة برية معينة بألوانها وعطرها ، قد حدث نتيجة الوردة تماماً – بما أن أشخاصا آخرين يمكن لهم أن يخبروا نوعا ماشذى مختلفا ، حتى أنا فى لحظة مختلفة ، أو مزاج آخر قد أرى الألوان بشكل مختلف ، وبالفعل بما أن أى نحلة تضىء على هذه الزهرة المتفتحة سيكون لها وجهة نظر تلقٍّ مختلفة عنى ، ولكنى لا أستطيع أيضا القول فى الحقيقة بأن استيعابى المتلقى قد حدث وتسبب عبرى فقط عبر جهازى العصبى أو الجسدى – أو أنه يوجد تماما داخل رأسى ، وذلك أنه من غير الوجود الفعلى لتلك الكينونة الأخرى لتلك الزهرة المتجذرة لا فى دماغى ولكن فى تربة الأرض ، لن يكون هناك أى استيعاب و تلقٍّ حسىّ للشذى أو اللون على الإطلاق ، لا لنفسى ولا لأى آخر ، سواء كان إنسانا أو حشرة .

إذن لا المتلَقِى ولا المُتلَقى سلبى تماما فى حدث التلقى :

إن « نظرتى» تنضم إلى اللون ، ويدى تنضم إلى الخشونة والنعومة ، وفى هذا التداخل مابين موضوع أو مادة الحواس والمحسوس لايمكن الافتراض بأن أحداً ما يفعل والآخر يتعذب أو يعانى من ذلك الفعل ، أو أن شيئا ما أو كينونة ماتمارس الفوقية على الأخرى ، وبعيداً عن حواس نظرى أو يداى وقبل أن يختبر جسدى ذلك فإن المحسوس ليس سوى استحضار غامض .

إن هناك إذن استدعاء لجسدى نحو المحسوس ، وتساؤل للمحسوس موجه نحو جسدى ، إنه تعارف متداخل .

... [إن نوعية حسية، مثل اللون الأزرق] على طرف حد الإحساس به تقدم نوعًا من المشكلة التورطية لجسدى ليحلها ، إن علىّ أن أجد الموقف الذى سيزوده بالسبل التى تحوله إلى محدد ، وواضح كأزرق ، إن علىّ أن أجد الإجابة لسؤال يتم التعبير عنه بشكل ملتبس ، ومع ذلك فأنا أفعل ذلك فقط عندما يدعونى إليه ، إن موقفى ليس كافيا فى حد ذاته أبداً ليجعلنى أرى حقيقة الأزرق أو ألمس بالفعل السطح الخشن . إن

المحسوس يهبني ماقد أقرضته ، ولكن هذا كان فقط ماقد أخذته منه في المكان الأول ، حين أفكر متأملا الأزرق في السماء ... فإنني أترك نفسي له وألج إلى هذا الغموض ، إنه يفكر أنه نفسه بداخلي ، إنني أنا السماء نفسها في تواجدها ، وفيما وعيي يكون غارقًا في أزرقها غير المحدود ...

إنه في فعل التلقي – بكلمات أخرى – أنا أدخل في علاقة متقاطعة مع المتلقي ، ويكون ذلك ممكنًا فقط لأنه لا جسدي ولا المحسوس يوجد خارج قطيع الزمن ، و هكذا لكل منا حيويته الخاصة ، نبضه وأسلوبه ، إن التلقي بهذا المعنى هو تواؤم أو تصافٍ مابين إيقاعاتي وإيقاعات الأشياء نفسها ، نبرتها وملمسها :

... إنه في حدود ماتعرفه يدي عن الخشونة والنعومة ، ومعرفة نظرتي لضوء القمر، إنه مثل طريقة معينة للارتباط مع الظاهرة والتواصل معها ، إن الخشونة والنعومة والصلابة والليونة ، ضوء القمر أو شعاع الشمس ، كلها تقدم نفسها في ذكرياتنا لا كمضامين حسية مسبقة ولكن كأنواع محددة من التعايش المشترك ، طرق معينة للخارج يستطيع بها غزونا ، وطرق معينة لنقابل بها ذلك الغزو ...

في هذه الرقصة اللامتناهية مابين الموضوع أو المادة وعالمها ، في لحظة ما الجسد يقود ، وفي لحظة أخرى الأشياء ، في فقرة مضيئة طرح العمق الحميمي للعلاقة السابقة أو للمفاهيم للجسد مع الأشياء المحسوسة أو القوى المحيطة به ، يكتب ميرلو بونتي حول التلقي بكلمات ذات إثارة سحرية للجسد ، و " المَس " المقابل للجسد المتلقي :

" إن العلاقات مابين الإحساس والمحسوس به يمكن مقارنتها بمثل تلك العلاقات مابين النائم ونومه ، إن النوم يأتي فجأة عندما موقف إرادي محدد يتلقى فجأة من الخارج التأكيد الذي كان ينتظره ، إنني أتنفس بعمق وببطء حتى أدعو النوم إليّ ، وفجأة وكأنما فمي يرتبط برئة عظيمة ما خارج نفسي والتي تدعو وتسيطر على تنفسي ، إن إيقاعا محدداً من التنفس ، والذي كنت منذ لحظة مضت أسيطر عليه إراديا قد أصبح الآن هو وجودي وكينونتي ذاتها ، والنوم حتى الآن الذي أنشده في ... ، فجأة أصبح حالتي. وبالكيفية نفسها حين أمنح أذني ، و نظرتي ، في توقع الإحساس ، وفجأة يستولي المحسوس على أذني أو نظرتي ، وأستسلم بجزء من جسدي ، أو جسدي بكامله ، لتلك الكيفية من الإبداعات والفضاء الممتلئ بذلك المعروف كأزرق أو أحمر ...» .

مـالذى يمكننا أن نصنعـه من هذه الطرق الغـربيـة للـحـديث ؟ فى هـذه الفـقـرة وغيرها من الفقرات فى عمل مـيرلو بونتى الأسـاسـى " علم ظواهر التلقى " ، الشىء المحسوس والشائع فى تقاليدنا الفلسفية هو أن يكون مستسلما ، وسلبيًا ، وباطنيًا ، ويتم وصـفـه دائمًا فى الصـوت الفـاعل النشيط : إن المحـسـوس "محـير بالنسـبة لى" ، "يضع إشكالية لجسدى كى يحلها " " يستجيب " لأوامرى، و " يستولى على حواسى " وحـتى : "يفكر بنفسـه فى داخلى " . إن العـالم المحـسـوس ، أو بكلمـات أخـرى ، يتم وصفه كشىء نشيط ذى وجود ، " أنا " أكون نائمًا ذلك الذى يتنفس ، ولكن فى بعض الأحيان حى : إنه ليس " رئة عظيمة ماخارج نفسى تستدعينى وتسيطر على تنفسى " ، لون ماهو " سلوك من الذبذبة والفضاء الممتلئ " ، شىء ماهو " كينونة " ، " آخر " فى لحظة مايقبض بنفسه بعيدا عنا ، وفى لحظة أخرى " يعبر عن نفسه " بحيوية مباشرة لحـواسنا ، هكذا حـتى نسـتطيع بـالتـالى أن نصف التلقى كتـفـاعل متـبـادل " نوع من الممارسة مابين جسدى والأشياء ، بعبارة أخرى " .

هل يمكن عزو هذه الالتفاتات والجمل الوجدانية ببسـاطة إلى نوع من الرخصة الشعرية التى قدمها ميرلو بونتى إلى فلسفته ؟ هل هى شواهد لأسلوبيـة مصطنعة للكتابة ، كما قد كرر ذلك بعض النقاد ؟ لاأظن ذلك . إن ميرلو بونتى يكتب عن الأشياء المحسوسة والمستوعبة ككينونات لها مزايا حسية وكقوى ، والمحسوس فى حد ذاته كحقل للحضور الوجدانى والروحى ، من أجل الاعتراف بجهود المحسوس الحيوية والنشطة فى مجال خبرة التلقى ، لوصف الحيـاة الباطنية والروحية لأشياء محددة يقتضى ذلك ببساطة الطريقة الأكثر دقة لصياغة الأشياء كما نجربها بتلقائية، نحن متجاوزون كل مفاهيمنا المسبقة ومصطلحاتنا وتعريفاتنا لها .

إن تجربتنا وخبرتنا الأشد مباشرة مع الأشياء حسب ميرلو بونتى هى بالضرورة خبرة ذات بعد متبادل للقلق ، والتوتر ، والتواصل ، والاستنتاج ، إنه من أعماق هذا اللقاء نعرف الشىء أو الظاهرة فقط كشىء بداخلها يلمسنا ،كحضور حيوى يواجهنا ويجذبنا إليه فى العلاقة ، إننا مفاهيميًا نَشلُ أو نشيئ الظاهرة فقط عبر تغييبنا الذهنى لأنفسنا من هذه العلاقة ، عبر نسيان أو كبت تورطنا الحسى.أن نحدد ونعُرِّف كائنًا آخر كشىء أو مادة أو موضوع سلبى وباطنى هو أن نرفض قدرته النشطة على

إشغالنا وإثارة حواسنا ، وهكذا نقوم بسد تلقينا الحسى مع ذلك الكائن ، عبر التعريف اللغوى للعالم المحيط بنا كشىء جاهز من الأشياء والمواضيع ، فإن ما يقطع وعينا الذوات الناطقة من الحياة التلقائية لأجسادنا الحسية .

إذا - من جهة أخرى - رغبنا فى وصف ظاهرة محددة دونما أن نكبت خبرتنا المباشرة بها فإننا لن نستطيع آنذاك أن نتجنب التحدث عن الظاهرة ككينونة حيوية ، ووجدانية ، نجد أنفسنا متفاعلين معها ، إنه من أجل هذا السبب استخدم ميرلو بونتى باستمرار الصوتَ النشط الحيوى لوصف الأشياء والميزات وحتى العالم نفسه ، بالنسبة للجسد الحسى والحساس لاشىء يقدم نفسه كشىء سلبى وباطنى مغلق ، إنه فقط عبر التأكيد على روحانية الأشياء المتلقاة نستطيع أن نسمح لكلماتنا بأن تنبع مباشرة من أعماق تلقينا المتبادل مع العالم .

التلقى والاستيعاب كمشاركة

لو رغبنا فى أن نختار مصطلحًا واحدًا لتوصيف حدث التلقى كما يتم طرحه فى التوجه الظواهرتى فلعلنا أن نستعير المصطلح " مشاركة " كما قد استخدمه عالم الأنثروبولوجى (علم الإنسان) الفرنسى لوشيان ليڤى برهل ، وهو أحد علماء هذا الحقل المبكرين، إن المؤسس العبقرى لمدارس " المفاهيمية "و" الرمزية " الأنثروبولوجية اليوم ليڤى برهل استخدم كلمة " مشاركة " لتوصيف المنطق الوجدانى أو الروحانى للشعوب الأصلية ذات الثقافة الشفاهية ، والذين بالنسبة إليهم فإن هناك يقين حى بأن (الأشياء مثل الحجارة أو الجبال) غالبا ماتكون حية ، وأن هناك أسماء معينة ، إذا مانُطقَ بها عاليا ، ربما يُحَس أنها تؤثر من بعد على الأشياء أو الكائنات التى تمت تسميتها ، والذين بالنسبة لهم فإن نباتات معينة، وحيوانات معينة ، وأماكن معينة ، وأشخاص وقوى كلها يمكن لها أن يُحس بأنها تشارك فى وجود بعضها بعضًا ، مؤثرة على بعضها بعضًا ومتأثرة بذلك بالمقابل .

بالنسبة إلى ليڤى برهل كانت المشاركة إذن علاقة مستوعبة مابين ظاهرة متنوعة ، فيما عَمَل ميرلو بونتى يطرح أن المشاركة هى تحديد معطيات التلقى فى حد ذاته . عبر التأكيد على أن التلقى – من وجهة النظر الظواهرتية – تشاركٌ فى الأصل ، فإننا نعنى بأن التلقى دائما يتعلق – فى أعلى مستوياته الحية الوجدانية – بالخبرة للتفاعل الحيوى ، أو المزاوجة مابين الجسد المتلقى وذلك المتُلقَى ، والأسبق لكل تأملاتنا المنطوقة ، وعلى مستوى حواسنا التلقائية المشتبكة مع العالم من حولنا فإننا كلنا روحانيون ووجدانيون .

إن بعض الرؤى للطبيعة التشاركية يمكن إضاءتها عبر مجال حرفة ساحر خفة اليد، ذلك أن العملية نفسها تعتمد على المشاركة النشطة مابين الجسد والعالم لخلق ذلك السحر ، للعمل – على سبيل المثال – بدولار فضى يلجأ الساحر إلى استخدام مهارة خفة اليد حتى يقوى من الحضور الخاص بالمادة ، مولدًا فجوات غامضة فى رؤية العملة ، إن عيون المشاهدين – وقد تم تركيزها بالفعل على التراقص المنساب

للعملة مابين أصابع الساحر – تملأ بشكل تلقائي تلك الفجوات بأحداث غير معقولة ، وهذه المشاركة التلقائية للمشاهدين بحواسهم هي مايُمكّن من الاختفاء والظهور ، أو المرور عبر يدي الساحر .

بعد أن أضع عملة الدولار الفضي في يدي اليُمني – علي سبيل المثال – مديرا إياه بعض الوقت لجذب انتباه المشاهدين ، فإنه يمكن لي فجأة أن أخبئه وراء اليد ، قابضاً عليه مابين إصبعين حتي لايكون واضحاً لعيون المشاهدين ، إذا – بعد لحظات من ذلك – مددت يدي في الهواء علي الجانب الآخر من جسدي بيدي اليُسري ، وأحضرت إلي المشهد دولاراً فضياً آخر كان مقبوضاً عليه بين أصابع هذه اليد ، فإن الجمهور سوف يتلقي عادة شيئاً يبدو مثيراً وغريباً في مشهديته ، إن المشاهدين لن يستوعبوا أن عملة معدنية كانت قد اختفت لبرهة ما فيما عملة أخري تماماً في مكان آخر تم جلبها من مخبئها ، بالرغم من أن هذا بالتأكيد هو التفسيرالواضح والمنطقي لما قد حدث ، والأغلب إنهم سوف يفهمون بأن عملة واحدة تم اختفاؤها من يدي اليمني قد تحركت دون أن تُري وبشكل خفي عبر الهواء وعادت للظهور من جديد في يدي اليُسري ! ذلك أن الجسد المتلقي لايحسب الاحتمالات المنطقية ، إنه يعرف في مشاركته في نشاط العالم ، معيراً إياه خياله للأشياء من أجل أن يراها بشكل أكثر امتلاءً ، إن الرحلة غير المرئية للعملة يتم عزوها بشكل تلقائي إلي النشاط الإباحي للحواس ، إن الساحر يدعونا للمساعدة في رؤية أشياء والتحديق بها ، ثم يُذهلنا بذلك الذي نبدعه نحن أنفسنا !

من وجهة نظر الساحر أو عالم الظواهرتية فإن ذلك الذي ندعوه " بالخيال " هو من البداية منحة من الحواس نفسها ، فالخيال ليس بمنفصل عن الهيئة الذهنية (كما نفترض علي الدوام) لكنه بشكل آخر هو الطريق الذي تقذف به الحواس نفسها إلي ماهو أبعد من المعطي المباشر ، من أجل أن تخلق تواصلاً حساساً مع الجوانب الأخري للأشياء التي لاندركها مباشرة مع الخفي أو الجوانب غير المرئية للمحسوس، ومع ذلك فإن مثل تلك الإسقاطات (أو التوق للحواس) ليست عشوائية ، إنها تستجيب بشكل منتظم للاقتراحات التي يقدمها المحسوس نفسه . إن الساحر– علي سبيل المثال – قد جعل السحر مسيطراً علي الجمهور عبر متابعة للرحلة غير المرئية للعملة بتركيز عينيه ، وعبر " إحساس " خيالي بالعملة وهي تغادر يداً لتصل إلي راحة اليد الأخري ، إن الجمهور يستشعر مستجيباً للحركة الخافتة في جسد الساحر وفي العملة أيضاً ، وسيجد آنذاك التأثيرَ صعب المقاومة ، وبكلمات أخري إنه عندما يدع الساحر " نفسه " تحت أسر السحر فإن الجمهور سيكون طائعاً للحاق به .

بالطبع هناك أولئك القلة الذين ببساطة لن يروا السحر ، سواء فى أداء أو فى العالم عموماً مسلحين بتفسيرات وتحليلات لاتنتهى ، إنهم " يرون " فقط كيف يمكن لتلك الحيلة أن تُعمل ، ومن المعتاد أن يدّعوا أنهم قد "قبضوا بنظرهم على الأسلاك " أو أنهم قد رأونى وأنا" أرمى باحتيال العملة إلى اليد الأخرى " ، بالرغم من أننى أنا نفسى لم أفعل ذلك على الإطلاق ، مُشجَعين عبر النسق الحضارى أو الثقافى الرافض لغير المتوقع والذى يضع أولوياته على مسألة الموضوعية غير المنحازة ، فإن أشخاصاً كهؤلاء يحاولون أن يحبطوا أية مشاركة لحواسهم فى الظاهرة المتمثلة أمامهم ، مع ذلك فإنهم يستطيعون فعل ذلك فقط عبر الإسقاط الخيالى لظاهرة أخرى (أسلاك ، أو خيوط ، أو مرايا)، أو بإشاحة النظر .

فى الحقيقة ، بما أن فعل التلقى دائماً ذو نهاية مفتوحة وغير مكتملة فإننا لايمكن لنا أن نكون مُغلَقين تماماً فى أية لحظة معينة من المشاركة ، فيما يشيح المشاهد بعينيه عن سحر الساحر ، فإننا دائماً بشكل ما أحرار فى كسر مشاركتنا مع أية ظاهرة معينة ، وبهذه الكيفية مستغرق فى تأمل حفنة من الحشائش فإنه يمكن لى بالرغم من ذلك أن أحول اهتمامى إلى مجموعة الأشجار القريبة ، أو أن تركيزى يحدث له فجأة أنه يتجه إلى ذبابة قد حطت على أنفى . وبالمثل فإنه يمكن لنا أن نكسر ببساطة ولعنا بدعاية تلفزيونية من أجل أن نلحظ كيف تلعب على عواطفنا ورغباتنا، غير أننا نؤجل مثل هذه المشاركة من أجل مشاركات أخرى حادثة بالفعل مع الأشخاص الآخرين فى الغرفة ، مع الكرسى اليابس وغير المريح الذى نجلس عليه ، مع أفكارنا الشخصية وتحليلاتنا .

إننا دائماً مانحتفظ بالقدرة على استبدال أو تأجيل أية لحظة معينة من المشاركة ، ومع ذلك فإننا لانستطيع أبداً أن نؤجل أو نلغى ذلك التدفق من المشاركة نفسها .

الإحساس الجسدى - امتزاج الحواس

حتى الآن كُنّا قد تحدثنا عن التلقى بشكل بصرى ، غير أن التلقى يشمل اللمس أيضًا والسَمع والشم والتذوق ، عبر مصطلح " التلقى " نحن نعنى النشاط الكلى لكل حواس الجسد كما تعمل وتزهر " معًا ". بالفعل إذا قربت انتباهى لخبرتى غير الناطقة لتحولات سطح الأرض من حولى ، فإنه يجب على أن أعى بأن تلك الحواس المدعوة بالمنفصلة هى حواس مختلطة ببعضها بعضًا ، وأنه يحدث فقط بعد الأمر أن أستطيع العودة للخلف وأن أفصل المعطيات المحددة لعينىّ ، وأذناى وبشرتى ، وحال ما أحاول أن أميز مدى نصيب أى من هذه الحواس عن الأخرى فإننى بالتالى أظلم المشاركة الكلية لجسدى الحساس مع الأرض الحسية .

عندما - على سبيل المثال - أشهد هبوب الرياح من خلال أغصان شجرة الحور فإننى أكون غير قادر فى البداية على تمييز منظر تلك الأغصان المرتجفة بأوراقها من حفيفها المرهف ، إن عضلاتى أيضًا تحس بتلك الرياح فيما تنحنى تلك الأغصان وبخفة شديدة فى مواجهة هبوب الرياح ، و هذا يولد لقاء مع نوع معين من التوتر ، إن هذا اللقاء أو الاحتكاك يتأثر أيضًا بالرائحة المنعشة لرياح الخريف ، وحتى بطعم تفاحةٍ مازال عالقًا بلسانى .

وبالرغم من ذلك فإن فى هذه المحاولة القصيرة للإقرار بعطاء الحواس المختلفة كان علىّ أن أعزل نفسى من " الأرضية الرئيسية لخبرة الحواس والتى تسبق تقسيماتها مابين الحواس المختلفة " ، وبالرغم من أن علم الأعصاب المعاصر يدرس " الإحساس الجسدى" - المجال الكلى لامتزاج الحواس - وكأنه خبرة تشريحية نادرة لا يشعر بها إلا قلة من الناس (أولئك الذين يبلغون عن "رؤية الأصوات " ، و " سماع الألوان " ومايشبه ذلك) فإن خبرتنا السابقة للمفاهيم كما يضعها ميرلو بونتى هى إحساس جسدى بالضرورة . إن تمازج القدرات الحسية والحواس يبدو غير عادى لنا فقط إلى درجة أصبحنا فيها مغتربين عن خبراتنا المباشرة (وبالتالى عن احتكاكنا الأساسى مع الكينونات والعناصر التى تحيط بنا) :

... إن التلقى عبر الإحساس الجسدى هو القانون ، ونحن غير واعين به فقط لأن المعرفة العلمية تحول مركز الجاذبية للخبرة ، حتى إننا علينا أن نتخلى عن معرفتنا بكيفية الإبصار والسمع ، وبشكل عام الشعور من أجل أن نقلص من تنظيماتنا الجسدية والعالم كما يفهمه الأطباء والعلماء ، فيما يتعلق بما نراه ، أو نسمعه ، أو نشعر به .

بالرغم من ذلك مازلنا نتحدث عن الألوان " الباردة " أو " الدافئة " ، وعن الملابس "الصارخة " ، وعن الأصوات " الصلبة " أو " الخشنة " ، إن الجسد الناطق يحوِّل بيسر الصفاتِ من مستوى حواسيّ معين إلى آخر تبعًا لمنطق نفهمه بسهولة لكننا لانستطيع أن نشرحه بالبساطة نفسها .

إن الكثير من الغربيين يصبحون واعين لذلك التداخل مابين الحواس فقط عندما يتعطل مؤقتًا ذلك المنطق المفترض التحليلى لثقافتهم وحضارتهم .

ميرلو بونتى يناقش التأثير على الباحثين الأوروبيين لنبتة الهلوسة المخدرة (ميسكالين) ، والمستخلصة من الصبّار المكسيكى ، وهى نبتة يتم استخدامها تقليديًا فى الاحتفالات الطقوسية للقبائل الأصلية فى المكسيك وأمريكا الشمالية .

"إن تأثير نبتة " الميسكالين " عبر إضعاف الموقف غير المتحيز والاستسلام للموضوع وحيويته عليه (إذا كنا محقين) أن ينحاز إلى أشكال خبرة الإحساس الجسدى ، وبالفعل تحت تأثير " الميسكالين " فإن صوت الناى يعطى لونًا أخضر مزرق ، (و) آلة قياس النبض بدقاتها فى الظلام يتم ترجمتها إلى بقع رمادية ، الوقفات الزمنية مابينها تستجيب إلى الوقفات الزمنية مابين الدقات ، الحجم للبقعة بالمقارنة بعلو صوت الدقة ، وارتفاعها بالقياس إلى ارتفاع الصوت ، إن شخصًا واقعا تحت تأثير " الميسكالين " يعثر على قطعة من الحديد يقذف بها إلى النافذة ويتعجب : " إن هذا لسحر " ، إن الأشجار تزداد خضرة ... أن ترى من وجهة نظر العالم الموضوعى ، فإن ظاهرة الإحساس الجسدى وخبرته تبقى محيرة ... " .

غير أنه إذا نُظِر إليها من وجهة نظر حياة العالم – من منظور من خارج الوعى النظرى – فإن مثل هذه التجارب والخبرات يتم وعيها كنوع من التضخم أو التركيز الشديد لظاهرة عادية غالبًا ماتحدث طوال الوقت .

إن هذا ليس رفضًا لتمايز النماذج مابين الحواس ، إنه للتأكيد على أنها نماذج متمازجة فى الجسد المفرد والمتوحد والحى ، وأنها قوى مكملة لبعضها بعضًا تتطور فى تداخل معقد مع بعضها بعضًا ،إن كل حاسة هى نموذج متميز لهذا الوجود الجسدى، ومع ذلك من خلال نشاط التلقى فإن هذه النماذج المتنوعة للحواس تتداخل فى تواصلها وتختلط . إنه هكذا إذن حين يحلق غراب فى البعيد هو ليس - بالنسبة إلىّ - مجرد صورة بصرية ، حين أتابعه بعينى فإننى بالضرورة أشعر بتمدد وتقلص جناحيه مع عضلاتى أنا ، وهبوطه المفاجئ على أشجار قريبة هو إحساسٌ جسدىّ وليس مجرد خبرة بصرية بالنسبة إلىَّ .

إن نعيق الغراب العالى والمتقطع وهو يحوم فوق الرؤوس ليس مقصوراً على المجال السمعى حصراً ، إنه يجد صداه "من خلال " الوجدان الحى ، المباشر ، للأرض المرئية بالأسلوب العبثى ، أو المزاج الصحيح الذى يتجاوب مع ذلك الشكل الطائر الأسود ، إن حواسى المتعددة والنابعة كما تفعل من جسد واحد ، متجانس ، تنبع بتجانس أيضا فى الشىء المستوعَب، تمامًا كما الأبعاد المنفصلة لعينىّ الاثنتين تقع على الغراب وتتوحد فى تركيز بصرى واحد ، إن حواسى تتواصل مع بعضها بعضا بطريقة منسجمة ، وهذا هو مايمكننى من تجربة خبرة الشىء نفسه كمركز للقوى ، كشكل آخر للخبرة ، كآخر .

وبما أننا ، فيما وصفنا التلقى كمشاركة حيوية مابين الجسد والأشياء فإننا الآن نجد فى فعل التلقى مشاركة مابين أنظمة الحواس المتعددة للجسد نفسه ، وبالفعل إن هذه الأحداث ليست بمنفصلة ؛ ذلك أن تمازج الجسد مع الأشياء التى يتلقاها ويستوعبها تتأثر فقط عبر تداخل النسيج لحواسى ، والعكس صحيح ، إن الامتزاج النسبى لحــواسى الجسدية (العينان فى مقدمة رأسى، الأذنان إلى الخلف، ... إلخ) وتلك الثنائية الغريبة (ليست عينا واحدة بل اثنتين ، كل منهما فى جانب من وجهى ، وكذلك الأذنان ، والمنخران ، ... إلخ) تشير إلى أن هذا الجسد هو شكل قد خلق لهذا العالم ، إنه يضمن أن يكون جسدى نوعًا من الدائرة المفتوحة والمكملة لنفسها فقط عبر الأشياء ، الآخرين فى هذه الأرض الحاضنة .

إن استعادة شفاء الحواس هو استعادة اكتشاف الأرض

فى خريف عام ١٩٨٥ ضرب إعصار قوى ضواحى " لونج آيلند " حيث كنت أعيش كطالب ، لأيام عديدة بعد ذلك كان معظم السكان يعيشون بدون تيار كهربائى ، كانت الخطوط الكهربائية كلها قد انقطعت ، وكذلك التليفونية ، وكانت الشوارع تعجُّ بالأشجار المتساقطة ، كان على الناس أن يسيروا إلى أعمالهم ، إلى أية دكاكين يقصدونها مازالت مفتوحة ، بدأنا نقابل بعضنا بعضًا فى الشوارع " شخصيًا " بدلاً من الاتصالات الهاتفية ، فى غياب السيارات ومحركاتها المزعجة فإن إيقاعات الجنادب وزقزقة العصافير صارت مسموعة ، كانت أسراب الطيور تهاجر جنوبا فى الشتاء ، وكثيراً منا وجد نفسه ببساطة يستمع بفضول جديد وطفولى لتلك الزقزقات على الأشجار وفى الحقول ، وفى الليل كانت السماء تعُج بالنجوم ! الكثير من الأطفال ، لم تعد عيونهم معمية بأنوار البيوت المشعة وأنوار الشوارع الصارخة ، رأوا الدرب الحليبى للنجوم للمرة الأولى ، وكانوا مندهشين . فى تلك الأيام والليالى القليلة صارت مدينتنا مجتمعًا واعيًا بمكانه فى هذا الكون المحيط بنا ، وحتى أنوفنا بدت وكأنها تستيقظ ، الروائح الطازجة من المحيط بدت أكثر حيوية وملحًا ، إن توقف التكنولوجيا المحيطة بنا قد أجبرنا على العودة إلى أرضنا الطبيعية التى تنغرس فيها هذه الحواس إلى العمق ، لقد وجدنا أنفسنا فجأة مواطنين فى عالم حسى كان فى انتظارنا لسنوات على حافة وعينا ، أرض ومحيط حميم مسكون بزقزقة العصافير ، وملح البحر ، وضوء النجوم .

حين نعيد تعارفنا مع أجسادنا التى تتنفس فإن العالم المُتَلقَى نفسه يبدأ فى التحرك والتحول ، حينما نبدأ بوعى فى ارتياد البعد الذى هو بدون كلمات لمشاركتنا الحسية فإن ظاهرة معينة اعتادت قيادة تركيزها تبدأ فى فقد ولعها المميز والتسلل إلى الخلفية ، فيما حضور مُتَجاهَل أو غير ملحوظ يبدأ فى الوقوف أمامًا من الهامش ليُشاغِل وعينا . إن الأشياء التى لاحصر لها من صنع الإنسان والتى نحن منشغلون بها عادة - الشوارع الإسفلتية والأسوار وأسلاك التليفونات والنباتات والأنوار الكهربائية والأقلام المدببة البلاستيكية والسيارات وإشارات المرور فى الشوارع والعلب البلاستيكية والصحف والراديوات وشاشات التلفزيونات - كلها تبدأ فى عرض أسلوب مشترك ، وهكذا تبدأ فى فقد بعض اختلافاتها فى هذه الأثناء ، الكينونات العضوية - العصافير والسناجب والأشجار والحشائش البرية المحيطة ببيوتنا ، صوت الحشرات ، الينابيع والسحب ، والأمطار - كلها تبدأ فى عرض حيوية جديدة كل منها يتعايش مع الجسد المتنفس فى رقصة متميزة ، حتى الصخور والأحجار تبدو أنها تتحدث لغاتها التلقائية فى الحركة والظلال ، داعية الجسد وعظامه إلى تواصل صامت فى صلة مع الأشكال الأصلية للأرض ، فإن حواس الشخص تندفع فيها الطاقة بهدوء وتستيقظ مازجةً ومعيدة تركيب النماذج المتحولة على الدوام .

ذلك أن هذه الأشكال الأخرى والكائنات قد تشاركت فى التطور مثل أنفسنا مع بقية الأرض المتحولة ، إن إيقاعاتها وأشكالها متشكلة من سطوح فوق بعضها من الإيقاعات المبكرة ، وفى انشغالها مع حواسنا تقود إلى عمق لاينتهى يتجاوب صداه مع أبداننا نفسها . إن النماذج على سطح النهر فيما تتحرك على الصخور ، أو على جذع شجرة الدردْار ، أو فى حفنة أعشاب ، فإنها كلها مكونة من أشكال مكررة لاتعيد نفسها أبدا بالضبط فى أشكال يمكن لحواسنا أن تألفها ، حتى من خلال التحول التدريجى لتلك الأشكال التى تجذب وعينا دون توقع أو اتجاهات معروفة .

بالمقابل فإن الصناعات المنتجة للاستهلاك العام فى العالم المتحضر من علب اللبن الكرتونية إلى أجهزة الغسالات الكهربائية وأجهزة الكمبيوتر تجذب حواسنا إلى رقصة تكرر نفسها بلا نهاية دون تنويع ، بالنسبة للجسد الحساس فإن هذه المصنوعات هى - مثل كل الظواهر - حية وذات روح ، غير أن حياتها مقيدة بشدة " بأغراضها " المحددة التى صُنِعت من أجلها ، حين تسيطر أجسادنا على هذه

الأغراض فإن الأشياء المصنوعة آليا عادة ماتعلم حواسنا ماليس أبعد من ذلك ، إنها عاجزة عن إدهاشنا ، ولذلك فإنه يتوجب علينا باستمرار أن نحصل بروح استهلاكية على أشياء مصنوعة حديثًا ، تقنيات وآلات جديدة ، آخر موديل من هذا أو ذاك إذا أردنا أن نرفِّه عن أنفسنا .

بالطبع إن مصنوعاتنا البشرية تبقى محتفظة بعنصر مما هو أبعد من البشرى وآخر . إن هذه اللامعرفة ، ذلك الآخر يسكن غالبا فى الشكل المادى الذى صنعت منه تلك الأشياء والأدوات ، جذع الشجرة لعمود أسلاك التليفون ، الفخار فى الطوب الذى بنى به هذا المبنى ، المعدن الناعم الذى صنعت منه أبواب السيارة التى نتكئ عليها ، كل هذه مازالت تحمل – مثل أجسادنا – ملمس وإيقاعات نموذج نحن أنفسنا لم نخلقه أو نصنعه ، والحيوية الهادئة لتلك الأشياء تتماس مباشرة مع حواسنا ، غير أنه غالبًا ما تختنق هذه الحيوية فى البناء ذى الإنتاجية المعدة للاستهلاك العام ، مقطوعة عن بقية الأرض ، مسجونة فى الآلية التكنولوجية التى تطحن الأرض الحية . إن الخطوط السوبر مستقيمة والزوايا الدقيقة لمعمار مكاتبنا – على سبيل المثال – تجعل حواسنا الحيوانية بلا نفع وتذروها بعيداً فيما تقوى من دعائم الذكاء التجريدى الذهنى ، إن الوحشى، الطبيعة المولودة من الأرض للمواد – الأخشاب والطين ، والفخار ، والمعادن ، والأحجار التى استُخدِمَت فى المبنى – صارت بالفعل منسية وراء التجريدات المحسوبة للأشكال .

وبهذه الكيفية فإن الكثير من بيئتنا المبنية ، والكثير من الصناعات التى تسكنها تبدو للأسف بليدة وجامدة عندما نتعاطف مع أجسادنا ونتذوق العالم بحواسنا الغريزية الحيوانية (بالطبع هذا ليس للقول أن تلك الصناعات بريئة: فالكثير منها مزعج بشدة وصاخب ، ومعمى للأبصار حتى ، ذلك أن ماتفتقده هذه الأشياء فى التنويعات والإثارة عليها أن تعوض عنه فى الإبهار والضجيج الذى يحتكر حقل التلقى والاستيعاب) كلما افترضنا الوضع للحيوان البشرى – الموضوع الجسدى لميرلو بونتى – يحدث أن العالم المادى بأكمله يبدو وكأنه يستيقظ ويتكلم فيما الكينونات العضوية المولودة فى الأرض تتكلم بشكل أرقى بكثير من البقية ، ومثل الضواحى فيما بعد الإعصار ، نجد أنفسنا أحياء فى الحقل الحى لقوى أكثر قدرة على التعبير والتنوع عن المحيط البشرى المحض الذى اعتدناه .

و هكذا فإن شفاء وعودة العافية إلى البعد الحسى الطبيعى للخبرة والتجربة يجلب معه الشفاء وعودة العافية إلى الأرض الحية التى نحن متجذرون فيها ، عندما نعود إلى حواسنا فإننا نكتشف تدريجياً أن تلقينا واستيعابنا الحسى هو ببساطة جزؤنا ودورنا فى شبكة عمل واسعة متوالجة للتلقى والإحساس المتولد عبر أجساد كثيرة أخرى لاتحصى - مدعمةً بمعنى لا بذواتنا فقط ولكن بينابيع ثلجية، تضخ داخل مسطحات جرانيتية، وبأجنحة البوم والخفافيش ، وبذلك الذى لايُرى فى حضور الريح.

إن هذه الشبكة المتشابكة، بالطبع ، " عالم - الحياة " التى كرس هسيرل نفسه لها فى أعماله الأخيرة ، مازالت الآن كعالم حياة قد كشفت " كحقل " جسدى حسى عميق ، فيما هذا البعد نفسه للروائح والطعوم وأصوات الإيقاعات التى تدفئها الشمس وتعج بالبذور . إنها بالفعل لا شىء سوى الأجواء - التوازى مابين الحياة الأرضية التى نحن أنفسنا متجذرون فيها ، ومع ذلك فإن هذه ليست هى الأجواء التى صممها العالم الموضوعى التجريدى ، ولا التشكيل المعقد للآليات الفضائية التى تم افتراض أنها قد خططت وقيست عبر مراكبنا الفضائية الحساسة والبعيدة ، إنها بالأحرى الأجواء كما يتم الإحساس بها وخبرتها والحياة فيها " من الداخل " عبر الجسد الذكى - عبر الحيوان البشرى المهتم والحساس الذى هو بكامله جزء من العالم الذى هو أو هى يجربه ويعيشه .

الموضوع أو الشىء كبدَن

فى عمله الأخير " المرئى وغير المرئى " (العمل الذى لم يكتمل بسبب وفاته فى عام ١٩٦١) كان ميرلو بونتى يسعى إلى طريقة جديدة للحديث تكون معبرة عن رؤية للحيوان البشرى والعالم الذى يحيا فيه ، هنا يكتب هو بشكل أقل حول " البدن أو الجسد " (والذى فى أعماله المبكرة كان قد ضخم أساساً فيها الجسد البشرى) ويبدأ فى الكتابة بدلاً من ذلك عن " اللحم " الجماعى ، والذى يضخم أهمية كل من لحمنا و"لحم العالم " ، يقصد ميرلو بونتى باستخدام كلمة " اللحم " أن يشير إلى قوى مبدئية لم يكن لها أى مسمى فى التاريخ الكامل للفلسفة الغربية ، إن اللحم هو الخلايا الغامضة أو الرحم الذى يبطن ويمنح البزوغ للاثنين المُتلقِى والمُتَلَقى كجوانب متداخلة لنشاطه التلقائى ، إنه الحضور المستوعب للإحساس فى المحسوس والمحسوس فى الإحساس ، إنه الغموض الذى طالما كنا واعين به ، بما أننا لم نستطع أبدا أن نؤكد إحدى هذه الظواهر ، العالم المُتلقَى أو الذات المتلقية ، دونما أن نؤكد ضمنيا على وجود الآخر ، نحن غير قادرين حتى على أن نتخيل أرضا حسية لاتستطيع فى الوقت نفسه أن تُحَسَّ (بما أنه فى تخيل أية أرض كطبيعة لابد لنا من تصورها من منظور محدد ، وهكذا ندخل بحواسنا نحن ، وبأحاسيسنا بالفعل ، فى هذه الأرض – الطبيعة)، وبالمثل غير قادرين على تخيل كلى للذات الحساسة ، أو الإحساس الذى لن يكون غارقًا فى حقل ما من الظاهرة المحسوسة .

وبالرغم من ذلك فإن المسار العلمى التقليدى يميز الحقل الحسى بشكل تجريدى من التجربة أو الخبرة الحسية ، ويحافظ عموماً على رؤية الخبرة الشخصية على أنها قد " حدثت " بسبب وضع موضوعى وعملية فى الحقل الآلى الحتمى للمحسوس ، فى أثناء ذلك فإن الروحانية الخاصة بتيار العهد الجديد تتميز أو تفضل باستمرار

إحساسنا، أو الخصوصية بشكل تجريدى عن الشيء الحسى ، وغالبًا ماتطرح أن الحقيقة المادية فى حد ذاتها هى تأثيرات وهمية تسبّب فيها العقل غير المادى أوالروح ، وبالرغم أنه من الشائع أن يُرى من طرفى النقيض فى وجهات نظر العالم فإن هذين الموقفين يفترضان اختلافًا نوعيًا مابين الإحساس والمحسوس ، عبر عمل أولوية لأحدهما على الآخر . إن كلا وجهتى النظر ترعيان الفرق بين " المواضيع " البشرية و " المواضيع " الطبيعية ، ومن ثم كلاهما لايهدد المفهوم الشائع للطبيعة الشعورية أو الحسية كبعد سلبى جامد بشكل خالص ومناسب للاحتكار والاستعمال البشرى ، وفيما كلتا النظرتين غير مستقرتين فإن كلاً منهما تدعم الأخرى ، عبر القفز من واحدة لأخرى . إن المسار الحالى يتجنب بسهولة الإمكانية بأن الاثنين : الكائن المتلقِى والكائن المُتلَقَى هما الشيء نفسه ، وأن المتلقِى والمُتلقَى متداخلان فى اعتمادهما على بعضهما بعضا ، وبمعنى ما ربما جوانب متعاكسة لعنصر وجدانى أو روحى مشترك ، أو لحم هو فى الوقت نفسه المحسوس والحساس .

نحن بالفعل نجرب ونشعر بهذا التضارب فيما يتعلق بالأشخاص الآخرين ، هذا الغريب الذى يقف أمامى وهو موضوع لتحديقى ونظرتى فجأة يفتح فمه ويتحدث إلىّ ، مجبراً إياى على الاعتراف بأنه مادة تحس وتشعر مثلى ، وأننى أنا أيضا موضوع لتحديقه ونظرته، إن كلا منا علاقته بالآخر هو الاثنين معًا: الذات والموضوع ، الإحساس والحسية ، لماذا إذن لايكون ذلك أيضًا فى العلاقة مع آخر ، كينونة غير بشرية – أسد جبل مثلا ، كنت قد قابلته بشكل غير متوقع فى الغابة الشمالية ؟ بالفعل ، إن مثل هذا اللقاء يجلب لى بقوة حتى أكثر ، إننى لست مجرد موضوع حساس ولكننى أيضا شيء أو موضوع محسوس ، حتى موضوع أو شيء للالتهام ، فى العينين (والأنف) عند الآخر ، حتى مجرد نملة تدب على ساعدى ، مرئية لعينى وأحسها على جلدى ، تعرض فى الوقت نفسه إحساسها، وتستجيب مباشرة لحركاتى ، حتى إلى التعبير الكيميائى فى مزاجى ، فيما يتعلق بالنملة فإننى أحس بنفسى كشيء أو موضوع مادى كثيف ومتقلب الأهواء فى أفعالى مثل الأرض غير

الازدواجية نفسها. أخيرا ، إذن لماذا لاتكون هذه " الانعكاسية " للموضوع والشيء ممتدة لكل كينونة أخبُرها وأجربها ؟ عندما أعترف بأن أحاسيسي نفسها أو خصوصيتي لا تستثني وجودي الواضح الموضوعي كشيء للآخرين ، إنني أجد نفسي مُجبَرًا على الاعتراف بأن " أي " شكل واضح وهش يقابل تحديقي ونظراتي قد يكون هو أيضًا في حالة إحساس خبرة كمادة حساسة ومتجاوبة مع الكائنات من حوله ، ومعي أنا أيضًا.

اللمس وأن تكون ملموسًا : تواصل الحسِّى

من أجل أن يعرض ، بحثيًا ، أطروحته حول اللحم ، فإن ميرلو بونتي يقدم ماقد يكون أكثر التوضيحات مباشرة لذلك الذى اصطلحنا عليه " بالمشاركة " ، إنه يدعو الانتباه إلى الواضح ولكن الواقع المُتجَاهَل بأن يدى قادرة على لمس الأشياء فقط لأن يدى فى حد ذاتها شيء ملموس قابل للمس ، وهكذا هى بشكل كامل جزء من العالم الذى تستكشفه ، وبالمثل ،العينان اللتان أرى بهما الأشياء ، هما فى حد ذاتهما واضحتان ومرئيتان بسطحيهما اللامعين ، لونهما وظلالهما ، إنهما متضمنتان داخل الحقل المرئى الذى تبصرانه ، إنهما هما نفسهما جزء من المرئى مثل الجذع بالنسبة لشجرة الصنوبر ، أو قطعة من حجر رملى ، أو السماء الزرقاء.

أن تلمس اللحاء الخشن لشجرة هو أيضًا فى الوقت نفسه أن تجرب وتحس بنفسك ملموسا عبر لمسة الشجرة لك ، وأن ترى العالم أيضا فى الوقت نفسه هو أن تجرب وتحس بنفسك بالوضوح نفسه ، أن تشعر بأنك مرئى . من الواضح ، أن ذهنا كاملاً غير مادى لايستطيع أن يرى الأشياء أو يلمسها ، بالفعل لايستطيع أن يخبر ويُحس أى شيء على الإطلاق ، نحن نستطيع أن نجرب ونحس الأشياء ، نستطيع اللمس و السمع ، وتذوق الأشياء فقط بسبب أننا كأجساد نحن أنفسنا ضمن الحقل الحِسى ولنا ملمسنا وأصواتنا وطعمنا ، نستطيع أن نستوعب الأشياء فقط لأننا نحن أنفسنا بشكل كامل جزء من العالم الحسى الذى نستوعبه ونتلقاه ! يمكن لنا أن نقول إننا نحن أعضاء لهذا العالم ، لحم لحمه ، وأن هذا العالم هو متلقى فى حد ذاته من خلالنا .

سائرين فى الغابة ننظر إلى الأخضر فيها وأعماق الظلال ، نستمع إلى صمت أوراق الأشجار ، نتذوق الهواء المنعش وأريجه ، ومع ذلك هكذا هو انتقال التلقى ، انعكاس اللحم ، إلى درجة أننا يمكن أن نشعر فجأة بأن الأشجار تنظر إلينا – نشعر بأننا عارون ،مراقبون ، وملحوظون من كل الجوانب، مكشوفون . لو تجولنا فى

الغابة لشهور كثيرة أو سنوات فإن تجربتنا قد تتغير وتتحول من جديد ، لعلنا نصل إلى الشعور بأننا جزء من هذه الغابة ، جزء منها ، وأن تجربتنا مع الغابة ليست سوى تجربة الغابة وإحساسها بنفسها .

هذا هو التبادل والروحانية التى تسطع من الواقع البسيط بأن أجسادنا الحساسة والحسية مستمرة تماماً مع الجسد الواسع للأرض ، وأن " حضور العالم هو فى حد ذاته حضور لحمه فى لحمى تماما " .

إن أطروحة ميرلو بونتي حول لحم العالم ، بالإضافة إلى اكتشافاته ذات الصلة فيما يتعلق بالتلقى والاستيعاب المتبادل ، يضع عمله فى توافق مذهل مع وجهات نظر العالم للكثير من الثقافات الشفاهية الأصلية ، بالنسبة إلى الباحث الأنثروبولوجى للثقافات ريشارد نيلسون فى دراسته المضيئة عن التوازن البيئى لهنود " الكويكون " فى شمال ووسط آلاسكا فإنه يقول :

" إن أهل " الكويكون " التقليديين يعيشون فى عالم يراقب فى غابة من العيون ، إن شخصا يتحرك وسط أو خلال الطبيعة - أيا كانت وحشيتها ، وإن كانت نائية ، أو حتى مكان مهجور - لايمكن له أن يكون وحيدا .. إن المحيط به واع ، حساس ، وشخصى . إنهم يشعرون ، ويمكن أن تحس تلك الموجودات بالإهانة ، ولابد - فى أية لحظة - أن يعاملوا بكامل الاحترام " .

مثل هذا المزاج للتجربة ، والذى يبدو غريبا جدا ومشوشا لطرقنا المتحضرة فى التفكير تصبح مفهومة حالما نعترف تحت سطح افتراضاتنا التقليدية بالطبيعة التبادلية للتلقى المباشر . إن واقع أننا نلمس يعنى هو أن يشعر المرء نفسه بأنه ملموس ، أن ترى هو أن تشعر أيضا بأنك مرئى ، إن وصف نيلسون السابق يقترح أيضًا أن تلقيا متبادلاً مثل هذا عندما يتم الاعتراف به فى حيز الوعى ربما يؤثر بشكل عميق فى سلوك الشخص إذا كانت الأشياء المحيطة قد خبرت أو عرفت بأنها حساسة مثلنا ، منتبهة ويقظة ، ومراقبة ، إذن علىّ آنذاك أن أنتبه إلى أفعالى وأن تكون أفعالاً محترمة ومراعية للموجودات ، حتى وأنا أبعد ما أكون عن البشر الآخرين ، حتى لا أهين الأرض المراقبة نفسها .

قد يحدث أن تكون " أخلاقيات البيئة " الجديدة التى يصبو إليها الكثير من فلاسفة البيئة - أخلاقيات قد تقودنا نحو احترام والمحافظة على حياة لا إخواننا من البشر فقط وإنما أيضا الحياة عموما ، وسلامة بقية الطبيعة سوف تأتى إلى الوجود لا من خلال الفكر المنطقى للمبادئ الفلسفية الجديدة والقوانين التشريعية ولكن من خلال اهتمام متجدد بهذا البعد الاستيعابى الذى يبطن كل أسس منطقنا ، وعبر إنعاش حواسنا وعاطفتنا نحو الأرض ، الحياة التى تغذى وجودنا .

إن مثل هذا الشفاء واسترداد العافية قد يكون - ربما - حاضرا بالفعل فى الطريق، الكثير من الأفراد اليوم يشعرون بقلق عميق وجاد يزداد مع كل تقرير جديد

عن إفناء الغابات القديمة ، وحوادث إغراق البحار بالبترول ، والفقد والانقراض المستمر لكثير من الحيوانات والحياة البرية ، إنه قلق يبدو قادما من الأرض نفسها ومن جسدها ولحمها المتسع الذى تسكنه أجسادنا ولحومنا ، وبكلمات قائد " الكويكون" العجوز نفسه : " إن الأرض تعرف . إذا ما ارتكبت خطأ فى حقها ، إن كامل البلاد تعرف ، إنها تشعر بذلك الذى يحدث " .

إن تأثير نوع تبادل التلقى الاستيعابى على الشخص نفسه وسلوكه واضح جدا أيضا فى هذه الكلمات لتورلينو العجوز ، أحد قادة قبائل النافاجو الهنود فى أمريكا الشمالية عندما كان يقول قبل أن يحكى جزءا من قصة الخلق :

إننى خَجِلٌ أمام الأرض

إننى خَجِلٌ أمام السماء

إننى خَجِل أمام الفَجْر

إننى خَجل أمام هبوط المساء

إننى خَجل أمام السماء الزرقاء

إننى خَجل أمام الشمس

إننى خَجل أمام ذلك الذى يقف بداخلى ويتحدث معى

بعض هذه الأشياء دائما تنظر إلىّ

إننى لا أغيب أبدا عن نواظرها

لذلك فإنه يتوجب علىّ أن أقول الحقيقة

إننى أحتضن كلمتى بشدة فى صدرى .

إن السطور الأخيرة من هذه الصلاة / الترتيل تدعو انتباهنا إلى أن الكلام فى حد ذاته كشكل من السلوك يمكن له أن يكون مراعيا أو لامباليا ، الصدق أو عدمه ، فى وجه الوجدان والإحساس الكونى ، إن الكلمات المنطوقة هنا هى أشكال حضور حقيقية ، كينونات يمكن لها أن تُرعى - " أحتضن بشدة فى صدرى " - أو أن أبعثرها بلا مبالاة فى وجه الكون ، إن هذه الجُمَل من النافاجو ، مثل كلمات "الكويكون " من قبلها تقيم شهادة لا على طريقة مختلفة للرؤية فقط ، وإنما أيضا طريقة للتُحدث والكلام مختلفة تماما عن تلك التى اعتادها الكثيرون . إن ممارسة اللغة مابين القبائل والشعوب الأصلية قد تبدو أنها تحمل أهمية مختلفة تماما عن تلك التى لدى الغرب الحديث ، متجذرة أساسا فى الأغنية والصلاة والحكاية ، مابين الشعوب الشفاهية تلعب اللغة دورها لا للحوار فقط مع بشر آخرين ولكن للحوار مع الكون الأكثر مما هو بشرى ؛ لتجديد تبادل التلقى والاستيعاب مع القوى المحيطة للأرض

والسماء ، لتخلق وشائج قرابة حتى مع تلك الكينونات التى - بالنسبة للعقل المتحضر - هى مجرد جمادات ، فيما طبيب مداوٍ من " اللاكوتا " قد يخاطب حجرا بصيغة " تانكاشيل" أى " جدى " ، وشبيه بذلك، مابين قبائل " الأوماها " فإن الحجر قد تتم مخاطبته بالاحترام والتقدير كما تتم مخاطبة أحد مشايخ القوم :

ثابت لاتتحرك

منذ بدء الزمان الذى لانهاية له

تستريح

هناك فى وسط الطرق

فى وسط الرياح

أنت تستريح

مغطى بمخلفات الطيور

تنمو الحشائش من قدميك

رأسك مسكون بأعشاش الطيور

أنت تستريح

فى وسط الرياح

أنت تنتظر

أيها الذات الشائخة .

إن الكلمات هنا لاتتكلم حول العالم ، ولكنها بالأحرى تتكلم إلى العالم ، وإلى أشكال الحضور المعبرة ، التى معنا تسكن هذا العالم بطرق متعددة ومتنوعة ، آخذة (كما سوف نرى) شكلاً مميزا فى كل ثقافة أصلية ، إن اللغات المنطوقة والمحلية تبدو أنها تمنح صوتا إلى ، ومن ثم لتقوية وتعزيز ذلك التحالف الحسى مابين البشر والبيئة الأرضية .

إن هذا سوف يبدو - فى البداية على الأقل - فى تضاد وتناقض واضح ومباشر مع صفة اللغة ومسارها فى العالم " المتطور " أو " المتحضر " ، حيث وظائف اللغة فى

الأغلب هى لرفض تلك التبادلية مع الطبيعة – عبر تعريف العالم كجمادات ميكانيكية ومحددة – وحيث بالتبعية مشاركتنا الحسية مع الأرض من حولنا يجب أن تبقى خرساء بلا تخاطب ، وفى معظم الأحيان غير واعية تماما . فى الثقافات الشفاهية الأصلية – بكلمات أخرى – تبدو اللغة أنها تشجع وتقوى ذلك التواصل فى التلقى المتبادل لحياة الحواس ، فيما فى الثقافة الغربية تبدو اللغة أنها ترفض وتميت تلك الحياة ، ناشرة عدم ثقة عام لتجربة الخبرات الحسية فيما تدعم حيزًا تجريديًا لأفكار تختفى وراء أو أبعد من المظاهر الحسية .

كيف يمكن لنا أن نرصد مثل هذا الانقسام ، وبأى طريق يمكن لنا أن نصنع منطقا مفهوما لهذا الاختلاف فى شخصية وصفة اللغة ، وفيما يتعلق بالعلاقة مابين اللغة والتلقى والاستيعاب ، مثل المحاولة لتقديم إجابة دقيقة لهذا السؤال علينا أن نصل إلى فهم أكثر وضوحًا لما نعنيه بالضبط فى هذا السياق بكلمة " لغة " .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٣)

لحم اللغة

" المطر يحيط بالكوخ ... يحاصره بعالم كامل من المعانى ، الأسرار ، الإشاعات ، فكر فى ذلك : كل ذلك الكلام الذى يهطل ، لايُتاجِرُ بشىء ، لايُقاضى أحدا ، مفرقا الغصن الكثيف لأوراق الشجر الميتة ، مبللاً الأشجار ، مالئا الخلجان وجذور النباتات بالمياه ، غاسلاً الأماكن التى جردها البشر من الطبيعة على التلال ... لاأحد قد بدأه ، ولاأحد سوف ينهيه . إنه سوف يتحدث كما يشاء ، المطر . وطالما هو يتحدث فإننى سوف أصغى إليه " .

توماس ميرتون

إن كل محاولة لتعريف اللغة بشكل حاسم تكون موضوعا للمحدودية الغربية ؛ ذلك أن الوسيلة الوحيدة لتعريف اللغة هى اللغة نفسها ، وهكذا نكون غير قادرين على حصر اللغة بأجمعها داخل تعريفنا لها ، قد يكون من الأفضل إذن أن ندع اللغة دون تعريف وتحديد ، وأن نعترف بنهاياتها المفتوحة ، وغموضها على الرغم من ذلك عبر إسداء الاهتمام لهذا الغموض علنا نطور ألفة واعيةً معها ، إحساسًا بملمسها ، وعاداتها ، وينابيع استمراريتها.

ميرلو بونتى ، كما قد رأينا ، قضى معظم حياته عارضا أن حدث التلقى يتكشف كتبادلية مابين الجسد الحى وأرواح العالم المحيطة به ، لقد أرانا أيضًا أن ذلك التبادل بكل مافيه من انفتاح ولاحتمية هو عالم بالرغم من ذلك شـديد البلاغة (بالرغم من أنه يتخطى حدود الأسباب المنطقية التى نحاول أن نفرضها عليه فإن الخبرة

الاستيعابية لها تركيبها الخاص والمنسجم ، إنها تبدو محملة بمفاتيح وأنظمة مفتوحة نستوعبها من الداخل عوضا عن المنطق التجريدى الذى نستخدمه من الخارج) إن انفتاح التلقى غير الناطق هنا بالفعل قائم ومتبادل ، وأن الاعتراف بأن هذا التبادل له خصوصية بلاغته المحكمة ، مما يطرح أن التلقى – التبادل القائم – هو الأرضية ذاتها والتعزيز لذلك التبادل الواعى الذى ندعوه باللغة .

بالفعل فى كتابه "علم ظواهر التلقى " كان ميرلو بونتى قد بدأ العمل على أطروحة اللغة البشرية كظاهرة حسية خلقية ، متجذرة فى خبراتنا الحسية وحواسنا التى نعرف بها بعضنا بعضاً والعالم ، فى فصل شهير بعنوان " الجسد كتعبير ، وخطاب " كتب مطولاً عن الأصول الخاصة بخوالج اللغة ، الطريقة التى يخلق فيها معنى التواصل فى اختلاجات يعبر فيها الجسد عن أحاسيسه واستجاباته للتغييرات فى بيئته المحيطة به ، إن الاختلاج تلقائى ومباشر ، إنه ليس إشارة اعتباطية نوثقها ذهنيا إلى عاطفة معينة أو شعور ما ، لكن بالأحرى إن الاختلاج هو مقدم – مُجسَد للعاطفة إلى العالم ، إنه ذلك الشعور والإحساس بالمتعة أوالقلق في جانبه الهش ، والواضح المرئى ، عندما نقابل مثل هذه الاختلاجات التلقائية لانراها فى البداية كسلوك محض مفرّغ نقوم بعد ذلك بعزوه إلى محتوى محدد ، أو تعبير عن أهمية ما ، بل إن اختلاج الجسد يتحدث مباشرة إلى أجسادنا نحن ، وهكذا يتم فهمه دون أى تأمل داخلى :

"عندما أواجه تعبيراً جسديا ينم عن الغضب أو ينذر بالتهديد فإنه لاحاجة لى كى أفهم ذلك إلى الاستدعاء (الذهنى) الذى أشعر به أنا نفسى عندما أستخدم تلك التعبيرات فى حالتى .. إننى لا أرى الغضب أو الموقف التهديدى كحقيقة أو واقع نفسى مختف وراء التعبير الجسدى ، إننى أقرأ الغضب فيه . إن ذلك التعبير الجسدى لايجعلنى أفكر فى الغضب ، إنه الغضب نفسه فى حد ذاته " .

إن الخطاب الحى النشط هو تماما مثل ذلك التعبير الجسدى ، إنه تجسيد صوتى حيث المعنى ليس بمنفصل عن الصوت ، أو الشكل ، أو الإيقاع لتلك الكلمات ، إن معنى التخاطب وهو دائما فى عمقه مؤثر ، يبقى متجذرا فى بعد الحواس الحسى للتجربة والمعاش ، مولودا من قدرة الجسد الأصلية على التواصل مع

الأجساد الأخرى ، والأرض والطبيعة من حوله ككل ، إن المعنى اللغوى ليس مجرد بعض العناصر النظرية غير المادية أو المجسدة التى نوظفها بشكل اعتباطى فى صوت محسوس أو كلمة ثم نقذف بها إلى العالم " الخارجى " ، إنها بالأحرى معنى منطلق فى العمق نفسه للعالم الحسى فى حرارة اللقاء، والتواصل ، والمشاركة .

نحن لانقوم – كأطفال – بالدخول إلى اللغة عبر الدراسة الواعية للقواعد الرسمية والشكليات الخاصة بالنحو والقواعد أو عبر حفظ تعريفات ومصطلحات الكلمات فى القواميس اللغوية ، لكننا نفعل ذلك عبر إطلاق الأصوات – عبر البكاء من الألم ، والضحك فى الفرح ، عبر التلعثم والمناغاة والتقليد الضاحك لما يحيط بنا فى أرضية الأصوات ، داخلين بالتدريج عبر تلك المحاكاة إلى أناشيد معينة للغة المحلية ، إن أجسادنا المتواصلة تأتى ببطء إلى ترديد صدى اللهجة المشتركة فى مجتمعنا المحلى الذى نعيش فيه .

وهكذا نتعلم لغتنا الخاصة الأصلية لا بشكل ذهنى ولكن بشكل جسدى ، إننا نفرز الكلمات الجديدة والجُمَل أولاً عبر ملمسها وحسها التعبيرى ، عبر الطريقة التى نشعر بها ونحسها فى الفم أو حركة اللسان ، وإن هذا الشعور المباشر المهم – "طعم " الكلمة أو الجملة ، الطريقة المؤثرة على الجسد– هو الذى يقدم المنبع الخصب لكل ماهو فى معان مشذبة ونادرة التى يمكن لذلك المصطلح أن يصبحه بالنسبة إلينا .

"... إن معنى الكلمات يجب فى النهاية أن يأتى عبر الكلمات نفسها ، أو بشكل أدق إن معناها المفاهيمى يجب أن يتشكل عبر نوع من الحساب الخاص بمعنى الاختلاج ، والذى هو مقدس فى الكلام" .

اللغة ، إذن ، لايمكن أن تتم دراستها بشكل مكتمل أو فهمها بمعزل عن الوقع الحسى للكلام النشط . حاول جيمس . م . إدى أن يلخص هذا الجانب لفكرة ميرلو بونتى بالشكل التالى :

" ... إن النقطة الأولى لميرلو بونتى أن الكلمات حتى عندما تصل أخيرا إلى تحقيق القدرة على حمل مستويات مصطفاة مفاهيميا للمعنى ، فإنها لاتفقد أبدا بشكل كامل تلك الظاهرة البدائية بشكل صارم لمستوى المعنى " المؤثر " والذى لايمكن تحويله إلى تمارين وتحديدات مفاهيمية . إن هناك – كما يطرح – جرس مؤثر ، مزاج لإيصال المعنى تحت مستوى سطح الفكرة ، تحت مستوى سطح الكلمات

نفسها ، وهو مُتضَمن فى الكلمات كما هى فى شكلها الصوتى كما تستخدمها مخارج الحروف وجرسها فى هذا الاستخدام التاريخى المحدد للغة ، والتى هى أشبه بميلودى - أغنية وتغن بالعالم - أكثر من كونها ترجمة كلية ، فكرة مفاهيمية ، ميرلو بونتى يكاد يكون الوحيد بين فلاسفة اللغة فى درجة حساسيته لهذا المستوى من المعنى ..." .

إن "إدى" هنا يؤكد على أصالة ميرلو بونتى فيما يتعلق باللغة ، ويؤكد على أن ميرلو بونتى منح اهتماما خاصا "لما لم يكن لأى فيلسوف منذ أفلاطون اهتماما به " ، " وبالتحدد ، لأهمية الاختلاج الخاص للأصوات المنطوقة والتحدث بها " . غير أن هذا التأكيد حقيقى فقط إذا ماتمسك الشخص بوجهة نظر حاسمة تجاه التقاليد الفلسفية ، إن القاعدة المعبرة والمختلجة للغة قد تم التأكيد عليها بالفعل سابقا فى النصف الأول من القرن الثامن عشر عبر الفيلسوف الإيطالى جيتامبتستا ڤيكو (١٦٦٨-١٧٤٤) ، والذى فى " العلم الجديد "كتب عن اللغة التى تبزغ عن الاختلاجات التعبيرية ، واقترح أن أكثر الكلمات الأساسية والمبكرة أخذت شكلها من المنطوق فى ردود الفعل المنذهلة تجاه أحداث قوية فى الطبيعة ، أو أثناء تلعثم الرعب فى مواجهة مثل تلك الأحداث - مثل مواجهة الصاعقة فى السماء والرعد ، بعد ذلك بوقت قصير - فى فرنسا كتب جان چاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) حول الاختلاجات والتعبيرات التلقائية للأحاسيس والمشاعر كأشكال أولى للغة ، فيما فى ألمانيا طرح يوهان فوترفيلد هيردير (١٧٤٤-١٨٠٣) أن اللغة قد ولدت وتأصلت فى تلقينا الحسى للأصوات والأشكال كما هى مطروحة فى البيئة الطبيعية .

فى فلسفته المجسدة للغة ، إذن ، يكون ميرلو بونتى وارثا لتسلسل طويل وموروث نوعا ما ، إن الأصوات اللغوية وأشكال - الأصوات كما يتردد صداها وتضاربها لبعضها البعض ، كل لغة هى نوع من الغناء ، طريقة معينة " للغناء للعالم " .

نحو إيكولوجى اللغة

إن وجهة النظر السائدة حول اللغة على الأقل منذ الثورة العلمية - والتى مازالت مهيمنة بكيفية ما على معظم علماء اللغة اليوم - تعتبر أن أية لغة هى منظومة عرفية متفق عليها للكلمات أو " الإشارات " ، موصولة عبر نظام رسمى خالص لقوانين النحو والصرف ، إن اللغة من وجهة النظر هذه تبدو كأنها مفتاح رمزى ، إنها طريقة لتمثيل الأشياء والأحداث الحقيقية فى العالم المُستَوعَب ، غير أنها تنعدم للتواصل الداخل غير العرفى مع هذا العالم ، وبالتالى تصبح منفصلة عنه بشكل جاهز .

إذا ما اتفقنا مع تأكيدات ميرلو بونتى بأن الكلام الحى هو المركز التوليدى لكل اللغات ، فكيف يمكن لنا أن ننظر إلى وجهة النظر الغالبة أو السائدة التى تعتبر اللغة نظاما نظريا أو رسميا منفصلاً بالفعل عن الفعل المادى لفعل الكلام أو الحديث ؟ إن ميرلو بونتى يطرح أن مثل وجهة النظر تلك حول اللغة تسطع فقط فى زمن يكون فيه الخلق الجديد والطازج للمعنى حدثٌ نادر، فى زمن يتحدث الناس فيه عموما فى الإطار التقليدى ، الجاهز للموروث " والذى لايتطلب منا أى جهد حقيقى فى التعبير .. ولايتطلب من المستمعين إلينا أى جهد حقيقى للاستيعاب "، فى زمن - باختصار- يصبح فيه المعنى فقيراً .

ومع ذلك فإن هناك سبباً ذا بعد خارجى أكثر لهيمنة هذه الفكرة بأن اللغة عرفية أو نظامية تقليدية بشكل محض ، نظام للإشارات ، كما قد لاحظنا مبكراً فإن الفلسفة الأوروبية قد شغلت نفسها باستمرار بمسألة الخصوصية البشرية منذ زمن أرسطوطاليس ، فإن الفلاسفة كانوا منشغلين بعرض أكثر الطرق إقناعاً ، إن الكائنات البشرية مختلفة تماما وذات أهمية أكبر عن كل أشكال الحياة الأخرى ، لم يكن كافيا أن يتم عرض أن الكائنات البشرية كانت مميزة ، وذلك أن كل المخلوقات مميزة بوضوح فى طريقتها عن غيرها ، ولكن كان من الضرورة فى ذلك العرض أن يوضح أن الشكل الإنسانى ، والبشرى كان مميزاً واستثنائيا بشكل مميز ، وأن مواهبنا النبيلة تضعنا بشكل أكيد فى شكل منفصل وفوق بقية كائنات العالم الحى . مثل تلك العروض كانت - لعلنا نشك - فى حاجة إلى تبرير التسلط والاحتكار المتزايد والاستغلال

للطبيعة غير البشرية عبر ومن أجل البشرية (المتحضِّرَة) ، إن الضرورة لمثل ذلك التبرير الفلسفى أصبحت مُلحّة بشكل خاص فى مرحلة يقظة الثورة العلمية ، عندما صارت قدرتنا على السيطرةَ والهيمنة على الأحياء الآخرين متزايدة واستغلالية . إن فصل ديكارت المتطرف للعقل البشرى غير المادى عن العالم الآلى الكلى للطبيعة قد ساهم كثيراً فى سد ذلك الاحتياج، مقدما تبريراً عقلياً مذهلاً للتجريب العلمى الذى تحول إلى استغلال وتخريب مدمر للطبيعة غير البشرية فى العالم الجديد والمستعمرات الأوروبية الأخرى .

غير أنه فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر قدمت طباعة ونشر كتاب داروين " أصول الكائنات ونشأة الإنسان " توتراً عميقا وجاداً فى صميم العلوم الأنثروبولوجية للفسلفة والعلم الأوروبى ، إذا كان البشر حيوانات ارتقت وتطورت مثل بقية الحيوانات ، إذا كنا فى الحقيقة قد نشأنا وتطورنا عبر " الانتخاب الطبيعى " من كائنات بدائية ، إذا كانت الأسماك بالفعل هى أسلافنا البعيدة والفئران هى أبناء عمومتنا فإن صفاتنا وقدراتنا لابد أن تكون إلى درجة ما متواصلة مع تلك الموجودة فى بقية الطبيعة الأرضية والكونية .

غير أن معظم العلماء فيما تقبلوا نظريات داروين كانوا رافضين التخلى عن فرضية خصوصية البشرية – الافتراض الذى فى حد ذاته يبرر الكثير من الممارسات الثقافية والبحثية التى صرنا الآن معتادين عليها – فى قرون مبكرة كنا نستطيع أن نعزو تفوقنا وتميزنا إلى إرادة الله ، الذى قد " خلقنا " لنمثله على الأرض ، أو الذى خص البشر وحدهم بالقدرة العظيمة والإلهية للوعى والذكاء ، غير أنه بعد داروين ، لم يعد من السهل علينا أن نطرح ذلك التميز لأسباب من خارج هذا العالم ، أصبح ضروريا أن نجد شواهد جديدة أقرب للطبيعة لتبرير فوقية وعظمة البشرية على الكون والطبيعة .

فى زمننا الحالى الخاص إنها " اللغة " ، والتى فهم أنها ملكية بشرية استثنائية غالبا مايتم استخدامها لعرض التميز والتفوق البشرى النسبى على بقية الكائنات ، غير أن اللغة وكما يتم التأكيد غالبا تبقى الامتياز الخاص للكائنات البشرية ، وبالتأكيد فإن معظم الحيوانات الأخرى تستطيع أن تدبر أمر تواصلها مع بعضها بعضًا ، مستخدمين غالبًا نظامًا من الإيماءات والحركات ، من" تحديد" الأرضية بالإفرازات الكيميائية ، إلى تعبيرات الوجه لدى الكثير من الحيوانات الثديية ، إلى هسيس الزواحف ، والصرخات ، والعواء ، والنباح، تلك الأصوات التى تترامى مابين

الحقول والغابات – وكذلك الزقزقات والميلوديات الواضحة فيما بين الطيور وبعض الأحياء المائية الثديية كالحيتان ، أحد الاكتشافات المثيرة لعلم السلوك الحيوانى فى البيئة الطبيعية (إيثولوجى) في بداية القرن العشرين كان اكتشاف " الاهتزازات الراقصة " حيث يقوم النحل فرديًا بالتواصل لتحديد الاتجاه الدقيق والمسافة لمصدر طعام مكتشف حديثا مع بقية مجموعة النحل ، غير أن كل تواصل يعكس هذه "الرقصات" و" الأغانى "، والاختلاجات والحركات الجسدية ، سواء الصوتية أو المرئية يمكن أن يقال إنها تبقى فى إطار فضاء المحسوس والتعبير الجسدى ، إن المعنى هنا كما يتم الافتراض مرتبط بالطبيعة التعبيرية للمحركات نفسها ، للإحساس المباشر المتولد من تلك الحركات إلى الإحساس الغريزى والاحتياج الجسدى المحض .

فى مسار الحياة اليومية للبشر– من الناحية الأخرى – نحن نحدد بالفعل بُعدا مهمًا أكبر من مجرد القوة المعبرة للكلمات ، سطح من المعانى التجريدية مثبتة لوحدها، سوف يبدو عبر المتعارف عليه ، وهكذا فإن كلمة (" وو"!) " ! WoW " قد تكون فى بداية الأمر تعبيرا بسيطا عن الدهشة ، لكنها قد تصبح أيضا محددة – إذا ما اخترنا ذلك – لنوع معين من تسريحة الشعر ، أو ظل من الأزرق ، أو تكتيك معين لاستخدامه عند المساومة مع صيادى الأسماك .

إن هذا المستوى الثانى من السطح للمعانى المتعارف عليها ذلك الذى يتم وضعه مع " اللغة بشكلها الصحيح " عبر معظم الفلاسفة والعلماء منذ عصر النهضة ، فقط عبر عزل هذا السطح الثانى للمعانى التقليدية عن الإحساس بالأهمية الموجودة فى نغمة الصوت ، والإيقاع ، وشكل التعبيرات المنطوقة – نستطيع أن نستوعب ونفهم اللغة كمفتاح – كتكوين مصمم ومشكل من إشارات متعارف عليها متصلة بالقوانين الشكلية الرسمية تمامًا ، وهكذا فقط عبر استيعاب اللغة كظاهرة تجريدية خالصة نستطيع أن ندعى أنها جهد إنسانى محض ، فقط عبر تجاهل الحسى والبعد المستدعى للمسار البشرى والانتباه فقط إلى الجانب التقليدى للتواصل الشفاهى ، نستطيع أن ننأى بأنفسنا بعيدا ونصبح خارج منظومة بقية عالم الطبيعة الحية .

لو كان ميرلو بونتى محقًا– من الناحية الأخرى – فإن البعد والمعطيات التقليدية للغة لايمكن أن تتم خدمتها بشكل حقيقى من البعد الحسى للمعنى المباشر والمؤثر ، إذا لم تكن – فى الحقيقة – عقولاً غير مادية تسكن هكذا فى أجساد أرضية ، ولكن من المادة الأولى لكائنات شبحية ، إذن فإن الأهمية الحسية والاختلاجية

للأصوات المنطوقة - شكلها المجسد - الذى يصنع التواصل الشفاهى ممكن على الإطلاق ، إن هذه القدرة الكامنة للتعبير - التأثير الصوتى للكلمات المنطوقة على الجسد الحسى - ذلك الذى يدعم المعانى الأكثر تجريدية وتقليدية التى نوظفها للكلمات ، بالرغم من أننا قد نكون جاهلين بالبعد الاختلاجى والحركى للغة كوننا قد قمعناه لصالح المعانى القاموسية الصارمة والدقة التجريدية للمصطلحات المخصصة أكاديميًا ، فإن هذا البعد يبقى نشطًا بشكل خافت فى كل مجالات كلامنا وكتاباتنا - هذا إذا ماكان لكلماتنا أية أهمية - ذلك أن المعنى - كما قد قلنا - يبقى متجذرا فى الحياة الحسية للجسد - لايمكن قطعه تمامًا عن تربة التجربة المباشرة للتلقى دون أن يجف ويموت .

ومع ذلك فإنه للتأكيد على أن المعنى اللغوى فى المقام الأول تعبير اختلاجى وشاعرى ، وأن المعانى التقليدية ثانوية بطبيعتها ومُشتقة هو أن نرفض الادعاء بأن " اللغة " حوزة بشرية خالصة واستثنائية ، إذا كانت اللغة دائمًا فى أعماقها معطيات حسية وجسدية فإنها إذن لايمكن أن تكون منفصلة بشكل مؤكد عن شواهدها المعبرة فى غناء الطيور وعواء الذئب فى آخر الليل ، إن كورس الضفادع وهو ينق متوحداً على حافة البركة ، ومواء القطة الوحشية وهى تطارد فريستها أو تعالى أصوات الأوز الكندى مرتحلاً إلى الجنوب فى الشتاء كلها تتدفق بأهمية مؤثرة واختلاجات عاكسةً الأهمية نفسها تلك التى تشع من محادثاتنا وتعبيراتنا ، محركة إيانا أحيانًا إلى حد الدموع ، أو الغضب ، أو الرؤى الذهنية التى لم نكن نتوقعها .

إن اللغة كظاهرة جسدية تضاف إلى كل الأجساد المعبرة ، وليست الأجساد البشرية فقط . إن كلامنا نحن ، إذن ، لايفصلنا عن بقية الطبيعة الحية والوجدانية ولكن - سواء كنا واعين بذلك أو لم نكن - ينقشنا ويكتبنا بعمق أكثر فى المحادثة، والهمسات والأعماق الصوتية .

إذا - على سبيل المثال - صادف الشخص صديقين من البشر فى لقاء غير متوقع للمرة الأولى بعد شهور طويلة ، وصادف أن استمع شخص ما إلى كلماتهم المندهشة ، المحببة ، ومتعة اللقاء والبهجة بذلك ، فإنه يمكن للشخص أن يلاحظ مباشرة ، إذا ما انتبه عن قرب لسطح الصوت الميلودى المرافقة له فى التواصل تحت المعنى المباشر الخارجى للكلمات - تتماوج الأصوات وتهدر فى شكل ثنائى ، دويتو موسيقى ، أشبه ماتكون بزقزقة العصافير لبعضها بعضًا ، إن كل

صوت ، كل جانب من الدويتو يكمل الميلودية الموسيقية للآخر فيما يضيف بصْمته الخاصة وأسلوبه ، ثم يعكسان صدى بعضهما بعضًا بعد ذلك - إن الجسدين الصادحين يتناغمان مع بعضهما بعضًا، معيدين اكتشاف المشترك فيما بينهما ، "متذكرين " بعضهما بعضًا ، إنه يتطلب القليل من التحول فى الانتباه كى نلاحظ أن هذا التناغم الموسيقى يحمل معه كتلة من التواصل فى هذا اللقاء، وأن المعانى المباشرة للكلمات فى حد ذاتها تمتطى سطح ذلك العمق مثل الأمواج على سطح البحر.

إنه عبر تحويل طفيف مناسب للانتباه يستطيع الشخص فجأة أن يصغى إلى الزقزقة المعتادة لعصفور ما بشكل مدهش وجديد ، لا كميلودية غنائية ممتعة تتكرر بشكل آلى كما هى على شريط كاسيت فى الخلفية ، ولكن كخطاب نشط ، حى ويحمل معناه . فجأة ، تنويعات خافتة فى الجرس والإيقاع لتلك الجملة المُصَفرَة تبدو محملة بالنوايا التعبيرية ، والعصفوران المزقزقان لبعضهما بعضًا عبر الحقل يبدوان للوهلة الأولى ككائنيْن واعييْن ، ومنتبهين ، ومنشغلين بشكل طبيعى بالعالم نفسه الذى ننشغل نحن به ،مع ذلك فإن هذا يحدث بشكل مدهش من زاوية ومنظور مختلفين عنا .

الأكثر من ذلك ،إذا ماسمحنا لذلك المعنى المنطوق أن يبقى متجذرًا فى التعبيرات والاختلاجات الجسدية ، فإننا لن نستطيع أن نحصر تجربتنا وخبرتنا المتجددة مع اللغة مع الحيوانات فقط، كما قد استوعبنا بالفعل فى العالم غير المُدَجن للخبرة الحسية المباشرة فإنه لا ظاهرة تمثل فى حد ذاتها كشىء سلبى وجامد ، بالنسبة للجسد الحساس والحسى فإن كل الظواهر حية ، وجدانية ، نشطة ومشاركة فى التلقى لحواسنا ، وإلا فإنها تنسحب من بؤرة اهتمامنا وترفض مشاركتنا وتورطنا ، الأشياء تكشف نفسها لتلقينا المباشر كأساليب مبطنة لا كقطع مكتملة لأشياء ومعطيات نهائية ، ولكن كطرق ديناميكية حيوية لإشغال الحواس والحسية فى الجسد ، إن كل شىء، كل ظاهرة له أو لها القوة للوصول إلينا والتأثير علينا ، إن كل ظاهرة - بكلمات أخرى - واعدة بالتعبير. فى نهاية فصله " الجسد كتعبير ، وكلام " يكتب ميرلو بونتى التالى :

" إنه الجسد ، ذلك الذى يشير ، وذلك الذى يتحدث ... إن هذا الكشف (لقدرة الجسد الفصيحة فى التعبير) ... تمتد - كما سوف نرى - إلى كامل العالم

المحسوس ، وإن نظرتنا ، مستندة إلى خبرة أجسادنا الشخصية ، سوف تكتشف في كل " الأشياء " الأخرى معجزة التعبير " .

وهكذا فإننا على المستوى المبدئي للخبرة الجسدية الحسية نجد أنفسنا في أرضية مختلجة ومعبرة في عالم " يتكلم " .

إننا عادة مانتحدث عن عواء الريح ، وخرير الجداول ، غير أن هذه الأشياء أكثر من مجرد رموز ، إن لغاتنا باستمرار تتغذى بتلك الأصوات الأخري – عبر هدير الشلالات وأصوات الجنادب – إنه ليس بالصدفة وحدها أننا حين نخيِّم في الجبال فإن المصطلحات الإنجليزية التي نستخدمها بشكل تلقائي لوصف ينابيع المياه وروافدها عن النهر القريب هي كلمات مثل : " تدفق " ، " Rush " ، "رذاذ " "Splash" ، "gush" " نثار " ، " Wash " اغتسال ، ذلك أن الرنين الذي يوجد بين تلك الكلمات هو نفسه الموجود في نشيد المياه وهي تتدفق عبر الضفاف .

إذ لم تكن اللغة هي مجرد ظاهرة ذهنية محضة – ولكن نشاطًا جسديًا حسيًا متولدًا في التلقي الجسدي والتشاركي – فإن مسارنا قد تأثر بالتأكيد بأشكال واختلاجات أخرى كثيرة ، وأصوات وإيقاعات إلى جانب تلك الخاصة بجنسنا البشري الواحد ، وبالفعل إذا كانت اللغة البشرية قد بزغت من التداخل الاستيعابي مابين الجسد والعالم ، فإن هذه اللغة " تنتمي " إلى عالم الطبيعة الحي بقدر ما " تنتمي " إلينا نحن أنفسنا .

فى عام ١٩٤٥ بدأ ميرلو بونتى قراءة عمل عالم اللغة السويسرى فرديناند دوسوسير (١٨٥٧-١٩١٣) ، والذى سبق أن نشر عمله " مسائل فى علم اللغة العام " الذى أشار إلى بزوغ علم اللغة العلمى فى القرن العشرين ، كان ميرلو بونتى مأخوذاً بالتمييز والتقسيم النظرى لسوسير مابين " اللغة " المنظور إليها كنظام للمصطلحات ، الكلمات ، القواعد ، التركيب ، و " الكلام " - الفعل الحقيقى للكلام نفسه .

اعتُبرت اللغة كنظام رسمى من القوانين والأحكام هى الجانب من اللغة الذى وحده القادر على الدراسة العلمية الموضوعية ، عبر فصل وعزل هذا الجانب من اللغة استطاع سوسير أن يخلى الطريق للتحليل العلمى الدقيق لأنظمة اللغة ، غير أن الطريقة الصحيحة لفهم العلاقة مابين التركيب الرسمى أو النظامى للغة والفعل المعبر للتحدث أو الكلام (مابين " اللغة "و " الكلام ") تبقى غامضة ، وكان هذا الغموض هو الذى سحر وبهر ميرلو بونتى .

بالنسبة لسوسير فإن اللغة - تُعتَبر كنظام تركيبى خالص - لم تكن تركيباً ميكانيكياً آليا يمكن أخذه بجاهزية بمعزل وتفكيكه إلى عناصره المنفصلة ، ولكن اللغة كانت أشبه ماتكون بالنظام العضوى ، الحى ، كل من أجزائه متصل داخلياً ببعضه بعضاً ، وصف سوسير تكوين وتركيب أية لغة كرحم متداخل ، شبكة ، حيث كل مصطلح يملك معناه فى ظل علاقته بالمصطلحات الأخرى داخل النظام ، فى الإنجليزية مثلاً إن كلمة " أحمر " مثلاً تتخذ معناها الصحيح من الحالة فى شبكة من الكلمات المقابلة ، كلمة " أحمر " - "Red " فى مقابل مثلاً كلمات مثل " Read " قرأ ، " Rod " عصا " Reed " قصبة ، و" raid " غزوة ، وفى مصطلحات مركبة كاملة عن الألوان مثل " برتقالى " و " أصفر " و " بنفسجى " و " بنى " و بالإضافة إلى مصدر آخر من موضعه أو مشاركته فى بعد أوسع لكلمات متصلة مثل " دم " و " وردة " و " غروب " و" نار " و" حمرة الخجل " و" غضب " و " حر " كل منها له أهمية فقط بالعلاقة مع كلمات أخرى ، متمدداً بذلك خارجياً إلى كل مصطلح فى داخل اللغة . عبر وصف أية لغة معينة كنظام للاختلافات فإن سوسير قد أشار إلى أن المعنى ليس بموجود فى الكلمات فى حد ذاتها ولكن فى النسيج والتضاد التقابلى ، والمشاركة مابين الكلمات أو المصطلحات ، كما قد طرح ميرلو بونتى :

"إن ماقد تعلمناه من سوسير هو التالى ، إذا أخذت بمفردها فإن الإشارات لاتعنى أى شىء ، وإن كل واحدة منها لاتعبر فى حد ذاتها عن المعنى بقدر ماهى علامة فارقة للمعنى فى حد ذاته فى علاقته بالإشارات الأخرى " .

إن هذا لايعنى أنه من الضرورى أن نعرف بوضوح كامل اللغة من أجل أن نستطيع التحدث بها ، والأحرى أن الطبيعة شبه الشبكية للغة تضمن أن كامل النظام حاضر بشكل باطنى في كل جملة ، وفى كل فقرة . من أجل تعلم لغة مجتمع يقترح ميرلو بونتى أنه من الضرورى ببساطة أن يبدأ الشخص التحدث بها ، أن يلج الشخُص اللغةَ بجسده ، أن يبدأ فى التحرك من داخلها . إن اللغة فى كليتها تنبثق في الطفل فى محاولاته الأولى للكلام . "[ثم] كامل اللغة المتداولة فى الكلام المحيطة بالطفل تدفعه مثل الإعصار ، تغويه ببلاغتها الداخلية ... " .

إن اللغز الذى هو اللغة مشكلة بالصمت بالقدر نفسه من الصوت ، وهى ليست تكوينًا داخليًا أو جامدًا ، ولكن حقل جسدى يتطور ، إنها مثل نسيج متسع حى يتم باستمرار نسجه عبر أولئك الذين يتحدثون ، ميرلو بونتى هنا يميز بحدة مابين الكلام الأصلى والمعبر وذلك الكلام الذى يعيد نفسه ويكرره فقط فى القواعد المنشأة ، إن الأخير يصعب أن يكون " كلامًا" على الإطلاق ، إنه لايحمل فى الحقيقة معنى فى نسيج كلماته لكنه يعتمد فقط على ذاكرة المعانى التى قد عاشت فى يوم ماهناك، إنه لايغير ولايبدل فى ذلك الوجود الجاهز لتراكيب وقواعد اللغة ، لكنه بالأحرى يُعامل اللغة كمؤسسة جاهزة ونهائية ، ومع ذلك فإن هذه التشكيلات الموجودة مسبقًا لابد فى وقت ما أنها قد خلقت أو أبدعَت ، وهذا يمكن أن يكون قد تأثر بالكلام النشط المعبر للكلام فى وقت ما ، وبالفعل فإن كل الخطاب أو الكلام ذى الفحوى والمعنى هو بالضرورة إبداعى ، ويستخدم كلمات جاهزة بطرق لم تُستخدم بها من قبل ، وبذلك يبدل ولو بشكل طفيف كامل شبكة العمل للغة ، والكلام البرى ،الوحشى ، الحى ، يتخذ له من داخل الرحم المتواصل للغة وإيماءاتها واختلاجاتها معه معرضًا كامل التركيب والتكون " لشكل منتظم وواع من التشويه " .

فى لب وقلب أى لغة – إذن – هنالك الإنتاجية الشعرية أو الشاعرية للكلام المعبر ، إن لغة حية معاشة يتم صناعتها باستمرار وإعادة صناعتها منسوجة من خلال الصمت لأولئك الذين يتحدثون ... وهذا الصمت هو فى ظل مشاركتنا الخالية من الكلمات ، هو فى وعينا الممتزج بالأعماق لذلك العالم المعبر ، والوجدانى ، والحى .

وهكذا فإن تمييز سوسير مابين تركيبة اللغة وفعل الكلام قد تم احتواؤه فى أفكار ميرلو بونتى، لقد اندمج البعدان معًا فى بعد فردى متطور ، وفيما أفعال الخطاب

الفردى يقودها بالتأكيد تكوين تركيبى للغة فإن ذلك التركيب ليس بشىء سوى النتيجة التلقائية لكل أفعال الخطاب السابقة ، هو نفسه قابل للتبدل عبر النشاط التعبيرى الذى يقوده الآن . إن اللغة ليست شكلاً جامدا ثابتًا ، أو نظريًا ، لكنها وسيلة متطورة نعيش فيها جميعًا ، مخطط واسع من المواضيع يخوض فيها الخطاب الجسدى ، ويجدد فيها نفسه غازلاً نسيج ذلك من صمت الخبرة الحسية .

إن ما تم احتفاظ ميرلو بونتى به من الطرح الفكرى لسوسير هو أطروحة سوسير عن أى لغة كشبكة متداخلة فى نظام العلاقات ، لكن بما أن أجسادنا المتحدثة والمعبرة بالنسبة لميرلو بونتى أجزاءٌ مهمة فى هذا النظام ، ربما أن شبكة اللغة بالنسبة إليه وسيلة حية منسوجة فى أعماق مشاركتنا الاستيعابية فى التلقى مع الأشياء والكائنات المحيطة بنا ، وصل ميرلو بونتى فى كتاباته الأخيرة لتأكيد أنه مبدئيًا العالم الحسى الاستيعابى هو المرتبط والمتعلق بالشكل الخاص بالشبكة فى شخصيته ، وبناء على ذلك فإن الشكل أو التكوين العضوى المتواصل فى أية لغة هو استمرارية أو صدى للحقيقة الحسية نفسها ذات التداخل العميق ، بالضرورة فإنها ليست اللغة البشرية هى الأساسية فقط ، ولكن عالم الحياة الحسى المتلقى والذى بمنطقه البرى المشارك يصحح وضعه ويطور نفسه كى يغلب فى حضوره فى اللغة نفسها .

منذ منتصف القرن التاسع عشر فإن دراسة بيئتنا الأرضية قد زادت فى مطلبها من وجهة النظر التى ترى الطبيعة كحيز متداخل ومعقد من العلاقات ، حقل التبادل الاعتمادى الخافت والذى منه ، بكلمات جون موير ، لايمكن اختبار ظاهرة فردية دونما " العثور عليها مرتبطة بكل شىء آخر " ، إن شخصية شجرة فاكهة واحدة لايمكن فهمها ببساطة دون الرجوع إلى الكائنات الأخرى من فصيلتها ، إلى الحشرات التى تخصبها وإلى الحيوانات التى تستهلك فاكهتها وهكذا تنتشر بذورها فى الأرض ، ومع ذلك فإن حيوانًا واحدًا من تلك الحيوانات يصعب فهمها دون أن نعرف عن النباتات أو الحيوانات الأخرى التى تلتهمها خلال العام ، وعن الفرائس التى تفترسها دونما - بكلمات أخرى - أن نعرف بالمضيف للكائنات العضوية الأخرى والتى يعتمد عليها ذلك الحيوان ، وتعتمد عليه هى أيضًا ، لقد وصلنا أخيرًا لإدراك بأنه لا التربة ولا المحيطات ولا الأجواء يمكن استيعابها دون أن تأخذ بالاعتبار مشاركة الأعضاء الذين لاحصر لهم ، من الغصن إلى الصخور ، ومن كينونات البكتيريا التى تحلل المواد العضوية ، إلى كل النباتات المتنفسة والحيوانات التى تتبادل الغازات الحيوية فى الهواء . إن أطروحة " الشبكة ذات الأجواء الفنائية " حيث كل كينونة تستمد شخصيتها المميزة من علاقاتها ، المباشرة وغير المباشرة مع كل الآخرين - أصبحت

اليوم أرضية مشتركة ، وهى تنسجم تماما مع وصف ميرلو بونتى الأخير. للحقيقةالحسية ، إن" اللحم " كتمازج ، وتركيب نسيجى نشط لظاهرة تتبادل فى اعتماديتها ، معًا الحسى والمحسوس ، لذلك الذى أجسادنا الحساسة هى جزء منها .

إنها الحقيقة الديناميكية الحيوية المتصلة ، تلك التى تحرك وتحافظ على كل كلامنا ، مُعيرة شيئا مامن تركيبتها لكل لغاتنا المختلفة ، إن الطبيعة اللغزية للغة تجاوب صداها ، و " يتداخل مع اللامرئى "، الطبيعة الوحشية المتداخلة الولوج والمتداخلة الاعتماد للأرض والطبيعة الحسية نفسها .

من المحتم - إذن - أنه ليس الجسد البشرى وحده ، ولكن بالأحرى كامل العالم الحسى يقدم التركيبة العميقة للغة ، وكما نحن أنفسنا نتحرك ونعيش فى داخل اللغة ، هكذا ، بالضرورة هو وضع الحيوانات الأخرى والكائنات الحية فى هذا العالم .

إذا لم نكن ننتبه إليهم هناك فإن ذلك فقط بسبب أن اللغة نسيت أعماقها المعبرة ، " إن اللغة حياة ، إنها حياتنا وحياة الأشياء ... " إنه ليس أكثر مصداقية "إننا " نتحدث عن كون الأشياء ، والعالم الحى نفسه " يتحدث فى داخلنا وعبرنا " .

"إن الأشياء تملكنا ولسنا نحن من يملك الأشياء ... إن هذا هو أنها كائن يتحدث من دواخلنا ولسنا نحن الذين نتحدث عن الكائن " .

انطلاقًا من مثل هذه التأملات يمكن لنا أن نبدأ فى الشك فى أن تعقيدات اللغة البشرية متصلة بتعقيدات التوازن البيئى (الإيكولوجى) للأرض - وليس أية تعقيدات فى جنسنا البشرى يمكن اعتبارها منفصلة عن ذلك الحيز - إن اللغة - يكتب ميرلو بونتى - " هى الصوت نفسه للأشجار ، والأمواج ، والغابات ."

إن الحضارة التكنولوجية تقلص من التنويع العضوى الحى للأرض ، إن اللغة نفسها تتقلص ، وفيما هناك غناء طيور أقل وأقل فى الهواء نتيجة لتدمير الغابات والأراضى الخصبة والممطرة ، فإن الكلام البشرى يفقد أكثر وأكثر من قوته الساحرة ، وذلك أننا عندما لا نعود نسمع الأصوات فى الطبيعة ، فإن كلامنا نفسه لايمكن له أن يتغذى منها ، ومثل الحديث الذى يرشه ماء الأنهار يتم إخراسه بالمزيد من السدود وكما نسرق أكثر وأكثر أصوات الطبيعة البرية إلى متاهة الغناء ، فإن لغاتنا نفسها تصبح أكثر فقرًا وأقل وزنًا، تزداد خواءً من عناصرها الأرضية الطبيعية.

سحر الكلمة

إن عمل ميرلو بونتي حول اللغة يجب الاعتراف بأنه متشظٍّ وغير مكتمل ، وقد تم ابتساره بسبب وفاته المفاجئة ، ومع ذلك فإنه يقدم أكثر البحوث تقصٍّ مما نملكه فى هذا المجال ، حتى اللحظة حول " الخبرة " المعاشة والحية للغة - الطريقة التى يكشف لنا فيها الوسيط التعبيرى عندما لا نتظاهر بالوقوف خارجه ، ولكن بالأحرى تقبل ميراثنا " من داخله " كحيوانات ناطقة متكلمة ، عندما ننتبه ونراعى خبراتنا، أو تجربتنا لا كأذهان غير ملموسة ولكن كأجسادٍ ، متحدثة ، ذات صوت ورنين ، نبدأ فى استشعار أننا مسموعون ، وحتى مُصغَى إلينًا عبر الأجساد الأخرى الكثيرة التى تُحيط بنا . إن أجسادنا الحساسة تستجيب إلى أناقة عمارات ومبان معينة ، وإلى الحركة الرشيقة للطيور ، إننا نجد أنفسنا أحياء فى عالم يصغى لنا ، ويحادثنا .

هنا (كما قد رأينا مبكرا فيما يتعلق بالتلقى) فإن عمل ميرلو بونتى يقربنا إلى المعتقدات الشفاهية لعدد كبير من الشعوب الأصلية ذات الميراث الشعبى الشفاهى .

فى مثل تلك الثقافات الأصلية الشعبية فإن التضامن مابين اللغة والأرض الحية واضح وشائع ، فبالنسبة إلى " أوغو تيميلى" أحد شيوخ قبيلة " الدوغون " فى مالى فإن اللغة المحكية كانت فى الأصل غلالة متطايرة من البخار والهواء ، النفَس ، كانت الأرض ترتديها آنذاك ، فيما بعد قام ضبع بسرقة تلك الغلالة الشفافة ، وهو حيوان صارت حركاته منذ ذلك الوقت تحت وطأة الأحاديث النبوية عن عالم الرؤية والمقدس . الكثير من القبائل مثل " المينتويا " يعتقدون أن اللغة التى يتحدثونها قد مُنحت من الحيوانات ، بالنسبة لـ " إينويت " (الإسكيمو) ، وكذلك لعدد كبير من الناس فإن البشر والحيوانات كلها فى الأصل كانت تتحدث اللغة نفسها ، وحسب "نالونغياك" إحدى نساء الإسكيمو التى قابلها العالم الإينولوجى نود رامسون فى بدايات القرن العشرين فقد كانت تقول :

فى الزمن المبكر جداً

عندما عاش الناس والحيوانات على الأرض معًا

كان الإنسان يستطيع أن يصبح حيوانًا إذا ماأراد ذلك

والحيوان كان يستطيع أن يصبح إنسانًا

أحيانا كانوا بشراً

وأحيانًا حيوانات

ولم يكن هناك أى فرق فى ذلك .

كلهم كانوا يتحدثون اللغة نفسها .

لقد كان ذلك هو الزمن عندما كانت الكلمات مثل السحر .

كان العقل البشرى يمتلك قوى غامضة .

كلمة تُنطق بالصدفة

ربما صار لها توابع غرائبية

إنها فجأة تصبح حية

ومايرغب الناس فى حدوثه يمكن أن يحدث - كل ماكان عليك فعله هو أن تقوله.

لاأحد يستطيع أن يُفسر هذا :

هذا هو ماقد كان .

بالرغم من هذه اللغة الأصلية المشتركة مابين البشر والحيوانات ، فإن الحيوانات المتعددة وأشكال الطبيعة الأخرى اليوم تتحدث بلهجاتها الخاصة العديدة ، ولكن مع ذلك فإنها " كلها تتكلم " ، وكلها لديها القوة والقدرة اللغوية ، الأكثر من ذلك فإن آثارا من اللغة البدائية المشتركة القديمة تتبقى ، وكما يمكن للإنسان أن يفهم فجأة الحركات الخافتة للغزال أو النعيق المتقطع للغراب فإن الكينونات الأخرى أيضًا تستطيع ويمكنها أن تفهم كلامنا .

" إن البوم غالبًا مايصعب الحديث المباشر معه ، إن البوم قد يتسبب فى إثارة اللعثمة والتأتأة ، عندما يتأتئ الشخص فإنهم ينجذبون لذلك ، يُقال إن التأتأة تثير

سخرية وضحك البُوم ، ومع ذلك فإن هذا قد يكون مفيدا ولمنفعة الشخص ، وذلك أنه إذا كنت تفكر بأن بومة ماتسبب المشاكل فى قريتك ، فتأتئ فى النابات ، هنالك فرصة طيبة لكى تقترب منك بومة ما ، عندها يمكنك أن تواجه تلك البومة ، تحاسبها ، وتتناقش معها ، ولربما استطعت أن تحل المشكلة " .

إن معظم القناصين والصيادين من الشعوب الأصلية يتجنب بحذر التحدث حول القنص قبل حدوثه ، أو الكلام مباشرة إلى الكائنات التى يريدون اقتناصها حتى لايهينوا الحيوانات المستمعة نفسها ، بعد أن يقتلوا – على كل حال – فإنهم يتحدثون مباشرة إلى الحيوان المحتضر ، مُكْبرين إياه ، وواعدينه بالاحترام والتقدير ، وشاكرينه لتقدمته نفسه كأضحية من أجلهم .

ومع ذلك فإن أولئك المعروفين " كشامان " أهل السحر والطب الشعبى ، هم الأكثر تذكراً بشكل كامل للغة البدائية المقدسة ، وهم بذلك القادرون على الانزلاق بإرادتهم خارج المسار البشرى الخاص حتى يستطيعوا التحدث مباشرة مع القوى الأخرى ، وكما يكتب ميرسى إيلياد :

" إن وجود لغة سرية معينة قد تم تحديدها مابين اللابز ، والأوستياك ، والشوكشى ، والياكوت ، والتونغو ، خلال غيبوبته يستطيع الشامان من التونغو أن يفهم ويستوعب لغة كامل الطبيعة ...

غالبًا ما تكون هذه اللغة السرية فى الواقع " لغة حيوانية " ، أو متأصلة فى صراخ الحيوانات فى أمريكا الجنوبية، على المعتنق الجديد للدين أن يتعلم خلال مرحلة إعداده ، أن يُقلد أصوات الحيوانات ، والشىء نفسه صحيح فى أمريكا الشمالية ، إن أهل الشامان من البومو ، والمينومينى بالإضافة إلى آخرين يقلدون زقزقة الطيور ، وفى خلال الطقوس مابين الياكوت واليوكاغير والشوكشى والغولدى والإسكيمو وغيرهم فإن الحيوانات البرية تصرخ والطيور تنادى وهذا كله يسمع خلال الحدث ...

' إن كلمات كثيرة يتم استخدامها خلال الطقوس تكون أصولها فى أصوات وصرخات الطير والحيوانات الأخرى .. " السحر " و" الأغنية " وخصوصًا مايشبه زقزقة العصافير وهديل الحمام – غالبًا مايتم التعبير عبرها بكلمات مثيلة ، إن الكلمة الألمانية التعويذية السحرية هى Galdr ، وهى مشتقة من فعل Galan،" أن تُغنى" ، وهو مصطلح ينطبق بشكل خاص على نداء الطيور " .

سوف نستكشف فيما بعد بالتفصيل أمثلة محددة لذلك التحالف مابين اللغة والمحيط الطبيعي للأرض كما يتجسد لا في الأساطير فقط والممارسات السحرية ولكن في مسار الحياة اليومية لعدد من القبائل الأصلية الحالية ، هنا يكفي أن نشير إلى وجهة نظر ميرلو بونتي حول اللغة كوسيط حي بشكل كامل ، حول الكلام كإيقاع وإيماءات تعبيرية ، ومن ثم حول الكلمات والجمل المنطوقة لحضور حسي نشط له قدمه الراسخة في مادية الطبيعة والأرض (بدلاً من الأشكال النظرية المثالية التي تتمثل، ولكنها ليست بجزء من العالم الحسي) تمضي في طريق طويل لمساعدتنا في أن نفهم مبدئية وسحر الكلمة في الطقوس الأصلية للتحول والشفاء والمداواة ، فقط عندما تُحس الكلمات والحضور الجسدي مثل الصدى والشلالات نستطيع أن نفهم قوة اللغة المتحدثة للتأثير ، والتبديل ، والتحويل للعالم المُتلقَى وكما قد تم التعبير عن ذلك في أغنية من أغاني المودوك :

" أنا

الأغنية

إنني أمشي هنا ".

أن يتم تجاهل هذا البُعد – أن نتجاوز القوة التي تمتلكها تلك الكلمات والجمل في التأثيرات على الجسد ، ومن ثم في تشكيل خبراتنا الحسية عن العالم من حولنا – هو أن نعطل حتى القدرة العملية العادية للتواصل للغة غير المستوعبة أو المفهومة .

يمكن لنا أن نلخص باختصار النتائج العامة لتقصى ميرلو بونتى حول علم الظواهرتية ، أو على الأقل تفسيرنا نحن لتلك النتائج كالتالى :

١ - إن حدث التلقى المعاش يمكن اعتباره كنشاط متداخل موروث ، وإن حدث التشارك هو تداخل مستوعب مابين المُتلَقِى والمُتلَقَى .

٢ - إن الأشياء المتلقاة تُقابل عبر الجسد المستوعب كقوى حية ، باطنية ، تجذبنا بحيوية إلى العلاقة ، إن خبراتنا التلقائية السابقة للمفاهيمية لاتطرح أى شواهد لذلك التقسيم المزدوج مابين الظواهر الحية وتلك " غير الحية " ، ولكن فقط لذلك التقسيم النسبى مابين الأشكال المختلفة للحياة الحيوية .

٣ - إن التلقى الاستيعابى مابين أجسادنا بحواسها والأرض المعبرة الحية كليهما يقوى ويدعم تواصلنا الأكثر وعياً لغوياً مع الآخرين ، إن التبادل المعقد الذى ندعوه " باللغة " متجذر فى التبادل غير الشفهى دائماً بشكل حاصل مستمر مابين لحمنا نحن ولحم العالم .

٤ - إن اللغات البشرية - إذن - يتم إبلاغها لا عبر تشكيلات الجسد البشرى والمجتمع الإنسانى ، ولكن عبر الأشكال المثيرة والنماذج لأرضية ماهو أكثر من بشرى ، وأخذاً باعتبارات التجربة فإن اللغة ليست أكثر خصوصية كملكية للكائن البشرى مما هى تعبير للأرض الحية وهى تكشف نفسها لنا .

هكذا هو - على أى حال - نوع الوصف الذى نصل إليه عندما نهتم بعناية بالتلقى واللغة كما نخبر ذلك بشكل مباشر ومحسوس .

هنا - على كلٍّ - هذه الفلسفة تواجه موقفا مهددا لنتائجها وإجهاض كل جهودها ، وبشكل أكثر تحديداً ، إذا كان التلقى الحسى هو تشاركى بالوراثة ، وإذا كان كما قد ذكر ميرلو بونتى وأكد على أن التلقى (بشكل عام) هو المصدر الذى لايمكن الهروب منه لكل الخبرات فكيف نستطيع أن نجيب على الغياب الواضح للتشاركية فى العالم العصرى الحديث ؟ " أى حق أملكه ؟ "، يتساءل ميرلو بونتى " أن أدعو (حالا) هذا الأصلى القابل للنسيان إلى هذه الدرجة ؟ " وإذا كانت خبراتنا الأساسية البدائية حية بطبيعتها ، إذا كان وعينا " الحالى " يفتح حقلاً لظاهرة هى فى باطنها حية ومعبرة ، فكيف لنا أن نستطيع أن نجيب على ذلك " الفقد " لكل

تلك الحياة الحيوية للعالم من حولنا ؟ كيف لنا أن نجيب على خبراتنا الثقافية والحضارية مع الحيوانات الأخرى كجمادات بلا حواس أو إحساس ، أو حول الأشجار كجماد خالص ؟ إذا كان التلقى فى أعماقه تشاركيًا تمامًا كيف استطعنا أن نكسر تلك الأعماق إلى شظايا من الجمادات فى عالم حتمى نحن الآن نتلقاه ونعيشه بشكل عام ؟

قد نشكُّ – فى البداية – أن ذلك الفقد الواضح للتشاركية متعلق نوعًا ما باللغة ، ذلك أن اللغة بالرغم من تجذرها فى التلقى غير أن لها بالرغم من ذلك قدرة مذهلة فى الابتعاد عن ذلك والتأثير على خبرات حواسنا ، فيما التلقى التشاركى يدعم التلقى الأكثر مباشرة، الإنسانى يُعاش ويُخبَر بالنسبة للشعوب الشفهية الأصلية فى كينونة مشارِكة مع حديث الطيور والذئاب وحتى الرياح ، فكيف أصبح له أن يصير " أصم " لأولئك ، ولتلك الأصوات الأخرى التى تبدو الطبيعة غير البشرية الآن فيها تقف صامتة جامدة وخرساء ومفرغة من أى معنى خارج ذلك الذى نختار أن نمنحه إياها ؟

إذا كان التلقى فى العمق تشاركيا فى الحقيقة فلماذا لانجرب ولانعيش الإحساس بأن بقية العالم حى وحيوى ووجدانى مثلنا ؟ وإذا كانت لغتنا تعتمد حقيقة على وجود الآخر – الأصوات غير البشرية – فلماذا نعيش ونجرب الآن اللغة كمِلْكية بشرية استثنائية خالصة ؟

إن هذين السؤالين هما فى الواقع التساؤل نفسه مطروحًا من زاويتين مختلفتين ، والأكثر من ذلك فإن هذا التساؤل هو الشىء نفسه الذى ينبثق فى نهاية الفصل الأول، هو السؤال نفسه الذى عرضته هناك فيما يتعلق بالحركة المحسوسة فى خبرتى الخاصة للطبيعة غير البشرية عند عودتى إلى الغرب بعد رحلتى فى الريف الآسيوى ، غير أن السؤال المطروح الآن هو فى إطار ذى محتوى تنظيرى أكثر ، إنه مدعوم الآن بكامل التقاليد الفلسفية للبحث والتساؤل ، يجب أن يكون واضحًا الآن أيضًا أن السؤال يمتلك جانبًا أكثر من الجانب الشخصى الخالص . إن الطبيعة غير البشرية تبدو وكأنها قد انسحبت من كلا عالمينا : عالم كلامنا ، وعالم حواسنا ، أىُّ حدث قد يكون تسبب فى هذا الانسحاب المزدوج مشكلاً طرقنا فى الكلام حتى وهو يصم آذاننا ويضع الحجاب على أبصارنا ؟

(٤)

الوثنية وحروف الهجاء

حاملا بالفرشاة ، الإزميل ، القلم، أو ريشة الكتابة كمثل إطلاق عضة أو رفع مخلب .

جارى سنايدر

إن السؤال المتعلق بأصول الأزمة الإيكولوجية البيئية ، أو فى الشواهد العصرية الحديثة لفقد الاعتبار والاحترام لاحتياجات العالم الطبيعى قد أثارت بالفعل ردود فعل متعددة لدى الفلاسفة ، إن هنالك أولئك الذين يقترحون أن علاقة استغلالية عامة مع بقية الطبيعة هى جزء وضرورة من الوجود الإنسانى ، وأن الكائنات البشرية منذ البدء قد كانت فى حرب مع الطبيعة وكائناتها وعناصرها ، فيما آخرون بات لديهم أن الثقافات أو الحضارات الأصلية القديمة قد أبدت تضامنا خلاقا مع الأراضى التى يعيشون فيها ، و كذلك الاحترام المبدئى لتلك الكائنات الأخرى التى تعيش فى تلك الأراضى . إن مثل تلك الثقافات ، وهى أصغر كثيرا فى أحجامها (وأقل مركزية) عن الحضارة الغربية الحديثة تبدو وكأنها قادرة على الاحتفاظ بعلاقات شبه متوازنة مع بيئاتها الطبيعية لزمن أطول ، آخذين احتياجاتهم الضرورية للوجود من تلك الأراضى دون تخريب وتدمير جاد لقدرة الطبيعة على إعادة التكيف معهم ومع نفسها .

إن التنوع الخلاب والمزدهر لقارة أمريكا الشمالية قاد المستكشفين الأوروبيين الأوائل للحديث عن هذه الأراضى كطبيعة موحشة مهجورة ، أو غير مسكونة ، بالرغم من أن هذه القارة كانت مسكونة ومستوطَنة دائمًا بالثقافات الإنسانية لمدة عشرة آلاف

عام علـى الأقـل قبل مـجىء الغرب إليـها ، إن كون شـعـوبها الأصلية اسـتطاعت أن تجمع وتقنص وتصيد وتصنع إقامتها فى موطنها ذلك لمدة طويلة من الزمان دون أن تخرب وتستنزف تلك الطبيعة إلى حد خطير ، وتحتفظ للمكان بكرامته يعارض فى حد ذاته تلك المقولة التى ترى أن البشر مخربون وفى حالة حرب مع الطبيعة بطبيعتهم . إنه فى خلال قرون قليلة من الاستيطان الأوروبى فى تلك الأراضـى فقدت تلك الأراضـى الكثير من ثروتها وخصوبتها وتم استنزافـهـا – لقد تقلص عدد الحيوانات فيها، وانقرضت بعض أنواعها ، وبُتر الكثير من الغابات كما تم تجريف أراضيها الزراعية، كما جفـت وخربت تربتها الخصبة الغنية ، وصارت مياهها الجارية وشلالاتها غير قابلة للاستهلاك والشرب الآن .

إن إهمال أوروبا المتحضرة وعدم احترامها للعالم الطبيعى واحتياجاته قد تم تشجيعه بوضوح عبر أسلوب للوعى يتجاهل ويحارب الحقيقة الحسية مدمراً النظام الطبيعى والحساس الواضح للأشياء بالنيابة عن مصدر مطلق مايُفترض وجوده كاملاً خارج أو أبعد من العالم الجسدى . بعض الفلاسفة والمؤرخين استخلصوا أن العادات اليهودية والمسيحية بآلهتها الغيبية خارج هذا العالم ، هى المسئولة بالدرجة الأولى عن ذلك الموقف الحضارى المهمل وغير المراعى للبيئة الطبيعية الأرضية ، إنهم يطرحون كشواهد وصايا الرب العبرانى للبشرية فى الكتاب المقدس :

" كونوا مخصبين وتكاثروا ، املأوا الأرض واستعبدوها ، واستعبدوا الأسماك فى البحار ، والطيور فى السماء ، وكل الأشياء الحية التى تتحرك وتعيش فى الأرض ".

بعض المفكرين الآخرين ، على كُل ، التفتوا نحو الأصول اليونانية لتقاليدنا الفلسفية فى أثينا التى عاش فيها سقراط وأفلاطون ، فى بحثهم عن جذور انتهاكنا للطبيعة ، جيل طويل من الفلاسفة المعاصرين ، فمثلاً من فريدريك نيتشه حتى الحاضر حاولوا أن يعرضوا الأصول الأفلاطونية للتحولات التى حدثت فى الأشكال المختلفة للحسى فى العالم – كانت دعواهم تقوم على أن كل تلك كانت أفكاراً قائمة على الخلود و على الخالص ، وتقيم فى عالم نظرى مثالى ، وغير حسى أبعد من عالمنا الواضح – وقد أضاف ذلك بعمق إلى عدم احترام الحضارة وشكلها فى الخبرة الحسية والجسدية ، وإلى اغترابنا الناتج عن ذلك عن عالم الأرض والطبيعة من حولنا .

وهكذا فإن قدماء العبرانيين من ناحية وقدماء الإغريق من ناحية ثانية هم المسئولون عن تقديم المحتوى الفكرى الذى احتضن موقف الحضارات من سوء المعاملة للطبيعة غير البشرية ، كل من هاتين الثقافتين القديمتين تبدو كأنها بذرت البذور لاغترابنا المعاصر - إحداهما بدأت فى تأسيس الأصول الدينية والروحية للبشرية فى هيمنتها على الطبيعة ، والثانية أثرت بشكل أكبر على المنهج الفلسفى والعقلانى فى موقفه المعادى من الطبيعة، وفصلت الحالة الفكرية البشرية عن العالم الطبيعى العضوى ، ومن زمن طويل أسبق من الامتزاج التاريخى للدين اليهودى والفلسفة الهيلينية مع العهد الجديد للمسيحية ، فإن هذين الخطين من المعتقدات المشتركة - أو التى تبدو مشتركة - اتخذت مسافة عقلية متشابهة من البيئة غير البشرية .

وفى كل اعتبار آخر لهذه التقاليد فإن كلاً منهما تأصل من جذوره الخاصة به وأرضيته وزمنه ، مؤسسين اختلافهما الواسع ، وفى كل اعتبار آخر عموماً ماعدا واحد :

كلاهما منذ البدء تم نشره عبر الكتابة ، وبالفعل فإن كليهما استخدم تلك التكنولوجيا الغريبة والثرية باحتمالاتها والتى ندعوها اليوم بـ " الحروف الأبجدية " .

إن الكتابة – مثل اللغة البشرية – ليست حصيلة المجتمع البشرى فقط ، وإنما قد حدثت مابين المجتمع البشرى والطبيعة الحية ، وقد وُلدت نتيجة التداخل والاحتكاك مابين البشر وعالمٍ ما هو أكثر من بشرى ، إن الأراضى الطبيعية التى نجد أنفسنا فيها والتى نعتمد عليها لكل أشكال بقائنا وعيشنا مليئة بالخطوط والتعاريج والآثار الموحية ، والتى شكلتها كاليوغرافى الأنهار الممتدة خلال اليابسة ، كاتبة الأخاديد والتعاريج فى الصحارى ، وكذلك راسمة بالقطع الأسود على الأشجار التى قد ضربها البرق والرعد ذات يوم فى الماضى . إن أسراب الطيور المهاجرة تقدم كتابة من نوع آخر فى السماء والرياح تحركها ، إن هذه الكتابة هى التى درسها المنجمون القدماء وهم يقرأون فى تلك الحروف الحية مستقبل البشر . إن الحشرات تصنع خطوطا وأشكالاً غريبة على أوراق الأشجار التى تعيش عليها وتقتات منها ، والذئاب تتبول على صخور وأراض محددة لتصنع حدودها ، واليوم أنت تقرأ هذه الكلمات المطبوعة كما كان قناصو القبائل يقرأون فى يوم ما آثار غزال ، أو دب ، أو وعل محفورة ومطبوعة على تربة الغابات .

إن الشواهد الأثرية تطرح أنه لأكثر من مليون عام اعتمد بقاء البشرية على دقة مثل أولئك القناصين وقدرتهم على قراءة الآثار – قليل من البعر هنا ، عظمة مكسورة هناك – لتلك الحيوانات الأخرى ، إن هذه الحروف التى أطبعها فى هذه الصفحة هى الخربشات والخطى التى تركز عليها أنت الآن متابعًا إياها على سطح الصفحة البيضاء ، وهى بالكاد تختلف عن آثار أقدام فريسة مطبوعة على الثلج ، إننا نقرأ تلك الآثار والعلامات بأعضاء تم تطورها عبر ملايين السنين من أجدادنا القدماء متحركين غريزيًا من مسار لآخر ، ملتقطين تلك الخطى حيثما قد تركت آثارها مقتنصين " المعنى " ، والذى سيكون " اللقاء " مع الآخر .

إن الشكل المتعدد للمعانى للكلمة الصينية للكتابة (" وين " Wen–) يوضح جيداً هذا التفسير للكتابة البشرية وتلك غير البشرية .

" إن كلمة " وين " ترمز إلى تشكيلات العلامات ، الرمز البسيط فى الكتابة ، إنها تنطبق على الشرايين أو العروق فى الصخور والأخشاب ، والمجرات المتشكلة عبر مسارات النجوم ، لآثار الطيور على الأرض (إن التقاليد الصينية تطرح ملاحظة وترصُّد تلك الآثار). بدأت فكرة اختراع الكتابة ، إلى رسوم " التاتو " على سبيل

المثال ، وإلى تلك التصميمات الديكورية على قشرة السلحفاة (" إن السلحفاة حكيمة " يقول نص قديم- وقد خُصت بقوى سحرية - دينية " ذلك أنها تحمل تصميمات مرسومة على ظهرها ") ، إن مصطلح " وين " قد انطبق بالتالى كامتداد لذلك على الأدب ... " .

لقد كانت كتابتنا الأولى من الواضح هى آثارنا ، آثار أقدامنا ، طبعات أيادينا على الطين أو الرماد الملتصق بالصخور ، فيما بعد ربما وجدنا أنه عبر نسخ الطبعات المميزة والخرابيش التى خلفتها حيوانات أخرى نستطيع أن نكتسب قوى جديدة ، هنا كانت وسيلة وطريقة للتشبه بالحيوانات الأخرى ، آخذين منها السحر المعَبر من أجل أن نقتفى أماكنها ، لنقربها ونجعلها تظهر أمامنا ، إن حدود ومتابعة الانطباع الذى تركه جسد غزال على الثلوج أو نقل ذلك التخطيط على جدار الكهف كانت طُرقًا ليضع المرء نفسه من بعيد على صلة مع الآخر ، إما لإثارة تأثيره أو لممارسة تأثير الشخص عليه ، ربما عبر تكرار وتعدد خيالاته على جدار الكهف كنا نهدف إلى التأكد من أن الغزال نفسه سوف يتكاثر ، ويكون هناك وفرة فى الموسم المقبل ... .

إن كل أنظمة كتابتنا المبكرة بقيت مرتبطة إلى ذلك العالم الغامض الفوق - بشرى، إن تخطيطات " البيتروجلايفز **Petroglyphs** " الخاصة بالرسوم البدائية للحضارة الكولومبية لأمريكا الشمالية القديمة ممتلئة بصور ورسوم للفرائس ، سحب المطر والبرق ، للنسور والثعابين ، ورسوم آثار مخالب الدببة على الصخور ، والأخاديد ، والكهوف، تختلط تلك الأشكال مع الأشكال البشرية ، أو أشكال لأعضاء بشرية مختلفة مع أعضاء أخرى (جزء من حشرة ، أو بومة ، أو وعل) .

بعض الباحثين يؤكدون أن رسوم الكتابة لدى الشعوب الأصلية لأمريكا الشمالية ليست حتى الآن كتابة " حقيقية " ، حتى حينما تكون الصور متسلسلة ومرتبطة ببعضها بعضًا فى نظام معين ، كما هى واضحة فى الكثير من النقوش الصخرية (وكذلك فى الروزنامه الخاصة " بحسابات الشتاء " لقبائل السهول) ، وذلك أنه يبدو حتى الآن أنه ليس هناك علاقة صارمة مابين الخيالات أو الرسوم والمنطوق .

وفى مجال علم الرسوم البدائية ونظامه الأكثر محافظة مثل الهيروغليفية المصرية (والتى ظهرت فى فترة السلالة الأولى ، حوالى العام ٣٠٠٠ قبل الميلاد، وبقيت فى حيز الاستخدام حتى القرن الثانى الميلادى) كانت الأشكال الأسلوبية للبشر وأدواتهم مازالت على صلة بتلك الصور والرسوم للنباتات والأنواع المختلفة من الطيور ، وكذلك الثعابين ، والتماسيح ، وغيرها من الحيوانات ، إن مثل أنظمة الرسوم البدائية تلك قد وجدت أيضًا فى الصين وتعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وهى تحتوى بشكل تقليدى على شخصيات أصبح الأكاديميون يدعونها " أيدوجرام – Ideogram ". والأيدوجرام عادة مايكون شخصية مرسومة أو مصورة تعود إلى أو ترمز لا إلى الهوية أو الكينونة الواضحة للصور المباشرة ولكن إلى قيمة ما أو ظواهر أخرى يتم ربطها تلقائيًا بذلك الشىء أو تلك الكينونة وهكذا – لابتكار مثال بسيط – فإن خيالاً أو صورة أسلوبية لفهد بأقدامه عاليا عن الأرض ربما صارت ترمز إلى " السرعة "، بالنسبة للصينيين ، وحتى اليوم فإن رسمًا أسلوبيًا للشمس والقمر معًا يرمز إلى " الضوء والشعاع "، وكذلك فإن الكلمة المقصود بها " شرق " تبرز كرسم أسلوبى للشمس وهى تبزُغ من وراء شجرة .

إن نشوء تلك الأنظمة المشتقة للرسوم والصور يحمل بالضرورة معه تحولاً للمشاركة الحسية بعيدًا عن الأصوات والاختلاجات الخاصة بالأرض المحيطة بالبشر نحو رسومنا وخيالاتنا المُصنَّعة بشريا ، غير أنه بقيت الرسوم البدائية والتى شكلت علميًا تلك الكتلة لتلك النقوش القديمة تذكر الجسد القارئ بموروثه وانتمائه إلى حقل المعانى فى العالم الأكثر مما هو بشرى ، إن توقيعًا ليس فقط للشكل الإنسانى ولكن للحيوانات الأخرى ، والأشجار والشمس والقمر والأشكال الأرضية بقيت باستمرار تعود إلى حواسنا فى فضاء يزيد على مجرد الفضاء البشرى .

ولكن حتى مختصًا فى مجال الرسوم والأشكال الفكرية المتصلة بذلك المجال لن يستطيع الجزم بشكل كلى حول مصطلحات معينة وجدت فى مسار محلى خاص ، إن مثل تلك المصطلحات قد تعود إلى ظاهرة تفتقد تمامًا إلى تداعٍ بصرى محدد، فلنأخذ على سبيل المثال الكلمة الإنجليزية (" اعتقاد " – belief) كيف يمكن لنا أن نرمز إلى ذلك عبر الرسوم والصور ، أو نظام الأيدوجراف القائم على ترميز الصورة فكريًا ؟

ربما رسمًا أو صورة لحيوان خرافى متوحش ، أو واحدة لشخص يقوم بالصلاة ، ومع ذلك فإنه لايمكن لمثل ذلك الأيدوجرام أن يوصل المصطلح بدقة جاهزة مثل الصورة البسيطة لدبور نحل تتبعه صورة لشكل ورقة شجرة .

إننا نستطيع أن نلجأ إلى صورة بصرية ، ورسوم لأشياء لاعلاقة لها خارجيًا بالاعتقاد ولكن يكون لها عند تسميتها فى تسلسل أن تحمل الصوت نفسه مثل (المصطلح المنطوق " اعتقاد – belief) فتكون بالإنجليزية (bee- Leaf) (دبور – ورقة). [ملحوظة : فى النطق العربى المقارب للكلمتين بيليف – وبى ليف تقارب صوتى للكلمتين المنطوقتين رغم اختلاف المعنى . (المترجم)] وبالفعل مثل تلك التلاعبات الشكلية للرسوم تم استخدامها أيضًا فى الشرق الأوسط ؛ لتسجيل مصطلحات معينة كانت بشكل خاص تجريدية أو غير قابلة للتمثيل والتصوير البصرى ، وهكذا – على سبيل المثال – فإن الكلمة السومرية (" تى " Ti) والتى تعنى " حياة " ، كُتبت فى شكل مرسوم لرمز " السهم " والذى يسمى بالسومرية أيضًا ، (" تى " – Ti) .

إن خطوة مهمة قد اتُخِذَت هاهنا مع لغة الترميز فى الرسوم المكتوبة ، تم وضع إشارات مرئية لإثارة أصوات معينة تحاكى الصوت البشرى بدلاً من المرجعية الخارجية للصوت . إن لغة الترميز عبر الرسوم بتركيزها على الصوت للاسم بدلاً من الشىء المسمى بدأت فى وضع المشروع البعيد المدنى للنقش أو الكتابة الصوتية (Phonetic من الكلمة اليونانية Phonein أى الصوت)، وكانت هذه الوسيلة التى سوف تقوم بكتابة الصوت الخاص بالكلام بدلاً من محتواه الخارجى أو معناه .

غير أنه نظرًا لعوامل كثيرة ساعدت فى تعميم مبدأ الرسوم الترميزية الصوتية ، وبذلك منعت التطور الكلى لنظام الكتابة الصوتية ، فمثلاً إن كتابة ضخمة من التشكيلات المرسومة يمكن بسهولة تزويدها لأهداف خاصة بالتواصل عبر أشخاص لهجات مختلفة تمامًا (وبذلك لايستطيعون فهم بعضهم بعضًا عبر الكلام) إن التصوير أو الرسم الترميزى نفسه مفهوم بشكل جاهز سوف يثير أصواتًا مختلفة فى كل لهجة ، وهكذا فإن كتابة مصورة تسمح بالتجارة فيما بين الحى نفسه وكذلك المجتمعات ذات اللغات المختلفة البعيدة ، وكان هذا تقدمًا قابلاً للضياع لو أن الكتابة الصوتية الرمزية وحدها قد استخدمت لكتابة الأصوات المنطوقة لمجتمع ما (إن هذا العامل يساعد فى شرح لماذا شكلت الصين المجتمع الواسع والمكون من تعددية للهجات مميزة ، لم تطور أبدًا الكتابة الصوتية) .

والعامل الآخر الذى عطل التطور الكلى للكتابة اللغوية - الصوتية كان المركز النخبوى الغالب للكتاب ، إن الكتابة الأيدوجرافية لابد لها من استغلال عنصر العدد الكبير للرسوم والشخصيات الأسلوبية بما أن كل مصطلح فى اللغة يجب على الأقل مبدئيًا أن يكون لديه شخصيته المكتوبة .

(فى عام ١٧١٦ عرض قاموس للصينية - مع الاعتراف بأنه مثال صارخ - ٤٠٤٤٥ شخصية مكتوبة ! واليوم حوالى ٨٠٠٠ شخصية فقط هى المستخدمة). إن المعرفة الكاملة لنظام التصدير الرمزى لذلك يمكن لها أن تكون فقط امتيازًا لعدد قليل من الأفراد المتعلمين ، والمدربين عليها بشكل كبير فى مثل تلك الثقافات ، وقد كان ذلك أدب أو علم الأقلية المتميزة والذين كان علمهم المقدس غالبًا ماينظر إليه بتقدير بالغ وتمييز وتقديس من قبل بقية المجتمع ، ولم يكن من المرجح أن يقوم هؤلاء الكتبة بإرادتهم بتطوير ابتكارات تُبسِّط من تلك التكنولوجيا الجديدة وبذلك تسهل القراءة والأدب والثقافة لبقية المجتمع ، لأن ذلك كان بالتأكيد سوف يقلل من وضعها ومركزها الاجتماعى والثقافى فى ذلك المجتمع ، ويفقدها فرادتها وتميزها .

" ... إنه من الواضح أن الكتابة القديمة التاريخية كانت فى أيادى نخبة صغيرة من المتعلمين - الكتبة - والذين أسسوا لحس محافظ كبير فى ممارستهم لمهنتهم وفنهم ، وبعيدين عن كونهم مهتمين بتبسيط تلك الكتابة غالبًا ما اختاروا أن يعرضوا رفعتهم وأخلاقهم عبر تعزيز الرموز والقيم ... "

ومع ذلك ، فى الشرق الأوسط القديم كان مبدأ الكتابة بالرسوم الترميزية قد تم تعميمه ونشره مع الوقت - ربما عبر كتبة يعملون بعيدًا عن المراكز الثرية المرفهة والمنعمة فى تلك الحضارة - ليغطوا كل الأصوات المشتركة للغة معينة ، وهكذا فإن مخارج الحروف والتقطيعات الصوتية والمختصين فيها قد ظهرت ، حيث كل مقطع صوتى أساسى فى اللغة كان له مفهومه المحدد وشخصيته المكتوبة (غالبًا مايكون فى شكل كتابة بصرية رمزية فى الأصل) مثل تلك الأنظمة للكتابة استخدمت إشارات أقل بكثير عن الكتابة المرسومة بالصور والتى تم اشتقاقها منها فى الأصل ، بالرغم من أن أرقام الإشارات كانت مازالت أكبر بكثير من الكتابة الأبجدية التى نعرفها اليوم.

إن الابتكار الذى ولدت منه الأبجدية فى حد ذاته تم تطويره عبر الكتابة السامية حوالى عام ١٥٠٠ قبل الميلاد ، لقد تكونت من الإقرار بأن كل مقطع تقريباً من لغتهم كان مُشكلاً من واحد أو أكثر من العناصر الصوتية الصامتة بالإضافة إلى عنصر النَفَس الصوتى - ذلك الذى ندعوه اليوم بالتشكيل - إن العناصر الصامتة أو الساكنة قدمت - كما قد كان - الإطارَ التجسيدى أو الشكل الذى من خلاله يتدفق النَفَس الصوتى .

إن الأبجدية الأصلية السامية آنذاك قد أسست شخصية أو حرفًا لكل متحرك فى اللغة ، إن الحركات ، النفس الصوتى الذى لابُد وأن يضاف إلى الحروف المكتوبة الساكنة كى يمنحها الحياة والقدرة على الكلام كان لابُد أن يتم اختياره عبر القارئ، والذى سوف ينوع فى النَّفس الصوتى حسب المحتوى المكتوب .

وعبر هذا الابتكار تمكنت الألف - باء من تقليص كبير لأعداد الشخصيات للمخطوطة المكتوبة إلى رقم اثنين وعشرين فقط - نظام مُبَسَّط للإشارات يمكن استخدامه بشكل جاهز وتعلمه فى فترة زمنية قصيرة لأى أحد يملك الفرصة وحتى الطفل الصغير . إن البساطة المحضَة لذلك الابتكار التكنولوجى أو التقنى كان بذلك الحجم بحيث أن الألف - باء السامية والتى دونت بها الحكايات والقصص الكثيرة والتاريخ والأحداث تم جمعها فيما بعد فى الكتاب المقدس للعبرانيين ، وتم تبنيها كلغة لا من قبل العبرانيين فقط بل والفينيقيين (والذين من المفترض أنهم كانوا حملة التقنية الجديدة عبر البحر المتوسط ونحو اليونان) والآراميين واليونانيين والرومان ، وبالفعل مع الوقت أعطت البزوغ (مباشرة أو بشكل غير مباشر) لكل أبجدية نعرفها اليوم فى العالم ، بما فيها هذه التى أستخدمها الآن لكتابة هذه الكلمات.

مع تطور الأبجدية فُتحَت مسافة جديدة مابين الثقافة الإنسانية وبقية الطبيعة ، بالتأكيد فإن كتابة الأشكَال والرسوم والكتابة الأيدوجرافية ذات الرسوم الترميزية كانت بالفعل متورطة فى إفقاد حواسنا التشاركية مكانها عن أعماق البيئة الحية، ونقلها إلى السطح الباهت لجدراننا وألواحنا الطينية وأوراقنا من البردى ، غير أنه كما قد لاحظنا سابقًا فإن الرسوم والخيالات المكتوبة فى حد ذاتها طالما ارتبطت وأعادتنا إلى الحيوانات الأخرى والطبيعة البيئية الأرضية ، إن الحرف المرسوم أو الشخصية مازالت ترجع باطنيًا إلى الظاهرة الحية ، والتى كانت الخيال الجامد ، لقد كانت ظاهرة الكلمات بدورها التى أثارت من داخلنا الصوت لذلك الاسم ،

الظاهرة المحسوسة واسمها المنطوق بشكل ما مازالت متشاركة مع بعضها بعضاً، إن الاسم هو نوع من الانبعاث للكينونة المحسوسة . مع صوتيات الألف باء - على كل - فإن الشخصية المكتوبة لم تعد ترجعنا إلى أية ظاهرة محسوسة هناك فى الخارج أى العالم ، أو حتى إلى الاسم لمثل تلك الظاهرة (كما كان يفعل نظام الترميز الصوتى بالرسوم) ولكن تعود بنا إلى مجرد اختلاج أو حركة يقوم بها الفم البشرى ، إن هناك تحولاً أساسياً للانتباه بعيداً عن أى عالم خارجى أو مرجعية إلى الكتابة المرسومة بالصور والخيالات ، بعيداً عن الظاهرة المحسوسة والحسية التى تنادت سابقًا إلينا ونادت على الهمس المنطوق ، إلى الشكل للمهموس والمنطوق فى حد ذاته ، الآن تقوم بذلك عبر الكتابة المباشرة للشخصية . إن إحالة مباشرة قد أسست مابين الإشارة المرسومة وحركة النطق الصوتى لأول مرة متجاوزة تمامًا الشىء المرسوم . إن الظاهرة المستثارة - الكينونات المتخيلة - لم تعد جزءًا ضرورياً فى المعادلة ، إن المنطوقات البشرية أصبحت الآن مبتكرة وموجهة مباشرةً عبر الإشارات والرموز التى صنعها البشر الأضخم ، والعالم الأكثر مما هو بشرى لم يعد جزءًا ضرورياً لذلك النظام .

أو هل هو مازال كذلك ؟ عندما نتجول فى مجال الأبجدية (ألف - باء) السامية المبكرة نتعرف حالاً على ميراثها من الكتابة - المرسومة أو المصورة ، ألف (أ) الحرف الأول كان مكتوباً هكذا: ﻻ (أ) كان أيضًا هو الكلمة العبرية القديمة لكلمة "جاموس" . إن شكل الحرف - نستطيع أن نرى - كان لرأس جاموس بقرنيه ، معكوسًا أو مقلوباً ، أصبح هو حرفنا (A - أ) . إن اسم الحرف السامى (م - MeM) هو أيضًا كلمة عبرية (للماء) ، الحرف الذى أصبح فيما بعد هو حرفنا (M-م) ، تم رسمه كسلسلة من الأمواج : (ᨓ) ، الحرف (ع-ayin) ، و هو يعنى أيضًا (عين-eye) بالعبرية ، تم رسمه كدائرة بسيطة ، صورة للعين ، إن هذا الحرف تم تحويله إلى حركة صوتية فى الكتابة اليونانية ، وتحولت فيما بعد إلى الحرف (O - أو) ، الحرف العبرى (ق-قاف -qoph) كان هو الكلمة التى تعنى "قرد " ، تم رسمها كدائرة لها ذيل طويل (ϙ) ، وتحول حرفنا (Q) ليبقى على إحساس مابتلك الصورة البسيطة .

إن هذه مجرد أمثلة قليلة ، وعبر المقارنة للأسماء الخاصة بالحروف بأشكالها المختلفة نكتشف أن حروف الأبجدية (ألف - باء) المبكرة مازالت مرتبطة بشكل داخلى وباطنى إلى حقل ظاهرة مماهو أكثر من بشرى ، غير أن هذه الارتباطات مع الحيوانات الأخرى ، وعناصر الطبيعة مثل الماء والأمواج ، وحتى مع الجسد البشرى نفسه - كانت أكثر لطفًا ورقة عما كانت عليه فى البدائية المرسومة وغير الصوتية .

إن آثار العالم الطبيعي المحسوس تبقى فى الكتابة الجديدة كأثر قديم بائد - لم تعد شريكًا ضروريًا لتحولات المعرفة اللغوية ، إن الحيوانات الأخرى ، النباتات والعناصر الطبيعية - الشمس ، القمر، الأمواج - قد بدأوا فى فقد أصواتهم الخاصة. فى الكتاب المقدس اليهودى إن الحيوانات لاتقول أو تتحدث بأسمائها إلى آدم ، وبدلاً من ذلك ، فإنها تتلقى أسماءها من الرجل الأول ، إن اللغة للعبرانيين صارت هبة بشرية محضة ، قوى بشرية .

لقد حدث فقط ، على كُلٍ ، مع تحويل الكتابة الصوتية إلى اليونان ، والتحول الناتج عن ذلك فى الأبجدية (ألْف - باء) السامية إلى الأبجدية الإغريقية (alphabet) أو اليونانية أن صار التجريد المتطور للمعنى اللغوى من العالم الحى نفسه وصل إلى نوع من الاكتمال ، لقد أخذ الكتبة اليونانيون مع بعض التعديلات كلا الجانبين من أشكال الحروف السامية وأسمائها أيضًا ، وهكذا فإن (ألف - alfha) اسم الحرف الأول ، وكلمة (جاموس -ox) أى ألف بالعبرية صارت (ألف - alpha) ، و (ب - beth) اسم الحرف الثانى صارت أيضًا "بيت " إشارة للمنزل - تحولت إلى (beta) ، و (ج - gimel) - الحرف الثالث ، كلمة تعود إلى (جمل) صارت (gamma) .. إلخ .

ولكن فيما كانت الأسماء السامية تمتلك معان قديمة غير نحوية لأولئك المتحدثين باللسان السامى فإن النسخ الإغريقية - اليونانية لتلك الأسماء لم يكن لها أى معنى غير نحوى على الإطلاق بالنسبة لليونانيين أنفسهم ، أى بمعنى فيما كان الاسم السامى للحرف هو أيضًا اسمًا لكينونة محسوسة لها صورة أو خيال مشترك أو تعود إلى حرف كان الاسم اليونانى لايمتلك أى مرجعية محسوسة أو متخيلة فى العودة إلى ذلك الحرف نفسه ، إن الاسم الإغريقى لم يكن له أى مرجعية حسية على الإطلاق ، وفيما الحرف السامى قد خدم ليكون مُذكِّرا بالأصول الحية فى العالم للحرف فإن الاسم اليونانى خدم فقط ليشير إلى الحرف الذى ابتكره الإنسان نفسه . إن التصوير بالرسوم (أو الأيقونات) تركز إلى أهمية حروف سامية كثيرة ، والتى تم حفظ ذاكرتها فى الأسماء المنطوقة صارت الآن مفقودة بالفعل ، إن امتنان اللغة البشرية إلى حقل التلقى للعالم الأكثر مما هو بشرى ، الامتنان الذى تم حفظه فى أسماء وأشكال الحروف السامية صار الآن قابلاً للنسيان تمامًا .

إيقاعات المُوقع

" ... إننى عاشق للتعلم ، والأشجار والريف المفتوح لن يعلمانى شيئًا ، بينما الرجال فى المدينة سوف يفعلون ". هذه الكلمات نطقها سقراط ،الأب الحكيم والأسطورى للفلسفة الغربية – مبكرًا فى مسار فيدروس ، بالتأكيد أحد أكثر الحوارات الأفلاطونية أناقة وفنا مكتوبة عبر أكثر تلاميذ سقراط توضيحًا وشرحًا : أفلاطون ، نقشت هذه الكلمات وطرحت افتراضًا جديدًا وغريبًا فى البدايات المبكرة لتقاليد الفلسفة الأوروبية .

إنه يصعُب معالجة فرضية سقراط – بأن الأشجار والريف البرى ليس لديهم شيئًا ليعلموه – مع اليونان التى عرفناها من خلال ملحمة هوميروس ، فى أناشيد هوميروس فإن الأرض الطبيعية نفسها تحمل التعاويذ والإشارات والنبوءات التى ترشد البشر فى أعمالهم وتحركاتهم ، إن الآلهة تتحدث مباشرة عبر أشكال السُحب ، والأمواج ، وتحليق أسراب الطيور ، زيوس يُثير العواصف ويبعث بضربات الرعد ، ويرسل بالصقور لتحلق فوق رؤوس الرجال مفرقًا تجمعاتهم . أثينا نفسها يمكنها أن تتخذ شكل نسر البحر ، أو يمكن لها أن ترسل بالريح لتعين سفينة على الإبحار . بروتوس " المعتق فى ملح البحر ، والذى يخدم تحت إمرة بوزيدون " يستطيع بسهولة أن يتحول إلى أى وحش ، أو شعلة نار ، أو إلى الماء نفسه . وبالفعل فإن الآلهة بدت غير مختلفة فى بعض الأحيان عن عناصر الطبيعة التى تستعرض قواها : بوزيدون "الإله الأزرق الذى كان يجعل الجُزُر ترتعد " هو الحياة نفسها والهياج فى البحر نفسه ، هيليوس " إله الظهيرة " لايمكن تمييزه عن الشمس (الشمس الحارقة هنا هى ذكاء يملك الإرادة والقدرة حتى على فعل الأبوة للأطفال : سيرك، الساحرة هى ابنته) وحتى " الفجر العادل " بأصابعها الممتدة بالورود هى قوى حية . إن الأحداث والانفعالات والعواطف البشرية ليست مختلفة عن الأمزجة المتغيرة للأرض الحية – إن إحساس الجيش بالراحة قد تم توضيحه فى وصف السحب المحملة والمكتظة من

الأرض ، إن قلق نيستور يشبه عتمة البحر قبل العاصفة ، إن إطلاق سراح الداخل لمشاعر پينيلوپ فى الإصغاء للأخبار حول زوجها يوصف كمثل ذوبان ثلوج قمم الجبال عبر رياح الربيع الدافئة ، مذيبة المياه المتجمدة إلى ينابيع تتساقط فوق المنحدرات - وكأنما الأرض الطبيعية كانت البيت الصحيح لتلك العواطف والمشاعر ، أو كأنه حدس مشترك يتحرك ويتجول مابين البشر والسحب والأشجار .

عندما كان أوديسوس شبه غريق بسبب غضب وجبروت بوزيدون وتقريبًا تحطم إلى قطع على الساحل الصخرى لفياكى - وجد أمامه فم النهر الهادئ مابين المنحدرات ، وصلى مباشرة لروح ذلك النهر لترحمه وتمنحه الأمان والملجأ ، ومباشرة تحول الموج وشده النهر إلى حمايته وأمانه . هنا إذن أرض حية فى كل مكان ، ويقظة ، ومسكونة بقوى متعددة ذات إرادة : أحيانًا ثأرية وانتقامية ، وأحيانًا أخرى رقيقة وحنونة ، ومع ذلك فإنها دائمًا بشكل مامتجاوبة للأحوال والأوضاع الإنسانية . إن الأشكال المتنوعة للأرض مازالت تتحدث وتقدم الإرشاد للبشرية ، إنها تنطق فى اختلاجات لانستطيع باستمرار أن نفهمها مباشرة ونستوعبها .

إن هذه الطبيعة والأرض الحية والمسكونة بقواها تتعارض بشكل ما مع وجهة النظر الفوقية التى تتجاهلها كما ورد فى فيدروس على لسان سقراط . لنصنع منطقًا كذلك التعارض، من الضرورى أن نلاحظ أن ملحمة هوميروس ربما كانت قد دونت فى القرن السابع قبل الميلادى ، وهى فى الأصل إبداع شفاهى متداول تم تطويره إلى ملاحم شعرية وقصائد شفهية كانت تغنى ويعاد غناؤها ، متغيرة ومتزايدة فى تعقيداتها منذ زمن طويل قبل أن تتم كتابتها وتدوينها وبذلك جُمِّدت فى هذا الشكل المحدد الذى نعرفه بها الآن ، إن محاورات أفلاطون - على الجانب الآخر - تمت كتابتها وتدوينها فى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد ، تم نسخها بدقة وصياغتها وتشكيلها فى محتوى أدبى عبر مؤلف أديب متمكن ، وبالفعل فإنها تدون لأول مرة الكثير من النماذج العقلية أو الأساليب الفكرية والتى اليوم نحن أصحاب الثقافة الأدبية نأخذها على سبيل اليقين .

إن الأبجدية اليونانية ـ الإغريقية تم ابتكارها فى البدء - أو بالأحرى اقتباسها من (الألف ـ باء) السامية - بقرون قليلة قبل أفلاطون ، ربما فى خلال القرن الثامن قبل الميلاد ، إن التقنية الجديدة لم تنتشر سريعًا عبر اليونان وإنما لاقت معارضة شديدة

فى شكل ثقافة مواجهة متطورة شفاهيًا ولها طقوسها وعاداتها ، أى أنه كانت تقاليد يونان ماقبل الأبجدية محافظا عليها تمامًا عبر قصص شفاهية كثيرة تتم روايتها بشكل منتظم ، ونقلها من جيل إلى جيل عبر المنشدين وكبار السن من اليونانيين أو الناقلين ، إن الحكايات المنشدَة حملت داخل إطارها الحكائى الكثيرَ من المعرفة التراكمية للثقافة ، وبما أنها لم تكن قد دُوِّنَت فإنها لم تكن ثابتة تمامًا ، ولكنها قد تتغير مع كل رواية جديدة لها ؛ لتناسب الظروف والاحتياجات لمستمعين وجمهور معين ، ومازجة بالتدريج معرفة جديدة محددة فيما تلفظ ذلك الذى لم يعد مهمًا أو مناسبًا لها فى ذلك الطريق الطويل . إن القصص المُغناة بالإضافة إلى الاحتفالات الكثيرة التى ارتبطت بها كانت تمثل بشكل ما موسوعة حية للثقافة - حاملة عنها ومحافظة على المعرفة الجماعية والتقاليد المؤسسة للمجتمع - وهى نفسها قد تم المحافظة عليها عبر التكرار والحفظ والإرشاد والإعادة فى تلك الطقوس ، لقد كان هناك هكذا احتياج مكشوف للتقنية الجديدة للقراءة والكتابة ، وحسب المؤرخ الأدبى إيريك هافيلوك فإنه لمدة قرنين أو ثلاثة فى البداية بعد ظهورها فى اليونان " كانت الأبجدية (الألف - باء) متطفلة تفتقد المقام الاجتماعى والاستخدام المتمكن ، كانت نخبة المجتمع كلها من المنشدين والمرتلين والمؤدين ".

الأبجدية - بعد كل شيء - لم تكن قد تطورت هنا تدريجيًا كما قد فعلت فى البحر المتوسط من خلال سلسلة من الكتابات والنقوش المبكرة ، وكان هناك هكذا عدم وجود مضمون جاهز للتواصل مع الكتابة ومران النقش لتتكئ عليه ، الأكثر من ذلك أن التقنيات الشفاهية للحفاظ على المعرفة ونقلها والعادات الحسية المرافقة لتلك التقنيات كانت - كما سوف نرى - غير متناسبة إلى حد كبير مع النماذج الحسية التى تتطلبها أدبيات الأبجدية .

فى ثقافة دقيقة ومعقدة فى ميراثها الشفاهى مثل الثقافة الإغريقية فى تلك الفترة فإن الأبجدية تستطيع التجذر فقط عبر تحالفها فى البداية مع التقاليد الشفاهية، وهكذا فإن أول مخطوطات ضخمة تكتب وتظهر فى اليونان - تحديداً الإلياذة والأوديسه - كانت " نصوصًا شفاهية مركبة " هذا يعنى أنها ليست كتابة إنشائية تأليفية ، كما قد تم افتراض ذلك سابقًا ، ولكن كتابة أبجدية لأناشيد وقصائد شفاهية . لقد كان هومر كمنشد أو غازل للأغانى وجامع لها (تعنى الكلمة

غـازل فى اليونـانيــة الذى يخيط أو يغزل الأغنية ببعضـهـا بعضًـا) مصـممًا للشكل الدقيق للقصـائد "عبر غزلها مـعًا " فى شكل من أشكال الزركشة الشفـاهية من الميراث الهائل الذى تحمله الذاكرة الإغريقية ، موسعًا دائرة الحكايات والقصص التى تم غزلها عبر المنشدين السابقين منذ حرب طروادة نفسها .

إننا نعزو الفضل لمعرفتنا وذاكرتنا عن الطبيعة الشفاهية للملاحم الهوميرية إلى البـحث الرائد الذى قـام به عـالم الكلاسـيكيـات فى جـامـعـة هارفـارد مـيلمـان پارى ومسـاعده ألبيرت لورد ، فى مرحلة سنوات ١٩٣٠ كان پارى قد لاحظ وجود رصيد من الجُمَل ، مثل (البحر المعتم كالنبيذ ، " وهناك تحدثت أوديسا اللماحة " ، أو " عندما انتشر الفجر من أصابع الوردة ") وكانت هذه الجمل تُكرر خلال القصائد ، الدراسة المحصـة كشفت أن القصـائد كانت قد ألفت بكاملها تقريبًا من تعبيرات مماثلة (فى الأبيات المشكلة من سبعة وعشرين ألف كان هناك تسعة وعشرين ألف تكرار لجمل ذات كلمتين أو أكثر) ومزيداً على ذلك فإن اختيار هومير لبيت أو بحر شعرى محدد بدلاً من غيره بدا أحيانًا محكومًا بشكل أقل بالمعنى المحدد للجملة وغلب عليه الميزان الشعرى ، بدلاً من ذلك كان المنشد أو الغازل بشكل واضح يستدعى إيقاعا محدداً أو معادلة بعد الأخرى من أجل أن يضبط الوزن الطاغى على الأنشودة فى غيبوبة من قيـادة الإيقـاعـات . وهذا ليس على الإطلاق للتقليل من عبقرية هومير ولكن ببسـاطة للإشارة إلى أن الإبداع الشعرى كان أدائيًا بقدر ماهو إبداعى ، ويمكن مقارنته كما نقارن مابين مؤلف عبقرى يكتب رواية عظيمة بالمقارنة مع فنان إيقاع يطرح إيقاعاته بشكل أنيق .

إن اعـتـمـاد نصـوص هومـير على المعـادلات الشـفـاهـيـة المكررة ومـيراث الملاحم الأسطورية – هذا الاعـتـمـاد الضـخم على مـايرجع له اليوم على أنه " كليشيه " – قدم لپـارى وعـدد من البـاحـثين اللاحـقين نظرة أولى وإطلالة على العـالم المخـتلف جـدًا للحضـارة والثقافة الأوروبية التى كانت لاتمتلك ابتكار الكتابة آنذاك فى مجتمع متعلم مثل مجتمعنا . إن أى اكتشاف شفاهى أو ملحوظة يمكن حفظها ببساطة عبر تدوينها، وقت مانشاء أن نعرف كيف يمكن إنجاز مهمة محددة نحتاج فقط أن نجد الكتاب الذى يحتوى على تلك المعرفة المكتوبة ، عندما نشاء أن نبحث عن معلومة أو حدث تاريخى معين نحدد ببساطة النص الذى يسجل تلك الواقعة التاريخية ، غير أن الثقافات الشفاهية مفتقدة للتسجيل الثابت والدائم الذى صرنا نحن نعتمد عليه اليوم ، كانت

تستطيع الحفاظ على المعرفة الشفاهية فقط عبر تكرارها المستمر عبر الأجيال ، المعرفة العملية لابد من تجسيدها فى المعادلات الكلامية بشكل يسهل فيه تذكرها وحفظها فى الصلوات والأمثال . فى السير الملحمية والقصص الأسطورية التى تعاد روايتها على الدوام ، إن الطبيعة الإيقاعية للكثير من المعادلات والأشكال الكلامية لها مهمة قيمة وخاصة ، إن تلك الجمل النابضة أكثر سهولة ومناسبة للنبض ، التنفس الجسدى لكى تستوعب ثم تتذكر وتستدعى الشفاهى ، وكان هذا هو الهدف الحقيقى أكثر منه الجانب الشعرى الذى صار مادة للبحث الدراسى فى الأدب المتقدم فيما بعد (على سبيل المثال ، إن جملة " تفاحة فى اليوم تجعل الطبيب بعيداً" بإيقاعها الخاص [باللغة الإنجليزية – المترجمة] هى أسهل بكثير للتذكر عن الجملة (يجب على المرء دائماً أن يأكل الفاكهة من أجل أن يبقى معافى) إن مسار الثقافات غير الكتابية نتيجة الضرورة مكونا فى معظمه من مثل تلك الجمل ، والأشعار والأمثال الإيقاعية والمقفاة التى تسهل على اللسان أن يستحضر الكلام والمعرفة فى الأحوال المناسبة لها .

إن رؤى پارى فيما يتعلق بالطبيعة الشفاهية للتأليف للملاحم الهوميرية بقيت إلى حد ما مثار تساؤلات حتى استطاع أن يقابل ويلاحظ ممثلين لعادات وتقاليد شفاهية حقيقية مازالوا يعيشون فى أوروبا الشرقية ، فى أعوام ١٩٣٠ پارى وتلميذه ألبيرت لورد ارتحلا إلى سيربيا (بلاد الصرب) حيث صادقا عدداً من المغنين السلافيين الأميين والذين كان فنهم وحرفتهم مازالت متجذرة فى ميراث التقاليد القديمة للبلقان ، كان هؤلاء المغنون ينشدون قصصهم الطويلة – التى لم يكن لها أى معادل فى شكل نصوص واحدة مكتوبة – فى المقاهى والأعراس مصاحبين أناشديهم بعزف آلة موسيقية واحدة تدعى (gusla – جوسلا) سجّل پارى ولورد الكثير من تلك الملاحم المغناة فى اسطوانات فونوغرافية مبكرة ، وهكذا استطاعا فيما بعد أن يقارنا تركيب الميزان الشعرى لتلك القصص المُنْشَدة والموجود فى الأشعار الهوميرية ، كان التوازى فيما بينهما واضحاً وقوياً .

" عندما يسمع المرء سلافيى الجنوب يغنون وينشدون حكاياتهم يغمره شعور مذهل بأنه – بشكل ما – يستمع إلى هومير ، إن هذا ليس مجرد شعور وجدانى عاطفى ينبع من رؤيته طريقة وأسلوب للحياة ومنظومة من الأفكارغريبة عليه ... عندما ينظر المستمع عن قرب ليرى لماذا عليه أن يبدو وكأنه يصغى إلى هومير فإنه يكتشف

الأسباب الدقيقة لذلك : إنه يصغى باستمرار إلى الأفكار نفسها التى كان هومير يعبر عنها ، وهو يسمع تلك الأفكار معبر عنها فى جمل تحمل الإيقاعات والأوزان الشعرية ، وتنشد فى أبيات وقصائد تحمل نفس الترتيب والتوالى الشعرى الغنائى ".

لقد سجل پارى ووثق تلك المتوازيات القوية بدقة، وبعد موته المبكر فإن بحثه حول الأمزجة والتأليفات الشفاهية تم استكماله عبر ألبيرت لورد مابين أشياء أخرى ، لقد وضح بحث لورد بأن تعلم القراءة والكتابة الدقيقة قد عطل الشاعر الشفاهى ، ودمر قدرته على التأليف الشفاهى .

عندما تم توثيق ملاحم هومير عبر الكتابة فإن فن الإنشاء الشفاهى والحكائى بدأ يفقد مهمته التعليمية وأدواته ، إن المعرفة المجسدة فى القصص الملحمية والأساطير قد تم القبض عليها الآن للمرة الأولى فى شكل بصرى ثابت يمكن العودة إليه ، واختباره وحتى مساءلته وبحثه ، وبالفعل لقد كان آنذاك فقط تحت تأثير الانتشار البطىء لتقنيات الأبجدية أن أصبحت " اللغة "تفصل نفسها عن التدفق الحى للعالم ، وأن تصبح حضورا مرعبا فى حد ذاته .

" إنه فقط أثناء كتابة اللغة أن صار ممكنًا التفكير بها ، إن الوسيلة التى صارت فى الحيزة كونها غير قادرة على التصوير البصرى لم تكتسب الاعتراف بها كظاهرة منفصلة تمامًا عن الشخص الذى يستخدمها ، لكن فى الوثيقة الأبجدية صارت الوسيلة موضوعية ، ها هى هناك تم إعادة إنتاجها بشكل كامل عبر حروف الأبجدية ... لم تعد مجرد وظيفة " لى " أنا المتكلم ولكن وثيقة لها وجودها المستقل ".

الكاتب ، أو المؤلف يستطيع الآن أن يحاور كتابته المرئية متأملاً ومستجيبًا لكلماته حتى وهو يدونها ويكتبها ، إن قوة جديدة للتأمل صارت الآن هكذا فى الوجود ولدت عبر العلاقة مابين الكاتب والنص المكتوب .

إننا نستطيع أن نشهد الانتشار التدريجى لهذه القوة الجديدة فى الشذرات المكتوبة والجزئيات الموثقة لفلاسفة ماقبل سقراط فى القرن السادس والخامس قبل الميلاد ، إن هؤلاء المفكرين مازالوا تحت تأثير المزاج الشعرى الشفاهى ومساره ، إن تعاليمهم دائمًا تأخذ الشكل الشعرى وانتباههم واهتماماتهم مازالت ملتفة نحو الأرض الحسية المحيطة بهم ، بالرغم من ذلك فإنهم بدوا وكأنهم يقفون على مسافة جديدة من النظام الطبيعى ، إن أفكارهم تسكن مزاجًا مختلفًا عن تدفق الطبيعة ، والتى يتساءلونها الآن ويسعون إلى فهمها . إن الشذرات المكتوبة لهيرقليطس أو

إيمبيدوقليطس تمنح إثباتًا لجديد متطرف للتأمل الأدبى مصحوبًا بانشغال شفاهى أكثر تقليدية للطبيعة الحسية التى مازال يُشعر بأنها غامضة ، ووجدانية ، وحية ، وممـــتلئة بقوى خارقــة ، وبكلمات فيلســوف ماقبـل سقراط : ثالــيس ، " إن كل الأشياء ممتـلئة بآلهة " .

إنه لم يكن حتى بداية القرن الرابع قبل الميلاد أن صارت مثل تلك القوى الكثيرة أو الآلهة منفية بشكل كبير من المحيط الطبيعى ، وذلك أنه فى ذلك التوقيت فقط أن أصبحت المعرفة بالكتابة الأبجدية حقيقة جماعية فى اليونان ، وبالفعل لقد كان خلال حياة أفلاطون فقط (٤٢٨-٣٤٨ ق . م) أن تم مزج الأبجدية فى حياة أثينا إلى الدرجة التى يمكن لنا التحدث عنها بحق عن أثينا اليونانية على أنها ثقافة متعلمة وأدبية :

" أفلاطون فى بدايات القرن الرابع ق . م . يقف على حافة ذلك التوتر المهدد بالانفجار مابين الثقافتين الشفاهية والمكتوبة لليونان ، إن الأيقونات المبكرة تشير إلى صبيان يتم تعليمهم الكتابة يمكن التأريخ لها مع فترة طفولة أفلاطون ،فى أيامه كان الناس بالفعل قد بدأوا يرتلون هومير من النص المكتوب منذ قرون ، غير أن فن الكتابة مايزال فنًا يدويًا فى أساسه . . . فى القرن الخامس ق . م . بدأ الحرفيون للفنون اليدوية يكتسبون فن النحت أو النقش للحروف الأبجدية ، غير أن الكتابة كانت ما تزال ليست جزءًا من تعليمات معروفة : كان أكبر التوقعات من الشخص أن يكون قادرًا على كتابة وتهجئة اسمه فقط . . . » .

كان أفلاطون يُعلِّمُ آنذاك فى اللحظة نفسها عندما كانت التقنية الجديدة للقراءة والكتابة تنشر « حرفتها » المتخصصة وتجد مكانتها للانتشار النهائى عبر وسائل المنهج الإغريقى وإلى ثقافة واسعة ، إن أهمية هذا التقاطع لم يتم الانتباه له عبر الفلاسفة الغربيين ، والذين يقف جُلهم - إلى حد بعيد أو قريب - داخل سلالة أفلاطون ، إن أفلاطون أو بالأحرى الجمع ما بين أفلاطون المتعلم ومعلمه سقراط الأمى (٤٦٩ ق .م - ٣٩٩ ق . م) ، يمكن رؤيته كالمفصلة التى عليها منح الوعى الحسى العميق المتجسد للشفاهية الطريق إلى مزاج التفكير المنفصل والتجريدى والمعزز بالتعليم الأبجدى ، وبالفعل لقد كان أفلاطون هو الذى طورَ بدقة وجلب إلى الواقع الأشكال الجماعية - الفكرية المناسبة للتقنية الجديدة .

أَبَدية الأفكار غير المتغيرة

بالرغم من أن سقراط نفسه ربما كان قادراً على كتابة القليل الإضافى غير اسمه فقط ، إلا أنه صنع استخداماً ملحاً لتلك القدرة الانعكاسية والتأملية التى قدمتها الأبجدية . إيريك هافيلوك كان قد اقترح أن تلك « المحاورات السقراطية » الشهيرة - والتى فى أبسط أشكالها كانت مكونة من سؤال المتحدث ليشرح فحوى ما يقوله - كانت فى الأساس طريقة لنبش وكسر النماذج الشفاهية الفكرية للثقافة الشفاهية ، إن تصريح أو كلام المتحدث الأصلى إذا كان متعلقًا بأمور مهمة عن الأخلاقيات والعادات الاجتماعية كان سيكون بالضرورة فى شكل تراثى ، وجمله شعرية وأمثال ، وكانت تقدم مثلاً ما حول الموضوع المطروح للنقاش ، عبر الطلب من المتحدث أن يشرح نفسه أو أن يُعيد قوله فى مصطلحات وأشكال تفسيرية أخرى أجبر سقراط محاوريه على أن يفصلوا ذواتهم لأول مرة عن كلماتهم - أن يفصلوا أنفسهم ، بمعنى آخر ، عن الجُمَل والموروث الذى صار فى حكم العادة عبر الإعادة والتكرار المستمر للقصص والحكايات التقليدية المُتعَلَمَة ، قبل تلك اللحظة كان المسار الكلامى غير منفصل عن الحكايات والقصص الكثيرة المروية والأساطير والملاحم التى قدمت الكثير من الجمل المتحدث بها والتى يحتاجها الشخص فى أعماله اليومية وتقاطعاته مع الآخرين . أن تتحدث كان أن تعيش داخل الكون القصصى ، ومن ثم تشعر بقرب الشخص من أولئك الأبطال الأسطوريين القدامى ، من الأجداد والأسلاف والذين بدت كلماتهم غالبًا تتحدث من خلال فم الشخص نفسه ، هكذا كما قد قلنا كان الطريق الذى حافظت الثقافة فيه على نفسها فى غياب السجل المكتوب ، ولكن سقراط قاطع وأزعج نظام ذلك كله . عبر طلبه الدائم من محاوريه أن يعيدوا ويشرحوا أقوالهم بكلماتٍ أخرى ، وعبر إخضاعهم بذلك لكى يستمعوا ويبحثوا فى فحوى كلامهم وكلماتهم فإن سقراط أذهل المستمعين له وأخرجهم من غيبوبة التراث المطلوبة فى شرط الثقافة الشفاهية ، وهكذا أخرجهم بالتالى من عالم الوجود الحسى الحكائى الذى كان يُغَلِّف عاداتهم ، إذن فإن

ذلك مثار عجب صغير أن بعض الأثينيين قد اشتكى من محاورات سقراط وأثرها الصادم ، الشبيه بالصدمات الكهربائية .

قبل انتشار الكتابة كانت القيم الأخلاقية مثل « الفضيلة » ، و« العدالة » ، و« التسامح » مرتبطة بأوضاع محددة تستحضر فيها وتستدعى تلك القيم ، إن المصطلحات لمثل تلك القيم كانت منطوقات شفاهية تستدعى فى ظل أوضاع وأحوال اجتماعية معينة ، لم يكن لها وجود واضح ومستقل عن تلك الأوضاع ، وفيما المنطوقات تراجعت إلى الخلفية للصمت مباشرة بعد أن تكون قد نُطقت لم يكن لها حضور دائم للحواس . « العدالة » و« التسامح » كان يتم بذلك اختبارهم والإحساس بهم كأحداث حية ، مجرد أحداث بازغة فى أوضاع محددة ، لم تكن منفصلة عن الأشخاص المحددين أو الأفعال التى تجسد نفسها مؤقتًا من خلالها .

ومع ذلك فحالما تم تسجيل وتدوين مثل تلك المنطوقات كتابة ، صار لها استقلاليتها وديمومتها التى لم تعرف أصولها حتى اليوم ، حال ما تمت كتابتها « الفضيلة » صار ينظرُ إليها على أنها شكل غير متحول ، واضح ومستقل عن المتحدث ، ومستقل أيضًا عن الأوضاع الفعلية والأشخاص الذين يعرضونها .

لقد طرح سقراط بشكل واضح أسلوبه وطريقته بشكل متوافق مع هذا التحول فى حقل التلقى ، كلما – فى محاورات أفلاطون – يسأل سقراط محاوريه أن يعطوه تعريفًا ومفهومًا لماهية « الفضيلة » أو « العدالة » أو « الشجاعة » كما هى بالفعل يكون فى الحقيقة يُسائلهم فيما يتعلق بالمعنى الحقيقى للمصطلحات الأخلاقية التى يستخدمونها من دون تفكير فى أحاديثهم ، كانوا يُجيبون بثقة عبر سردهم لأمثلة محددة للقيمة المطروحة طارحين أمثلة معينة عن « العدالة » ، غير أنهم لا يستطيعون أبدًا تعريف « العدالة » فى حد ذاتها ، عندما يدعو سقراط مينو ليقول ما « الفضيلة » ، يقوم مينو بسرد أمثلة كثيرة مختلفة أو مجسدة للفضيلة يرد عليها سقراط ويسخر منها : « إننى أبدو محظوظًا . لقد طلبتُ منكَ شيئًا واحدًا فقط ، الفضيلة ، غير أنكَ منحتنى سربًا من الفضائل » ، فى محاولة لمواكبة المسارات القديمة للأمزجة الشفاهية فإن أتباع سقراط من الأثينيين لا يستطيعون تجريد تلك القيم المُتحدَث عنها عن الأوضاع الحية المُعاشة التى تجسد مثل تلك المصطلحات وتستدعيها . سقراط على كُلٍّ لديه اهتمام بسيط لتلك التجسيدات المتعددة « للفضيلة » فيما عدا البعد الذى تتخذه جميعها لبعض العناصر المشتركة ، وغير المتحولة والتى يودُ هو أن يجردها ويبحث

فيها بنفسه ، فى كل حالة يحاول سقراط أن يقدم تأملاً لتلك القيمة كما توجد فى حد ذاتها مستقلة عن أية ظروف معينة ، إن التجسيدات المحددة « للعدالة » التى يمكن أن نواجهها فى العالم المادى بالضرورة متنوعة وآنية ، إن المعرفة الفعلية - يدّعى سقراط - لابد لها أن تكون أبدية وغير متغيرة .

سقراط إذن من الواضح أنه مقتنع تماماً بأن هنالك عنصراً جوهرياً ثابتاً ، غير متحول أو متغير « للعدالة » يوحد كل أمثلة العدالة ، كما أن هناك عنصراً جوهرياً أبدياً « للفضيلة » و« الجمال » و« الخير » و« الشجاعة » وكل ما تتبقى من مفاهيم تجريدية أخلاقية ، ومع ذلك فإن قناعة سقراط لم تكن لتكون ممكنة لولا وجود الأبجدية ، ذلك أنه فقط عندما تتم كتابة مصطلح أخلاقى يصبح قابلاً للبحث كمفهوم ثابت بمعزل عن الاثنين معاً : المتحدثين والأوضاع أو الأحوال .

ليست كل أنظمة الكتابة ترعى ذلك التجريد المحض للقيمة المتَحدَث عنها بمعزل عن تجسيداتها فى الأوضاع الحياتية الفعلية ، إن الكتابة الأيدوجرافية ذات الرسوم الرمزية للصينية ، كما قد رأينا ، لازالت تمتلك صوراً للعالم الظواهرتى للتجربة الحسية ، وهكذا فإن الأيدوجراف « للأحمر » هو أمثلة حية : إنه شكل من صور لرسوم وخيالات مختزلة لوردة ، كرزة ، صدأ الحديد ، وبجعة ، وبالفعل حسب بعض الدارسين والملاحظين إذا سأل شخص ما شخصاً مثقفاً ومتحضراً فى الصين ليشرح له قيمة عامة مثل « الأحمر » ، أو « الولاء » أو « السعادة » سوف يرد عليك غالباً وعبر وصف أمثلة متعددة ونماذج لتلك القيمة ، كما كان يفعل محاورو سقراط . لم تكن الكتابة فى حد ذاتها ، ولكن الكتابة الصوتية (الفونتيك) والأبجدية اليونانية بشكل خاص التى مكنَت تجريدية قيم سابقة حية مثل « الخير » و« العدالة » عن ميراثها المتعلق بالأحوال والأوضاع ، دافعة بها إلى حيز وجود جديد مستقل عن مجال تدفق الخبرة والتجربة العادية ، ذلك أن الأبجدية اليونانية قد خدمت بشكل مؤثر كل تلك الروابط ما بين الحروف المكتوبة والعالم المحسوس الذى جاءت منه واشتُقت ، لقد كان أول نظام كتابة قادر على تعطيل - تقريباً - أى منطوق بشرى فى شكل نهائى وثابت ، إلى جانب الأنهار الهادرة المختلفة ، على سبيل المثال ، التى يستطيع الشخص أن يشهدها أو يعبرها فى العالم المحسوس . كان هناك أيضاً كلمة مفردة هى « نهر »، والذى صار الآن له وضعه الخاص ، " نهر " فى حد ذاته يمكن الآن أن يُبحَث بمعزل عن كل تلك الأنهار المادية الوجود والقابلة لتغيير وتحويل مساراتها أو الجفاف من

فصل إلى آخر ، بالنسبة إلى أفلاطون كما هو لمعلمه فإن المعرفة الحَقَّة يجب أن تكون للعنصر غير المتغير والأبدى ، لا يمكن أن يكون هناك معرفة « حَقَة » لنهر مُعين ، ولكن للفكرة الخالصة (أو الأفكار) « نهر » . كون أفلاطون غالبًا ما استعمل المصطلح اليونانى "إيدوس – eidos " (والذى يعنى شكل واضح) ليرجع إلى مثل تلك العناصر الجوهرية غير المتغيرة فى حد ذاتها ، كما أعتقد مؤشر لذلك التحالف والتواطؤ ما بين تلك العناصر الجوهرية الخالدة والأبدية والأشكال غير المتغيرة والواضحة للحروف الأبجدية .

ذلك أن حروف الأبجدية مثل الأفكار الأفلاطونية لا توجد فى العالم العادى للرؤية ، إن الحروف والكلمات المكتوبة التى تمثلها ليست موادًا للنمو والفناء ، ولا للتغييرات الموسمية وتحولات دوراتها المعتادة والمشتركة لتلك الأشياء المرئية ، إنها تبدو وكأنها تحلق – كما قد كان – فى بُعدٍ آخر غريب ولا علاقة له بالزمن ، الأكثر من ذلك أن الحروف تخفى وتموه إمكانية رؤيتها المشتركة ، كل حرف يذوب ويتحول إلى صوت وحتى ونحن ننظرُ إليه مبدلاً عيوننا بآذاننا ، حتى إننا نبدو وكأننا لا نرى بقدر ما نسمع الشىء ، إن الكتابة الأبجدية تُحبط اهتمامنا وانتباهنا من نطاق البصرى والمرئى ، الذى يتلاشى وراء موجة الكلام البشرى الذى تُثيرهُ .

كما قد رأينا بالفعل إن عملية التعلم للقراءة والكتابة بالأبجدية ولدت إحساسًا تأمليًا عميقًا وجديدًا بالذات ، إن القدرة للنظر وحتى التحاور بكلمات الشخص ذاته بعد كتابتها أو حتى فى عملية تدوينها يمكن من إحساس جديد بالاسقلالية والتفرد عن الآخرين وحتى عن المحيطات الحسية التى كانت سابقًا هى محاور الشخص الدائم ، إن واقع أن كلمات الشخص المكتوبة يمكن أن تسترجع وتبحث فى أى وقت يختاره الشخص بغض النظر عن التوقيت أو الوضعية التى دونت فيها فى المرة الأولى – يضمن قيمةً أبدية لتلك الذات المتأملة ، إحساسًا بالاستقلالية النسبية للذات اللفظية والمتكلمة عن الجسد المتنفس باحتياجاته المتحولة ، إن الذات المتعلمة لايمكن لها أن تشعر بسموها وأبديتها فيما يتعلق بالعالم الفانى والخبرة الوجودية .

إن هذا الوعى الجديد والذى يبدو متفردًا يتم استدعاؤه عبر سقراط ودعوته (بالنَفَس – The Psychê) ، مصطلح هو بالتالى يحرفه عن أهميته المبكرة عند هومير باعتباره التنفس غير المرئى الذى يمثل الجسد الحى ويبقى مثل شبح بعد

موت الجسد وفنائه (إن مصطلح Psyché – "نفس "تم اشتقاقه من مصطلح يونانى قـديم Psycheinc ، والذى يعنى " أن تَتَنَفس " أو " أن تنفخ " .) بالنسبة إلى أفلاطون – كما هو لسقراط – إن النفس الآن هو ذلك الجانب من الذات الذى يتم تشذيبه وتقويته عبر الابتعاد عن العالم المحسوس العادى من أجل تأمل الأفكار الفكرية ، الأشكال الخالصة النقية ، والخالدة التى لوحدها هى التى توجد بحق ، إن النفس لدى سقراط وأفلاطون – بكلمات أخرى – ليست سوى الذكاء المتعلم والأدبى ، ذلك الجزء من الذات الذى ولد وتقوى بالعلاقة مع الحروف المكتوبة .

إن أفلاطون نفسه يقدم نقداً قوياً لتأثير الكتابة فى " فيدروس " ، تلك المحاورة التى اقتبست منها مكبراً فى هذا الفصل ، فى مسار هذه المحاورة يربط سقراط ويحيل إلى فيدروس الفتى أسطورة غريبة فيما يخص الملك المصرى " ثيموس " . حسب هذه القصة : ثيموس قد واجهه مباشرة الإله " ثوث " – الخالق العظيم للهندسة والرياضيات ، والفلك ، والكتابة – والذى يقدم الكتابة كهدية ومنحة للملك حتى يمكن للملك أن يقدمها بدوره إلى شعب مصر ، غير أن ثيموس بعد أن نظر فى اعتبارات متعلقة بالجوانب المنفعية والسلبية لابتكارات تلك الآلهة يستنتج ويخلص إلى أن شعبه سوف تكون حالته أفضل بكثير من دون الكتابة ، وهكذا فإنه يرفض تلك الهدية والنعمة ، ضد ادعاء ثوث بأن الكتابة سوف تجعل الناس أكثر حكمة وتحسن ذاكرتهم فإن الملك أكد وجهة نظره المضادة والعكسية . :

" إذا تعلم الناس ذلك فإنه سوف يبذر النسيان فى أرواحهم ، سوف يتوقفون عن تدريب ذاكرتهم لأنهم سوف يعتمدون على ذلك الذى هو مكتوب ، سوف يكون استدعاء الأشياء من الذاكرة لامن دواخلهم وخلجاتهم ، ولكن عبر وسائل إشارات خارجية" .

الأكثر من ذلك – بالنسبة إلى الملك – فإن التعاليم المنطوقة عند ما يتم تدوينها كتابة سوف تجد بسهولة طرقها إلى أيادى أولئك الذين سوف يسيئون فهمها ، تلك التعاليم فيما لايفكرون أبداً سوى أنهم يحسنون فهمها ، وهكذا فإن الحروف المكتوبة سوف لن تجلب الحكمة ولكن فقط " الحكمة المغشوشة " جاعلة البشر يبدون وكأنهم يعرفون أكثر بكثير فى حين أنهم يعرفون القليل جداً .

إن سقراط فى كتابات أفلاطون يوافق بوضوح مع رأى الملك ، ومن الواضح أن أفلاطون يود أن يأخذ القارئ تلك الانتقادات للكتابة بشكل جدى . فى جزء لاحق من

تلك المحاورة نقرأ أن " المسار الكتابى حول أى موضوع لابد له من احتواء الكثير مما هو تزويقى وكمالى " ، وأنه فى أى حال " لاشىء قد تم تدوينه كتابياً سواء "فى النثر أو الشعر يستحق الكثير من الاهتمام الجدى " .

بالتأكيد إنه من الغريب أن تقرأ مثل تلك الملاحظات والآراء القوية ضد الكتابة من قبل مفكر قد ألف نصوصاً مكتوبة كثيرة كانت من أكثر الكتابات توزيعاً وانتشاراً وعبادة فى العالم الغربى ، هنا أفلاطون والذى منه انبثقت فعلياً سلسلة الفلاسفة الغربيين ينظر للكتابة على أنها لاشىء أكثر من مجرد لهو وقضاء وقت ! ما الذى يمكننا أن نستوعبه من مثل تلك الآراء ؟

إن مثل تلك التشكيكات حول الأبجدية ومثل تلك التأكيدات فيما يتعلق بآثارها السلبية الكامنة لابد أنها كانت شائعة فى أثينا قُبيل أو خلال الفترة الزمنية التى كتب فيها أفلاطون ، إنه من المدهش أن يكون أفلاطون قد تمسك بمثل تلك الانتقادات بالرغم من واقع أنه كان مشاركًا فعالاً فى عالم الأبجدية آخذين بالاعتبار تعددية وتنوع كتاباته ، والتى تكوِّن مايمكن أن يكون أول تجسيد هائل للنثر ألفه كاتب فرد فى تاريخ الأبجدية . يبدو واضحًا أن أفلاطون لم يكن ينوى لانتقاداته أن تصرف طلابه وقراءه عن الكتابة ، أو من تعميق قراءته ، وبالأحرى كان كأنه قد قصد إلى بنائية فى داخل الجسد نفسه لكتاباته تحذيراً من أن يمنحوها قدراً أكبر من حجمها ، وذلك لأنه كان غير متأكد من القيمة الجادة والحقيقية الضمنية لفلسفته ، ولكن ببساطة لأنه كان يمتلك تحفظات قوية حول الكلمة المكتوبة وقدرتها بأن توصل المعنى الكلى لفلسفة كانت مرانًا بالقدر نفسه – تتضمن تواصلاً وتقاطعًا مباشراً ، وشخصياً وتعليمات – كما لو أنها كانت طقماً من التشكيلا ت الجامدة والتأملات . إن الكتابة – حسب آراء سقراط – يمكن لها فئ أفضل الأحوال أن تخدم كمذكر للقارئ الذى يعرف بالفعل تلك الأشياء التى تمت كتابتها ، إنه من الممكن أن يكون أفلاطون قد كتب تلك المحاورات العديدة ليخدم فقط مثل ذلك الهدف حصرياً ، أن يقوم بفعل المذكِّر لتلاميذه فى أكاديميته ، حول الطرق والرؤى التى تعلمها فى البدء عبر الحوار المباشر وجهًا لوجه مع معلمهم .

بالرغم من ذلك فإن أفلاطون رغم تحذيراته لم يعِ ذلك المدى الذى يحمله مضمون تعليمه فى حد ذاته – مع اعتماده على الأطروحتين الثنائيتين حول النفس العقلية

الخالصة ومستوى الوجود الخالد للأفكار غير المتغيرة – وأنه كان بالفعل بشكل عميق تحت تأثير الكتابة الأبجدية . فى البدايات المبكرة للقرن الرابع ق . م . عندما كان التعليم ينتشر تدريجياً عبر المجتمع فى أثينا كان من الممكن مؤكداً أن تشهد تأثير تلك الكتابة فى نشر تعاليم معينة ، وأن ملاحظاً دقيقاً كان يمكن له أيضاً أن يرى التأثيرات السلبية للكتابة على المران الجماعى للذاكرة ، بالمقارنة بما قد تم إنجازه سابقاً عبر التكرار التراثى للأشعار الاحتفالية والأناشيد والأغانى ، وتحويل القصص إلى فن وحرفة خارجية وثابتة ، جامدة ، غير أنه كان من الصعب أن يكون ممكناً كشف التأثير الواضح للحروف على نماذج التلقى والاستيعاب على وجه العموم ، ومشابه لذلك اليوم حيث وعينا واستيعابنا وأفكارنا يتم تحويلها عبر تداخلنا وتورطنا الحسى مع التكنولوجيا الإلكترونية ، بما أن أى تفكير يسعى إلى كشف مثل ذلك التحول هو فى حد ذاته موضوع للتأثير نفسه الذى يحاول ويسعى للتنظير حوله ، على أنه بالرغم من ذلك يمكن لنا أن نكون واثقين بأن أشكال وعينا " تتحول " بالفعل مع تلك التكنولوجيا التى تُشاغلُ حواسنا بالقدر الذى نستطيع الآن أن نبدأ فيه كشف – بالمقابل – كيف أن الشكل المميز للفلسفة الغربية قد تمت ولادته عبر ذلك اللقاء مابين الحواس البشرية والأبجدية فى اليونان القديمة .

حول الألسنة على الأشجار

إن نقد سقراط للكتابة فى فيدروس كان بمناسبة نص مكتوب يقوم به فيدروس الفتى فى البدايات المبكرة للمحاورة ، عندما واجهه سقراط فى طريقه خارجًا من المدينة كان فيدروس قد سمع للتو صديقه لاسياس يتحدث عن خطبة جديدة قد كتبت حول موضوع الحب ، مأخوذًا بخطبة لاسياس حصل فيدروس على نسخة من تلك الخطبة وكان يسير متنزهًا خارج أسوار المدينة ليدرس ذلك النص على مهله ، سقراط - دائما متلهفا للمسارات الفلسفية - وافق على مصاحبة فيدروس إلى الريف المفتوح حيث يمكن لهما معًا أن ينظرا فى نص لاسياس ويناقشا جوانبه المختلفة . لقد كان الصيف آنذاك ، سار الرجلان معًا على ضفاف نهر إليسوس ، وعبراه ثم استقرا على الحشائش فى ظلال شجرة طويلة فى السهول ، عبَّر سقراط عن إعجابه بفيدروس لأنه قادهما إلى هذا المكان الممتع ، وفيدروس أجاب باستغراب بأن يكون سقراط يبدو غريبًا كليًا عن الريف ، وكأنه شخص لم يلق نظرة أبدًا على خارج جدران المدينة ، إنه آنذاك أن شرح سقراط نفسه موضحا : «عليك أن تغفر لى ياصديقى العزيز ، إننى عاشق للتعلم ، والأشجار والريف المفتوح لن يعلمونى أى شىء ، فيما الرجال فى المدينة سوف يفعلون» .

لقد رأينا بالفعل كيف هى غريبة هذه الجملة - فيما يتعلق بعالم أشعار هومير - وكم هى عجيبة وشاذة كلمات سقراط كما قد بدت بالنسبة لأعضاء مجتمع لفظى ، شفاهى ، لايزال أقل اطلاعًا وتأثرًا بتأثير متداولى الأدب والتعلم فما بالك بيونان هومير ، بالنسبة إلى ثقافة - بكلمات أخرى - لم تكن آلهتها بعد ذات صفات بشرية مثل بوزيدون وهيفستوس ، إن الادعاء بأن «الأشجار والريف المفتوح لن يعلموا شيئًا» كان سوف يبدد الاستيعاب والانسجام داخل مجتمع صيد وقنص أصلى ، للسبب البسيط أن مثل تلك المجتمعات بالضرورة تأخذ معظم تعليمها الأساسى والعميق وكذلك التعليمات مباشرة من الأرض والطبيعة الأكثر مما هى بشرية ، سواء كان

فى السهوب الهندية فى أمريكا الشمالية، أو لدى البوشمان فى صحراء كالاهارى ، أو لدى البينتوبى فى الخلفية الأسترالية ، إن كبار السن و «أشخاص من درجة عالية» فى مثل مجتمعات القنص تلك يرجعون باستمرار للقوى الحية فى الأرض الطبيعية المحيطة بهم ، لتلك القوى غير البشرية والتى هم أنفسهم يستلهمون منها أعمق آمالهم .

عندما يكون شخص شاب أو يافع داخل مثل تلك الثقافات قد تم اختياره عبر أية ظروف كانت ليصبح «رآى» أو «شامان» لذلك المجتمع فإنه هو أو هى يمكن له أن يُدرَّب بواسطة رآى حكيم وكبير فى السن فى داخل القبيلة ، ومع ذلك فإن أكثر المتعلمين وأقواهم من الشامان سوف يكون شخصًا قد تعلم أولاً مهاراته أو مهاراتها مباشرة من الأرض نفسها - من حيوان معين أو نبتة ، من نهر أو عاصفة - خلال ارتحال طويل فى الخارج بعيدا عن حدود المجتمع البشرى ، وبالفعل بين الكثير من القبائل التى كانت أصلية فى يوم ما فى أمريكا الشمالية فإن ولدا يستطيع أن يكتسب الرؤية الضرورية للدخول إلى مجتمع الكبار فقط عبر اتخاذه للارتحال المعزول والوحيد بحثًا عن الرؤى ، فقط عبر تسليمه لنفسه بإرادته إلى القوى الوحشية والبرية للأرض ، إذا احتاج الأمر أن يصرخ ويستعطف قوى الرؤى تلك . إن تدشين «التجوال» الذى يلتزم به «الأبورجونيون» أو السكان الأصليون فى أستراليا هو مرة أخرى مثل ذلك الفعل الذى يلجأ فيه أهل الشفاهية من الشعوب نحو الأرض الأكثر مما هى بشرية من أجل التعاليم التى عليهم أن يحيوها معا ويقووها من أجل بقاء المجتمع البشرى .

فى الثقافات الشفاهية الأصلية إن الطبيعة فى حد ذاتها بليغة ، إنها تتكلم ، إن الصوت البشرى هو ثقافة شفاهية ، لفظية وهو دائمًا إلى حد ما مشارك مع أصوات الذئاب ، والريح ، والأمواج - أى أنه مشارك فى المسار الضمنى للأرض الحية ، ليس هناك من عنصر فى الأرض والطبيعة فارغ تماما وعدمى وخاوٍ من الاستجابة المعبرة والقوية ، إن أية حركة قد تكون اختلاجًا ، وأى صوت قد يكون صوتًا ، نطقا مليئًا بالمعانى .

إن ادعاء سقراط بأن الأشجار ليس لديها شىء لتعليمه مؤشر واضح للمدى الذى وصلت إليه الحواس البشرية فى أثينا للتخلى والانسحاب من المشاركة المباشرة مع الأرض الطبيعية ، أن تستوعب مباشرة أية ظاهرة هو أن تدخل فى علاقة معها ،

أن يشعر الشخص بنفسه فى تقاطع حى مع كائن آخر . لتحدد الظاهرة كموضوع جامد ، أن ترفض قدرة الشجرة على إطلاعك وحتى إرشادك من داخل وعيك هو أن تكون قد التفتَّ بحواسك بعيداً عن تلك الظاهرة ، إنه أن تبحث فى الشجرة من خارج عالمها أو بالأحرى من خارج ذلك العالم الذى أنت نفسك والشجرة مشاركان فعليان فيه .

ومع ذلك فإنه حتى هنا أفلاطون يبدو أنه يتردد ويتذبذب ، وبالفعل مثل ماهو فيدروس الشخصية الأساسية للتسامى الواضح فيما يتعلق بمرانه على الكتابة فهو أيضا الشخصية ذات التسامى العالى فيما يتعلق بالطبيعة أو للقوى المعبرة للعالم الطبيعى ، بالرغم من أن المحاورة تفتتح بآراء سقراط حول الأشجار والريف المفتوح فإن أهميتها فى أن المحاورة نفسها تأخذ مكانها فى وسط ذلك الريف نفسه ، وبخلاف محاورات أفلاطون الأخرى فإن محاورة فيدروس وحدها تحدث خارج أسوار المدينة ، خارجًا بعيداً عن القوانين والشكليات التى تسيطر على وتعزل المجتمع البشرى عن عالم الطبيعة الأكثر مما هو بشرى . إن سقراط وفيدروس قد شرعا – كما قد كان – فى نوع من ارتحال الرؤية ، خارجين خارج المدينة وعاداتها من أجل أن يختبرا معرفتهما المدنية مقابل المعارف الأقدم المجسدة فى الأرض ، إن أفلاطون هنا بشكل ما يضع الفلسفة نفسها تحت حد الاختبار عبر فتحه وتعريضه لها للقوى غير البشرية التى لزمنٍ طويل قد سيطرت على اهتمام ودهشة الجنس البشرى . فى تضاد مباشر «للجمهورية» حيث أفلاطون يعرِّض بالآلهة القديمة وينتقد شعراء الشفاهية ورواة الحكايات والأساطير ويطردهم من المدينة اليوتوبيا التى يتصورها ، فإنه فى فيدروس يجلب أفلاطون الفلسفة نفسها إلى خارج المدينة ، هناك لتواجه وتتصالح مع الطرق الشفاهية القديمة للمعرفة ، والتى وإن كانت ربما قد طردت من المدينة إلا أنها تبقى هناك تتجول فى المحيط الريفى للطبيعة ، إنه فقط خارج أسوار المدينة يمكن لأفلاطون أن يسمح لنفسه أن يسأل ويستجوب وينتقد ممارسة الكتابة التى هو وكل ماتلاه من فلسفة مرتبط بها للأبد ، وفقط هناك فى خارج تلك الأسوار سوف يسمح لنفسه أن يقدر تمامًا ويقدم الاحترام للكون الحى – الشفاهى الآخذ فى التضاؤل والانمحاق .

وهكذا فإنه بعد تأكيده بقليل على أن الأشجار لايمكن أن تعلمه شيئًا فإن سقراط يسمح لنفسه بأن يقاد إلى عمل خطبة ارتجالية عبر قَسَم يحلف به فيدروس باسم روح الشجرة نفسها التى يجلسون تحتها ! الأشجار كما يبدو كانت ماتزال تحتفظ بقوى مؤثرة . لاحقًا فى المحاورة فإن سقراط نفسه سوف يذكر فيدروس بأنه حسب التقاليد "فإن أول النبوءات المنطوقة قد جاءت من شجرة سنديان" .

لم تكن الأشجار فقط بل الحيوانات أيضا تمتلك - فى فيدروس - قوى سحرية ، يبدأ سقراط المناقشة حول الكتابة عبر تأمله جنادب الأشجار التى «تتحدث مع بعضها بعضا » وهى من الأعلى ربما تراقب الاثنين معًا ، أيضًا إنه يطرح بأن جنادب الأشجار سوف تتواطأ مع الجنيات ضدهم إذا ما استمر هو وفيدروس فى التحدث عن الشؤون الفلسفية ، ويبدأ فى رواية قصة تصف كيف أن جنادب الأشجار الذين كانوا فى الأصل أشخاصًا قد تحولوا إلى أشكالهم الحالية :

«إن القصة أنه فى يوم من الأيام هذه المخلوقات كانت بشرًا - بشر فى عهدٍ من الزمن قبل أن يكون هناك أى حوريات أو جنيات الشعر - وأنه عندما جاءت هذه إلى العالم وصنعت الموسيقا حضورها ، بعض الناس من تلك الأيام كانوا مذهولين بالمتعة وبقوا يغنون ، ونسوا تماما أن يأكلوا ويشربوا حتى ماتوا بالفعل من دون أن يلاحظوا ذلك . ومنهم مع الوقت انبثقت جنادب الأشجار كجنس ، والذين رعتهم الحوريات ومنحتهم الحظ فى أن لايحتاجوا إلى أى احتياج منذ طفولتهم ، سوى الغناء منذ البداية من دون غذاء أو شراب ، وحتى يوم موتهم بعد أن يمضوا ويخبروا الحوريات كيف أنهم قد شرفوا مابين الجنس البشرى وعبر ...» .

إن أى طالب للثقافات الشفاهية الأصلية سوف يسمع جرسًا مألوفًا فى هذه الحكاية ، إن قصة جنادب الأشجار مماثلة فى شخصيتها لقصص «الوقت البعيد» التى يرويها اليوم هنود الكويكون فى آلاسكا ، ومماثلة لقصص من ذلك الوجود الغامض «منذ زمن بعيد ، فى المستقبل» والتى يرويها أهل الإسكيمو ، أو إلى «زمن الحلم» والحكايات التى يرويها الأبوروجونيون فى أستراليا ، لعلنا نستدعى فى هذا السياق كلمات «الإنويت» من شرق الإسكيمو المقتبسة مع نهاية الفصل الأخير : «فى الزمن المبكر ، عندما كان البشر والحيوانات يعيشون على الأرض ، كان الشخص يستطيع

أن يكون حيوانًا إذا أراد ذلك ، والحيوان يستطيع أن يكون بشرًا ... » وهنا حكاية معتادة للزمن البعيد يحكيها أحد أشخاص «الكويكون» :

«عندما كان سمك القد إنسانًا قرر أن يترك الأرض ويصبح حيوانًا مائيًا ، وهكذا بدأ فى السير نحو الضفاف آخذًا قطعة من شحم الدب معه . لكن البشرَ الحيوانات الأخرى أرادته أن يبقى وحاولت أن تمنعه ، شادة إياه من كل جانب فى شكله أثناء ذلك ؛ لذلك فإن سمك القد لديه ذلك الجسد أو القد الطويل والمشدود ، وذلك هو السبب فى أن كبده سمينة ومدسمة مثل شحم الدب الذى حمله الجد الأقدم أو السلف لسمك القد إلى المياه معه منذ زمنٍ طويل فى القِدَم» .

مثل كل القصص والحكايات الشفاهية من الزمن البعيد أو وقت الحلم ، فإن أسطورة سقراط حول جنادب الأشجار أسطورة وظيفية ، إنها تخدم فى أن تشرح بعض المواصفات المؤكدة والملحوظة حول الجنادب ، مثل همهماتها وأزيزها ، وعدم احتياجها الظاهر للغذاء (عندما ظهرت الموسيقا ، بعض الناس من تلك الأيام كانوا مذهولين من المتعة حتى إنهم بقوا يغنون ، ونسوا تمامًا أن يأكلوا ويشربوا) لقد مال علماء الأنثربولوجيا أن يقيموا مثل تلك الحكايات من زمن الحلم أو الزمن القديم على أنها محاولات مشوشة للشروحات السببية والعلمية عبر العقل البدائى . غير أنه هنا على أى حال ، على ضوء مناقشتنا فيما يتعلق بالشفاهية والتعلم فإن مثل تلك القصص يمكن أن ينظر إليها بأنها تخدم وظيفة أكثر عملية من ذلك .

بدونما نظام كتابة متنوع ، فإنه ببساطة ليس هناك طريقة لحفظ – بشكل ثابت – وسيلة خارجية ، المعرفة التراكمية فيما يتعلق بأنواع معينة من النباتات (بما فيها أماكن العثور عليها ، أى جزء منها قابل للأكل ، وأى منها مسمم ، الكيفية المثلى لتحضيرها ، وأى أمراض يمكن لها أن تشفيها أو تسببها) ، وفيما يتعلق بحيوانات معينة (كيف تتعرف عليها ، ماذا تأكل ، الطريقة المثلى لاقتفاء أثرها أو قنصها) أو حتى فيما يتعلق بالأرض نفسها (الطريقة المثلى لكى يألف الشخص المحيط والأراضى الطبيعية حوله ، وأية أراضٍ يتجنب ، وأين يجد الماء أو الوقود) .

إن مثل تلك المعرفة العملية لابد من حفظها إذن فى أشكال كلامية منطوقة يمكن استدعاؤها وتذكرها بسهولة ، وتعديلها كلما بزغت حقائق ووقائع جديدة ، وأن يعاد

حكيها من جيل إلى جيل ، غير أنه ليست كل التشكيلات اللفظية قابلة للاستدعاء المبسَّط – معظم الأشكال اللفظية التى نتحادث بها اليوم معتمدة على مضمون فى الكتابة ، بالنسبة إلينا على سبيل المثال فإن قائمة ذهنية بسيطة للمواصفات المعروفة لنبتة معينة أو حيوان تبدو هى الأسهل والأوضح فى التشكيل اللفظى ، ومع ذلك فإن مثل تلك القوائم لا قيمة لها فى ثقافة شفاهية بدونما مقابل واضح يمكن استحضاره للذهن ومطالعته بالبصيرة ، إن القوائم الكلامية لايمكن استحضارها بشكل جاهز وتكرارها ، بدون الكتابة فإن المعرفة للصفات الكثيرة لحيوانات معينة ونباتات وأماكن يمكن حفظها فقط عبر نسجها فى حكايات وقصص وحواديت حيوية حيث المواصفات الخاصة بالنبات يتم جعلها واضحة عبر حكى سلسلة من الأحداث والتفاعلات . إن قصصا مثل الأشعار الموزونة أو الأغانى تتداخل بشكل جاهز مع خبرتنا المحسوسة ، تحولات فى الأفعال تكون صدى وشبيهة لتجاربنا الخاصة – فى الاستماع إلى أو حكى قصة نحن نعيشها ونحياها ، وتنسج مكوناتها نفسها على لحمنا الخاص ، إن الجسد الحسي المتنفس هو كما قد رأينا شكل حيوى ومتجدد ، وهو عملية مستمرة؟ أكثر منه جماداً غير متغير . وهكذا فإنه لايستطيع بشكل جاهز أن يؤقلم نفسه مع «وقائع» أو «معلومات» (معلومات جامدة ، وثابتة ومجردة من الأحوال المعاشة والفعلية التى تظهر فيها) ومع ذلك فإن الجسد الحى يمكن له بسهولة أن يتأقلم مع عملية أخرى حيوية وحَدَثية ، مثل الكشف عن الحكاية ، ناظراً إلى كل جزء منها أو حدث كشكل من أشكال تجليه هو الخاصة .

وكلما كانت القصة حية أكثر – أكثر حيوية أو مثيرة للتفاعل معها – ستكون جاهزة أكثر للامتزاج معها والاندماج ، إن الحافظة والتذكر الشفاهى يدعو إلى شخصيات حية ، حيوية ، وغالبًا ماتكون عنيفة ، وإلى أحداث من ذلك النوع ، أيضًا إذا كانت القصة تحمل معرفة حول نبتة معينة أو عنصر طبيعى ، فستكون تلك الكينونة مشخصة مثل باقى الشخصيات فى شكل حى تماما ، قادر على مغامرات تشبه الأشخاص الحقيقيين والتجارب والخبرات ، وقابلة لأى نوع من المواجهات أو الصعوبات التى نعرفها من حيواتنا وخبراتنا نحن ، بهذا الشكل الشخصية أو «الكاركتر» لنبتة طبية يمكن تذكرها واستحضارها بسهولة ، جوانبها السامة سوف يسهل تجنبها ، وخطوات تحضيرها الدقيقة سوف تكون مشهودة من خلال تسلسل الأحداث فى الأسطورة نفسها التى تُنشد خلال التحضير ، على الشخص فقط أن يروى القصة المناسبة من الزمن البعيد حول نبتة أو حيوان أو عنصر ما من أجل

أن يستدعى المعرفة الثقافية التراكمية فيما يتعلق بتلك الكينونة وعلاقتها بالمجتمع البشرى .

فى ضوء ذلك فإن ذلك الشئ الذى نقوم نحن المتعلمين بخطأ بنائه وتكوينه كمحاولة للأصليين للشرح العلمى أو السببى يمكن أن نراه كطريقة راقية وحافظة يتم عبرها الحفاظ على المعرفة الدقيقة وتمريرها من جيل إلى جيل ، إن السبب المناسب الوحيد لمثل تلك القصص هو نوع من السببية التدويرية الغريبة على الفكرة الحديثة والعصرية ، وفقا لها يستطيع الأشخاص أن يؤثروا على أحداث فى نظام الطبيعة الذى يحتويهم ومع ذلك فهم أنفسهم باستمرار تحت تأثير تلك الأحداث نفسها . عبر إطلاق بُعد أو زمن حيث كل الكينونات كانت فى شكل بشرى ، أو عندما كان البشر فى شكل حيوانات أو نباتات أخرى فإن تلك القصص تؤكد على القرابة البشرية مع الأشكال التعددية للطبيعة المحيطة بهم ، هم هكذا يشيرون إلى علاقات الاحترام المتبادل التى يجب الحفاظ عليها مع ظاهرة الطبيعة ، ذلك التواصل والتلقى الذى يجب ممارسته فى العلاقة مع الحيوانات الأخرى والنباتات والأرض نفسها من أجل أن يضمن المرء صحته ، ومن أجل المحافظة على الأحوال الحسنة والمتوازنة فى المجتمع البشرى .

إن هذه الواجهة من اعتبارات التقدير والاحترام وسببيتها الدائرية المعتنى بها حاضرة أيضًا فى حكاية سقراط عن جنادب الأشجار ، عبر إيصال الحكاية إلى فيدروس فإن سقراط يشير - بالرغم من أن ذلك لم يكن خاليا من التهكم - إلى الاحترام المطلوب بشكل صحيح لمثل تلك الحشرات ، والتى يمكن لها أن تجتمع وتتواطأ ضد الاثنين بدورها ، فيما بعد بالفعل فإن سقراط سوف يعزى بلاغته وفصاحته الخاصة فى هذه المحاورة إلى إلهام الجنادب له «تلك الأفواه المنشدة باسم الحوريات» .

إنه يبدو جليًا فى فيدروس أن أفلاطون أسبغ الكثير من الاهتمام والاعتبار للكون الشفاهى الشعرى وفيوضه من الحسى غير العقلانى ، وقواه الحية أكثر مما فعل فى بقية المحاورات ، إن محاورة فيدروس تبدو أنها تحاول ضربًا من التصالح بين العالم المتسامى غير التجسيدى للأفكار الخالدة وهى تشرع فى هذا وغيره من المحاورات والعالم الجياش ذى النغمة الشعورية لسحر الطبيعة الذى ما يزال يسكن اللغة المشتركة لأيامه ، غير أن هذه التأكيدية التصالحية للكون الحى الحسى قد تأثرت فقط

عبر المضمون الذى يخفى داخله نوعًا من الاستخفاف ، هذا يبدو واضحًا بشكل كبير فى الأليجورى فى قلب المحاورة ، حيث سقراط يمنح رؤيته الخاصة حول الحب أو «إيروس» . فحسب سقراط إن الجنون القدسى فى العشق يجب تكريمه وامتداحه ، ذلك أنه – العشق – هو الذى يمكنه أن يوقظ بقوة وعمق الروح من نومها فى العالم الحسى الجسدى . إن روح العاشق تستثار عبر الجمال الحسى للمعشوقة لكى تتذكر – ولو بشكل ضئيل وشاحب – ذلك الأكثر نقاءً ، والجمال الخالص للأفكار الخالدة غير الجسدانية والتى كانت تعرفها فى يوم ما ، وهكذا متذكرة لطبيعتها السامية الخاصة بها فإن النعاس والنوم السابق للروح يبدأ فى نشر أجنحته وسرعان مايصبو للتحليق بعيدًا وراء ذلك العالم من الوجود الفانى نحو ذلك الذى هو حيز وجود أبدى وغير متحول وأبعد من النجوم :

«إنه هناك يتجول ويحيا الكائن الحقيقى ، بدونما لون أو شكل ، لايمكن لمسه ، إن السبب وحده ، هدى الروح ، يمكن أن يجعلها تتماسك ، وكل المعرفة الحقيقية معرفة عُليا» .

فى هذه المحاورة إذن فإن الرغبة الجسدية للتواصل والاحتكاك الحسى مع أجساد أخرى ومع جسد الأرض قد تم تكريمها ، ولكن فقط كاستثارة أو دافع تجاه التوحد الأكثر أصالة للروح العقلانية مع الأشكال الخالدة «للعدالة» ، «التسامح» ، «الفضيلة» ، وأشباه ذلك ، والذى – حسب أفلاطون – يرقد فيما هو أبعد من العالم المحسوس بشكل كامل .

لقد رأينا أن ذلك التحالف بين الروح العقلانية أو «النفس» والأفكار غير المتحولة غير منفصل عن العلاقة بين الذكاء الجديد المتعلم والحروف الواضحة للأبجدية (والتى بالرغم من أنها ليست من خارج العالم المحسوس تمثل نظامًا جديدًا تمامًا ومستقرًا لظاهرة نسبية ، إن كل الأشكال الأخرى للظواهر يمكن لها أن تصبح وكأنها تبدو محلقة بشكل مدهش ، غامضة ، ملتبسة واشتقاقية) وكما هو فى النقد الواضح لدى أفلاطون تجاه الأبجدية والكتابة فى فيدروس تأخذ مكانها داخل المضمون لتأملات أوسع من ذلك ومنفصلة (أو غير مجسدة) بأن الكتابة تُولد ، وهكذا فى المحاورة نفسها فإن تأكيداته الواضحة حول أمزجة الشفاهية – الحية للخبرة يتم إنجازها فقط عبر نص لمواضيع أوسع . إن العالم الإيروتيكى – التشاركى للجسد الحساس والحسى

يستدعى فقط من أجل مساندة العالم غير المحسوس نحو - حسب أفلاطون - الاتجاه الذى يشير إليه ، إن الفكر المتعلم هنا يشهد بمجاله عبر ادعاء أن الحياة الحسية للجسد فى الطبيعة هى مجرد حلفه المساند له ، وماقد كان فى السابق تهديداً للعقل المتعلم الفكرى هو الآن قد جُرِّد من سلاحه بجعله فى مكان محدد فى داخل المشروع الأعظم للتسامى وهكذا ، فحتى وخصوصاً فى هذه المحاورات الريفية ، حيث الذكاء العقلى يبدو متوازنا تقريبا مع الجسد الشهوانى وحيث هناك الأشجار التى «لا يمكن لها أن تعلم شيئًا» يبدو متوازنا عبر الجنادب المراقبة ، فإنه يمكن لنا أن نكتشف بذور الخسوف الحدَثى وراء عالم الحروف ، والأرقام ، والنصوص .

الاستثارة الحسية والاحتكاك بالآخر

إنه من اللافت للانتباه أنه لم يكن هناك أى من أساتذة القرن العشرين والأكاديميين المهمين والذين وجهوا اهتمامهم للتغييرات التى أحدثها التعليم قد درسوا بشكل جاد تأثير الكتابة - وخصوصًا الكتابة الصوتية - على الخبرة البشرية لعالم الطبيعة الأوسع ، إن تركيزهم قد كان عمومًا مركزًا على تأثير الكتابة الصوتية على تكوين واستخدام اللغة البشرية فى نماذج التذكر والأفكار ، أو على التنظيم الداخلى للمجتمعات البشرية ، إن معظم الأبحاث الرئيسية - بكلمات أخرى - قد ركزت على تأثير الأبجدية على تطورات إما داخلية فى المجتمع البشرى أو افتراضيا «داخلية» فى *العقل البشرى* ، ومع ذلك فإن محدودية مثل ذلك البحث - تحفظاته الصارمة داخل حدود التفاعل البشرى الاجتماعى والدواخل الشخصية - فى حد ذاته يعكس تعصبا خاصًا مرتكزًا تمامًا على الثقافة الأبجدية ، فى غياب التعليم الصوتى فإنه لا المجتمع ولا *اللغة* ولا حتى خبرة «*الفترة*» أو *الوعى* يمكن أن تبحث بمعزل عن الأشكال والقوى التعددية وغير البشرية والتى تعبر تأثيراتها إلى كل أنشطتنا (نحتاج أن نفكر فى محاولاتنا التى لاتضنى فقط مع الأرض تحت أقدامنا ، مع الهواء الذى يدور حولنا ، مع النباتات والحيوانات التى نستهلكها ، مع الدفء اليومى للشمس والدورة الشهرية للقمر) ، وبالفعل فى غياب أنظمة الكتابة الرسمية فإن *المجتمعات البشرية* وصلت إلى معرفة أنفسها أساسًا كما قد انعكسوا عبر الحيوانات والأرض الحية التى ينشغلون بها ، هذه الاعتمادية الإبستمولوجية واضحة بشكل جاهز فى كل قارة عبر الأمزجة المتعددة للتعريف والمرتبة عمومًا تحت المصطلح المفرد «الطوطمية» .

إنها صعوبة متزايدة علينا نحن المتعلمين أن نجرب أى شىء يقترب من التركيز والوضوح مع الطبيعة المحيطة بنا التى تقدم نفسها بتلقائية إلى أعضاء مجتمع شفاهى أصلى ، ومع ذلك كما قد رأينا فى *الفصول السابقة* ، ميرلو بونتى وخبرته الدقيقة فى علم ظواهر التلقى بدأت تتكشف تحت سطح كل تجريداتنا المتعلمة علاقة تشاركية

عميقة مع الأشياء ومع الأرض ، تلقٍ محسوس مشابه بشكل غريب مع الوعى الحى لأشخاص شفاهيين من الثقافات الأصلية ، إذا شئنا أن نستوعب بشكل أفضل التحول المدهش فى الخبرة البشرية للطبيعة والذى تصادف مع تقدم وانتشار الثقافة الصوتية سوف نفعل حسنًا بالعودة إلى التحليل الحميم للتلقى الحسى الذى دشنه ميرلو بونتى ، ذلك أنه بدون وعى واضح لما تعنيه القراءة والكتابة عندما تؤخذ بالاعتبار على مستوى خبراتنا الجسدية والأكثر مباشرة فإن أية «نظرية» تخص تأثير الثقافة التعليمية سوف تكون جزئية وتمحصية .

بالرغم من أن ميرلو بونتى نفسه لم يحاول أبدًا فى مجال علم ظواهر القراءة والكتابة فإن تقديره لأهمية الاستثارة الحسية - تداخل الحواس وامتزاجها - ظهر فى عدد من التحليلات الخبراتية المتصلة مباشرة مع ظاهرة القراءة ، ذلك أن القراءة ، حال ما ننتبه إلى نصها الحسى تكشف نفسها كإثارة حسية عميقة فى المقابل ، إن عيوننا تلتقى مع إشارة بصرية أو سلسلة من الإشارات ومع ذلك فإن ماتجده هناك هو سلسلة لا من الصور والخيالات ولكن أصوات ، شيئًا يسمع ، الحروف البصرية كما قد قلنا تقايض عيوننا بآذاننا ، أو بالأحرى إن العين والأذن تُجلِبان معًا إلى سطح النص - ورابط جديد يوثق مابين الرؤية والسمع ويضمن أن ظاهرة تم القبض عليها بحاسة واحدة يتم تمريرها مباشرة إلى حاسة أخرى ، الأكثر من ذلك علينا أن نلاحظ أن هذا التمرير الحسى للحواس يتم عبر توسيط الفم البشرى واللسان ، إنه ليس أى نوع من الأصوات فحسب ذلك الذى يخبر فى فعل القراءة ، ولكن البشرى بشكل محدد ، أصوات حلقية تلك التى تصدر من الفم البشرى ، إنه من المهم أن نلاحظ أن الخبرة المشتركة الآنية ، الآن ، للقراءة «الصامتة» هى تطور متأخر فى قصة الأبجدية ، ظاهرة فقط خلال القرون الوسطى ، عندما قدمت الفراغات لأول مرة مابين الكلمات فى مخطوط مكتوب (بالإضافة إلى الأشكال المختلفة للإملاء) ، مُمكِّنة القراء من التمييز للكلمات فى الجملة المكتوبة دونما أن يكون هناك ضرورة للاستماع إليها صوتيًا ، قبل هذا الابتكار كان أن تقرأ يعنى بالضرورة أن تقرأ بصوت عالٍ ، أو على الأقل أن تتمتم بهدوء ، بعد القرن الثانى عشر صار ممكنا بشكل متزايد أن تستبطئ الأصوات وأن تستمع داخليًا إلى الكلمات (أو الصدى الداخلى للكلمات عند النبس بها) .

إن القراءة الأبجدية إذن تبدأ عبر طريق التعاون المتداخل للاستثارة الحسية مابين العين والأذن ، مابين الرؤية والسمع ، ولكى نكشف تبعات هذه الاستثارة الحسية الجديدة فإننا نحتاج لاختبار مركزية الاستثارة الحسية فى تلقينا للآخرين فى الأرض .

إن الجسد المجرب (كما قد رأينا فى الفصل الثانى) ليس مادة مغلقة على ذاتها ولكنه كينونة متفتحة ، غير مكتملة ، إن هذا الانفتاح واضح فى نظام الحواس : إن لدى هذه الطرق المتعددة لمواجهة واستكشاف العالم - الإصغاء بأذنى، اللمس بجلدى ، الإبصار بعينى ، التذوق بلسانى ، الشم بأنفى - وكل هذه القوى المتعددة أو الطرق تفتح خارجيًا باستمرار من قبل الجسد المتلقى والمستوعب مثل دروب منبثقة ومتعددة فى غابة ، ومع ذلك فإن خبرتى فى العالم ليست جزئية أو متشظية ، إننى لا أجرب بشكل عادى المظهر البصرى للعالم بأى شكل ما منفصل عن الجانب السمعى ، أو كثافة وتنوع اللمس الذى تقدمه الأشياء للمستى ، عندما يأتى القط توم - قط الحى - للزيارة ، فإنه لايكون عندى خبرات مميزة لقط بصرى ، قط سمعى ، ولكن بالأحرى إن القط توم هو المكان نفسه الذى تشترك فيه تلك الحواس وتمتزج فى بعضها بعضًا ، ممتزجة أيضًا بذلك السطح من فرائه ، وهكذا فإن حواسى المتعددة تتقابل مع بعضها بعضًا فى العالم المحيط ، مركزة ومختلطة بذلك الشيء الذى أتلقاه وأستوعبه، لعلنا قد نفكر بالجسد الحسى كنوع من الدائرة المفتوحة التى تكمل نفسها فقط فى الأشياء والعالم . إن الاختلافية فى حواسى وكذلك فى تلاقيها التلقائى فى العالم يضمن أننى كائن مقدِّر للعلاقة : إنه أساسًا عبر انشغالى مع ذلك الذى هو «ليس» أنا ، ذلك الذى يؤثر ويسبب امتزاج حواسى وتكاملها مع بعضها بعضًا ، أخبر وأتعرف على وحدتى الذاتية واكتمالى .

وبالفعل ، إن الاستثارة الحسية تتدفق مع بعضها بعضًا عبر حواس مختلفة لتصبح خبرة ديناميكية متماسكة وهى بالفعل فعالة وقائمة داخل نظام واحد للإبصار نفسه ، إن الإبصار العادى يمتزج من عنصرين ، وجهتى نظر هما «العينان الاثنتان» ، وحتى هنا فى داخل نظام حسى واحد نكشف انفتاحًا أصليًا أو تفريعًا ، فى هذه الحالة ، جانبين من الوجه كل منه ببوابته للبصرى ، وإنه فقط عبر ذلك التفرع والالتقاء لهذين

الجانبين فى نقطة ما فى مقدمة الجسد يمكن للعالم البصرى أن يصبح حاضراً بالنسبة لى بكل أعماقه .

إن الصور الثنائية المعتادة للبصر غير المركز له جانب من حقيقة مهتزة فقط : لو سمحت لعينى أن تركز على رفٍّ أمامى فى الغرفة ، وأثناء ذلك أضع إصبعى أمام وجهى ، أكتشف أن هناك صورتين للإصبع تتراءى أمامى مثل أشباح غير ملموسة وأن ذلك الرف ، بالرغم من مسافته الأبعد عنى ، يبدو أكثر تماسكًا وحضوراً فى وعيى من إصبعى الذى هو أمام وجهى ، وفقط عندما أكسر درجة تركيزى على ذلك الرف وأجعل عيناى تتوحد من جديد وتركز على إصبعى يتضح لى آنذاك عبر تأمل الشعيرات الدقيقة والمفاصل لإصبعى وجوده الواضح أمامى .

إن الإبصار الاعتيادى يحتوى على تفرع لوجهتى نظر يتوحد فى إبصار حيوى واحد ، إن أجزاء متفرعة من نفسى تنضم لبعضها عبر الموضوع ، وأنا بدورى أقابل نفسى «هناك» عند تلك الشجرة أو العنكبوت الذى أركز عليه ، إن الرؤية نفسها – بكلماتٍ أخرى – نوع من الاستثارة الحسية بالفعل ، تعاون ما بين حواس متعددة وقنواتٍ ، وأعضاء .

عندما ننتبه بدقة إلى خبرة تلقينا واستيعابنا نحن فإننا نكشف أن تفرع العينين يشجع غالبا التعاون الإضافى للحواس الأخرى ، عندما – على سبيل المثال – أحدِّق من خلال النافذة نحو طيرٍ أسود فى خميلة قريبة فإن عيناى الاثنتين منجذبتان إلى حركة جسد الطائر وهو يلتقط التوت الأحمر من على الأغصان ، فإن حواسًا أخرى تنجذب بشكل تلقائى إلى مجال التركيز نفسه ، إن إحساسًا بدغدغة ما قد يصاحب على سبيل المثال مراقبتى لحركة الطائر الأسود ، وإذا ما راقبت بدقة قد ألاحظ وهو ينقر ويأكل كل حبة من التوت فى منقاره ، نوع من الريق يتدفق فى فمى له طعم حامض ، أو بالأحرى ، للغرابة ، أبدو وكأننى أشعر ذلك الطعم هناك ، فى داخل فمى ، إننى أحس بفمه عبر فمى فقط .

وشبيه بذلك عندما أراقب غريبًا يتعلم قيادة دراجة لأول مرة ، إن جسدى نفسه بالرغم من كونه واقفًا بثبات على الأرض فإنه عندما تتحرك الدراجة وتسقط فإننى أحس بذلك التأثير الحسى للأسفلت على ساقى وذراعى .

إن حواسى هنا سوف يبدو أنها تلحق هناك بما يركز عليه بصرى ، الصدمة الآنية والوجع فى مفاصلى يجعلنى أرمش بعينى ، إن سمعى أيضًا كان يركز على تلك الصدمة وتلك الأصوات الأخرى التى كنت أستمع إليها (الطيور ، ولعب الأطفال) ليس لها وجود بالنسبة لى الآن ، فقط ذلك الغريب وتنفسه بألم وهو يجر دراجته ببطء ويقبل اليد التى أقدمها إليه ، مجبراً نفسه على الوقوف على قدميه ، إنه يهز رأسه ، يضحك قليلا ، ثم يعبس – كل ذلك بطريقة جاهزة للتواصل مع جسدى بأنه على مايرام – ثم يلتفت ليفحص دراجته .

إن تنوع أنظمة حواسى وتفرعاتها التلقائية فى الأشياء التى أقابلها تؤكد هذا التفسير أو تداخل النسج مابين جسدى والأجساد الأخرى ، هذه المشاركة الساحرة التى تسمح لى فى أحيان ما أن أشعر بما يشعر به الآخرون . اختلاجات كائن آخر ، إيقاعات وذبذبات صوته ، التشنج أو التراقص فى سلسلة ظهره كلها تجذب انتباهى تدريجيًا نحو علاقة مميزة مع بعضها بعضًا ، نحو نظام متناغم ، ومنسجم حتى فى تحولاته، وكلما أطلت تواصلى مع الكينونة الأخرى صارت العلاقة أكثر فهمًا واكتمالاً ، وبذلك كلما وجدت نفسى أكثر وجهًا لوجه مع ذكاء أو قوة عقلية أخرى كان ذلك مركزا آخر للخبرة .

فى لقائى مع سائق الدراجة ، كما فى خبرتى مع الطائر الأسود ، إن التركيز البصرى عزَّز ومكَّن مشاركة الحواس الأخرى . فى أوضاع مختلفة ربما حواس أخرى تبدأ تلك الاستثارة الحسية : آذاننا عندما نكون فى حفلة سيمفونية ، أو أنوفنا عندما نشم رائحة احتراق أوراق شجر جافة فنستحضر صوراً وخيالات من طفولتنا أثناء فصول الخريف ، جلدنا عندما نلمس أو يلمسنا حبيب ما ، بالرغم من كل ذلك فإن التجربة الحيوية للعينين لها سحر خاص ، فاتحة عمق نهتز له فى كل شىء نبصره ونركز عليه النظر ، داعية بلا تردد الحواس الأخرى إلى تبادل مكثف مع الصخور ، السناجب ، السيارات المركونة ، الأشخاص ، رجل الثلج ، السحب وأشياء أخرى . إن هذه القوة – مغناطيسية الاستثارة الحسية للتركيز البصرى – سوف تبرهن على أهميتها الضرورية لفهمنا واستيعابنا للثقافة والتعليم وتأثيراته على التلقى .

إن أكثر الفصول أهمية فى عمل ميرلو بونتى - الذى لم ينهه بسبب موته - بعنوان «التداخلية - التشيازم» - The Chiasm - إن كلمة Chiasm ، مشتقة من مصطلح إغريقى قديم يعنى «التعابر» وهو مستخدم اليوم فقط فى حقل علم الأعصاب : «التعابر البصرى» هو الحقل التشريحى مابين الجانبين الأيسر والأيمن من المخ ، حيث الألياف العصبية من العين اليمنى والعين اليسرى تتداخلان ، وكما أن هناك تعابرا مابين العينين الاثنتين اللتين عبر منظور الرؤية الثنائى تتداخلان باستمرار فى شكل رؤية بصرية واحدة ، فهكذا أيضًا - حسب رأى ميرلو بونتى - ثمة تعابر مابين الحواس المختلفة إلى درجة تجعلها باستمرار فى حالة تعاونية فيما بين بعضها بعضًا ، أخيراً إن هذا التداخل للحواس المختلفة هو مايمكن من التعابر مابين الجسد واللحم المحيط والحى للعالم ، وهو ماندعوه عادة بالتلقى والاستيعاب .

القراءة الصوتية بالطبع تستفيد من تلاقى حواس معين - ذلك الذى مابين الإبصار والسمع ، وبالفعل مابين الاستثارات الحسية المتعددة المعتادة للجسد البشرى ، فإن التعابر مابين الإبصار والسمع دقيق بشكل خاص ، ذلك أن الإبصار والسمع هما الحاستان الاثنتان «البعيدتان» فى الكائن البشرى فى مقابل اللمس والحواس الداخلية الجسدية ، وعلى غير غرار الحواس الكيميائية للتذوق والشم فإن الإبصار والسمع عادة تضعنا على صلة مع أشياء وأحداث تتبدى على مسافة ما من أجسادنا المبصرة والمرهفة الأسماع .

إن تحديقى البصرى يستكشف انعكاس سطوح الأشياء ، وألوانها الخارجية وأشكالها ، وعبر متابعة لعبة الضوء والظل ، وتراقص الألوان ، وتنوع الأشكال المكررة فإن العينان - وهما نفسهما سطح مشع - تجعلنى على اتصال بالسطوح الخارجية المتعددة والوجوه للأشياء التى تحوم حولى فيما الأذنان أثناء ذلك هما عضوان داخليان أكثر ، إنهما ينبثقان من أعماق جمجمتى مثل برعمين مزهرين ، وإن مشاركتهما تخبرنى أقل حول السطوح الخارجية عن العناصر الداخلية للأشياء ؛ ذلك أن الكينونة السمعية تتنوع مع المنسوج المادى ، كما هو حال النداء الصوتى مختلف من حيوان لآخر معتمداً على حجم وشكل الحلق والحنجرة .

إننى أشعر بصرخاتها المعبرة تتردد داخل جمجمتى أو صدرى حاملة صدى تلك الأصوات بنسيجها المادى ، وهكذا أتعلم عن اختلافاتها الداخلية المغايرة لى .

إن النظر والإصغاء يجلبنى إلى تواصل مع السطوح الخارجية ووزنها الداخلى ، وهكذا فهو يوصلنى إلى حيث تلتقى تلك الحواس ، إننى أجرب هنالك التلاعب الداخلى المركب للباطن والخارج والذى هو من مواصفات خبرتى الشخصية نفسها ، إنه هكذا فى تلك الالتقاءات فى الأرض المحيطة حيث عيناى وأذناى متوحدتان معًا أكون جاهزًا وفى أحسن أحوالى للإحساس بنفسى فى مواجهة قوى أخرى مثلى ، حياة أخرى .

لو أن قناصًا فى المجتمعات الأصلية (أو البدائية) كان يقتفى فريسة لوحده فى الغابة ، ووصلت إلى أذنيه صرخات ما من أعماق الدغل ، سوف يكون رد فعله فى الأغلب هو الإجابة على تلك الصرخة بأن يخفف خطوه ، ويكتم أنفاسه حتى يسمع ذلك الصوت ، عندما يعود مرة أخرى بدقة أكثر سوف ترصد عيناه وتتكشف الدغل وحركات الأغصان فوق رأسه بتحديق سريع ونظرة غير مركزة ، منتبها إلى أقل حركة على هامش حقل الرؤية .

حركة خفيفة للأغصان تجذب عينيه إلى تركيز أكثر دقة ، إن اهتمامه الآن محصور فى ظل صغير لتلك الأغصان ، ومع ذلك فإنه لايزال منفتحًا ، متسائلاً ، ومصغيًا ، عندما تعود تلك الصرخة تحت قيادة أذنيه ، يبحث بنعومة عن مصدر ذلك الصوت بعينيه وفجأة يتضح له شكل قرد ، نصف مختف بين أوراق الأشجار ، وذيله يهتز ، جسده منتصب ، ويراقب ، وفيما تكون عينا رجل القبيلة تنجذبان إلى تركيز مشترك مع أذنيه المصغيتين ، فإن ذلك الالتقاء ، ذلك التعابر يعيد توثيق نظام حواسه ، إنه يشعر بنفسه فجأة فى مواجهة ، ومقتنصًا فى تبادل حيوى مع كينونة أخرى ، ذكاء آخر فى مواجهته .

وبالفعل إن الاستثارة الحسية مابين العينين البشريتين والأذنين مركزة بشكل خاص على علاقتنا بالحيوانات الأخرى، ذلك بما أنه منذ مليون عام من الإثارة الحارة عند الاقتراب من فريسة أو عند الفرار من حيوانات مفترسة ، عند التراجع ببطء عن أم من القرود تحمى أطفالها أو عند المراقبة بتركيز حركات ثعبان ضخم مستثار لتجنب ضرباته القاتلة - وإن هذه الحركات عندما يكون البصر والسمع تصبح متداخلة بدرجة يصعب التمييز بينها ، ذلك أن هذه الحواس وظيفية هنا لها دور عضوى موحد وفى قمة نشاطه ، إننا نشعر بأنفسنا نصغى بأعيننا ونراقب بآذاننا ، جاهزين للاستجابة بكامل جسدنا لأى تغيير مفاجئ فى سلوك الآخر .

ومع ذلك فإن آذاننا وعيوننا تنجذب معًا لا عبر الحيوانات فقط وإنما عبر ظواهر أخرى كثيرة فى داخل الأرض ، ومن الغريب أنه «أينما» التقت هاتان الحاستان فإننا قد نشعر فجأة بأنفسنا فى علاقة مع قوى أخرى معبرة ، مركز آخر للتجربة والخبرة ، الأشجار على سبيل المثال يمكن أن تبدو أنها تتحدث إلينا عندما تهزها الرياح ، أشكال مختلفة من الهواء يمكن أن تمنح الشجرة صوتًا مميزًا ، وشخص ما كان قد عاش مابينها سوف يسهل عليه تمييز اللهجات المختلفة لشجرة صنوبر من حديث أو كلام نبتة شوكية أو نار أخشاب ، إن أى شخص كان قد سار عبر حقول الذرة يعرف التجربة غير الخادعة فى كونه مراقبًا ومتحدثًا إليه عبر همس العيدان والنباتات ، إن صخرة معينة تواجه وتقدم طلبًا منا إلى نوع من الإصغاء السمعى ، وهكذا تجذب آذاننا إلى علاقة بأبصارنا فيما نحن نحدق فيها ، أو مع أيادينا عندما نلمسها - ذلك أنه عبر مزاج سمعى فقط نستطيع أن نبدأ فى الإحساس بالكثافة الباطنية لذلك الحجر ، أو الجبل ، كثافته الخاصة وعمقه ، إن هناك توقعًا للأذنين ، نوعًا من الاستيعاب والتلقى الصبور الذى تعيره للحواس الأخرى فى أى وقت نضع فيه أنفسنا فى مزاج سمعى - سواء لصخرة ، أو نهر ، أو بيت مهجور - إن كون الكثيرين من السكان الأصليين البدائيين يفرحون لبلاغة خطاب الأشجار أو الجبال يطرح السلاسة التى فى المجتمع الشفاهى يكون فيها الاهتمام الإصغائى السمعى مشتركا ربما مع التركيز البصرى من أجل الدخول والولوج إلى علاقة حية مع الشخصية المعبرة للأشياء .

بعيداً عن تقديم تشويه لعلاقتها الحقيقية مع العالم ، المسار الحى للشعوب الأصلية البدائية والشفاهية تلاقٍ موازٍ وحتمى للاستثارة الحسية المباشرة والمنشغلة مع الأرض التى تعيش فيها ، إن الميل الحى لتلقى شكلاً مثلثا لجبل (فيما الظلال تتحرك عبر سطحه) كنوع من التجسيد الممتلئ بالمعانى ، أو الدخول إلى محاورة محسوسة مع السحب والبوم - كل ذلك يمكن وضعه جانبًا كنوع من الخيال المشوه أو الهلوسة الفانتازية لو أن مثل ذلك التشارك النشط لم يكن الأساس نفسه للتلقى والاستيعاب ، لو كان التداخل النشط للحواس فى الأشياء التى تقابلها لم يكن طريقتنا الوحيدة لربط أنفسنا إلى تلك الأشياء والسماح للأشياء أن تنسج نفسها فى خبراتنا ، مباشرة التلقى السابق للتأمل هو استثارة حسية بالضرورة ، تشاركى ، وحى ، يفتح الأشياء

والعناصر التى تحيط بنا لا كمواد جامدة ولكن كمواد معبرة ، وكينونات ، وقوى ، وإمكانيات .

ومع ذلك فإن معظمنا يبدو اليوم بعيداً جداً عن مثل تلك الخبرة والتجربة ، إن الأشجار نادراً - لو حدث ذلك - أن تتكلم معنا ، والحيوانات لم تعد تقترب منا كرفاق من محيط ذكى مشترك ، الشمس والقمر لم يعودا يستدعيان الصلوات منا ولكن يبدوان مثل قوس أعمى فوق السماء ، كيف صار أن أصبحت تلك الظواهر غير قابلة لمخاطبتنا ، ولم تعد تستدعى انشغالنا بها والاستجابة لها ؟ إذا كانت التشاركية هى التشكيل والأساس نفسه للتلقى والاستيعاب ، فكيف أصبح ممكناً أن يصل إلى تلك النهاية ، أن نجمد الحياة الحية المستمرة ، وأن نسد التبادل الحى الوحشى مابين الحواس والأشياء التى تشاغلها سوف يكون نوعا من تجميد الجسد نفسه ، إيقافه بعيداً عن خطاه ومساره ، ومع ذلك فإن أجسادنا مازالت تتحرك ، مازالت تحيا ، مازالت تتنفس . إذا لم نكن قد أصبحنا نشعر ونجرب التفاعل مع الأرض ككينونة معبرة وحية فإن هذا يمكن أن يعنى فقط أن التفاعل الحى للحواس قد تحول إلى وسيلة أخرى ، نقطة أخرى للتشاركية .

إن النص المكتوب هو الذى يقدم هذا الموقع الجديد ، ذلك أنه أن تقرأ هو أن تلج فى مشاركة عميقة وتواصل أو تعابرية مع الإشارات المحبَّرة على الصفحة ، فى تعلم القراءة علينا أن نكسر التواصل التلقائى لعيوننا وآذاننا فى المجال المحيط (حيث تنشغل هذه الحواس باستمرار مع الإثارة الحسية من لقائها مع الحيوانات والنباتات والينابيع) بهدف إعادة تزاوجية الحواس وتركيزها على السطح المسطح للصفحة . فيما تقوم إحدى عجائز «الزونى» بتركيز عينيها على شجرة صبار وتسمع الصبار يبدأ فى الحديث ، هكذا أيضاً نحن نركز أعيننا على هذه الحروف والإشارات المطبوعة ونسمع أصواتها حالاً ، إننا نسمع كلمات منطوقة ، ونشهد مشاهد ورؤى غريبة ، ويمكن لنا أن نخبر ونجرب حتى حيوات أخرى، وكما أن حيوانات غير بشرية، ونباتات ، وحتى الأنهار «الحية» كانت تتكلم وتتحدث فى يوم ما إلى أسلافنا القبليين فهكذا أيضاً هو «جماد» الحروف على الصفحة الآن يكلمنا ويحدثنا ! إن هذا هو نوع من الحياة التى نأخذها على أنها تحصيل حاصل ، غير أنها حية على كل الأحوال ، وغامضة مثل حجر يتحدث .

وبالفعل ، إنه فقط عندما تحوَّل وتبدَّل ثقافة ما تواصلها مع هذه الحروف المطبوعة فإن الصخرة أو الحجر يقع فى الصمت ، إنه عبر تحول حواسنا فقط وسحرها الحى نحو الكلمة المكتوبة يمكن للأشجار أن تصير خرساء ، والحيوانات الأخرى بكماء .

لكن دعونا نصبح أكثر دقة ، ونستدعى الفارق مابين الأشكال المختلفة للكتابة الذى تمت مناقشته فى بداية هذا الفصل ، كما قد رأينا هناك . الكتابة التصويرية ، والأيدوجرافية (الكتابة الترميزية) وحتى الكتابة الإيحائية مازالت تستفيد أو تعتمد على تواصلنا الحسى مع العالم الطبيعى ، وكما أن آثار وعل أو دب تعود إلى ماهو أبعد من نفسيهما ، إلى تلك الكينونات التى هى مجرى البحث ، فكذلك الصور والرسوم فى أنظمة الكتابة الأدنى تستمد أهميتها لا من ذواتها فقط ولكن من الشمس ، والقمر ، والنسر ، والفهد ، والثعبان ، والرعد – من كل تلك المحسوسات ، وليست القوى البشرية فقط، والتى كانت الرسوم والصور المكتوبة لها نوع من اقتفاء الأثر والتقصى ، ومن المؤكد أن تلك الإشارات والتى هى منقوشة الآن بالأيادى البشرية ، وليست بقرون وحوافر الغزلان أو مخالب الدب مع ذلك فهى طالما قدمت صوراً لمخالب مطبوعة وسحب وشمس وثعبان ، فإن هذه الصفات مازالت تربطنا بعلاقة بمسار الحقل الذى هو أكثر مما هو بشرى .

وعندما فقدت تلك الصفات المكتوبة ، فقط ، كل مرجعيتها الخارجية والواضحة لظاهرة الطبيعى ، المرئى فإننا عندها تحركنا نحو نظام جديد للتواصل والتشاركية ، فقط عندما صارت هذه الرسوم مصاحبة أبجديًا للأصوات التى صنعها البشر بشكل خالص ، وحتى الأسماء والحروف فقدت كل أهميتها الدنيوية الأكثر من البشرية . أن صار الكلام أو اللغة محسوسة كقوة بشرية استثنائية إنه عندئذ فقط حدث أن دخلت الحضارة إلى الحالة والمزاج الكلى لانعكاس الذات للحياة ، أو السحر ، الذى مازال يشدنا إلى تعويذته :

«إننا نعلم ما الذى تفعله الحيوانات ، ماهى احتياجات دبور النحل والدب وسمك السالمون والمخلوقات الأخرى ، لأنه منذ زمنٍ بعيد تزاوج البشر معهم وحصلوا على هذه المعرفة من زوجاتهم من الحيوانات ، اليوم الكهنة يقولون إننا نكذب ، غير أننا نعرف ماهو أفضل من ذلك .

إن الرجل الأبيض قد قضى وقتًا قصيرًا فقط فى هذه البلاد وهو يعرف القليل جدًا عن الحيوانات ، لقد عشنا هنا منذ آلاف السنين وقد عُلمنا منذ زمنٍ بعيد عبر الحيوانات نفسها ، إن الرجل الأبيض يدون ويكتب كل شىء فى كتاب حتى يمكن أن يحفظ ولا ينسى ، غير أن أسلافنا تزوجوا الحيوانات ، وتعلموا منها كل طرقها ، ونقلوا تلك المعرفة من جيل إلى جيل» .

إن هذه القراءة الأبجدية والكتابة كانت فى حد ذاتها موضع إحساس وخبرة بأنها نوع من السحر ، وكان ذلك واضحًا من ردود أفعال ثقافات صارت فجأة على صلة بالكتابة الصوتية ، إن المصادر الأنثروبولوجية من قارات مختلفة تمامًا قدمت تقارير حول أن أعضاء القبائل الشفاهية من السكان الأصليين بعد أن رأوا الأوروبيين يقرأون من كتاب أو من دفتر صاروا يتحدثون عن الصفحات المكتوبة على أنها «أوراق متحدثة» ، ذلك أن الإشارات السوداء على الصفحات المسطحة الشبيهة بأوراق الأشجار بدت وكأنها تتحدث مباشرة للشخص الذى يعرف أسرارها .

إن النقوش والكتابات العبرية لم تفقد أبدًا هذا الحس بالحروف كقوى باطنية حية ، إن أغلب «الكابالا» - الجسد الخفى للصوفية اليهودية - مركز حول القناعة بأن كل حرف من الحروف الاثنين والعشرين للأبجدية (ألف - باء) العبرية هو بوابة سحرية أو دليل إلى مجال وفضاء كامل للوجود ، وبالفعل ، حسب بعض مصادر «الكابالا» أنه كان عبر جمع الحروف أن استطاع الواحد المقدس ، المبارك ، أن يخلق الكون الذى مازال يجرى ، إن «الكاباليين» اليهود وجدوا أن تلك الحروف عندما يتم التأمل عبرها ، تستمر فى كشف أسرار جديدة ، عبر عملية (**tzeraf** - تزيرف) التبادل السحرى للحروف يستطيع الكاتب اليهودى أن يأخذ نفسه إلى مراحل متلاحقة أكبر من التوحد الإنشائى الصوفى مع المقدس ، هنا - بكلمات أخرى - كان هناك شكل مكثف ومركز للوثنية الحية - تواصل ومشاركة لم تعد تجرى مع الأصنام المنحوتة والصور والخيالات المعبودة عبر القبائل الأخرى ولكن فقط وبشكل كلى مع الحروف المرئية للأبجدية (ألف - باء) .

ربما تكون أكثر الشواهد الناجحة للسحر المبَطَن لحروف الكتابة يمكن العثور عليها فى المعنى الغامض والملتبس لكلمتنا الإنجليزية المعروفة « **spell** » [ومعانيها العربية تتضمن التالى : نوبة - دور - تعويذة - رُقية وكذلك : هَجَّى - تهجَّى - ناوبَ - سَحَرَ،

المترجمة] فيما كانت الأبجدية الرومية تنتشر خلال أوروبا الشفاهية آنذاك ، فإن الكلمة الإنجليزية القديمة «spell» والتى كانت تعنى ببساطة أن تروى حكاية أو قصة اتخذت معنى مزدوجا : من ناحية أخذت تعنى الآن أن ترتب فى النظام الصحيح الحروف المكتوبة التى تكون اسم شىء أو شخص ، ومن الناحية الأخرى فإنها قد مثلت معادلة سحرية أو تعويذة ، ومع ذلك فإن هذين المعنيين لم يكونا مختلفين تقريبا كما يبدوان لنا اليوم ، ذلك أن تصف وتنظم الحروف التى تصنع اسم شىء فى النظام الصحيح كان بدقة هو أن تثير سحراً ، أن تؤسس نوعًا جديداً من التأثير على تلك الكينونة ، أن تستحضرها إلى الوجود ! أن تتهجى ، أن ترتب الحروف بشكل صحيح تشكل اسما أو جملة ، بدا ذلك فى الوقت نفسه هو أن تطرح تعويذة سحرية ، أن تمارس قوة جديدة ومؤثرة على الأشياء التى تتهجاها ، ومع ذلك نستطيع نحن اليوم أن نستوعب ونلاحظ أنه لكى تتعلم التهجئة كان أيضًا وأكثر عمقًا أن تخطو تحت تأثير الحروف المكتوبة نفسها ، أن تلقى بالتعويذة على حواسنا ، لقد كان أن تبادل وتقايض الوحشى والسحر المتعدد لعالم الطبيعة الذكى من أجل سحر مكثف أكثر ومشذب هو سحر الكلمة المكتوبة .

إن الأستاذ الأكاديمى البلغارى تزفيتان تودوروف قد كتب دراسة مضيئة حول الغزو الإسبانى للقارتين الأمريكيتين ، معتمدة على دراسة موسعة لوثائق من الشهور الأولى وسنوات الاحتكاك الأول مابين الثقافة الأوروبية وثقافات القارة الأمريكية ، إن الغزو والفتح الصاعق والسهل لمكسيكو على يد كورتيز بقى يمثل لغزًا وأحجية للمؤرخين ، بما أن كورتيز كان يقود حفنة من مئات الرجال نجح فى الاستحواذ على مملكة كاملة لمونتيزوما والذى كان يرأس عدداً من مئات الآلاف ، لقد استخلص تودوروف أن كورتيز بنجاحه المذهل والسريع كان فى الأغلب نتيجة للمغايرة والاختلاف مابين الأشكال المختلفة للتواصل والتشاركية المستخدمة فى كلا المجتمعين. إن الأزتيك ، والذين كانت كتابتهم تصويرية فى معظمها ، بالضرورة وجدوا أنفسهم فى تواصل مباشر مع بيئة حية وثنية ، وأكثر مما هى بشرية . «إن كل شىء يحدث وكأنه – بالنسبة للأزتيك – [مكتوب] إشارات اوتوماتيكيًا وبالضرورة تأتى من العالم الذى يسكنونه ...» ، إن الأزتيك غير قادرين على استخدام كلماتهم المنطوقة ، أو شخصيات ومواصفات كتابتهم كى يخفوا نواياهم الحقيقية ، بما أن تلك الإشارات تنتمى إلى عالم من حولهم بالقدر نفسه الذى تنتمى فيه إليهم ، أن تكون مزدوجًا مع

الإشـارات سـوف يكون للأزتيك أن تمضى ضـد نظام الطبـيـعـة ، ضـد الكلام والمنطق الحى والحب مع العالم الحى ، والذى يتجسد فيه ويكمن مسار نظامهم القبلى نفسه .

فيمـا الإسبـان ، على كلٍّ ، لم يكونوا يعـانون من هذه المحدودية ، مسلحين بنظام الكتـابة الأبجدية ، جـربوا أنفسـهم لا فـى تواصل مع الأشكال الحسـيـة والمحسـوسـة للعـالم ، ولكن مع بعـضـهم بعضـًا بشكل كلى . غـيـر أن الأزتيك عليـهم أن يجيـبوا فى أفعـالهم كمـا هو فى كلامـهم لكل عـالم الطبيعة الحسى والمحسـوس الذى يحيط بهم ، فيما الإسبان لايحتاجون إلى تقديم إجابات وتوضيحات إلا لأنفسـهم .

فى تواصل مـع هذا السـحـر الجـديد القـوى ، وأولئك الرجـال الذين يتـواصلـون فقط وبشكل كلى مع إشـاراتهم الذاتيـة ، والذين كـلامـهم بذلك بدا وكـأنه يطفـو بـحـرية من الأرض والطبـيـعـة التـى تحيطـهم ، والذين بذلك يسـتطيـعـون أن يكونوا مـزدوجـين وأن «يكذبوا» حتى فى حضـور الشمس ، والقمـر ، والغابة ، فإن الهنود أحسـوا بأن نظامـهم مـع تلك القوى الحساسة والمحسـوسة ، والآلهة ، صـار يبدأ فى التسطح والخفوت :

«إن شـهادات الرؤية الهندية – والتى هى وصفية أكثر مما هى تفسيرية – تؤكد على أن كل شـىء قـد حـدث بسـبب أن المايا والأزتيك قـد فـقـدوا السـيطرة على التـواصل والتحاور ، إن لغة الآلهـة قد صـارت غير مفـهـومة وإلا فـإن تلك الآلهـة قد سقطت فى الصمت والخرس» . «إن الفـهـم والاستيعاب قد فُقدا ، إن الحكمـة قد ضـاعت» (من واقـع رؤية المايا للغزو الإسبـانى) ... وبالنسبة للأزتيك ، فإنهم قد وصـفوا البداية لنـهايتهم هـم كصمت يسقط : «إن الآلهة لم تعد تتحدث إليهم» .

فى مواجـهة ذلك العدوان والعنف من قبل ذلك الشكل الجديد تمامًا والمعبر عن ذاته من السـحـر فإن السكان الأصليين أهل القارتين الأمريكيتين – ومثل أولئك فى أفريقيا ، ومن ثم فى أستراليا – أحسـوا بأن سـحرهـم الخاص وقواهم قد تلاشت وأصبحت غير نافعة ، وعاجزة عن حمايتهم .



(٥)

فـى أرضيـة اللـغـة

« مُنهكًا من كل من يأتى بالكلمات ، كلمات لكنها ليست لغة
مضيتُ إلى الجزيرة المُغطاة بالثلوج .
إن البرية ليس لديها كلمات .
الصفحات غير المكتوبة تنشر نفسها فى كل الاتجاهات !
لقد عثرتُ على آثار لحوافر غزالٍ على الثلج
إنها لُغة ، ولكن دون كلمات » .

توماس ترانسترومير

إن الجـزء الأول من هـذا الكتـاب قـد أثار هـذا السـؤال : كيـف حـدث أن أصـبـحت الحضـارة الغربية مغتربة جداً عن الطبيعة غير البشرية ، ومتجاهلة تمامًا لحضور الحيوانات الأخرى والأرض ، حتى أصبحت أساليب حياتنا المعاصرة وأنشطتنا تساهم يوميًا فى تخريب وتدمير كامل الأنظمة الإيكولوجية البيئية - غابات بأكملها ، وأنهار ووديان ، ومـحيطات - وانقراض عـدد مـهـول من الكائنات ؟ أو بشكل أكثر تحديداً ، كيف استطاع الجنس البشرى المتحضر أن يفقد ويضيع كل حواس التلقى والعلاقة مع عالم الطبيعة الحى ، وذلك النظام الذى يؤثر (ويحدد) نشاطات معظم الشعوب والقبائل الأصلية ؟ كيف استطاعت الحضارة أن تفلت من وتترك خلفها طريقة وخبرة التشاركية الحيـة والتواصل المعروف لكل الشعـوب الأصلية ، والثـقافات المعتمدة على المكان - الوطن ؟

فى الفصل الأخير – على كلٍّ – قد وضحنا كيف أن الوثنية الحية لم تُترك أبدًا فى الخلفية ، إن التواصل والتشاركية للحواس قد تم تحويلها ببساطة للأبجدية . إنه فقط عبر تركيز سحر الاستثارة الحسية للحواس على الكلمات أو الحروف المكتوبة تتمكن تلك الحروف من أن تصبح حية وتتحدث . «الكلمات المكتوبة» يقول سقراط «تبدو أنها تتحدث إليك كما لو كانت تمتلك ذكاءها ...» وبالفعل ، اليوم من المستحيل فعليا بالنسبة لنا أن ننظر إلى كلمة مطبوعة دون أن نرى ، أو بالأحرى نسمع ذلك الذى «تقوله» ؛ ذلك أن حواسنا الآن متزاوجة بالاستثارة الحسية مع تلك الأشكال المطبوعة بعمق يشبه ذلك الزمن الذى كانت متزاوجة فيه مع أشجار الصنوبر والغربان والقمر ، وكما كانت التلال والحشائش تتحدث ذات يوم إلى أسلافنا من القبائل فإن هذه الحروف المكتوبة والكلمات تتحدث الآن إلينا .

لقد رأينا أيضًا أن أنظمة الكتابة الأيقونية – تلك المستخدمة فى الكتابة الصورية بالرسوم ، والأيدوجرافية و/ أو العناصر والشخصيات الإيحائية – بالضرورة تعتمد إلى حد ما على تواصلنا الحسى الأصلى مع حقل الطبيعة المحيطة بنا ، إنه فقط مع نشوء الأبجدية الصوتية واقتباسها عبر اليونان القديمة أن حدث أن فقدت الرسوم والصور المكتوبة كل الروابط الواضحة مع الحقل الأوسع للكائنات المعبرة ، إن كل صورة اليوم صار لها مرجعية بشرية محددة وصارمة : إن كل حرف صار الآن مرتبطا بشكل خالص مع حركة أو صوتٍ للفم البشرى ، إن مثل تلك الرسوم والصور لم يعد من الممكن أن تعمل كنوافذ مشرعة على حقل القوى لما هو أكثر مما هو بشرى ، ولكن فقط كمرآة تعكس الشكل البشرى مرة ثانية لنفسه ، إن الحواس التى تواصلت وتشاغلت مع هذه الكتابة الجديدة نفسها قد أقفلت من الداخل المسار الذى أصبح الآن بشريًا تمامًا ، هكذا فقط مع تقدم وانتشار الكتابة الصوتية حدث أن بدأت بقية الطبيعة فى إضاعة وفقد صوتها .

إن الكيفية القائمة على المركزية البشرية للخبرة والحياة والتى تُعزى للثقافة الأبجدية كانت قد انتشرت خلال أوروبا خلال فترة العشرين قرنًا الماضية ، متلقية دعمًا عظيمًا من ابتكارات الخطوط التى تم تقديمها فى غرف الكهنة الذين كانوا ينسخون المخطوطات عبر الراهب الإنجليزى الكوين (٧٣٢–٨٠٤) خلال فترة حكم شارلمان ، ودعمًا رئيسيًا من ابتكار الطباعة المتحركة عبر جون جايتنبرج (١٣٩٤–١٤٦٨) ، فى القرن الخامس عشر ، إن النشر المطبوع وانتشار النصوص الرسمية المطبوعة

الذى جعلها ممكنة قد ساهم فى النهضة وفصل - بشكل عميق - رؤية «الطبيعة» التى كانت تسود فى العهد الرومانسى ، فى القرون الحديثة جعلت الممارسات الصناعية والتكنولوجية ممكنا بهذه المسافة الجديدة عن عالم الطبيعة أن تحمل الوعى الأبجدى معها عبر العالم بأكمله ، متسربة حتى إلى تلك الثقافات التى كانت قد احتفظت بأنظمة كتابتها الأيقونية والأيدوجرافية .

ومع ذلك تبقى هناك على الحواف وحتى فى منتصف تلك الثقافة - الأوحدية المستمرة فى الانتشار ثقافاتٌ صغيرة ومحلية أو مجتمعات حيث الطرق الأصلية والتقاليد الشفاهية للخبرة الحياتية مازالت موجودة وتحيا ، ثقافات لم تحول تماماً كلية تواصلها الحسى إلى الكلمة المكتوبة ، إنهم لم يغلقوا أنفسهم بعد داخل الحقل البشرى المغلق للمعانى ، وبذلك بقوا يعيشون داخل أرضية مازالت حية وواعية ويقظة ومعبرة لمثل أولئك الناس ، ذلك الذى نصطلح عليه «باللغة» يبقى ملكية بالقدر نفسه للأرض الحية كما هو للبشر الذين يعيشون ويتحدثون داخل تلك الأرضية ، وبالفعل فإن المسار اللغوى لمثل تلك الثقافات عادة مايكون مرتبطًا - بكيفيات معينة - مع الأرض المعبرة نفسها .

فى هذا الفصل إذن سوف نلقى نظرة على بعضٍ فقط من تلك الطرق الكثيرة التى من خلالها يمكن للمسار المألوف لثقافة شفاهية أن تنفتح مباشرة على الأصوات المثيرة والأشكال والاختلاجات للبيئة المحيطة بها .

لغة الطيور :

كلما سعينا نحن أصحاب الثقافة المتعلمة أن نفهم ونشغل بمسار الثقافات الشفاهية يتوجب علينا أن نسعى إلى تحرير أنفسنا من ميولنا المعتادة لتخيل وتصور أية لغة كتكوين جامد يمكن أن يتم التخطيط له ، أو وضع قوانين يمكن أن تنظم وتوضع فى قوائم دونما نظام كتابة رسمى ، فإن اللغة الخاصة بثقافة شفاهية لايمكن موضعتها ككينونة منفصلة عن أولئك الذين يتحدثونها ، وإن انعدام الموضعة والتشييئ هذا يؤثر لا على الطريقة التى يجرب ويعيش فيها أهل الثقافة الشفاهية حقل المعانى المتنقلة فقط ولكن أيضًا الشخصية نفسها والتكوين لهذا الحقل ، فى غياب أى تجانس كتابى للكلام فإن البيئة الطبيعية الحسية تبقى الموازى البصرى الرئيسى للمنطوق

المتكلم ، المصاحب البصرى الواضح لكافة المعانى المنطوقة . إن الأرض بكلماتٍ أخرى هى المشهد المنطقى والمحسوس أو القالب والرحم الذى يحدث فيه المعنى ويتضح ويتشعب ، فى غياب الكتابة نجد أنفسنا موضوعين فى حقل المسار كما نحن فى داخل جذورنا المتصلة بالأرض الطبيعية ، وبالفعل فإن المسارين غير منفصلين ، إننا لانعود قادرين على تثبيت اللغة وجعل معانيها حتمية نستطيع تجميدها داخل تلك الأرض .

إذا أصغينا أولاً إلى أصوات لغة شفاهية – إلى حسها ، الإيقاعات ، موسيقا وجرس الكلام ، والتناغمات التى تتخلل خطاب ثقافة شفاهية – فإننا فى الأغلب سوف نجد أن هذه العناصر متناغمة فى طرق متعددة وخافتة مع كونتور خطوط ومساحة الأرض المحلية ، وأعماق ودبانها أو المساحات المفتوحة على أبعادها ، ومع الإيقاعات البصرية لتوبوغرافية الأرض ، غير أن الكلام البشرى بالضرورة متناغم أيضًا لكل الصيحات المتنوعة وغير البشرية والصرخات التى تعيش وتحيا فى الأراضى المحلية . إن مثل ذلك التجانس والتناغم هو ببساطة ضرورى وأساسى لأية ثقافة مازالت معتمدة على مراعيها والأرض الطبيعية لقوتها ، تحولات صغيرة فى المناخ والطقس ، تغييرات فى نماذج الهجرة لحيوانات فرائسها ، تحول خافت فى تركيز حساسية القناص لمثل تلك التغييرات هو عنصر ضرورى لكل الثقافات الشفاهية وقوامها ، وإن هذه الحساسية لابد لها أن تنعكس لا فى المحتوى فقط ولكن فى الأشكال والنماذج نفسها للمسار البشرى .

إن الصيد والقنص لمجتمع شفاهى أصلى يتضمن قدرات وحساسيات مختلفة جداً عن تلك الخاصة بالقنص والصيد فى حضارة تكنولوجية ، دونما بنادق أو بارود فإنه على القنّاص الأصلى أن يقترب أكثر بكثير من فريسته المتوحشة إذا ما أراد أن يسلبها حياتها ، أقرب بمعنى لا جسدى فقط وإنما معنوى وعاطفى ، داخلاً إلى مسافة قريبة مع طرق الحيوان الآخر للإحساس والحياة ، إن القناص الأصلى بالمقابل يتوجب عليه أن يسلم نفسه للتعلم من تلك الحيوانات التى سوف يقتلها ، إنه عبر مراقبة وتفحص وملاحظة طويلة المدى ودقيقة مدعمة فى أوقات معينة بطقس التعرف والتقمص ، يطور القناص تدريجيًا معرفة غريزية لعادات فريسته ومخاوفها ومتعها وطعامها المفضل وأماكنها المفضلة ، ليس هناك ماهو أكثر ضرورية لهذه الممارسة من تعلم

إشارات التواصل ، والاختلاجات والحركات ، وصرخات الحيوانات المحلية ، المعرفة بالأصوات (والتى عبرها يستطيع قرد أن يشير وينبه بها مجموعته أنه عثر على مصدر جيد للطعام ، أو الصرخات التي بها يشير طائر معين إلى ألم وخطر محدد ، أو تلك التى يجذب بها أنثى إليه) تمكّن القناص من توقع الحركات الكبرى والصغرى للحيوانات المختلفة ، إن الألفة مع صرخات الحيوانات ونداءاتها تزود القناص أيضًا بنظام حواس ممتد ، و وعى بأحداث تحصل فى مجال أبعد من مجال رؤيته ، مخفية بأوراق أشجار الغابة أو غير واضحة فى ظلام الليل ، الأكثر من ذلك أن القناص البشرى المدرب غالبا مايستطيع أن يجلب مثل تلك الأصوات ويقلدها هو نفسه ، وإن هذا هو مايمكنه من الدخول بشكل مباشر إلى مجتمع الحيوانات الأخرى .

إن أحد أكثر المعلومات كشفًا فى القرن العشرين عن مجتمع شفاهى أصلى متماسك نسبيًا تلك المسجلة عبر ف. بروس. لامب من الذكريات الشفاهية لطبيب من بيرو يدعى مانويل كوردوڤا – ريوس ، وكان قد تم خطفه فى عام ١٩٠٧ ، عندما كان فى الخامسة عشرة من العمر والقبض عليه لدى قبيلة صغيرة من الهنود الأماهوشا الذين كانوا يعيشون فى أعماق غابة أمازونية ممطرة (مابين مياه جوروا ، بوروس ، مادر دو دويه ، وأنويا بأنهارها) ربما بقايا قبيلة أكبر تقلصت بسبب دخول صناعة المطاط إلى الغابات ، لقد تم تدريبه بدقة عبر رئيس تلك القبيلة الصغيرة كى يصبح وريثه ، وكان لمدة ستة أعوام يتم تعليمه بدقة طرق القنص ، والقوى الشافية والسحرية فى الغابة الممطرة وخصائص نباتاتها ، وطرق التحضير التقليدية واستخدام خلاصات من عروق ayahuasca لجلبها عند الضرورة ، وحالات التجلى الروحى والبصرى للتوحد مع النظام البيئى المحيط للأدغال .

ومن الغريب أن لغة القبيلة والتى بقيت بدون معنى فى معظمها بالنسبة لكوردوڤا ريوس لمدة ستة أشهر أو أكثر أصبحت مفهومة لأذنيه فقط عندما صارت حواسه متناغمة ومتجانسة مع خفايا بيئة الغابة الممطرة التى كانت تلك الثقافة متجذرة فيها ، لقد أصبح مع الوقت هو نفسه رئيسًا للقبيلة ، ومع ذلك فإنه قد فر من الغابة المطيرة فى العام التالى بعد محاولات عديدة استهدفت حياته من قبل عصابة مجاورة .

إن وصف كوردوڤا ريوس لطقوس القنص المتعددة التى كان قد شارك فيها تقدم شاهدًا واضحًا للمدى الذى كانت فيه حواس هؤلاء البشر متزاوجة مباشرة مع الغابة

المحيطة : «كانوا يستجيبون لأقل إشارة صوتية ورائحة ، بشكل حدسى يربطون بينها لكل الأحوال الأخرى فى البيئة ثم يفسرونها ليصلوا إلى أعظم إمكانية لاقتناص الفريسة . الكثير من القناصين المميزين بدا وكأنهم يعرفون عبر حواس إضافية خاصة أين بالضبط يجدون الفريسة المبتغاة ، أو أنهم طوروا بعض الطرق الخاصة لجذب الفريسة إليهم ، بمعرفة كيف يكون تقليد واستخدام إشارات الحيوانات التى يصنعونها للتواصل بين أنواعها فى مختلف الأوضاع ساعد على تحديد مكان الفريسة وجذبها إلى مجال بصرى للقناص الماهر» .

فى مسار المعلومات التى طرحها كوردوڤا ريوس نقرأ توصيفات دقيقة لقناصين وصيادين فى أعالى أشجار الفواكه مقلدين أصوات ونداءات الطيور التى تشير إلى وجود فائض مصدر طعام ما ، جاذبين بذلك فرائسهم من الطيور ، نقرأ وصفًا لأحد القناصين والذى عند سماعه لعصابة من القرود تتحرك خلال الغابة الكثيفة فوق رأسه قام بإطلاق صرخة مشابهة لتلك التى يقوم بها قرد - طفل قد وقع من فوق الأشجار إلى الأرض ، إن تلك الصرخة أوقفت حركة القرود وجلبتهم إلى تحت فى مجال بصرى يوازى سهم القناص ، أطلق القناص أسهمه وأصاب اثنين ليطعم عائلته بهما . فيما بعد ، يقوم أصدقاء ورفاق كوردوڤا ريوس الأصليون بتعليمه - عبر التقليد - الإشارات الأساسية الصوتية لفصائل الخنزير البرى الذى يقنصونه .

عبر قصص وحكايات الأسلاف حول القنص الحالى يستمر القناصون فى تبادل المعرفة فيما بينهم فيما يتعلق بالمعانى المحددة لنداءات معينة للمخلوقات المختلفة ، معرفة تم الحفاظ عليها عبر اللقاءات والتجارب المتجددة مع تلك الحيوانات فى البرية ، فى أمثلة كثيرة من معرفة صرخات التحذير المحددة للطيور والحيوانات الأخرى الحذرة من القناصين البشر إلى تلك الخاصة بوجود حيوانات مفترسة خطيرة مثل الفهد الذى على البشر أنفسهم أن يتجنبوه .

إن مثلاً تقليديًا لمثل ذلك التداخل اللغوى للكائنات وارد فى معلومات أدلى بها رجل يُدعى راسى لأفراد آخرين من حملة قنص ، ضمت كوردوڤا ريوس ضمنها فيما كان القناصون المختلفون يرقدون فى أماكنهم فى الليل ، ويحدثون بعضهم بالتفصيل عن جهودهم الفردية خلال النهار :

« لقد كان الوقت قد أزف للعودة ولم أكن قد حصلت على فريسة ، وفى اللحظة التى التفتُّ فيها لأعود أدراجى نحو المخيم أطلق « تينامو » [وهو نوع من طيور الدغل] نداءً حزينًا فى مكان قريب منى ، وقد رد عليه طيرٌ آخر . أتعرف لماذا تكون نداءاتهم المسائية حزينة لهذه الدرجة ؟ إنهم لايحبون أن يناموا وحيدين ، وفى وقت الغروب كل منهم يتجول وحيداً بلا هدف ينادى وينادى حتى تأتيه إجابة من مكانٍ ما ، ثم يقترب الاثنان من بعضهما بعضًا مستدلين بنداءاتهم ، وهكذا يجدون لأنفسهم شريكًا فى النوم . لقد أجبت على النداء ووجدت نفسى بين الطائرين ، فتراجعت وراء جذع شجرة كبيرة حيث يمكن رؤية الأرض من مسافة جيدة أمامى ، وبدأت فى نداء الطيور لتأتى صوبى . أنت تعرف أنه من الخطر أن تنادى «التينامو» بدون حماية شجرة كبيرة ، إن الفهد أحيانا هو الذى يأتى ليجيب النداء !! والتينامو كذلك طيره المفضل .

أحد الطيرين كان قريبًا جداً وبسرعة أطلقت سهمى فى جسمه ؛ رفرف بجناحيه ورفس وأخذ يدور على نفسه ، غير أنه سريعًا ماكان بحوزتى عند جذع الشجرة ، لقد كسرت ساقه ووضعت خطين طويلين من دمائه على جفونى تحت كل عين ؛ لأجلب لنفسى الحظ الطيب» .

إن كل حملة قنص جماعية يسبقها طقس من التحضيرات الدقيقة ، خلالها يتناول القناصون طعامًا محدداً ، ماحين روائحهم الجسدية عبر إغراق أنفسهم فى حمامات مغاطس عشبية ومجففين أنفسهم بدخان أوراق الشجر المحترقة ، إن الحملات نفسها تكون مصحوبة بأناشيد وأدعية لأرواح معينة فى الغابة . إن الممارسات المختلفة للقبيلة – حسب كوردوڤا ريوس – تحمل فى داخلها معرفة واضحة للحدود الأبعد من أى نوع من الحيوانات لا يجب أن يقتنص ، إن الإسراف فى القنص لنوع معين من الطيور أو الحيوانات من المعروف أنه يجلب النحس على القناص أو حتى على القرية بأكملها . كوردوڤا ريوس – على سبيل المثال – كان قد تعلم أنه إذا ماقتل قائد قطيع من الخنازير البرية (مما يجعل الخنازير فى حالة فوضى ومن السهل جداً اقتناصها حتى يحل قائد جديد محل القديم) فإنه يتوجب عليه أن لايقتل قائد القطيع نفسه مرة أخرى أبداً .

فى أثناء ذلك فإن «أكسومو» – رئيس القبيلة – كان قد رأى وأشرف على مشاغل قنص المجموعة ككل ، كل من الرجال يتم تكليفه عبره بالقنص فى أرضية محددة ، والجميع يأتى بتقاريره يوميًا ليرفعها إلى «أكسومو» فيما يتعلق بتحولات الأمكنة للمجموعات المختلفة من القرود والخنازير البرية ، وعن الفهود وكائنات الغابة الأخرى ، وعبر هذه الطريقة من متابعة الأحداث المستجدة فى الغابة (عبر مسافة ارتحال لعدة أيام وفى كل الاتجاهات من القرية) يستطيع الرئيس عبر إرشاداته وتعليماته أن يقود أنشطة القنص لقبيلته الصغيرة ، معدلاً باستمرار تلك الأنشطة ومستجيبًا للحركات الحية للغابة نفسها .

إن رواية كوردوڤا ريوس شهادة واضحة للمدى الذى – فى الغابة الأمازونية المطرة – تكون فيه عوالم الحياة للبشر وغير البشر متداخلة ومعلمة ومرشدة لبعضها بعضًا ، إن أشكالاً مشابهة لمثل هذه التفاعلات يمكن العثور عليها فى كل مجتمع قنص وثقافة أصلية ؛ ذلك أن القنص الجاد مرة أخرى يقتضى من رجال القبائل أن يدخلوا فى علاقة حسية عميقة مع الحيوانات الأخرى ، وهذا التواصل ، كما يجعله كوردوڤا ريوس واضحًا لابد أن يمتد إلى البعد الصوتى ، حيث صرخات الحيوانات ونداءات التواصل يتم بحثها وتقليدها والإجابة عليها عبر البشر القناصين ، وتصبح كما قد كان جزءًا من مفردات القبيلة .

إن أهل القبائل يرتحلون عبر الغابة لمسافة ما من بعضهم بعضًا مثلاً ، وغالبا مايستخدمون تقليدا لصرخات الحيوانات والطيور ونداءاتها «للتواصل فيما بين أنفسهم» ، كطرق لنداء بعضهم بعضًا دون أن يجذبوا انتباه حيوانات معينة ، أو بشر من المنافسين لهم إليهم قد يكونون على مسافة قريبة منهم ، سوف يكون مذهلاً لو أن تلك النداءات المستخدمة باستمرار (الصرخات والتصفير) لم يكن لها تأثير على الخطاب والكلام اليومى للقبيلة ككل ، على العكس فى غياب أى نظام للكتابة الرسمية يمكن لها أن تثبت اللغة المحلية وتعطل التحولات المستجدة الصوتية فى الأرض الحية ، فإن المسار الكلامى الشفاهى لأولئك البشر يبقى مستجيبًا بشكل مميز لتعددية الأصوات والإيقاعات للمحيط غير البشرى ، ومتناغمًا خصوصًا مع التحركات الصوتية والصرخات للحيوانات المحلية .

لقد تعلمنا من سوسير أن اللغة البشرية قد تشكلت لا من مجرد مجموعة من المصطلحات كل منها يمتلك معنى محدداً ، ولكن كشبكة متداخلة معقدة ، حيث العُقَد أو المصطلحات تمتلك مكانها المحدد أو معناها فقط عبر قيمة علاقاتها المباشرة أو غير المباشرة مع كل المصطلحات الأخرى داخل اللغة ، إذا كان هذا هو الحال بالفعل فإذن حتى مجرد مصطلحات قليلة أو جمل مستعارة مباشرة من الكلام الصوتى للحيوانات الأخرى سوف يخدم للتأثير المبطن كل مستويات اللغة مجذراً اللغة كما هو فى نظام بيئى محدد ، أرضية معينة - مرة أخرى ليس هناك لغة شفاهية أصلية يمكن أن تفهم بشكل أصيل بمعزل عن الأرض والعالم الأكثر مما هو بشرى والمحيط بها ، والذى اللغة نفسها فيه هى نوع من البلاغة الداخلية .

إن سوسير نفسه - على كلٍ - ينكر إمكانية حميمية من هذا النوع مابين اللغة والأرض ، إن إصراره العنيد على عشوائية العلاقة مابين الأصوات المنطوقة وذلك الذى تمثله قد قاده إلى تجاهل أثر التقليد الصوتى والرمزية الصوتية داخل حياة أية لغة ، بالرغم من ذلك فإن أبحاثا أكثر حداثة حول الأهمية الاختلاجية والمستجيبة فى صداها للكلمات المنطوقة قد عرضت أن نوعًا من تقليد الأصوات يعمل باستمرار داخل اللغة : إن معانٍ معينة تنجذب بالضرورة نحو أصوات معينة ، والعكس صحيح (إن كل شاعر يعى بهذا العمق الأساسى فى اللغة ، حيث أحاسيس معينة تستثار عبر الأصوات نفسها وجرس الكلمات ، وحيث الشكل والإيقاع والفحوى لجمل معينة يحمل بداخله الشخصية المعبرة عن ظاهرة معينة) .

إن التداخل للكلام البشرى مع نداءات وصرخات الأرض المحلية واضح عندما نلتفت بعيدا عن المدار الاستوائى نحو ثقافة شفاهية للشمال البعيد ، مثل تلك الخاصة بهنود الكويكون فى الشمال الغربى لآلاسكا ، إن الكويكون يستوطنون مساحة ممتدة من الريف البرى يمتد حتى شمال الدائرة الأركتيكية مع مخيمات وقرى تقع على ضفاف نهرى اليكون والكويكو ، إن لغتهم تنتمى إلى عائلة اللغات «الأثاباسكان» التى يتحدث بها السكان الأصليون المنتشرون عبر الشمال الغربى لأمريكا الشمالية وفى جيوب تصل حتى أريزونا ، إن أسلاف أهل الكويكون ربما يكونون قد استوطنوا آلاسكا منذ زمن قد يصل إلى عشرة آلاف عامٍ مضت ، بالرغم من أن الأبحاث الأركيولوجية لم تستطع تحديد التاريخ الدقيق لانتشار «الأثاباسكان» فى أمريكا

الشمالية . إن الكويكون فى البداية التقوا بالأوروبيين فى منتصف القرن التاسع عشر، وعبر القرن العشرين وببطء قاموا بهجر نموذجهم التقليدى شبه البدوى والمبعثر ، متحولين إلى مستوطنات قليلة مبنية بقرب أماكن تجارية أو مراكز تبشيرية كاثوليكية ، ومع ذلك فإنهم مازالوا يرتحلون بشكل واسع ، مستخدمين قراهم بشكل أكثر كمراكز انطلاق حيث يرتحلون منها فى رحلات قنص وصيد للأسماك وحيوانات الأرض (من أجل الملابس كما هو للغذاء أيضًا) وإلى ما هناك من مهام أخرى فى البرية .

وحسب عالم الأنثروبولوجى والأحياء الإثنى ريتشارد نيلسون والذى قد عاش وعمل عن قرب مع الكويكون فإن اللغة بالنسبة إليهم مجال للحيوانات الأخرى كما هى بالنسبة للبشر ، إن الكويكون يفترضون «أن الحيوانات غير البشرية تتخاطب وتتواصل مع بعضها بعضًا ، وأنهم يفهمون السلوك البشرى واللغة ، وأنهم باستمرار واعين بما يقوله البشر ويفعلونه ... لكن الحيوانات لا تستخدم اللغة البشرية فيما بينها ، إنها تتواصل بأصوات تعتبر شكلها الخاص من اللغة» .

فى معتقد الكويكون أن الحيوانات الأخرى والنباتات كانت فى يوم ما فى الماضى تشترك فى لغة واحدة مع البشر ، إن هذا قد كان فى «الزمن البعيد» ، زمن كان خلاله كل الكائنات الحية «تتشارك فى مجتمع واحد ومروا خلال تخاطر يشبه الحلم من الحيوانات أو النباتات إلى البشر ، وأحيانا بالعكس» . سوف نؤجل حتى الفصل القادم السؤال حول إذا ماكانت قصص حكيت عن «الزمن البعيد» عبر أشخاص من الكويكون تعكس زمنا أصليًا «منذ زمن مضى» فى الماضى - كما هى غالبًا ما تفسر حسب وجهة نظر التاريخ حول زمن كان قد استورد لأول مرة فى أراضى الكويكون عبر الحملات الكاثوليكية التبشيرية - أو أن «الزمن البعيد» يفهم بشكل أكثر وضوحًا كبعد متميز أكثر مما هو ماضٍ تاريخى ، فى أى حال وبالرغم من الاختلافات الواضحة بين لغات الحيوانات والبشر منذ أو خارج «الزمن البعيد» فإن المسارات العديدة للبشر والحيوانات مازالت متداخلة ومتوالجة فى الخبرات اليومية المعاشة لأشخاص من الكويكون .

«الكاريبو» - على سبيل المثال - يقال بأنه «يغنى من خلال» البشر عندما يكونون فى أحيائهم ، ضامنين لأناس القبائل أغانٍ يمكن أن يتذكرها أشخاص معينون عند استيقاظهم من النوم ، عندما ينشد أولئك الأشخاص تلك الأغانى فيما بعد فإن

نجاحهم فى العثور على صيد «الكاريبو» يكون مضموناً . شيوخ القبائل أثناء ذلك يصغون عن قرب للصرخات والنواح لطائر «الون» كمصدر إلهام فى تأليف أغانيهم وأناشيدهم ، عندما يرقد أحد عجائز الكويكون فى انتظار الموت . راقب نيلسون إحدى العجائز التى كانت فى زيارة من قرية أخرى وهى تقترب من الشاطئ القريب للبحيرة وتبدأ فى غناء «أغانى الربيع» للكويكون وتغنيها لطائرين من «الون» كانا يتجولان هناك .

«بعد قليل سبح الطائران نحوها ثم توقفا فى الماء على بعد خمسين ياردة منها ، وهناك أجاباها ، مالئين الهواء بأصواتهما المدهشة والمرعبة ، عندما تحدثت معها فيما بعد قالت إن طيور «الون» غالباً ماتستجيب لأغانى الربيع بتلك الطريقة ، ولأيام عديدة بعد ذلك تحدث الناس عن روعة تلك الأغانى فى ذلك الصباح» .

إن صرخات طائر «الون» المعتادة ذات فحوى لغوية لدى الكويكون ، وحسب أحد الرجال «أحيانا الناس قد يصطادون الون ، لكن عن نفسى لا أحب أن أقتله ، إننى أحب أن أستمع إليه بقدر ما أستطيع وأن ألتقط الكلمات التى يعرفها» . إن خطاب طائر «الون» الأصفر النادر مايزال أقوى فى تأثيره من طائر «الون» العادى بالنسبة للكويكون : «... إنه يقول الكلمات نفسها ، غير أن صوته مختلف نوعاً ما» .

إن الافتراض بأن الطبيعة كلها واعية ، وأن الأصوات التى تصدرها الحيوانات على الأقل لها وزن المعانى نفسه لكلمات البشر قد قاد الكويكون إلى الإصغاء باهتمام للاختلافات الصغيرة والتنويعات فى نداءات الطيور المحلية ، إن أسماء الكويكون للطيور لها صفة محاكية وشبيهة بها ، وبذلك فإنهم عندما ينطقون أسماءها فإنهم أيضاً يطلقون صدى صرخاتها ونداءاتها ، فالطائر الأركتيكى (Kidagaas – كيداجاس) ، وطائر الشمال (Tiyee – تيى) ، والطائر الأسود – الأصهب (it'uhutltséegga – إتوهوتلتزإيجا) ، وطائر القطب الأسود (K'ootánh – كوت انه) ، وطائر الجنكو الملحى اللون (K'itotltáhga – كيت اوتلت اهجا) كلها لها أسماء كهذه ، غير أن المخطوطة المكتوبة لايمكن لها أن تنقل النطق المدهش لتلك الأسماء ، والتى عندما يتكلمها الكويكون يكون لها مميزات شبيهة جداً بمنطق ونطق الطير ، إن تداخل – التوالج للنطق البشرى مع غير البشرى يتضح بشكل خاص فى حالة أغانى الطيور الكثيرة والتى تبدو وكأنها تحمل فيها جملا ومقاطع كاملة من لغة الكويكون .

«إن الكثير من نداءات الطيور يتم تفسيرها ككلمات الكويكون ... والمدهش حول تلك الكلمات كم هى مرآة مثالية لنموذج النداءات تلك ، وهكذا فإن شخصا ما (من خارج القبيلة) يعرف أغانى الطيور يمكن له بسهولة أن يميز أنواعها عندما تنطق الكلمات فى لغة الكويكون ، إن الذى يظهر فى تلك الكلمات لا الإيقاع وحده ولكن بعض الجرس الموسيقى أيضًا ، «والشعور» الذى يأتى معه» .

عندما نبحث فى مثل تلك المراسلات نصل إلى ملاحظة أن الأصوات والإيقاعات للغة الكويكون قد تغذت بعمق على تلك الأصوات غير البشرية .

وهكذا فإن الجمل الموسيقية التى تشبه الناى لطائر «الدج» التى تصدح فى الأماكن المعزولة والكثيفة من الغابات تتحدث بكلمات الكويكون (Sook'eeyis deeyo – سوكييز دييو – إنه مساء جميل) إن طيور الدج تتكلم أحيانا وأيضًا بجملة (Nahutl - eeyh – ناهوتل إييه – وتعنى حرفيا إن إشارة روح قد استقبلت) . لقد نطق طائر الدج تلك الكلمات لأول مرة فى «الزمن البعيد» ، عندما شعر بحضور شبح ما فى القرب ، وحتى اليوم مازال ذلك النداء يسمع كنوع من التحذير .

وفى الواقع فإن الكثير من الجمل التى تتحدث بها الطيور تفهم بالرجوع إلى أحداث قد حصلت فى «الزمن البعيد» ، أحداث يعرف عنها أهل الكويكون المعاصرون عبر قصص «الزمن البعيد» الكثيرة التى يحكونها ويعيدونها من جيل لآخر :

«فى يوم من الأيام ، فى الزمن البعيد كافح رجل معدم وجائع فى ثلوج الربيع العميقة ، محاولا أن يصل إلى مخيم يدعى «Ts'eetee. tlot – تزييتى تلوت» ، كان يحمل معه عصابة رأس مزينة بمحار ذى لون عاجى كانٍ يصل إلى شمال البلاد عبر التجارة مع الأماكن البعيدة على الساحل ، لقد كان ربيعًا صعبًا ، صار الرجل أشد وهنًا وتعبًا ، وازداد وهنه حتى سقط فى الثلوج ومات . فى تلك اللحظة تم تحويله إلى عصفور سنونو بتاجٍ أبيض ، ثم طار نحو محطته ، عندما وصل إلى المخيم أنشد أغنية :

Dzo lo'o sik'its éetee tlot.

وهى تعنى : هنا هو تزييتى تلوت . لكن هذا قد أصبح متأخرا جدا . إن أى شخص يصغى اليوم لطائر السنونو ذى التاج الأبيض يمكن له أن يسمع هذه الكلمات الحزينة ، وأى شخص ينظر عن قرب ليرى الخطوط البيضاء على رأسه كتذكار للقواقع تلك التى كان يحملها الرجل فى ذلك اليوم – سوف يجدها» .

طائر آخر شائعة رؤيته فى الغابة الشمالية هو طائر الجناح الشمعى - البوهيمى وهو يسرع فى أسرابٍ صغيرة من شجرة إلى أخرى ، ناطقًا بزقزقات عالية وحادة . الكويكون يدعونه diltsooga أى ذلك الذى يصدر صريرًا .

«حسب قصة من الزمن البعيد ، فإن طائر الجناح الشمعى كان له زوجة غيور جدًا كانت قد شدته من شعره ذات يوم ، مانحة إياه ذلك العرف الذى يزين تاجه اليوم ومجبرة إياه على الصراخ حتى صار صوته خاويا من كل شىء سوى الصرير» .

فى أثناء ذلك ، طائر السيقان الصفراء الأقل ، وهو طائر بحرى ويطير عاليا بشكل مستقيم ، ثم ينطق بنداءات ثاقبة فيما هو يهبط من تحليقه :

sigeets sigeets sigeets - «سيتز ، سيتز ، سيتز» - والتى تعنى «أنفاسى ، أنفاسى ، أنفاسى» ، فى لغة الكويكون ، أحيانا يقوم شخص ما بالرد عليه «سيتز !» آملا أن يتلقى من الطائر بعض المؤشرات أو النبوءات حول كم قد تبقى من عمره (دورة أنفاسه) .

الكثير من الطيور والعصافير تقدم مثل تلك النبوءات الصوتية إلى الكويكون ، ذات مرة كانت معلمة نيلسون الرئيسية من الكويكون ومعها جدها قد سمعا الطائر الرمادى يتحدث بصوت بشرى غير معهود :

«إن المطر كان يهطل ، والطائر حط على غصن فى الأعلى ، وكان يبدو مرهقا ومتعبا . فجأة تحدث بكلمات واضحة : «أخى ... يا أخى ، ما الذى سوف يحدث ؟» الرجل العجوز «الشامان» أصيب بالذهول من ذلك الصوت والقلق من تلك الرسالة . بعد ذلك هطلت الأمطار بغزارة لمدة تسعة أيام ، أغرقت الدببة بفيضاناتها وحطمت جحورها وخلقت فوضى عظيمة . وعند ذلك فهم الناس ماعناه الطير بكلامه» .

غير أنه من بين كل الطيور فإن الرائى والمنجم والمتنبى بينها هو البومة المعظمة ، والتى يدعوها الكويكون (nigoodzagha - نيجود زاغا - أى الآذان الصغيرة) أو (nodneeya - نودنييا - المخبرة بالأشياء) ، إن البومة المشرفة تعيش وتتجول فى بلاد الشمال على مدار السنة ، ومن النادر أن ترى ولكن غالبا ماتسمع ، وأحيانا يتم قنصها للطعام ، وحسب الكويكون عندما تتحدث النودنييا إلى أشخاص من البشر فإنها تنطق ماهو من المؤكد والمحقق فقط :

«إنها عندما تهم بحديث النبوءات فإن البومة تبدأ بعمل صوت ذى صرير فى قرعه، ثم تطلق النغمات والأشكال التى يمكن تفسيرها ، إن أكثر الكلمات رعباً التى يمكن أن تقولها هى «سريعا ما سوف تبكى» (Adak'kut daatohtsah – آداكوت دا توهتسه) وهذا يعنى أن شخصًا قريبًا منك سوف يموت ، وهى أحيانا تقوم بختم النبوءة بدقة بالاسم ، وبعد ذلك بقليل تتحقق تلك النبوءة» .

ذات مرة منذ سنين عديدة سمع الناس بومة محذرة بوضوح فى تناغم مع كلمات الكويكون «إن الدببة السوداء سوف تبكى» . وللفصلين القادمين ، فشل محصول التوت البرى وصعبت الحياة على كثير من الدببة .

إن نبوءات البوم ليست دائمًا نبوءات نحس ، أحيانا تبدو وكأنها تكرر بلغة الكويكون ، «إنك سوف تأكل معدة شىء ما» منبئة بالحظ الطيب فى مسعى قنص شخص ما ، وهى أيضًا تستطيع التنبؤ بالرياح العاتية ، وحسب أحد شيوخ الكويكون : «عندما تصنع البومة صوتًا كالطحن ، مثل هذا ، ممممم .. مممم ، فإنه يعنى أن طقسًا عاصفًا قادم فى الطريق ، إن نداءات البومة هى التقرير الجوى الوحيد الذى نستخدمه لرصد الطقس» .

أثناء ذلك ، فإن طيور الكروان ، عندما تغنى جملها الموسيقية

«Dodo silinh k'oolkkoy iséega, tilzoot tilzoot silnee silnee»

«دودو سيلينه كولك كوى إتزيجا ، تيلزوت تيلزوت سيلنى سيلنى» .

«تحت هناك ، إن نسيبى يخبرنى أن آكل أمعاء الكائن» . ومع ذلك فإن أناس القبائل والمنتبهون جداً إلى التحولات فى البيئة المحيطة قد لاحظوا أن أغنية الكروان نفسها تتحول ، علق أحدهم لنيلسون قائلا : «حتى الطيور تتغير . إن طيور الكروان لم يعودوا يقولون أغانيهم بشكل مباشر – إنهم يقولونها إلى منتصف الطريق ، كما يفعل طفل حين يتعلم» .

أحد الطيور الغريبة الأخرى فى منطقة الكويكون هو عصفور الثعلب ، والذى نداؤه العالى والمسموع غالبًا :

(sitsoo sidziy hulda ghudla ghudla gheeyits)

«سيتسو زيدزى هولدا غودلا غييتس» ، هو أغنية حزينة ومأساوية تفهم فقط عبر الرجوع إلى قصة من الزمن البعيد :

« فى الزمن البعيد كان هناك امرأة جميلة تعيش مع زوجها وجدتها. ذات مرة عندما كان زوجها بعيدا تظاهرت المرأة العجوز بالبحث فى شعر حفيدتها عن القمل غير أنها بدلا من ذلك غرزت مخراز عظم داخل أذنها وكسرتها ، قاتلة إياها . ثم أخذت جمجمتها ووضعتها فى رأسها هى، متخفية وراءها على أنها هى الزوجة . هى أيضًا وضعت إبرة من العظم فى سرتها وشدتها حتى تخفى ترهلها ، وجلد بطنها المتراكم . أخيراً ارتدت ملابس المرأة الشابة ، ومتظاهرة بأنها هى استطاعت أن تخدع الزوج وتجعله يفكر بأنها زوجته .

غير أنها عندما حملت لحم الصيد من جرابه لم تستطع أن تتحرك بسهولة ، وهكذا كان عليها أن تقدم العذر عن نفسها بالقول بأنها قد أصبحت متيبسة من شدة العمل فى ذلك اليوم . بعد أن ذهبا إلى السرير - على كل - عرف الزوج من تكون . بقى صامتًا وهادئًا حتى الصباح التالى ، ثم قام بقتل المرأة العجوز وسحب جثتها إلى الغابة حيث وجد أيضًا زوجته هناك ترقد ميتة .

ثم تحول جسد المرأة الشابة إلى عصفور صغير طار فى الهواء ، مغنيًا :

"Sidziy hulda ghudla gheeyits"

زيدزى هولدا غودلا غييتس - أى «إن جدتى قد غرزت مخراز عظمٍ فى أذنى» .

ومازال عصفور الثعلب يغنى بهذه الطريقة حتى اليوم ...» .

إن روى حكايات وقصص الزمن البعيد أمر أساسى ومؤثر على طريقة حياة الكويكون ، بعض دوائر تلك القصص طويل جداً إلى درجة أن حكيها يستهلك أمسيات كثيرة وحتى أسابيع عديدة من الأمسيات ، عبر وصف نشأة الكون والعالم وتطوره إلى شكله الواضح ومن ثم عبر التعبير الخلاق عن العلاقات الرسمية التى توجد مابين الكينونات المتعددة فى الكون المحيط (بما فيها البشر وكائنات الأرض الأخرى ، الطيور والأسماك والأشجار والنباتات المختلفة وأشكال الأرض الغريبة وأجساد المياه وأشكال الطقس - كل ذلك فى ذلك الزمن الخارج من الزمن اشترك فى مجتمع مشترك

وتحدث بلسان مشترك) إن قصص الزمان البعيد توضح السلوك الصحيح الذى يجب أن يحافظ عليه أهل الكويكون عندما يتعاملون مع الحضور المتعدد والكينونات التى تحيط بهم ، تلك القرابة التى يجب أن يُحتفى ويُحتفل بها ، وتلك المحظورات والمحرمات التى يجب أن تحترم وتبجل إذا ما رغب المجتمع البشرى والأرض فى مساندة بعضهما بعضًا والمحافظة على وجودهما وبقائهما .

قصص الزمان البعيد يتم حكيها فقط فى أواخر الخريف والنصف الأول من شتاء الشمال الطويل ، وبالفعل فإن دارسى علم البشر الأصليين وجدوا أن هذا يمثل دورا بحجم عرض القارة : عبر أمريكا الشمالية ، على الأقل قبل عام ١٩٠٠ . المجتمعات الأصلية استمعت إلى أكثر قصصها قداسة فقط فى الليل وفقط فى فصل الشتاء ؛ ذلك أن القصص المحكية فى حد نفسها تحمل سحراً ، وقوة للتأثير لا على الأشخاص وحدهم بل على الأرض الحية فى حد ذاتها ، فى ظلام ليل الشتاء فإن قصة حكيت بشكل جيد ربما تسارع فى جلب الربيع (وهكذا ، فإن الراوى من الكويكون ربما لخص قصة بجملة مثل : «لقد ظننت أن الشتاء قد بدأ للتو ، غير أننى الآن قد مضغت جزءا منه») . إن ظلام الشتاء عندما تكون بعض الحيوانات فى حالة نومها الطويل ، وعندما تكون حيوانات أخرى قد رحلت إلى الجنوب والأرض نفسها غارقة فى النوم ، فإن ذلك أيضًا يكون أكثر الأوقات أمانا وطمأنينة لحكى تلك القصص ، خلال الصيف عندما تكون معظم الحيوانات فى الخارج حيوية وحول المكان فإن الحيوانات وبعض القوى الطبيعية الأخرى ربما تغضب وتهيج عند سماع أنفسها واستغلال الزمان البعيد وماحدث لها بشكل مباشر .

ذلك أنه بما أن الحيوانات الأخرى نفسها قادرة على التحدث فإنها أيضًا قادرة على الاستماع وفهم حديثنا الذى نقوله ، علينا أن نكون حذرين فيما نقوله حول الحيوانات وخصوصًا عندما تكون على مقربة ، إن أهل الكويكون يبذلون جهدهم واهتمامهم لكى يتجنبوا الحديث عن حيوانات معينة بشكل مباشر ، مستخدمين تعقيدا فى الكلام مطولا حتى لا يهينوا تلك الحيوانات ، إنه لهذا السبب فى الليل لايحدث أبدًا الحديث عن السناجب الحمراء بأسمائها المعروفة ، ولكن يتم ذكرها عبر كنية موحية (dikink k'alyee – ديكنيك كايلى – أى تلك التى بجانب الشجرة) . النساء لكونهن يملكن طاقة روحية كبيرة عليهن أن يتجنبن ذكر القندس (كلب الماء) باسمه الحقيقى ؛

كى لايخيفوه ، وهكذا فإنهم يذكرون الحيوان فقط بشكل غير مباشر ، (biziya – بيزيه – أى الأسود اللامع) أما الوشق وهو حيوان آخر شديد التمكن لدى الكويكون فإنه يدعى عبر النساء بـ «nodooya – نودوييا » وهى كنية غامضة تعنى «شىء ما يدور حولنا» . إن التحدث بشكل غير مبالٍ أو بعدم احترام لتلك المحرمات والمخاوف لأولئك الحيوانات الكثر فى الغابة سوف يجلب النحس للمرء ولعائلته .

إن مثل تلك الطرق الاستعارية للحديث مهمة بشكل خاص خلال موسم القنص ، عندما يكون أقل مظهر من مظاهر عدم الاحترام للحيوان الذى يراد قنصه قد يؤدى إلى فشل محتم ، لا فى الحاضر فقط ولكن فى القنص المستقبلى أيضًا . «إن قنص الدببة السوداء فى كهوفها يتطلب الكثير من طقوس وحركات الاحترام ، بدءًا بالأسلوب المهذب فى الحديث» . إن التحضير لمثل تلك اللقاءات يقتضى أن لايتحدث القناص عن نواياه مباشرة ، وفيما بعد حتى لو نجح فى مسعاه فإنه يجب عليه أن لايخبر بما قد فعله ، فيما بعد ربما فى المساء يمكن له أن يخبر شخصًا ما بشكل موحٍ «لقد وجدت شيئا ما فى حفرة» ، إن الحديث بشكل أكثر مباشرة من ذلك سوف يهين ويغضب الكائن القوى الذى قد قتله .

وفيما كان العالم الأنثروبولوجى ريتشارد نيلسون يقضى زمنًا أطول مع الكويكون فإن تأثير مثل ذلك الأدب فى الحديث بدأ يؤثر حتى على تجربته فى عزلته ، فى البيت على ساحل آلاسكا ، محضرًا لرحلته للعودة إلى ديار الكويكون قرر أن يصطاد سمك «هاليبت» ليأخذه لأصدقائه هناك ، ودون أن يضع فى الاعتبار بأنه قد يفشل فى ذلك ذكر لأحد أصدقائه بأنه سوف يأخذ سمكة ضخمة بأكملها إلى قريتهم حتى يروا كيف تبدو ولكن :

«فيما نُطقت الكلمات ، كنت أعلم بأن أهل الكويكون لن يتحدثوا مطلقا وكأن صيد سمكة هو محض تحصيل حاصل ، فى ذلك اليوم قضيت ساعات فى أماكن كنت أفلح فيها طوال الصيف ، ولم أستطع أن أصطاد أى شىء سوى أسماك صغيرة جداً من أنواع أخرى ، كانت من الصغر بحيث لم يطاوعنى قلبى أن أحتفظ بها ، عندما وصلت إلى قرية الكويكون وأخبرت سارة ستيفنز هزت رأسها مثل أم بلطف وهى توبخ طفلها : إن أكثر شىء كان يمكنك أن تقوله هو أنك سوف تحاول أن تصطاد سمكة ، أو الأفضل من ذلك ، أن لاتقول أى شىء بالمرة ، وإلا فإنه سوف يبدو وكأنك تتفاخر ،

والحيوان سوف يبقى دائمًا بعيدًا عن أولئك الناس الذين يتباهون هكذا فى حديثهم» .

بالطبع ، إنه ليس فقط عند التحدث عن الحيوانات الأخرى على الشخص أن يكون حريصًا ولكن أيضًا عند الحديث عن أشجار الغابة والأنهار، وحتى الرياح والطقس . إن نيلسون وقد قرصه برد الشتاء يذكر نفسه بنصيحة شيوخ الكويكون «حول قبول الطقس كما يأتى وتجنب التعقيبات عليه والتى قد تثيره بسهولة لأمزجة مرعبة وغاضبة» .

كل الأشياء تستطيع أن تسمع وأن تفهم حديثنا ؛ ذلك أن كل الأشياء قادرة على التحدث ، وحتى صوت القعيع الذى يصنعه الثلج الجديد على البحيرات هو نوع من نطق الأرض ، ومحمل بالمعانى :

«فى وقت الخريف سوف تسمع البحيرات تصدر قعيعًا عاليًا بعد أن تتجمد ، إن ذلك يعنى أنها تطالب بالثلوج لتغطيها ، حتى تحميها من البرودة...» .

إن مثل ذلك الإكرام والاحترام فى مواجهة عناصر الطبيعة - الحس الواضح بأن الأراضى الحية لاتتحدث إلينا فقط وإنما تصغى أيضًا إلينا - يحمل فى مضمونه أطروحات ميرلو بونتى حول التلقى الاستيعابى ، أن تصغى إلى الغابة هو أيضًا وأساسًا أن يشعر المرء بنفسه مُصغًى إليه عبر الغابة ، وأن تحدق فقط فى الغابة المحيطة هو أن تشعر بنفسك مكشوفا ومرئيًا ، أن تشعر بأن الغابة تحدق فيك وترقبك .

وبقدر ما يتواصل البشر لا فقط مع النطق المسموع ولكن مع الحركات المرئية والاختلاجات فإن الأرض أيضًا تتحدث إلى الكويكون عبر حركات وإشارات واختلاجات واضحة ، إن الطريقة التى يحلق بها الغراب فى الرياح متحركًا ومتمايلاً من الأعلى للأسفل قد تشير إلى نجاحٍ أو فشل فى القنص ، إن حركات الحيوانات الأخرى قد تشير إلى حضور خطر ما ، أو اقتراب عاصفة ، أو أن الربيع سوف يأتى مبكرًا هذا العام ، إن الافتراض المألوف للثقافة الأبجدية أن «قراءة الطالع» هى ضرب من الخرافة والتطيُّر وأنه سلوك غير عقلانى يمنعنا من الاعتراف بالأهمية الفعلية والعملية لرصد الناس الأصليين واهتمامهم المحترم لسلوك الطبيعة المحيطة بهم ، إن

هذه المراقبة والتفسيرات لاختلاجات وتحركات العالم ، وكأنما كل حركة تحمل معنى يتوافق مع وجهة نظر عالمية ، ببساطة لايتم ذكرها حول انعدام وجود اللامعنى ، ولاشيء من الأحداث بالنسبة إلى الكويكون مجرد مصادفة أو فرصة ، ولكن بالمقابل لأحداث أيضًا هو حتمى بالضرورة . بالأحرى مثل الغراب الذى منحه فى البدء شكله الحالى ، فإن العالم الحسى هو تلقائى ، ولعوب ، وغموض خطير نشارك فيه ، وحقل حى وبليغ للقوى يستجيب باستمرار لأفعال البشر وكلماتهم .

قَصُّ الأرض

لقد بدأنا فى تفحُّص بعض الشواهد لأطروحة ترى أن اللغة فى الثقافات الشفاهية الأصلية تتم خبرتها لا كملكية خاصة بالبشر وإنما كملكية لعالم الحياة الحسى ، لقد كنا نتقصى أنه فى بعض الطرق للمسار الإنسانى داخل المجتمعات الشفاهية الأصلية ثمة استجابة مباشرة للتعبير المحسوس لدى الكائنات الأخرى ، والعناصر للعالم الحى الذكى . لقد طرحت بعض الأمثلة الواضحة من ثقافة المدار الاستوائى متمثلة فى الأدغال الأمازونية ومن مجتمع شبه القارة الأركتيكية أو الغابات الشمالية ، دعونا الآن نحول انتباهنا بعيدا عن الغابات - سواء الاستوائية أو الأركتيكية - نحو التوازن البيئى الصحراوى فى الجنوب الغربى الأمريكى على وجه الخصوص ، ونحو أراضٍ يستوطنها الهنود الحمر الآباشى الغربيين فى أريزونا .

إن لغة الآباشى مثل الكويكون جزء من عائلة كبيرة «للأثاباسكان» ولغاتها ، غير أن الآباشيين كانوا قد انفصلوا عن الأثاباسكان الشماليين منذ حوالى ألف عامٍ مضت ، وتدريجيًا أسسوا لأنفسهم وطنًا فى الجنوب الغربى الأمريكى ، فى تحولنا عن ثقافة الكويكون نحو ثقافة الآباشى ، نحن نتحرك من مجتمع أصلى نتيجة لموقعه شبه الأركتيكى كان حتى وقت قريب فى معزل عن التأثير الكامل للحضارة الأوروبية - إلى مجتمع أصلى هو على الأقل منذ حصره وعزله فى مخيمات الهنود الحمر الآباشى فى عام ١٨٧٢ ، وهو محاط ومحصور بمحيط من سكان يتوسعون من حوله من الأوروبيين المستوطنين ، ومع ذلك فإن الآباشى بالرغم من الأجيال العديدة والمواجهات والتقنين والحصار والتغريب القسرى لهم كى يذوبوا فى الحضارة الأوروبية فإنهم قد حافظوا على الكثير من أساليب حياتهم المميزة ودرباتهم اللغوية ، كيث باسو هو عالم لغة أنثروبولوجية وقد عمل مع آباشى الغرب منذ عام ١٩٥٩ وحتى الوقت الراهن ، وهو يعيش فى سيبيك (من الجملة الآباشية deeschi'bicoh - دييس شى بيكوه أى الوادى ذو الجوانب الحمراء) وهى قرية يسكنها حوالى ألف ومئة شخص وكان يقطنها الآباشى منذ قرونٍ طويلة مضت .

عندما أصبح قادراً على التحدث بلغة الآباشى ومعتاداً على إيقاعات الحياة فى القرية فإن باسو بدأ يلاحظ المرات المدهشة التى يتم فيها ذكر أسماء المكان بشكل معتاد فى مسار حياة آباشى الغرب .

إن الآباشى يبدو بأنه يحوز متعة كبيرة ولذة من مجرد نطق الأسماء الأصلية للأماكن المتعددة داخل وادى سيبيكو ، فعلى سبيل المثال فيما كان يشد سوراً مع اثنين من رعاة البقر الآباشى لاحظ باسو أحدهم يتحدث بهمس إلى نفسه ، عندما أرهف السمع ، اكتشف باسو أن الرجل كان يتلو حلقات طويلة من أسماء المكان – «ولم يقطع ذلك إلا لفظه لبعض نقع التبغ من فمه» – وقد طال ذلك إلى حدود عشر دقائق ، فيما بعد عندما سأله باسو عن ذلك الذى كان يفعله أجاب الرجل أنه كثيراً ما «تحدث أسماء» لنفسه . «إننى أحب أن» ، أخبر عالم الأنثروبولوجيا «أن أمتطى بهذه الطريقة فى عقلى» ، آباشى آخر أخبر باسو بأن شعبه يحب أن ينطق بأسماء – المكان «لأن تلك الأسماء طيبة القول» .

إن اللذة الواضحة المستخلصة من ترديد وقول هذه الأسماء يبدو جليا أنه مرتبط بالدقة التى تمثل فيها أسماء – الأماكن الآباشى الأماكن الفعلية التى يطلقون عليها الأسماء ، باسو نفسه جاب ١٠٤ كيلومتر مربع داخل وحول سيبيكو وداخل هذه المنطقة سجل أسماء الآباشى لـ ٢٩٦ مكاناً ، وقد وجد أن كل ماعدا القليل من أسماء تلك الأماكن يتخذ شكل جملة مكتملة ، كل اسم يطرح مكانه من خلال أوصاف بصرية متوالية ولكن دقيقة ، هنا بعض مثل تلك الأسماء : «أشجار أخشاب القطن الكبيرة تقف منتشرة هنا وهناك» ، «إن الصخور الخشنة والصلبة ترقد فوق فى حشد ملتصق» ، «الماء يتدفق للأسفل على رأس سلسلة منتظمة من الصخور الملساء» ، عند نطق أو سماع مثل تلك الأسماء فإن الأشخاص الآباشيين يشعرون مباشرة بأنفسهم فى حضرة تلك الأماكن ، وهكذا عند تلاوة سلسلة من أسماء الأماكن فإن الآباشيين يعيشون أنفسهم «الارتحال فى عقولهم» . سوف يبدو أن أسماء الأماكن المنطوقة بدقة تخلق التصاقاً حسياً مباشراً مابين شخوص الآباشى وأماكن محددة ، ولعلنا نشك بأن المنفعة المستمدة من قول هذه الأسماء بصوت عالٍ تنبع لا من الأسماء فى حد ذاتها ولكن من القوة المغذية للأماكن ذاتها التى ينشد إليها الأشخاص الذين ينطقون بها ، أسماء الأماكن بمعنى آخر تبدو أنها تتخذ قوتها الخاصة وسحرها من الأماكن نفسها التى تمثلها .

إن أهمية الخبرة الخاصة بالمكان الجغرافى للآباشى الغربيين ، والتأثير الناتج عن أماكن محددة فى الأراضى المحيطة على لغتهم اليومية يتضح بشكل خاص فيما يتعلق بالأخلاق و«إتيكيت» مجتمع الآباشى المعاصر ، ذلك أنه بشكل مغاير تماما وغريب على الحضارة الأبجدية فإن الأرض نفسها هى الحارس اليقظ الدائم للسلوك الصحيح داخل ثقافة الآباشى وتقاليدها ، وحسب السيدة آنى بيتشيز (عجوز من الآباشى تبلغ السابعة والسبعين من العمر) :

«إن الأرض دائمًا تهذب الناس . إن الأرض تجعل الناس يعيشون بصورة صحيحة . إن الأرض ترعانا . إن الأرض ترعى الناس» .

إن التأثير الأخلاقى للأرض – هذه القوة للأرض لترعى سلوكًا معتنيا ومحترمًا فى المجتمع – تتوسطه منظومة كاملة من القصص التى يتم تداولها باستمرار فى القرية ، إن هذه الأقاصيص تتحدث عن أشخاص كانوا قد مروا بالمحن كنتيجة لانتهاكات قاموا بها تجاه عادات الآباشى للسلوك الصحيح ، وهى تُحكى عن أفراد كانوا ، كنتيجة لتصرفهم الأرعن أو عصيانهم المفتوح لتقاليد الآباشى ، وقد عانوا من الإذلال ، أو الأمراض ، أو الموت ، وعلى غير غرار حكايات العالم الحديث التى تمكن للترفيه ، فإن هذه الحكايات – والتى تدعى ágodzzahi آجودزاهى أى «ذلك الذى قد حدث» – قصيرة بشكل خاطف ، يمكن أن تحكى عادة فى أقل من خمس دقائق ، والأهم من ذلك أن هذه الحكايات دائما تبدأ وتنتهى بجملة تشير – مع اسم مكان – بدقة إلى مكان الأحداث فى القصة التى حدثت فيها بالفعل .

وهنا مثال لمثل تلك الحكايات :

لقد حدث فى «الأبيض المنتشر والمتساقط إلى المياه» .

«منذ زمنٍ بعيد ، ذهب صبى ليقنص ظبيًا ، امتطى ظهر الحصان ، وسريعًا ما رأى ظبيا يقف على جانب الوادى . آنذاك دنا منه وأصابه . لقد قتله . ثم إن الظبى زحف ليهوى فى قاع الوادى .

ثم إن الصبى نزل إليه هناك ، لقد كان الظبى سمينًا وقويًا . هناك قام بذبحه وتقطيعه ، كان اللحم ثقيلا ، فتوجب عليه أن يحمله فى قطع ، ولقد عانى كثيرًا من رحلة الوصول إلى رأس الوادى مع كل قطعة .

الآن قد حلَّ الظلام ، ومازال ربع الظبى راقدًا هناك فى قاع الوادى . «لقد أصبح لدى مايكفى من اللحم» ، فكر الصبى ، وهكذا ترك خلفه كمية اللحم المتبقية من الفريسة حيث هى .

ثم حمل حصانه وبدأ فى امتطائه للعودة إلى دياره . ثم إن الصبى أحس بالدوار والدوخة وكاد أن يسقط من فوق حصانه . وبدأ أنفه يرتجف ويحكه وفقد السيطرة عليه ، مثلما يحدث لأنف الظبى . ثم انبثق ألم رهيب وراء عينيه ، آنذاك أصبح خائفًا ومذعورًا مما يحدث له .

الآن عاد إلى الوادى ، كان الظلام دامسًا عندما وصل إلى هناك سار ماشيًا إلى حيث كانت بقايا الظبى ترقد . غير أنها لم تعد هناك ! ثم ولى عائدًا إلى حصانه ، امتطاه وجرى به سريعا إلى حيث كان يعيش مع أهله وأقربائه .

بقى الصبى عليلا ومريضا لفترة طويلة ، صلى الناس من أجله فى أربع مناسبات مختلفة ، وبدأ فى التحسن تدريجيًا .

بعد حين من ذلك ، عندما بلغ الصبى سن الرجولة ، كان غالبًا مايصاحبه سوء الطالع فى رحلات القنص . لم تعد الظباء تقدم نفسها إليه . قال لأطفاله :

انظروا إلىّ الآن ، لقد فشلت فى أن أكون حذرًا فى صباى والآن أنا أعانى من صعوبة الزمان فى الحصول على لحمٍ من أجلكم لكى تقتاتوا» .

لقد حدث فى «الأبيض المنتشر والمتساقط إلى المياه» .

إن هذه الحكاية «لذلك الذى قد حدث» توضح النحس الذى يمكن أن يقع على القناص الذى يهمل جوانب الاحترام والتبجيل الذى لابد أن يستمر الحرص عليه مع الحيوان الفريسة أو الطريدة ، أو بشكل أوسع العقوبات والعثرات التى قد تحيط بأولئك الذين يفشلون فى الحرص على السلوك الصحيح فى تعاملهم مع العالم الطبيعى ، ومع ذلك فإن الكثير من تلك الحكايات تتعامل بشكل خاص مع العلاقات الصحيحة التى لابد من الحفاظ عليها مابين الأشخاص الأفراد والمجتمع القبلى الأوسع :

لقد حدث فى «رجال واقفون هنا وهناك» .

«منذ زمن طويل مضى قتل رجل بقرة خارج المخيم . كانت البقرة من ممتلكات رجل أبيض ، تم إلقاء القبض على الرجل من قبل شرطى يعيش فى سيبيكو فى منطقة «رجال واقفون هنا وهناك» . كان الشرطى من الآباشى ، أخذ الشرطى الرجل إلى مقر رئاسة الجيش فى قلعة الآباشى . هناك ، فى قلعة الآباشى ، سأل ضابط رئاسة الجيش الرجل . «ما الذى تريده ؟» قال . قال الشرطى «إننى أريد الرزق والغذاء» . لم يقل الشرطى شيئًا حول الرجل الذى قتل بقرة الرجل الأبيض . فى تلك الليلة تحدث

بعض الناس إلى الشرطى . «من الأفضل أن تبلغ عنه» ، قالوا له . فى اليوم التالى عاد الشرطى إلى ضابط مقر الجيش . «الآن ماالذى تريده ؟» ، قال له . قال الشرطى «بالأمس كنت ســـــوف أقول مرحبًا» و «وداعًا » (لك) ولكننى نسيت أن أفعل ذلك . ومن جديد لم يقل شيئًا حول الرجل الذى ألقى القبض عليه . شخص ما كان يتلاعب بالكلمات فى رأسه . عاد الشرطى مع الرجل إلى سيبيكو . أطلق سراح الرجل هناك فى «رجال يقفون فى الأعلى هنا وهناك» .

لقد حدث ذلك فى «رجال يقفون فى الأعلى هنا وهناك» .

إن هذه القصة بشكل خاص تعرض للتشوش الذى يصيب شخص آباشى يسلك سلوكًا مشابهًا جدًا للرجل الأبيض ، فى الأعوام المبكرة للمخيم حصدت المجاعة والمرض أرواح الكثيرين من أهل القبائل ، وهكذا فإنهم من المستوعب تماما لأهل الآباشى أن أحدهم قد يقتل بقرة رجل أبيض من أجل القوت ، غير أنه لم يكن من المقبول أن آباشى آخر سوف يقبض عليه مع نية إلقائه فى الحبس . وبكلمات أخرى إنه من الخطأ الانضمام إلى الأجانب ضد أعضاء مجتمع الشخص ، أو أن يستعرض المرء عدم احترامه للقبيلة باتخاذه موقفًا وسلوكًا شبيهًا بالرجال والنساء البيض ، وهكذا فإن الشرطى فى القصة وجد نفسه عاجزا عن تسليم الرجل الذى ألقى القبض عليه ، بالرغم من أنه حاول مرتين فعل ذلك . عاجزا عن التحدث عن هدفه أهان نفسه وبدا كالأحمق أمام رئيسه فى العمل ، أخيرا أطلق سراح الرجل فى المكان نفسه الذى ألقى القبض عليه فيه .

الآن دعونا نرى كيف أن المكان نفسه الذى تحدث فيه الأحداث وتتكشف يمكن له أن يســهم فى حــد ذاته فى الإمكانيــة العــمليــة لتلك الحكايات ، إن قص أى من تلك الحكايات دائمًا مايكرس بأفعال خاطئة أو مشينة يرتكبها شخص ما فى المجتمع ، إن الحكاية وهى تروى بدقة تفعل فعل المذكِّر بردود الفعل على الفعل الشائن ، وهكذا عندما يقوم شخص من الآباشى بالإساءة إلى المجتمع عبر أفعال معينة فإن أحد شيوخ أو عجائز ذلك المجتمع سوف ينتظر اللحظة المناسبة - ربما فى أحد تجمعات المجتمع - وسوف يصيب آنذاك الشخص فى الصميم عبر روايته لإحدى تلك الحكايات ، بالرغم من أن الشخص المسىء لايكشف عنه أو يشار إليه بالاسم عاليا أو مباشرة فإنه سوف يعرف إذا كان «السهم» (الحكاية) قد تم اختياره بذكاء وتصويبه بدقة . إنه هو الهدف لذلك ، سوف يحس بالقصة تخترقه عميقا تحت جلده وتمتص قواه ، جاعلة إياه يشعر بالمرض والوهن ، ثم إن القصة سوف تبدأ بفعل فعلها فيه من

الداخل ، مجبرة إياه على الرغبة فى التحول عن مساره الخاطئ ، حتى «يبدل مكان نفسه» ويحولها نحو الحياة الصائبة والصحيحة وبذلك فإن سلوكه سوف يتغير ، ومع ذلك فإن القصة سوف تبقى معه وتصحبه ، ذلك أنه باستمرار سوف يواجه المكان فى الأرض حيث حدث كل شيء ، ربما إذا كان ذلك المكان قريباً من بيته أو موطنه ، سوف يراه فى كل يوم ، إن «المكان» - كما يقال - سوف يستمر فى تهذيبه وتأديبه له .

باسو نفسه يطرح مثالاً لمثل تلك الحكايات «الذهاب للعمل» على شخصٍ ما ، فى يونيو ١٩٧٧ كان متواجداً فى حفل عيد ميلاد فى سيبيكو وكانت تحضره أيضا امرأة شابة كانت قد ذهبت منذ أسبوعين سابقا إلى احتفالية ببلوغ فتاة بشعرها مرفوعًا فى لفافات شعر ضخمة وردية ، وبالرغم من أن مثل تلك الطريقة فى التزين كانت بلا شك رائجة فى المدرسة الداخلية خارج حدود المخيم حيث تعيش المرأة الشابة إلا أنها كانت خارجة بصورة قاطعة عن تقاليد الآباشى للظهور بها فى احتفال تقليدى محترم ، بعد أسبوعين من ذلك يتذكر باسو - فى منتصف محاورة عادية فى حفلة عيد الميلاد تلك ، أن جدة المرأة الشابة لأمها حكت فجأة قصة من تلك الحكايات تتعلق برجل الشرطة الذى تصرف فى سلوك مثل سلوك الرجل الأبيض ، بعد برهة قصيرة من سماع تلك القصة وقفت المرأة الشابة ومشت بصمت مبتعدة عن الحفل ، وعندما قام باسو - غير متأكدٍ من ذلك الذى حدث - بسؤال جدتها عن ما إذا كانت المرأة الشابة مريضة ، فإن الجدة أجابت ببساطة : «كلا لقد رميتها بسهمٍ» .

بعد صيفين من ذلك قابل باسو تلك المرأة من جديد ، وفيما كان يساعدها فى حمل بعض أغراضها للبيت سألها إذا ماكانت تتذكر ذلك الحفل ولماذا غادرته بسرعة مفاجئة فى ذلك اليوم ، عندئذ أخبرته بأنها قد رمت بلفافات الشعر بعيدا بعد سماعها لتلك القصة حول الشرطى ، وعندما أشار باسو وهما يعبران إلى المكان الذى حدثت فيه الحكاية «رجال يقفون فى الأعلى هنا وهناك» ، لم تقل المرأة شيئا لدقائق عديدة ، ثم ابتسمت وتحدثت برقة بلغتها : «إننى أعرف هذا المكان . إنه يؤدبنى ويوبخنى يومياً» .

بهذا الشكل الشفاهى المتميز لرقابة المجتمع إن مكانًا على الخريطة يصبح حارسًا للسلوك الصحيح ، إن الحضور المرئى الذى يذكر الشخص بأخطاء قديمة يضمن اهتمام المرء ومراعاته للأخلاق الحميدة ، إن قص حكايات الآباشى يؤسس رابطًا

مألوفا تقريبًا ما بين الأشخاص الذين تُوجَّه لهم تلك الحكايات ومناظر وملامح معينة في الأرض الطبيعية ، وبحسب أحد شيوخ الآباشى :

«إنه لا يهم أن تشيخ أو تكبر فإن ذلك المكان سوف يبقى يؤدبك ويوبخك مثل ذلك الذى يرميك بسهم القصة ، ربما كان ذلك الشخص قد قضى نحبه ، وحتى إذا كان الأمر كذلك فإن المكان سوف يستمر فى تأديبك ، إنه كأنما ذلك الشخص مازال حيا يُرزق» .

وهكذا فإن الآباشى يقوم بربط الأماكن بأسلاف معينين من أجداده ، وبالفعل فإن الأماكن الأرضية تبدو أنها تتحدث لأشخاص معينين فى أصوات أولئك الأجداد الذين قاموا فى البداية «بإصابتهم بأسهم» القصص والحكايات ، أو حتى تتحدث بأصوات أولئك الأسلاف الذين بادوا منذ زمن طويل والذين كانت مصائرهم قد رويت فى حكايات وقصص الآباشى ، إن حكمة الأسلاف فى المجتمع تقيم - كما قد كان - فى القصص ، غير أن القصص - وحتى الأسلاف أنفسهم - يقيمون فى الأرض .

«لقد كنا نعتاش ونواصل وجودنا من الأرض فقط ، الآن لم تعد تلك هى الطريقة والأسلوب ، الآن نحن نعيش فقط مع النقود والأموال ، ولذلك فنحن بحاجة إلى الوظائف والأعمال ، غير أن الأرض مازالت ترعانا . نحن نعرف أسماء الأماكن التى حدثت فيها كل الأحداث والأشياء ؛ لذلك فإننا نتجنب السوء ونبتعد عنه» .

غير أنه أن تبتعد وتنتقل عن الأرض يعنى بالضرورة أن تفقد التواصل مع الأماكن الفعلية التى تثيرها أسماء الأماكن ، وهكذا أن تفقد الصلة بالتالى مع القصص والحكايات التى تسكن تلك الأماكن .

«ذات مرة ذهبت إلى لوس أنجلوس للتدريب على الميكانيكا ، لم يكن ذلك جيدًا ، بالتأكيد لم يكن جيداً ، بدأت فى السكر والشراب ، وفى الضياع فى الحانات كل الوقت ، وبدأت فى الدخول فى مشاكل زوجية مع زوجتى ، حيث أتعارك معها أحيانًا ، لقد كان ذلك سيئًا ، لقد نسيت كل شىء عن الأرض هناك بقرب سيبيكو ، لقد نسيت كل الأسماء والحكايات والقصص ، لم أعد أسمعها فى رأسى . لقد نسيت كيف أحيا الحياة الطيبة ، ونسيت كيف أكون قويًا» .

إن باسو ، عالم الأنثروبولوجى ، يقدم شرحًا عمليًا لحد كبير لذلك الإسقاط والربط مابين التعاليم الأخلاقية مع الأماكن الجغرافية .

«إن الجبال والوديان» يكتب «تقف رمزيا لتمثيل الجدات والأخوال والأعمام» ، على الأشخاص أن يكونوا باستمرار منتبهين للحفاظ على السلوك والأخلاق الصحيحة ، وخصوصًا فيما يتعلق بتلك الحالات التى كانوا فيها فى مرة ما غير مبالين ومهملين ، ومع ذلك فإن الجدات والأعمام والأخوال الذين صحّحوا وقوّموا فى الأصل مثل ذلك السلوك لابد لهم أن يشيخوا فى ذات يوم ويندثروا ، بما أن الأماكن والديار الأرضية بالضرورة تبقى وتدوم بعد حياة العجائز والشيوخ ، وهى بالفعل تحافظ على شخصيتها الأساسية عبر أجيال كثيرة متعاقبة ، فإن مثل هذه الأماكن فى موقع مكتمل «للدخول» والتدخل كتذكار رمزى دائم الحضور للدروس الأخلاقية التى تم تلقينها فى الماضى .

ومع ذلك فإن اقتراح باسو بأن تلك الأماكن والشواهد فى الأرض تخدم غرضًا «رمزيًا» (بأنها صارت ترمز إلى التعاليم الأخلاقية) يتضمن درجة غير مضمونة من عشوائية الربط مابين الدروس الأخلاقية والأرض الطبيعية ، عبر الإيحاء بأن ذلك الربط والإسقاط أميل للمفاهيمية والعملية أكثر منه عضوى ومحتم . إن هذا الاقتراح يضع قناعا على المدى الذى يجعل تلك الأماكن نفسها محسوسة وحاضرة كمحرِّض فعال ونشط لتلك الدروس المؤلمة ، المؤلفون الحقيقيون لتلك الأحداث وبالتالى تلك القصص ، لاحظ هنا تركيز باسو نفسه على مبدئية المكان فى دوره فى الحكى والقصص عند آباشى الغرب :

«لا شىء يعتبر أكثر أساسية للحكى الفعال والمؤثر للقصص لآباشى الغرب «لقصة» أو «حكاية» أكثر من تعريف الأماكن الجغرافية حيث حدثت وتكشفت أحداث القصة ، ذلك أنه مالم يكن المستمعون من الآباشى قادرين على تصور المكان الفعلى للأحداث المروية (إلا إذا ، كما قد قال لى أحد مستشارىّ «إن عقلك يمكن له الارتحال للمكان ورؤيته بالفعل») إن الأحداث نفسها سوف يكون من الصعب تخيلها ؛ إن ذلك بسبب أن الأحداث فى الحكاية سوف تبدو «وكأنها تحدث فى اللامكان» ، ومثل هذه الفكرة كما يؤكد الآباشى مزعجة ، غير مقنعة ، وكاذبة ، إن أحداث اللامكان هى استحالة ، كل شىء يحدث يجب أن يحدث فى مكانٍ ما ، إن مكان الحدث جانب مهم وعضوى للحدث

ذاته ، ولذلك فإن تحديد مكان الحدث ضروری جداً للقص والروی الصحیح ، وبالتالی تصور تفاصيل وواقعية الحدث» .

إن باسو هنا يقدم شاهداً واضحًا على الأهمية المركزية للمكان لخبرة وتجربة آباشي الغرب للظاهرة ، ومع ذلك فإنه لايقدم أی إشارة إلى السبب الذی يجعل الآباشي يضعون كل تلك الأهمية على الأماكن الجغرافية بشكل أكبر منا بكثير ، بالتأكيد أنه لأشخاص من حضارات غير أصلية أيضًا «أن كل الأشياء التی تحدث لابد أنها تحدث فی مكانٍ ما» ، ومع ذلك فإن أغلبنا لايصرون على التعريف الدقيق للمكان لكل حدث نسمع عنه . لماذا إذن يقوم الآباشي – والثقافات الأصلية على وجه العموم – بإعطاء كل تلك الأهمية والتركيز على الأماكن ؟

إن الإجابة يجب أن تكون واضحة الآن . بالنسبة لأعضاء ثقافة غير كتابية فإن الأماكن ليست مجرد أشياء جامدة ومحايدة ، تذكر أنه فی الثقافات الشفاهية أن العيون والآذان البشرية لم تتحول بعد بمشاركتها الحسية عن المحيط الحی نحو الكلمة المكتوبة ، إن جبالاً معينة ، أخاديد ووديان ، ينابيع ، حقولاً ، أو خمائل من الأشجار لم تفقد بعد طاقتها التعبيرية وحيويتها التی تقدم بها نفسها للحواس ، إن مكانًا معينًا فی الأرض ليس أبداً – بالنسبة للثقافة الشفاهية – مجرد مكان جامد ومحايد بالنسبة للأحداث البشرية التی تقع فيه ، إنه مشارك فعال ونشط فی تلك الأحداث ، وبالفعل عبر فضيلة كونه حضوراً حاضنًا وقاعدة فإن المكان يمكن أن يُشعر به كمصدر وقوى أساسية تعبر عن نفسها عبر الأحداث المختلفة التی تتكشف هناك .

إنه لهذا السبب بالتحديد فإن تلك القصص لا يتم حكيها دون تحديد للأماكن الأرضية حيث الأحداث فی تلك القصص قد حدثت ، بالنسبة لآباشي الغرب كما هو لأناس التقاليد الشفاهية فإن الأحداث البشرية والتجارب لايمكن ببساطة أن تكون بمعزل عن الأماكن التی كانت مسرح أحداثها ، وهكذا فإن العالم الأنثروبولوجی هاری هوجير يتحدث عن مجموعة أخرى من الآثاباسكان – الدنی أو الناڤاجو – يكتب :

«حتى أصغر الدقائق من الأحداث يصفها هنود الناڤاجو فی وصف ذی صلة حميمة بالأماكن الفعلية ، موحيًا بأنه مالم تكن الأحداث المروية ذات فضاء جغرافی فإن أهميتها تتقلص نوعًا ما ولايمكن تقييمها بشكل صحيح» .

ومع ذلك فإنه مرة أخرى الأنثروبولوجى المحترف يفتقد بشكل ما إلى السبب الرئيسى لذلك الطرح ، عبر اقتراح أن الأحداث المروية يجب أن تكون «ذات فضاء جغرافى» فإنه يسمح لنا أن نفترض علاقة خارجية خالصة مابين الأحداث وأماكنها الجغرافية ، إنه يوحى بأن الأحداث يمكن استيعابها وكأنها تطفو بحرية من أى مكان قبل القذف بالحدث الذى يربطها إلى الأرض . إذا - على كلٍ - كان المكان نفسه عنصراً نشطاً فى خريطة الأحداث فإنه عند ذلك فإن رمز الجذر هو أكثر دقة من الجغرافية ، بالنسبة للثقافة الشفاهية ، خبرت أحداثا بقيت متجذرة فى التربة المعينة ، التوازن البيئى المعين ، الأماكن المعينة التى منحت لها البزوغ .

من قصص الزمان البعيد لأناس الكويكون ومن حكايات الآغودزاهى لآباشى الغرب نبدأ فى معرفة أن حكى القصص والحكايات شكل أساسى للكلام الإنسانى ، طريقة لمسار يتزاوج دائما مع المجتمع البشرى والأرض ، بين الكويكون ، قصص الزمان البعيد تخدم - مابين أشياء أخرى - الحفاظ على الصلة مابين الكلام البشرى والمنطوق المتكلم للكائنات الأخرى ، فيما بالنسبة لآباشى الغرب فإن قصصهم تعبر عن ارتباط عميق مابين السلوك الأخلاقى والأرض ، وعندما تُسمع فإنها تكون قادرة على التأثير على علاقة قرابية دائمة مابين الأشخاص والأماكن المحددة .

إن حكى القصص مثله مثل الإنشاد والصلوات سوف يبدو وكأنه طقس احتفالى تقريبا ، عريق وعتيق وطريقةٌ ضرورية للكلام تميل إلى التجذير الأرضى للغة البشرية ، وللأحداث المروية ، كما يذكرنا باسو ، فإنها دائما ماتحدث فى مكان ما ، وبالنسبة لثقافة شفاهية فإن ذلك المكان ليس مجرد مصادفة لتلك الأحداث ، إن الأحداث تنتمى (كما قد كان) إلى المكان ، وأن تروى القصة حول تلك الأحداث هو أن تجعل المكان نفسه يتحدث من خلال السرد والحكى .

ومع ذلك يتبقى هناك سبب آخر لذلك الربط العميق مابين حكاية الحكاية والأراضى والمحيطات الأكثر من بشرية ، إنه يسكن فى الكلية الشاملة لقصة فى العلاقة مع الشخصيات التى تفعل وتتحرك بداخلها ، إن القصة تشتمل على أبطالها تماما كما نحن أنفسنا محتوين داخل الأرضية والمحيط حولنا ، وبكلماتٍ أخرى إننا موضوعون

فى موقع فى الأرض بالطريقة نفسها التى يتموضع فيها أبطال القصص فى القصة ، وبالفعل بالنسبة إلى أعضاء ثقافة شفاهية فى أعماقها فإن هذه العلاقة يمكن أن تعاش كشىء أكثر من مجرد التمثيل الرمزى : مع بقية الحيوانات الأخرى ، الصخور والأحجار ، الأشجار ، السحب ، نحن أنفسنا شخصيات فى داخل رواية كبرى تتكشف بصرياً من حولنا ، مشاركين داخل الخيال الواسع أو الحلم الخاص بالعالم .

زمن الأحلام

بهذه الفكرة نقترب بأنفسنا إلى زمن الأحلام ومعتقداته الشائعة مابين سكان الأبوروجونى فى أستراليا ، إن ثقافاتهم المتنوعة - بينتوبى ، وآراندا ، وكيتيتجى ، و واروموتغو ، والبريرى ، ومجموعة من الآخرين - قد تكون أقدم الثقافات البشرية التى ماتزال حية فى يومنا هذا ، ثقافات قد تمت فى أشد البيئات الإنسانية خشونة لعشرات الآلاف من السنين (إن الأبوروجونيين الأوائل وآثارهم المكتشفة فى أستراليا مابين أربعين إلى ستين ألف مضت فى تاريخها) فقط ليتم تخريبها فى عصرنا هذا من خلال الاحتكاك بالحضارة الأبجدية ، إن الصمود المدهش لأناس الأبورجونى لابد أن يُعزى - على الأقل جزئيًا - إلى تورطهم القليل فى عالم التكنولوجيا ، إن علاقتهم بالأرض كانت مباشرة وحميمة ، وغير مخربة بالوسائط غير الضرورية ، لقد اعتمدوا على أبسط الأدوات - أساسًا جمع الثمار ، وأسهم الصيد ، وعصا الحفر - وبذلك تجنبوا الاعتماد على المصادر المتخصصة فيما حافظوا على إمكانية التحرك الكبرى فى وجه تغيرات وتقلبات الطقس .

فى أثناء ذلك ، فإن انعزال قارتهم وكذلك شخصيتها الخارجية غير المرحِّبة حمت بوضوح هؤلاء الناس من مذابح واستغلال شعوب أخرى طموحة ومتوسعة - حتى اللحظة التى وصل فيها البريطانيون إلى سواحل الأبوروجونى فى عام ١٧٨٨م .

ماهو ، إذن ، زمن الأحلام - (the jukurpa ، أو Alcheringa - الجوكوربا أو الشيرينجا) - الذى يلعب جزءًا أساسيًا فى أساطير أستراليا الأبوروجونية ؟

إنه نوع من الزمن خارج الزمان ، زمن مختفٍ أبعد من أو فى داخل الحضور القوى والواضح للأرض ، حالة سحرية حيث قوى الأرض المحيطة اتخذت أول معالمها فيما يتعلق بعلاقتها ببعضها بعضًا ، وبذلك شكلت الأشكال الواضحة والنماذج التى نعرفها بها اليوم ، إنه ذلك الزمن الذى سبق يقظة العالم بأكمله (زمن مازال موجودًا

فقط تحت سطح الوعى اليقظ) الذى هلّ فى الفجر الذى قام الأسلاف الطوطم بالخروج من نومهم الطويل تحت الأرض وبدأوا فى غناء طريقهم الخاص عبر الأرض بحثًا عن الطعام والحماية والصحبة الإنسانية .

لقد كان عالم الأرض نفسه مطرقا ، بين النعاس والصحو ، وكرجل - كانغارو يحلم (إن السلف - الجد لم يكن للكانغارو فقط بل لكل البشر الذين ولدوا من حلم الكانغارو) ، الرجل السحلية ، المرأة السلحفاة ، الرجل الكانغارو - الوالبى الصغير ، المرأة الوعل ، وغيرهم من أسلاف لا حصر لهم تجولوا وغنوا على سطحه ، شكلوا سطح الأرض ذلك بأفعالهم ، مكونين السهول حيث رقدوا هناك ، الغدران أو حفر الماء حيث تبولوا هناك ، الغابات حيث نفضوا الغبار ، وهكذا .

«غابيدجى ، الكانغارو - الوالبى الصغير ، جاء من الغرب إلى أوولدى سوك ، لقد جاء عبر كثبان الرمل الغربية ، مقتربا من شجرة البلوط فى الصحراء السوداء ، كان يحمل قربة ماء من جلد المالو - ميرى أو البودا ، وكانت ماتزال ممتلئة ، لقد قطع الكثبان ووصل إلى يولدى ، هناك وضع قربته عند قاعدة تل رملى كبير إلى الجنوب ، ثم تبول فى بقعة صارت اليوم هى أوولدى سوك («أى أنه الماء الذى نشربه اليوم» ، قال الناس فى عام ١٩٤١م) مكث هناك لبعض الوقت ، ثم مضى إلى تل رملى آخر إلى الشمال ، من هنالك نظر نحو الشرق ، التل الرملى صار اسمه بيمبالى ، عاد ليلتقط قربته ، وعندئذ رش القليل من الماء ، وهذا هو ماأصبح فيما بعد البحيرة ، غير أنه لم يكن متأكداً إذا ما كان عليه أن يمضى أبعد من ذلك وأخيرا قرر أن يعود إلى أوولدى ، ترك قربته هناك وتحولت إلى تل الرمل الغربى الكبير (لهذا السبب هنالك دائما ماء) ، خيم لبعض الوقت ، ثم قرر مرة أخرى أن يمضى إلى الشرق ...» .

تدريجيًا نظرًا للعثور على المكان المناسب أو ببساطة مرهقين من العمل على تشكيل العالم فإن كلا من الأسلاف مضى «عائدا» (متحولا إلى دجانج ، بمصطلح لغة الجنسوينجو) ، محولا نفسه (أو نفسها) إلى أحد الجوانب التجسيدية للأرض ، و/ أو متحولا رمزيا إلى نبتة أو حيوان من الكائنات التى يتخذ منها اسمه .

«[رجل العلق] نظر نحو هذه الناحية ، هذا الطريق ، فيما كان قادمًا ، رأى مكانا جيدا ، قال «إننى أفعل هذا ، لأن هذا هو مكان طيب وجيد . لسوف أستقر . لسوف أمكث هنا دائما» . الرجل الذى كان يأكل سمكا ، نابيرج - جيدمى سأله :

«مـا أنت ؟» ، فـقـال «إنني أتحـول إلى علق ، ولسـوف أمكث وأبقى فى مكان واحـد ، سوف أصبح صخرة ، صخرة صغيرة ، وأمكث هنا ، برأس مسطح ، رأس قصير ، إننى رجل العلق دجانج ، علق يحلم !» ، قال «إننى علق !» وقال «هنا ، أجلس . إن هذا غديرى يتدفق ، إن هذا لى ، حيث أمكث أنا . إننى رجل ، دجانج ، يحلم!» .

وهكذا فـإن كل جـد من الأسـلاف يتـرك فى صـحـوته أثرًا مـتـعـرجًـا من المشـاهد والأماكن الجغرافية ، ملامح مستوعبة ومفهومة فى الأرض التى هى نتيجة لأحداث معينة واحتكاكات فى رحلة الجد - السلف ، تبلغ ذروتها فى ذلك المكان حيث مضى الجد - السلف «عائدا» ومتشكلا كليـة فى بعض جوانب العالم الذى نعرفه ونعيشه اليوم .

إن هذه الآثار المتعرجة أو آثار الأحلام سمعية بقدر ماهى بصرية وظاهرةٌ ملموسة ؛ ذلك أن الأجداد - الأسـلاف كانوا يغنون أسمـاء الأشـيـاء والأمـاكن فى جوف الأرض وهم يتجولون ويهيمون عبرها ، وفى الحقيقة كل أثر من الأسـلاف هو نوع من العلامة الموسيقية يترامى عبر القارة ، علامة لأغنية ملحمية ، واسعة ، تنبىء أبياتها وتحكى عن مغامرات الأسلاف الكثيرة ، وعن الكيفية التى تشكلت فيها المشاهد والأماكن المختلفة عبرها لتصبح على ماهى عليه (وبهذا ، بشكل غير مباشر ، عن ماهية الأغذية النباتية ، ومصادر المياه ، وصخور الحماية والملاذ التى يمكن العثور عليها فى تلك الأماكن والمناظر) إن المسافة مابين مكانين مهمين على طريق آثار الأسلاف يمكن قياسها أو الحديث عنها كامتداد لأغنية ، ذلك أن الأغنية تتكشف فى سلسلة غير متكسرة أو منفصلة لكوبليه أو أبيات شعر عبر الأرض ، بيت شعر واحد أو كوبليه «لكل زوجين من خطوات أقدام السلف - الجد» . إن الأغنية بهذا نوع من الطريق أو الدرب السمعى أو الخارطة السمعية عبر البلاد ، ومن أجل أن تصنع طريقها فى الأرض فإن الشخصية الأبوروجونية عليها فقط أن تنشد وتغنى مقاطع محلية من الحلم المناسب ، أغنية السلف - الجد المناسبة والصحيحة .

إن القارة الأسترالية مخططة عبرها بالآلاف من مثل تلك «خطوط الأغانى» التى اكتملت ذروتها أو «الطرق عبرها» ، وأغلبها تعبر عبر المناطق القبلية المتعددة ، إن أغنية معطاة بذلك تغنى طريقها عبر عشرين أو أكثر من اللغات المختلفة قبل أن تصل إلى المكان الذى عاد فيه الأسلاف إلى «العودة فى الداخل» ، ومع ذلك فيما اللغة تتغير

فإن اللحن الأساسى للأغنية يبقى هو نفسه ، وهكذا فإن شخصًا من قبيلة السحلية النابحة سوف يكون قادرًا على معرفة خطوط المسافة البعيدة لخط أغنية للسحلية النابحة عندما يسمعها ، وحتى لو أن تلك المقاطع كانت تغنى بلغة غريبة تماما لأذنيه ... إن المعرفة والعلم بالأجزاء البعيدة لدائرة أغنية شخص ما - بلغة الشخص - تمكن الشخص بشكل واضح من أن يعيش بشكل ما امتدادات معينة للأرض حتى قبل أن يكون هو أو هى قد زار تلك الأماكن . إن التدرب على جزء طويل من دائرة أغنية معًا خلال السمر والجلوس حول نار المخيم فى الليل ، يشعر الأشخاص الأبوروجونيين بوضوح بأنهم أنفسهم يرتحلون عبر الأرض فى خيالهم الجمعى ، كما هو الحال بالنسبة للرجل الآباشى «الأسماء المتكلمة» بالنسبة إليه هى «امتطاء لصهوة عقله» .

إن كل جد من الأسلاف ، فيما هو أو هى ينشد أغنيته عبر الأرض خلال زمن الحلم ، يبذر أيضًا خلفه آثارًا من «أطفال الروح» عبر خط آثار أقدامه ، إن «خلايا الحياة» هذه أطفال لم يولدوا بعد : إنهم أجنة يرقدون فى نوع من حالة الوعد الممكن فى داخل الأرض ، ينتظرون ، وفيما الممارسة الجنسية مابين امرأة ورجل يفكر بها عند أناس الأبوروجونيين التقليديين على أنها إعداد للمرأة للحمل فإن الحمل الفعلى يفترض أنه يحدث بعد ذلك بزمن طويل ، عندما تكون المرأة التى حملت بالفعل فى الخارج هناك فى جولتها اليومية لجمع الجذور ، والنباتات للأكل ، ويحدث أنها مشت على أو وطئت (أو حتى اقتربت) من بيت شعر لأغنية .

إن «طفل الروح» الراقد تحت الأرض فى البقعة التى تطؤها يتسلل إلى داخلها فى تلك اللحظة ، « ويجد طريقه إلى رحمها ، ويخصب الجنين بأغنية» . أينما تجد المرأة نفسها عندما تشعر بالتسارع - الرفسة الأولى داخل رحمها - تعرف آنذاك بأن طفل روحٍ قد قفز للتو إلى داخل جسدها من باطن الأرض ، وهكذا فإنها تلحظ وتحفظ المكان الدقيق فى الأرض حيث حدث ذلك التسارع والتوالج ، وتقوم بإبلاغ ذلك إلى كبار قبيلتها ، إن الكبار آنذاك يقومون بتفحص الأرض عند تلك البقعة محددين خط الأغنية المعينة للسلف - الجد المرتبطة بذلك المكان ، وأى مقاطعَ بالتحديد لأغنية الأسلاف سوف تنتمى لذلك الطفل .

بهذه الكيفية فإن كل شخص أبوروجونى عند الولادة يرث خطًا أو امتدادًا معينًا من أغنية كملكية خاصة به ، امتدادًا لأغنية هى كما قد كان لقبه وحقه فى امتداد وخط أو نصيب فى الأرض ، فى المكان الذى تخلّق فيه كجنين ، إن هذه الأرض هى ذلك الجزء من الحلم حيث بدأت الحياة فى يومٍ ما ، إنه فى ذلك المكان من الأرض حيث أكثر مكان ينتمى إليه ذلك الشخص ، وعناصر وجوده وكيانه ، وأعماق نفسه وذاته التى هى غير متجزئة أو منفصلة عن تلك الأراضى :

«الشيخ العجوز يعبس مابين التجاعيد

ينجذب نحو ابتسامة فى الأرض الواسعة ، الحمراء .

لقد لاعبت طفلا ما ، ومشىَ كل خطوة على رمالها تلك .

«هل ترى الصخرة تلك هناك ؟

(إن رأسها قد صار أملس ، وناعمًا ،

وكأنما قد قطع بحد الماسة ،

ولكن كان ذلك قد تم عمله عبر صخرة أخرى ضمتها مئات الأيادى :

زادت المكان وأعدته لولادة طفل دنجو آخر)

و

بادى أناتورى يضرب الصخرة ويداعبها من جديد ،

ومرة أخرى . يقول هو :

أترى هذه الصخرة ؟

إن هذه الصخرة هى أنا!» .

إن الأبيات المغناة التى هى الحق الشرعى منذ الولادة لابن القبيلة ، والتى هى الراعى الأساسى لها الآن ، تمده أيضًا بنوع من «الباسبورت» أو جواز المرور للأراضى الأخرى أو الأراضى التى عبرتها الأحلام نفسها ، إنه يعرف بأنه سليل ذلك الجد - السلف الذى يملك بيت شعر من أغنيته ، سليل كائن زمن الأحلام والذى حياته المقدسة وقواه مازالت تعيش فى داخل أشكال تلك الأرض وتجسداتها ، لو أنه على سبيل المثال الجد - السلف الذى مشى هناك كان رجل الكانغارو الصغير الوالبى فإن

هذا الشخص يقال إنه يملك حلمًا من الويلبى ، أن يكون عضوًا من قبيلة الويلبى (والويلبى حيوان يمثل الكانغارو الصغير) إن له وشائج مع كل أشخاص حلم الويلبى ، سواء داخل أو خارج قبيلته ، وإن على عاتقه مسئوليات نحو كائنات الويلبى نفسها ، من غير المسموح له أن يصطادها أو يقتنصها من أجل الطعام ، بما أنها كائنات تمثل إخوته وأخواته . وإن على عاتقه مسئولية كبرى نحو الأرض بجوار آثار حلم الويلبى أو خط الأغنية ، مسئولية للحفاظ على الأرض - كما يجب أن تكون - بالكيفية التى كانت عليها عندما تم غناؤها وإنشادها الذى أوجدها فى هذا الكون .

وبحسب التقاليد فإنه قد يتوجب عليه عمل ذلك على فترات أن يمضى فى «التجوال» ، عبر قيامه بارتحال طقسى عبر آثار الأحلام ، ماشيًا الخطوات نفسها التى مشاها جده - السلف ، وفيما هو يمشى فإنه ينشد ويغنى أبيات الشعر التى قالها السلف ، دون أن يغير كلمة واحدة فى تلك الأغنية ، مغنيا الأرض فى المنظر والمشهد ، وبهذه الطريقة «يقوم بإعادة خلق الخلق» .

أخيرا ، كما قد حول كل سلف من أجداد زمن الأحلام نفسه أو نفسها فى نهاية الرحلة إلى جانب من جوانب أو الملامح فى داخل الأرض المعاصرة فإنه يتوجب أيضًا على كل شخص من الأبوروجونى أن ينوى - فى نهاية حياته أو حياتها - أن يغنى نفسه للعودة إلى داخل الأرض ، إن رجلاً تقليديًا من البينتوبى أو البيتجان تاجارا سوف يعود إلى أرض ولادته وتكوّنه - إلى خطه أو رقعته المحددة من خط و درب أغنية الأسلاف - لكى يموت هناك ، وحتى تستطيع حيويته وحياته أن تكون قادرة على الانضمام من جديد إلى أرض الأحلام فى ذلك المكان .

إن زمن الأحلام هو ليس - مثل الغربى - مفهومًا دينيًا مرتبطًا بالكتاب المقدس أو الإنجيل ، حدثا منتهيا ، وهو ليس مثل التفسيرات العلمية المألوفة لفكرة «الانفجار الكبير» ، حدثا كان قد حدث ذات مرة وانتهى فى الماضى البعيد ، إنه بالأحرى عملية مستمرة - بزوغ مستمر للعالم من حالة النعاس غير المحددة إلى حقيقة يقظة ومكتملة، من اللامرئى إلى المرئى ، من أعماق سر الصمت إلى الأغنية البليغة والكلام . أن يختار الأبوروجونيون الأصليون كلمة (يحلم «Dreaming») كمصطلح إنجليزى ليترجموا تلك الفكرة أو الأطروحة الكونية يشير إلى حسهم بأن الفعل العادى للحلم يشارك مباشرة فى زمن أسلاف القبيلة ، وذلك بأن ذلك الزمان ليس تماما فى مكان آخر ، ليس تمامًا مغلقًا ومختومًا عليه بعيداً عن الحاضر المستوعب ، إنه بالأحرى الحلم يرقد فى العلاقة

نفسها مع الحاضر المفتوح للأرض من حولنا ، كما أن حلمنا وحلم حياتنا نفسها يرقد فى العلاقة مع وعينا أو خبرة يقظتنا ، إنه نوع من العمق الغامض ، والرمزى .

«انظر إلى هناك ، إن تلك الشجرة هى عصا حفر

تركتها وراءها امرأةٌ ضخمة عملاقة كانت تبحث عن نمل العسل ،

إن هذه الصخرة ، هى أنف دينغو ،

هناك ، على ذلك الجبل ، آثار أقدام

خلفها وراءه تجانغارا فى طريقه إلى الامبورا ،

هنا ، حفرة صخرة ورانامبى - خطيرة جدا -

والكهف حيث نساء نى - نى هربن

هناك غضب مارابولبا - العنكبوت .

واتى كوتجارا - الأخوان الاثنان - ارتحلا فى هذا الطريق .

هنالك ، يمكنك أن ترى ، أحدهما كان مرهقًا من كثرة ممارسة الحب - إن أثر أيره قد خط على الأرض ،

هنا ، إن أجساد رجال نملة العسل حيث زحفوا من الرمال -

كلا ، إنهم ليسوا أمواتًا - إنهم مازالوا يأتون من الأرض ، ويتحركون نحو المياه فى ورامبو - إن الحال هو هكذا منذ سنين طويلة :

إن ما قد حدث ذات يوم يحدث من جديد مرة أخرى وأخرى .

إن هذا هو القانون ،

إن هذه هى قوة الأغنية .

عبر الغناء نحتفظ بكل شيء حيًا ،

عبر الأغانى ... تبقى الأرواح معنا كى نبقى أحياء» .

إن ما قد حدث ذات مرة يحدث مرة أخرى وأخرى ، الحلم - الحياة الخيالية للأرض نفسها يجب أن يتجدد باستمرار ، وفيما رجل أبوروجونى يمشى على خطى آثار حلم جده - السلف ، مغنيًا الوطن إلى المرئى والظهور ، فإنه يصبح فى الحقيقة السلف - الجد المرتحل ، وبذلك فإن قص الأرض يولد طازجًا من جديد .

إن هذا الانتماء والتعاطف وذلك التوسل لزمن الحلم ليحضر الآن وهنا ، لايحدث خلال جولات المشى والتجوال الوحيدة والمنعزلة فقط ، ولكن أيضًا وخصوصًا خلال الطقوس الجماعية فى أماكن أحلام محددة ، طقوس حيث مغامرات وتجارب الأسلاف فى تلك الأماكن لا تغنى فقط ، بل يتم أداؤها وتأكيدها عبر مشايخ القبيلة ، وحتى نسخة «مفتوحة» ومختصرة لمثل ذلك التأكيد والأداء يمكن أن تعرض درجة مدهشة من المشاركة مع الجد أو السلف – الحيوان (مثل تلك النسخ «المفتوحة» ، أو الاسكتشات يمكن أن تؤدى من أجل الغرباء) . المؤلف بروس شاتوين شهد أحد تلك الاسكتشات فى جلسة سمر حول النار فى المخيم فى الخلفية فى استجابة لسؤال من أحد زملاء شاتوين الباحثين ، حول أهمية تلٍ قريب ، أحد رجال الأبوروجونى :

«قام على قدميه وبدأ فى تقليد همهمات (بكلمات مرمية فيها) ارتحالات السلف – السحلية .

لقد كانت أُغنية عن كيف أن السحلية وزوجته الجميلة الشابة كانا قد سارا من شمال أستراليا إلى البحر الجنوبى ، وكيف أن أحد الجنوبيين قد أغوى الزوجة وأرسل به إلى موطنه ببديلة .

لا أعرف أى نوع من السحالى كان من المفترض أن يكون : هل كان «سحلية – يهودى» أو «ركاض الشارع» أو أحد أولئك السحالى المتجعلكة والمجعدة ذات الهيئة الغاضبة بتهدلات حول أعناقها .

كل ما أعرفه هو أن الرجل فى الأزرق جعل أكثر السحالى شبهًا بالحياة التى تتمنى أن تتخيلها .

لقد كان ذكرًا وأنثى ، مغويا وغاويا ، لقد كان قوى البنية ، فحلا ، ورحالة متمكنا ، كان يحرك أقدامه السحلية على الجنب ، ثم يتجمد ويبرز رأسه ، يقوم برفع جفنه السفلى ليغطى بؤبؤى عينيه ، ثم يخرج لسانه – السحلى ، نفخ عنقه إلى غضب من الهواء ، وأخيرًا عندما حان الوقت له كى يموت اهتز وأربد ، وصارت حركاته أضعف وأوهن ...

ثم انطبق فكه ، وكانت هذه هى النهاية .

الرجل الذى فى الأزرق لوح نحو التل ، وبعظمة شخص ما كان قد حكى أفضل كل القصص الممكنة ، صرخ : هذا .. هذا هو حيث هو!» .

إن التل القريب – بكلمات أخرى – هو ذلك المكان حيث السلف – السحلية قد عاد إلى الأرض – قواه الروحية ، أو حياته ، الآن غير منفصلة عن الحياة للتل نفسه .

إن أداء مثل تلك القصص والأغاني والطقوس الاحتفالية يحدث لأسباب تتعلق بالأرض نفسها أكثر منها للشخوص البشرية في حد ذاتها ، للأرض التي بالطبع يعتمد البشر عليها ، وبكلمات عالمة الأنثروبولوجي هيلين بياني :

«إن صيانة والحفاظ على مكان يتطلب الاثنين معًا العناية المادية الفعلية – على سبيل المثال تنظيف الصخور أو إزالة العفن – والأداء (لطقس) بأشياء تهدف للعناية بالروح التي تسكن ذلك المكان . بدون إجراءات الصيانة والعناية تلك يبقى المكان ، ولكن يقال إنه يفقد الروح التي تجعله يتماسك من الداخل . ثم إنه يُقال إنه يموت وأن كل أولئك الذين يشاركونه الملامح الجسدية والروحية سوف يموتون أيضًا ، وهكذا للحفاظ على السلامة في الحياة فإن الأماكن والبقع الجغرافية في الأرض يجب الاعتناء بها وممارسة كل الطقوس التي تحافظ على حياتها وقوى أحلامها التي تكمن في دواخلها» .

أو كما يكتب بروس شاتوين «إن أرضًا غير مغناة أو منشد لها أرض ميتة» .

في مناسبات معينة ، تقليديًا ، يقوم شيوخ قبائل معينة بصنع القرار بأنه قد أزف الوقت لغناء أغانيهم الدائرية في كامل أماكنها من البداية وحتى النهاية ، سوف يتم إرسال الرسائل بذلك على طول طريق آثار الأحلام ، داعين كل مالكي الأغنية إلى التجمع في أحد بقاع حفر الماء المهمة على طريق الأحلام وعندما يجتمعون فإن كل عضو من القبائل بدوره يغني المقطع الخاص به من آثار أقدام الأسلاف – الأجداد ، إن الترتيب والتوالي الدقيق للأبيات الشعرية المغناة ضروري للغاية ، أن تغني مقطعًا خارج ذلك الترتيب والتوالي يُنظر إليه على أنه إساءة لانسجام ونظام الأرض نفسها .

إنه من المهم الانتباه إلى أن في أستراليا الأبوروجونية (كما هو الحال في أمريكا الشمالية الأصلية الخاصة بالهنود الحمر) هنالك درجة عالية من التمييز مابين علم النساء ومعارفهن وعلم الرجال ، وطقوس النساء وطقوس الرجال ، إن قوة وأهمية حقوق النساء داخل المجتمعات الأصلية الأسترالية قد تم الاعتراف بها حديثًا من خلال الباحثين غير الأبوروجونيين ، ربما بسبب أن علماء الإثنولوجي المبكرين كانوا

رجالا فى معظمهم ، ولذلك لم يكن لديهم الكثير من المداخل إلى علم النساء المقدس ، إنه من الواضح الآن أيضًا أن علم أغنية النساء الأبوروجونيات محروس ومحرَّز بشكل أكبر عن علم الرجال ، فى السنوات المعاصرة كمية محددة من الابتكارات قد حدثت فى الاثنين معًا فى الأغنية التى تغنيها النساء وتلك التى يغنيها الرجال ، وخصوصًا فيما يتعلق بردود الأفعال تجاه التغييرات التى حدثت فى محيط الأرض والطبيعة ، وفى المجتمع الأبوروجونى الذى غزته الحضارة الصناعية ، فإن مقاطع ضائعة من دورة أغنية - على سبيل المثال - يمكن أن يستعاد حلمها عبر أشخاص أكفأ لذلك ، وبالرغم من ذلك فإن علم النساء ومعرفتهن بالأغنية (على الأقل فى وسط أستراليا) يميل إلى كونه أكثر محافظة ، وأكثر مقاومة للتغييرات من ذلك الخاص بالرجال ، اختلاف آخر هو : فيما تبدو الطقوس الاحتفالية السرية للرجال أنها تُركز بشكل كلى تقريبًا على تجديد طاقة وحيوية أماكن وبقع معينة والاحتفال بكائنات محددة ، فإن احتفالات وطقوس النساء المغلقة غالبًا ما تتضمن - أيضًا - استخدام الأغانى لإيقاظ القوى السحرية لتلك الأماكن - جاذبين نحوهن قوى الأرض لأهداف عملية مختلفة ، إن مثل تلك الأهداف تتضمن العلاج من الأمراض والعلل (سواء كان المريض أنثى أو ذكرًا) ، بالإضافة إلى ممارسة «سحر العشق والحب» - حيث عبْر تأثير النساء من العجائز من أجل صالح المجتمع ككل يمارسن السحر لتدفق الرغبات مابين أشخاص معينين .

المكان والذاكرة

فى أستراليا إذن فيما بين أقل الثقافات البشرية تكنولوجية نجد أكثر العلاقات الممكنة والحميمة مابين الأرض واللغة البشرية ، إن اللغة هاهنا غير منفصلة عن الأغنية والقصة والحكاية ، والأغانى والقصص بدورها غير منفصلة عن أشكال وملامح وتضاريس الأرض ، إن إنشاء أى جزءٍ من دائرة أغنية يصل المغنى البشرى إلى أحد حيوانات أو نباتات أو قوى فى داخل الأرض وتضاريسها ، إلى الرجل التمساح والمرأة شجرة الباندوس ، أو رجل الصاعقة ، إلى كل ماهو أكثر من بشرى من الكائنات التى أنشدت وغنت فى البداية تلك الأبيات الشعرية فيما هى أو هو يتجول عبر أرض الأحلام ، لكنه أيضًا يقرن الإنسان المنشد أو المغنى فى علاقته بالأرض نفسها ، وبتلال محددة ، وصخور ، وينابيع هى الموازى المرئى لتلك المقاطع الغنائية .

إن الارتباط المعاش والحى مابين اللغة والأرض موضح بشكل جيد بطُرفة يحكيها الشاعر الأمريكى جارى سنايدر ، من خلال زيارة قام بها إلى أستراليا فى خريف عام ١٩٨١ م . كان سنايدر يرتحل عبر الصحراء المركزية فى شاحنة بيك - أب ، مصحوبًا بعجوز من البينتوبى يدعى جيمى تجنغورى ، وفيما تحركت الشاحنة وهى تطوى الطريق بدأ العجوز الأبوروجونى فى الحديث بشكل سريع إلى سنايدر مخبرًا إياه عن قصة من زمن الأحلام حول بعض أناس الويلبى وتجربتهم مع بعض فتيات السحالى فى جبل يمكنهم رؤيته من طرف الشارع ، وحالما انتهت القصة شرع العجوز فى ،

«قصة أخرى حول تل آخر هناك وقصة أخرى حول مكانٍ آخر . لم أستطع مواكبته ، ولاحظت بعد نصف ساعة من ذلك بأن تلك كانت حكايات وقصص قصد بها أن تحكى أثناء «المشى» ، وأننى كنت أجرب وأعيش نسخة سريعة مما كان يمكن أن يُحكى ويُروى فى عدد من الأيام خلال الارتحال مشيًا على الأقدام» .

حكاية مشابهة رواها شاتوين . كان مسافراً فى جيب لاندكروزر مع عدد من الأصدقاء ، بما فيهم رجل أبوروجونى كان لقبه لمبى ، وكانوا يقودون السيارة فى بقعة محددة من خط الأغنية . لمبى الذى كان السلف - الجد لعشيرته هو القط الأصلى ، أو تشجلبا (قط صغير له ذيل طويل) لم يكن قد زار هذا المكان على خط أغنية القط الأصلى ، ومع ذلك فإنه الآن تمنى أن يذهب إلى هناك ليرى بعض الأقارب البعيدين الذين كانوا يحتضرون هناك ، فى خلال مدة سبع ساعات من القيادة عبر الريف الخلفى متعثرين فى أنهار جافة وتحت أشجار اللبان جلس الرجل الأبوروجونى بدون حراك على الكرسى الأمامى ، معصورا مابين السائق آركادى ، ومسافر آخر ، فيما عدا بعض الهزات الصغيرة عند عبور الجيب لجزء من خط الأغنية .

فيما بعد ،

«وصلنا إلى تأثير جدولين : أى أننا قابلنا جدول الماء الذى عبرناه فى الأعلى هناك على الطريق الرئيسى . أما هذا الجدول الأصغر فإنه كان على الطريق للتجيلبا - الرجال ، وكنا ننضم إليه فى الزوايا الصحيحة .

وفيما لف آركادى العجلة نحو اليسار فإن لمبى قفز إلى العمل ، مرة أخرى حشر رأسه من خلال النافذتين ، استدارت عيناه بوحشية حول الصخور ، المنحدرات ، النخل ، المياه . ارتجت شفتاه وتحركتا فى سرعة فى التكلم والمقمقة من بطنه ومن خلالهما ، خرج فحيح : صوت إعصار يهز أغصان الشجر .

عرف آركادى حالاً ذلك الذى يحدث . لمبى كان قد تعلم بيت شعر جده - السلف القط لإيقاع المشى ، لسرعة أربعة أميال فى الساعة ، وكنا نحن نرتحل على سرعة خمساً وعشرين ميلا فى الساعة .

غيَّر آركادى «جير» السيارة ليخفف من السرعة ، وبدأنا نزحف بمعدل لايزيد عن معدل السير مشيا ، وفى اللحظة نفسها ، وازن لمبى إيقاعه مع إيقاع السرعة البطيئة الجديدة . لقد كان يبتسم . اهتز رأسه طرباً للأمام والخلف . صار الصوت إيقاعاً موسيقياً جميلاً وممتعاً ، وعرفت أنت أنه فيما يتعلق به فإنه كان فى تلك اللحظة يتقمص روح القط - الأصلى ...» .

إن مثل تلك الحكاية أو الطُرفة تبدى بوضوح تلك المراسلة المحسوسة مابين اللغة الشفاهية والأرض ، إنه تحالف عميق جداً لدرجة أن المتحدث لابد أن يوازن إيقاعات قصصه وحكاياته أو أغانيه لتلائم درجة إيقاع وسرعة تحركه بين تلك التضاريس ، إنه وكأن أماكن محددة فى الأرض تنبثق منها حكايات أو مقاطع شعرية معينة من خلال أشخاص الأبوروجونى ، أولئك الذين يرتحلون عبرها ، أو لكأن الأمر أنه ليس الشخص الأصلى هو الذى ينطق ويتكلم ، ولكن بالأحرى الأرض هى التى تتكلم وتنطق من خلاله أثناء عبوره لها .

إن ذلك التخاطب والمراسلات مابين الصوت المتكلم - الناطق والأرض الحية ارتباط محسوس وعميق ، رابطة ذات أهمية حيوية للحفاظ على وجود وبقاء واستمرار البشر . فى أرضٍ جافة كخلفية أستراليا حيث موسم الأمطار ليس محدداً تماماً فإن الإمكانية أن تتحركٍ بحسب تغييرات الطقس والمناخ ضرورية وحتمية للاستمرار فى الحياة ، إن دائرة من الحلم الشفاهى تعتبر عمليًا منظومة تفصيلية من التعليمات للتحرك خلال البلاد ، طريقة آمنة عبر الأرض القاحلة والموحشة . إن عالمة الأنثروبولوجى هيلين بيانى قد حللت سلسلة مهمة ومتتابعة من بقع وتضاريس آثار الأحلام عبر مقطع واحد من خط الأغنية ، ووجدت أن كل بقعة تحتوى إما على مصدر للماء ، أو ملاذ للحماية ، أو مركز حيوى عالٍ لرؤية المنطقة المحيطة ، أو مجموعة من تلك المواصفات الحيوية ، وبالفعل فإن تضاريس وبقاع الأحلام تلك كانت الأماكن الوحيدة التى تمتلك تلك المزايا فى صحراء باستثناء ذلك موحشة وقاحلة .

بيانى وجدت أيضًا أن الأماكن والتضاريس الجغرافية الغنية والفياضة بشكل خاص قد تم عبورها بشكل مألوف ومشترك بأكثر من حلم واحد ، وقد عثر عليها واكتشفت فى مغامرات أكثر من واحد من أسلاف زمن - الأحلام ، وكانت لذلك تعتبر مقدسة لعدد من العشائر الطوطمية ، إن عدد وتعقيدات الطقوس المركبة المرتبطة بأى مكانٍ خاص من أماكن الأحلام تتنوع حسب درجة فيض وثراء المكان بالغذاء أو الماء ، أو الملاذ الذى يمكن أن يوجد فى ذلك المكان .

إن كل شخص عبر الاستعارة أو المتاجرة والمقايضة من أجل الحق فى أن يغنى امتدادات بعيدة من آثار أحلام الشخص أو غيره - ربما يوسع باستمرار معرفته بالطرق المحتملة والممكنة عبر الطرق الريفية التى يمكن له أن يرتحل عبرها فى الظروف

الصعبة ، وبما أن كل مجموعة من الأبوروجونى تتكون من أشخاص من عشائر طوطمية مختلفة أو من الحالمين فإنها سوف تمتلك فى العادة مخارج ومداخل أو منافذ لعدد من خطوط الأغنية ، وكذلك عدداً من الطرق للتحرك كلما ندر الماء أو الغذاء الداعى لذلك التحرك .

إن أغانى الحلم – بكلمات أخرى – تقدم أداة أو آلية سمعية للذاكرة ، طرقًا شفاهية لاستدعاء دروب ومسالك حيوية ومهمة عبر الأراضى الخشنة القاحلة .

ومع ذلك فإن هناك تركيبة للآلية الذاكرة تلك تعمل من خلال الحلم ، إن الطُرفتين أو الحكايتين اللتين ورد ذكرهما سابقا – كلتيهما تحدث فى سيارات تتحرك – تشيران إلى أن روى أو حكى قصص معينة أو غناء وإنشاد أغانٍ محددة فى حد ذاته ينتج من اللقاء الحسى مع أماكن وبقاع معينة ، وكما أن الأغنية فى تركيبتها تحمل ذاكرة عن كيفية التعرف على الأرض فإن مكان تضاريس معينة فى الأرض ينشِّط ويفعِّل الذاكرة لأغانٍ محددة وحكايات ، إن الأرض نفسها إذن ، تقدم آليةً بصرية للذاكرة ، منظومةً من المفاتيح البصرية لتذكر حكايات زمن الأحلام .

إن أهمية هذه العلاقة الثانية لآلية الذاكرة تصبح واضحة سرعان ما نعترف بأن الأغانى والقصص تحمل فى داخلها «أكثر» من مجرد منظومة للتعليمات للتحرك من خلال المناطق والأراضى المحيطة بكثير ، فيما الوظيفة التوبوغرافية للأغانى واضحة فى أهميتها الحيوية فإن الأغانى والقصص تقدم أيضًا المفاتيح للسلوك فى المجتمع ، إنها تطرح عبر أمثلة متعددة كيفية التصرف ، أو كيفية عدم التصرف وآداب ذلك فى أوضاع معينة ، إن أسلاف وجدود زمن الأحلام الذين تمثلوا فى تلك القصص ليسوا بأكثر أو أقل أخلاقية من أحفادهم فى العالم الحديث ، ومع ذلك فإن الأوضاع التى وجد فيها الأسلاف المختلفون أنفسهم والنتائج الصعبة والمحن التى غالبًا مانتجت عن سلوكيات وأعمال محددة تقدم منظومة جاهزة بالفعل لخطوط إرشادية عن السلوك الصحيح وآدابه لأولئك الذين يغنون أو يسمعون تلك الأشعار اليوم ، محرمات وتابو اجتماعى ، «الإتيكيت» ومفاتيح الآداب مابين مخلوقات وكائنات مختلفة – الطريق الصحيح للقنص والصيد لحيوانات معينة أو جمع محصول أو غذاء أو فواكه ونباتات وأدوية معينة – كل ذلك محتوى فى أغانى زمن الأحلام وحكاياته ، إنها الأرض نفسها

هــي المذكِّر والواعـظ الأســاسي لتلك التعليمات والوصـايا ، بما أن كل ملمحٍ أو بقعةٍ فيها تفعِّل وتنشط ذاكرة قصة معينة أو مجموعة من الحكايات .

لقد قابلنا مبكرًا مراسلات مثيلة فيما بين آباشى الغرب والذين بالنسبة إليهم تمثل الذاكرة الصوتية تعليمات محددة من القصص التى تتفجر عبر الاحتكاك بأماكن معينة حيث تكشفت فيها أو حدثت تلك القصص . إن أحد أطروحات هذا الكتاب القوية هى أن التداعى الحسى مابين توبولوجى بصرى من استدعاء سمعى - التداخل المتمازج للمكان الأرضى مع الذاكرة اللغوية - هو عنصر مشترك لكل الثقافات الشفاهية الأصلية تقريبًا ، إنه - من الممكن أن نشك - امتداد تلقائى لأعضاء الكائن البشرى ، امتداد يمكن تحويله بشكل متطرف ، ومع ذلك لايمكن محوه من خلال الكتابة الأبجدية .

وفى الحقيقة ، أنه حتى فى الثقافات الأوروبية ثمة مثال محتفى به لهذا الصبو والاستعداد برغم الشكل المبدل بشكل كلى ، فى كتابها ذى الشهرة المبررة «فى الذاكرة» فإن فرانسيس ييتس تصف تقنيات آلية الذاكرة المستخدمة فى الروى الكلاسيكى لليونان وروما لتذكر الخطب الطويلة (تقنية تتم ممارستها بانتظام عبر الرواة حتى بداية انتشار النصوص المطبوعة خلال نهاية عصر النهضة) وهؤلاء الرواة الخطباء كانوا يتخيلون قصرًا فسيحًا ، يمتلئ بالقاعات الكثيرة الواسعة والغرف والمقصورات والتفاصيل الدقيقة من الزينة والنقش ، عند ذلك يقوم الراوى بتخيل نفسه وتصورها بأنه يمشى ويسير عبر ذلك القصر ، وسوف يقوم بإيداع - فى أماكن مختلفة داخل الغرف - سلسلة من الأشياء المختلفة المتخيلة والمرتبطة بالأجزاء المختلفة لخطبته التى يعد لها فيما بعد ، لاستدعاء كامل تلك الخطبة فى تسلسلها الصحيح وتفاصيلها فإن الراوى أو الخطيب عليه فقط أن يتصور نفسه مرة أخرى يتمشى فى الطريق نفسه عبر قاعات وغرف ذلك القصر من قصور الذاكرة : كل مكان صادفه فى سيره سوف يذكره بمقطع معين أو جملة ليقولها أو الموضوع المحدد الذى عليه أن يطرحه فى تلك النقطة من مسار خطبته . وبدلا من المعاناة للحفظ وتذكر تلك الخطبة التى أعدها فى حد ذاتها فإن الخطيب يجد أن الأمر أسهل بكثير وأكثر أمانا بأن يربط الأجزاء المختلفة من خطبته إلى أماكن مختلفة فى داخل التكوين الخيالى ، فى توبولوجى متصور من خلال تجواله ومشواره الخيالى ، ولكن فيما الخطيب الكلاسيكى

يتوجب عليه بناء وتحرك فى داخل موازين توبوغرافية فى خيالاته الخاصة فإن البشر الأصليين فى أستراليا يجدون أنفسهم مستغرقين بشكل فعلى فى ذلك الحقل التوبوغرافى – اللغوى ، ماشين ومتجولين عبر أرض حقيقية مادية والتى كل ملمح وبقعة فيها تمثل بالفعل الكلام والأغانى !

فى أستراليا الأبوروجونية – إذن – يمكننا أن نكشف علاقتين أساسيتين لآلية الذاكرة مابين قصص زمن – الأحلام وسطح الأرض نفسه ، أولاً : الأحلام المنطوقة أو المغناة تقدم طريقة لاستدعاء طرق حيوية من خلال أرضية صعبة ووعرة فى الغالب ، ثانيًا : اللقاء المستمر مع ملامح وأوجه متعددة للأرض المحيطة يحرك الذاكرة للأحلام المنطوقة التى تستجيب لتلك الأماكن والبقع وتماهيها فى المعنى والمضمون . وفيما القصص المغناة تقدم آلية ذاكرة سمعية للتعرف على الأرض ، فإن الأرض نفسها تقدم آلية ذاكرة بصرية لاستدعاء قصص زمن – الأحلام ، وهكذا فإن بشر الأبوروجونى بالنسبة إليهم فإن قصص زمن الأحلام والأرض الحاضنة المحيطة بهم هى آليات ذاكرة مستوعبة ومتوالجة ، وتزدوج فى المعاش الحى فى عملية استثارة متبادلة ، إن الأرض واللغة – فى البعد الذى اللغة فيه متجسدة أساسًا فى زمن أحلام الأسلاف – فإن ذلك يكون غير مفصول أو متجزئ .

آخذين بالاعتبار معطيات هذا التداخل التبادلى فى الاعتماد مابين القصص المحكية والأرض الحسية فإن الممارسة الإثنوغرافية للتسجيل الكتابى للقصص الشفاهية، وبالتالى إصدارها بشكل مطبوع – يجب أن يرى كشكل خاص من العنف ، حيث القصص يتم تمزيقها إربًا عن الأرض المرئية بتضاريسها وملامحها التوبوغرافية المتجسدة ماديا والمستثارة عبر تلك القصص ، على سبيل المثال «إن الأرض المتكلمة» لرولاند وكاثرين بيرنديت المنشورة حول القصص الأبوروجونية المجمعة من خلال أربعة عقود من البحث هى قطعة مشرفة ودقيقة من البحث الأكاديمى ، ومع ذلك فإنه لايسعفها إلا أن تخيب آمال أولئك القراء الذين يأملون أن يجدوا فى تلك المجموعة من المغامرات المثيرة والحكى الحى مايشبعهم .

إن القصص المطبوعة تبدو غريبة فى أحسن الأحوال وفقيرة جداً فى بنيانها فى أسوأ الأحوال ، شىء ما يبدو مفقوداً ، بعض المفاتيح التى قد تفتح مغاليق المنطق الداخلى لتلك الحكايات، وإن هذا المفتاح هو لاشىء سوى الأرض الحية فى حد ذاتها ،

الحضور التجسيدى الفعلى الحى والمعبِّر عن الأرض المحلية . إن المفتقَد هو التوبوغرافية الصامتة ، أو الطبيعة الحية الصامتة للمكان ، التلال الحسية والينابيع التى تقف هناك وتطرح أسئلة المكان الخاصة التى تُجيب عليها تلك القصص ، إن الحكايات تستجيب مباشرة إلى الأرض كما أن الأرض تستجيب مباشرة للقصص المغناة أو المحكية . هنا ، مجتثة من مرجعيتها الحسية ، ومحولة إلى أرضية مسطحة بدونما ملامح أو تضاريس فى الصفحة ، فإن القصص العتيقة الأزلية تبدأ فى فقد قواها الخاصة من زمن الأحلام .

فى هذا الفصل درسنا القليل من الطرق التى يتمكن فيها المسار الخطابى للثقافة الشفاهية ، التقليدية ، القبلية ، فى الثقافات من أن يبقى مرتبطا لتلك الأصوات المعبرة والأشكال والحركات والاختلاجات الخاصة بالأرض الحية ، فى غياب أنظمة الكتابة الرسمية فإن المسار الإنسانى ببساطة لايستطيع عزل نفسه عن الحقل الأوسع للمعانى المعبرة التى يشارك فيها ، وبذلك فإن النماذج اللغوية لثقافة شفاهية تبقى مستجيبة بشكل مميز ، ومسئول ، لعالم الحياة لما هو أكثر من بشرى ، أو المنطقة البايولوجية الحية التى تسكن فيها تلك الثقافة وتعيش .

يتوجب أن يكون يسيرًا وسهلاً الآن أن نفهم تلك الغربة والاستلاب القهرى لأشخاص أصليين وشفاهيين تم إجبارهم بالقوة على الاجتثاث من أراضيهم التاريخية والتقليدية . إن الأرض المحلية بالنسبة إليهم هى الميزان نفسه لتوازن وانبثاق المعنى ، أن يتم إجبارهم على الاجتثاث من بيئتهم الأصلية (لأى سبب كان اقتصاديًا أو سياسيًا) هو أن نجبرهم على أن يصبحوا خرسًا غير قادرين على الكلام – أو أن نخرب ونعطل ونمنع المعانى من كلامهم ونجعله بدون معنى – هو أن نخلعهم تماما من أرضية السلام والتوائم والمعنى ، إنه – ببساطة شديدة – أن نجبرهم على الخروج من عقولهم وفقدهم لها ، إن «إعادة التوطين والتسكين» الضخمة أو «الهجرة الإجبارية» تطرح نفسها فى أجزاء كثيرة من العالم اليوم باسم «التطور» والتنمية (على سبيل المثال «التهجير» الإجبارى للناس الشفاهيين فى إندونيسيا وماليزيا بهدف صنع طريق للتجارة عبر إحراق وإزالة غاباتهم – يجب أن يُفهم فى هذا الضوء كأمثلة للمذابح الثقافية والحضارية) .

ومع ذلك فإنه فيما مثل ذلك «التقدم» والتطور الحضارى يزحف إلى الأمام فإن مقاومةً متزايدة قد بدأت فى الظهور فى داخل الحضارة التكنولوجية نفسها ، اشتعلت جزئيًا بسبب احترام جديد للطرق الشفاهية والحكمة والوعى بداخلها ، إن أنواع الدراسات المطروحة فى هذا الفصل والمتطرق إليها - دراسات توثيق للاعتماد الحميم للناس الشفاهيين وطرق حياتهم على خصائص للأراضى التى يحيون ويعيشون فيها - هى اليوم يتم رصدها بتأثير متزايد للهجوم - على أرضية قانونية - على الاستغلال والانتهاك الصناعى لأراضى الشعوب الأصلية . إن توثيق ورصد كيبث باسو للعلاقة الحميمة مابين آباشى الغرب وقصصهم التعليمية الإرشادية والأرض المستوعبة تم استخدامه بالفعل بنجاح قانونيًا لحماية أراضى ومياه وحقوق آباشى الغرب ، فى أثناء ذلك فإن التوثيق الخاص بآثار أحلام الأبوروجونى يتزايد رصده واستخدامه فى المحاكم الأسترالية للقوانين لحماية الأماكن الحيوية والمقدسة من المزيد من «التطوير والتنمية» .

للآماهوكا ، والكويكون ، وآباشى الغرب ، وقبائل الأبوروجونى المختلفة فى أستراليا - وكما هو بالنسبة للكثير من الثقافات الشفاهية ، الأصلية - فإن اكتمال وفهم لغة بشرية غير منفصل أو مبتور من فهم واكتمال سلامة البيئة المحيطة بهم ، ومن الحيوية التعبيرية للأراضى والكائنات الأكثر من بشرية ، إنها الأرض الحية هى التى تتكلم وتتحدث ، وإن الكلام والنطق البشرى مجردُ جزئية من مسار أكبر وأعظم اكتمالاً .

(٦)

الزمن ، والفضاء ، والكسوف الكونى

" علينا أن نقف بمعزلٍ عن التاريخ التقليدى حتى ونحن نستخدم تسجيلات ووثائق الماضى ، ذلك أن فكرة التاريخ فى حد ذاتها هى ابتكار ومُنجَز غربى قامت أطروحته الأصلية على رفض السكان الأصليين ، إنه يُشكل خبرة خارج إطار الطبيعة ويميل إلى تقليص المكان إلى مجرد مسرح تُؤَدى عليه الدراما الإنسانية . إن التاريخ ينظرُ إلى الماضى أساسًا بمنظور السيَر الذاتية والأمم ، إنه يبحث عن المبررات فى وعى ، وروحانية ، وطموح شخصية الرجال وتخليدها عبر الكتابة " .

بوول شيبارد

" إننى أتساءل إذا ما كان للتراب شىء ليقوله ؟ وإننى أتساءل عما إذا كان التراب يُصغى لما أقوله ؟ "

زعيم شاب ، من قبيلة كيوزيس

(أثناء الغناء لأراضيهم للحكومة الأمريكية فى عام ١٨٥٥م)



الجزء الأول

مفاهيم تجريدية

إن القصص والحكايات فى أعماقها الروائية تكمن خلاصة المعرفة والعلم التى تراكمت عبر أجدادنا وأسلافنا . أن تسمع قصة حُكيت وكررت فى طفولة الشخص ، وأن يحكيها المرء من جديد عندما يكتسب أحقيته ودوره فى ذلك فيما بعد (الآن هى قد تأثرت بنماذج تجارب الشخص وإيقاعات صوته) هو أن يحافظ بشكل فعال وحيوى على سلامة واكتمال ثقافة أو حضارة ذلك الشخص ، إن المعرفة العلمية والسلوكيات الأخلاقية والمحرمات الاجتماعية واللغة الحقيقية بالفعل نفسها أو طرق التحدث والخطاب للثقافة غير الكتابية تتم المحافظة عليها أساسًا عبر الأناشيد والغناء والقصص والأساطير والقصص الخيالية والألغاز وحكايات اقتفاء الأثر ، أى أنه عبر حكى وروى القصص .

ومع ذلك فإن القصص المحكية التى تُروى داخل إطار الثقافة الشفاهية غالبا ماتكون – كما قد رأينا – مرتبطة بعمق بمحيط الأرض الطبيعية والتى هى موطن تلك الثقافة ، إن القصص – بمعنى ما – ذات خصائص وسمات لا يمكن فصلها فيها عن المكان المحدد الذى نشأت فيه ، إن قصص الزمان البعيد لقبائل "كويكون" ، وحكايات "آغودزاهى" "لآباشى" الغرب ، وقصص الأحلام لقبائل "بنتوبى" و " بيتشاتا تاتاجارا " تقدم ثلاث طرق مختلفة حيث القصص القبلية تعزل وتنسج الناس الذين يروونها فى داخل نظام بيئتهم الخاصة بهم ، أو بشكل أكثر دقة هى ثلاث طُرُق حيث الأماكن الأرضية ، الطبيعية يمكن لها أن تتكلم وتتحدث عبر الأشخاص البشريين الذين يقطنونها ، ذلك أن الخطاب ذا الفحوى والمعنى ليس – فى الثقافة الشفاهية – مُعاشًا كقدرة بشرية محضة ، ولكن كقوى للأرض والطبيعة الحاضنة نفسها ، والتى يشارك البشر أنفسهم فيها ومن خلالها .

إن قصص مثل تلك الثقافات تمنح شواهد - إذن - للقوة المميزة لمناطق حيوية معينة ، الطُرق المميزة التى تنادى فيها وتدعو أنظمة بيئية معينة المجتمع البشرى ، ومع ذلك فإن هذه القصص غالبًا ما تقدم شواهد - أيضًا - حول الأماكن المعينة والمواقع فى تلك المناطق الضخمة . فى العالم الأصلى الشفاهى أن تحكى وتخبر بقصص معينة دونما أن تقول بشكل دقيق أين حدثت تلك الأحداث (أو إذا ما كان الشخص يستدعى ويسرد حلمًا أو رؤيا) أن تهمل القول والبوح بالمكان والموقع الذى " مُنحت " فيه الرؤية ، وقد يكون ذلك فى حد ذاته كابحًا ومعطلاً لقوة القص وتأثيره .

إن السحر المُتَفَرِد لمكان أو موقع واضح وجَلى مما قد حدثَ فيه هناك ، مما يحدث ويقع على الشَخص أو الآخرين وهم فى حضرته أو فيه . أن تروى عن تلك الأحداث هو ضمنيا أن تروى وتتحدث عن القوى المميزة لذلك المكان ، وأن تُشارك بالفعل فى طاقاته وإمكانياته المُعَبِّرَة ، إن الأغانى المناسبة لموقع ومكان معين سوف تشترك فى أسلوبها ، وإيقاعها الذى يتناسب مع نبض المكان ، ويتناغم مع الطريقة التى تَحدُثُ بها الأشياء هناك - مع حِديَة الظلال أو خرير الماء وكلامه فى باطن الأرض ، فى أيرلندا التقليدية فإن الشخص الريفى يمكنه الارتحال إلى نبع بعيد من أجل هدف الاستشفاء من الأرق ، وإلى نبع آخر بهدف تقوية النظر والإبصار ، وإلى آخر أيضا لتلقى الرؤيا والحرز ضد اللصوص ، ذلك أنه لكل نَبع قواه الخاصة به ، مباركته ، ولعناته . إن آلهة مختلفة تعيش وتسكن أماكن مختلفة ، وكذلك الشياطين المختلفة ، إن لكل مكان حيويته ، وأشكال حركته الخاصة ، وهذه النماذج تُشاغل الحواس وتصلها بطريق معينة ، فارضة أجواء وأمزجة معينة وطرق من الوعى ، وهكذا فإن أشخاصا، أُميين ، شفاهيين سوف يقولون بشكل صائب أن لكل مكان عقله الخاص ، شخصيته ، وذكاءه ووعيه الخاص به .

تجريدية الفضاء والزمان

فيما تقنية الكتابة تواجه وتنتشر عبر ثقافة شفاهية سابقًا فإن القوة المحسوسة وشخصية أماكن معينة تبدأ تخبو وتنطفىء ؛ ذلك أن القصص التى تُعبر عن تُجَسِّد تلك القوى يتم بالتدريج تدوينها عبر الكتابة ، إن التسجيل الكتابى للقصص الشفاهية تجعلها منفصلة لأول مرة عن الأماكن الفعلية التى حدثت فيها أحداث تلك القصص ، الآن يمكن أن تُحمل تلك الحكايات والقصص إلى أماكن أخرى ويمكن قراءتها فى مدن بعيدة وقَصية أو حتى فى قارات غريبة ، إن القصص سريعًا ما تصبح وكأنها تبدو مستقلة عن أى مكان محدد .

سابقًا كانت قوى الحكايات المحكية متجذرة فى طاقة وقوى المواقع المحددة التى تكشفت فيها الأحداث ، فيما إعادة قَص قصص معينة يمكن أن يحدث عبر استثارة بعض الأوضاع الاجتماعية المعينة ، فإن قيمتها الإرشادية والتربوية وتأثيرها الأخلاقى كان دائما معتمدًا (كما قد رأينا بين آباشى الغرب) على التواصل البصرى أو الحسى للشخص مع الأماكن الفعلية حيث حدثت أحداث تلك القصص .

قصص أخرى ربما استثارت عبر مواجهة مباشرة مع كائنات من الطيور أو حيوانات تم التعبير عن استغلالها فى الحكايات ، أو مع نبتة معينة قد بدأت للتو فى الإزهار ، أو عبر نماذج الطقس المحلى وتحولات الفصول ، فى مثل تلك الأحوال فإن الاحتكاك والتواصل مع التضاريس والطبيعة المحيطة فى المنطقة - والمواقع المختلفة أو الأماكن فى داخل تلك الأراضى - كان المحرك الأساسى لتوليد تلك القصص الشفاهية ، وكان بذلك أساسيًا وحيويًا للحفاظ على تلك القصص والثقافة نفسها .

حالما يتم تدوين القصص كتابة ، على كُل ، فإن النص المرئى يصبح المنشط الأساسى لتفعيل تلك القصص المحكية ، إن الآثار المُحبِّرة التى خلفها القلمُ وراءه وهو يرتحل عبر الورقة تحل محل الآثار الطبيعية التى تُخلِّفها وراءها الحيوانات ، أو أسلاف

المرء فى تفاعلاتهم مع الأرض المحلية ، إن الأماكن نفسها لم تعد مهمة وضرورية لتذكر تلك القصص ، وغالبًا ما تبدو وكأنها عَرَضية تماما بالنسبة للحكايات ، وخلفية هامشية لأحداثٍ بشرية يمكن لها أن تحدث ببساطة فى أى مكان آخر .

إنَّ العناصر المتقاطعة مع البشرى ، والبيئة المحددة للقصص الشفاهية الأصلية لا تصبح مجالا للتركيز عليها وغالبا ما يتم حذفها من الحكايات المكتوبة بشكل كامل ، وبهذه الكيفية فإن القصص والأساطير فيما تفقد شخصيتها الشفاهية الأدائية فإنها تفقد أيضا الروابط الحية للأرض والطبيعة الأكثر من بشرية ، وإن الأرض نفسها مُجردة من القصص الخاصة بها والتى انبثقت فى يوم ما من كل كهف ونبع وأشجار على سطحها تبدأ فى فقد قواها المتعددة ، إن الحواس البشرية مستغرقة فى الكلمات المكتوبة لا تعود مدهوشة فى قبضة الأشكال التعبيرية والأصوات للأماكن المعينة ، إن الأرواح تسقط فى الصمت ، وتدريجيًا فإن الشعور الأساسى بالمكان يصبح منسيا ومستبدلاً بأطروحة تجريدية عن " الفضاء " أو الفراغ كفراغ متناسق يخلو من المكان أو فراغ عدمى .

بالتأكيد ، عوامل كثيرة مختلفة عن ولكن مرتبطة مع الكتابة ساهمت فى فقدان الحس المكتمل والمميز للمكان ، إن تطور الكتابة فى الشرق الأوسط كما هو فى الصين كان مصحوبًا بزيادة ضخمة فى عدد المستوطنات البشرية ، بالإضافة إلى قدر كبير من نمو القدرة البشرية أو قبولها وقابليتها للهيمنة والسيطرة على الأرض وزراعتها ، بالرغم من أن التحركات المبكرة والانتقال من الصيد وجمع الثمار كأساليب حياة نحو الطرق الزراعية الأكثر استقرارًا قديمة جدًا ، وقد تكون تأثرت وعُززت بسبب التغييرات المناخية فى نهاية العصر الجليدى ، فإنه حالما بدأت الثورة الزراعية فى التنامى ، فإن الكتابة بدأت فى لعب دور مهم فى الاستقرار وبالتالى نشر أشكال الاقتصاد الجديدة . إن القدرة الدقيقة على القياس والوزن وإمكانية الوفرة الزراعية فى المحاصيل فى حد ذاتها قدمت الإمكانية عبر الأطروحات اللغوية والحسابية ، لتمكن الجديد ، والمرتكز بشكل مكثف فى المدن للبقاء والتطور - وخصوصًا عبر الأوقات والأزمنة العصيبة مناخيًا - وبالتالى مكنت التبادل التجارى للمحاصيل ونشوء الدول القومية ، إن التركيز الجديد والكثافة للأشخاص داخل مدن دائمة وعواصم ، والاعتماد المتزايد على تنظيم واحتكار إمكانيات طبيعية تلقائية يمكن له فقط أن يكثف من الاغتراب المتنامى للحواس البشرية عن التنوع البرى ، الحى والطبيعى الذى قد تطورت منه تلك الحواس، غير أن

اهتمامى فى هذا العمل ليس بالزراعة أو التمدين - المؤثرات الهائلة التى تمت دراستها فى كتب كثيرة - ولكن بالأحرى اهتمامى بالسؤال الغريب حول الكتابة ، أى بتأثير الكتابة على الحواس البشرية وعلى خبراتنا المعاشة الحسية للأرض والطبيعة من حولنا .

لقد رأينا أن الكتابة الأبجدية تعمل على تهميش الشخصية المتجسدة لخصائص المكان فى الثقافات الشفاهية بطريقتين مميزتين ولكن متصلتين ، إحداهما استيعابية أساساً ، والأخرى لغوية فى المقام الأول . أولاً : القراءة والكتابة كشكل عالى التركيز للمشاركة ، يحل محل التشاركية الأقدم ما بين الحواس البشرية والمحيط الطبيعى للأراضى (مؤثرا على تحرير النوايا البشرية من شروط الأرض التى تمليها بشكل مباشر) . ثانيا : إن كتابة وتدوين قصص الأسلاف يعزلها عن أماكنها الخاصة . إن هذا التراجع المزدوج - للحواس والقصص المحكية - عن الأماكن المختلفة التى كانت تحتضنها فى يوم ما قد مهد الطريق لأطروحة خالصة وبدون ملامح «للفضاء» ، وهو مفهوم تجريدى قد أصبح بالرغم من كل شىء يبدو اليوم أكثر أساسية وحقيقية عن الأماكن الطبيعية الأرضية والتى نبقى متجذرين ومتجسدين فيها بالشكل الحى المعاش .

لكن إذا كانت الكتابة الأبجدية عاملاً مهمًا فى انبثاق " الفضاء " التجريدى المتجانس فإنه لم يكن أقل أهمية فى انبثاق " الزمان " التجريدى الطولى ، بالنسبة إلى الثقافات الأصلية الشفاهية فإن ذلك التدفق اللانهائى الذى ندعوه " بالزمان " ذو شخصية دائرية مُذهلة ، إن حواس البشر الشفاهيين ما تزال متناغمة مع الأرض والمحيط الطبيعى من حولهم ، ما تزال متحاورة مع الخطاب المُعَبِّر للرياح وطيور وعصافير الغابة ، ما زالت مُشارِكة مع الكون الحسى ، إن الزمان فى عالم مثل هذا ليس منفصلاً عن دائرة الحياة للشمس والقمر ، وعن دائرة الفصول ، عن الموت وإعادة الولادة ما بين الحيوانات - عن العَود الأبدى للأرض الخضراء ، وبحسب عالم الأنثروبولوجى آلى هلتكرانتز :

" فإن الزمن الغربى ومفاهيمه تتضمن بداية ونهاية ، إن الهنود الحمر الأمريكيين فهموا الزمن كدائرة أبدية الحدوث من الأحداث والسنين . بعض اللغات الهندية الحمراء تفتقد لمصطلحات ذات مرجعية للماضى والمستقبل ، كل شىء يسكن فى الحاضر».

اليوم من السهل لمعظمنا الحياة وسط البنائيات المتحولة على الدوام للحضارة التكنولوجية المتعلمة بأن نستوعب وحتى " نشعر " خلف كل تلك التعاقبات للفصول فى الأراضى الحسية ، ذلك اللهاث المتلاحق للزمان الطولى وغير القابل للعودة للخلف ، غير أنه بالنسبة إلى ثقافات ليس لديها نظام الكتابة فإنه ليس هناك ببساطة نقطة انفصال يمكن من خلالها رؤية وملاحظة التغييرات الباطنة والتنويعات فى الدوائر اللانهائية للطبيعة ، إن هذه التغييرات التى تتم ملاحظتها غالبا ما يفترض بأنها جزء من دوائر أخرى أكبر حجمًا ، ذلك أنه بالنسبة إلى العالم الدقيق ، والواضح المرئى - العالم المنغلق على الجنس البشرى بسبب حواسنا المجردة - هو عالم دائرى وهكذا فإنه بكلمات هيها كا سابا ، أو الوعل الأسود ، من "أوغلاسيوس" :

" كل شىء تفعله قوى العالم يتم فعله فى دائرة ... الريح ، فى أقصى قواها ، تدور ، والطيور والعصافير تصنع أعشاشها فى أشكال دائرية ، ودينهم فى ذلك كما هو ديننا . الشمس تشرق آتية وتغربُ ذاهبةً من جديد فى دائرة . إن القمر يصنع الشىء نفسه ، وكلاهما مستدير ... وحتى الفصول فإنها تُشكل دائرة عظيمة فى تحولاتها ، ودائما تعود مرة أخرى إلى حيث ما كانت . إن حياة البشر دائرة من طفولة إلى طفولة وهكذا فإنها فى كل شىء تتحرك فيه القوى ... " .

إن منحنيات الزمان فى الثقافات الشفاهية يصعب جدًا التعبير عنها ببلاغة على الصفحة ، ذلك أنها تخالف النظام الطولى للخط المطبوع ، ومع ذلك للانشغال الكُلى ، الحسى ، مع المحيط الطبيعى الأرضى للشخص هو أن يجد الشخص نفسه فى عالم من الدوائر داخل دوائر هى الأخرى داخل دوائر ، إن قصص الأسلاف فى الثقافة الشفاهية يتم ذكرها وتكرارها مرارًا - وبهذه الطريقة فقط يتم الحفاظ عليها - وهذا التكرار المنظم يخدم لوصل المجتمع البشرى إلى الرقصة الدائرية اللانهائية فى الكون . إن قصص الخلق الميثولوجية الأسطورية لتلك الثقافات ليست - شبيهة بالطرح الغربى الإنجيلى لخلق العالم - وصفا لأحداث مفترض أنها قد حدثت ذات مرة فى الماضى البعيد ، إنها بالأحرى عبر الحكى نفسه لتلك القصص تشارك بشكل فعال فى عملية ابتكارية خلاقة يمكن أن تُحَس بأنها " تحدث فى اللحظة الراهنة " انبعاث مستمر يكون تجدده الفعلى والدورى " مطلبا " فعليًا مثل تلك المشاركة : ميرسى إلياد فى عمله المهم والمنير " الكون والتاريخ : ميثولوجيا العود الأبدى " قد أوضح أيضًا مثل أى أكاديمى المستوى والبعد الذى يسكن فيه الناس

الشـفـاهيـون ، الزمـان الدائرى دوريًا يتم تجـديده عـبـر طقس تكرار الأحـداث الميثولوچية من القنص والصيد إلى صيد الأسماك وجمع النباتات ، إلى كسب الشريك الجنسى ، بناء منزل ، أو فعل الولادة - إن ذلك هو تعاقب الحدث عبر فاعلية قوى الأسلاف أو الطوطمية فى الأزمان الأسطورية .

" إن الأساطير والميثولوچيا تحفظ وتمرر النماذج المقتداة لكل الأنشطة المسئولة التى يعمل وينشغل بها البشر ، عبر فاعلية هـذه النماذج للسلوكيات التى تُكشف للبشر فى الأزمنة الأسطورية فإن الكـون والمجتمع يتجددان بشـكل دورى " .

عبر أداء مثل تلك الأنشطة بعناية ، مستخدمًا الجُملَ نفسها والحركات المتضمنة فى الزمان الأسطورى ، فإن الشخص يمكنه فعليًا أن يصبح الكائن - السلَف ، وهكذا فإنه يجدد حيوية النظام القائم للعالم (تمامًا مثل رجل القبائل البنتوبى فى تجواله على قدميه ، ماشيًا على خُطى سلفه - الطوطم ، يُغنى العالم نفسه مرة أُخرى إلى الوجود) .

وحتى الأحداث غير العادية ، الاستثنائية تندمجُ تلقائيًا فى التعاقب الأسطورى للنماذج الرئيسية ، وهكذا فإن وصول كورتيز إلى شواطىء المكسيك يتم تفسيره لدى الآزتيك كعودة للإله الصغير " كويتزال كوتال " إلى مملكته (إنه تفسير يتم تشجيعه مباشرة واستغلاله عبر كورتيز نفسه)، وكذلك وصول كابتن كووك إلى هاواى يتم وعيه لدى سكان هاواى الأصليين كعودة لعظمة لونو . بالنسبة للثقافات الشفاهية ، وحتى لمجتمع متعلم جزئيًا مثل الآزتيك (والذين كتابتهم الصورية غالبًا بقيت التحامًا مستوعبًا للأشكال البصرية للطبيعة المحيطة) فإن الأحداث البشرية تتخذ معناها فقط إلى الحد والبعد الذى يمكن تحديده مكانيًا داخل كون محكى قصصيًا يعيد حكى نفسه باستمرار ، أحداث غير مسبوقة ، أحداث فردية لا مكان لها داخل القصص الدائرية ، يمكن أن لا يكون لها مكان أيضًا مابين الفصول المتحولة أو دوائر الأرض والسماء . إن الطقوس المتعددة للإثارة ، والاحتفالات التمهيدية ، والأغانى السنوية ورقصات القنص والحصاد كلها طرق حيث سكان المكان الأصليون يوظفون فعليًا إيقاعات الكون الأكثر من البشرى ، وهكذا يجسدون إيقاعاتهم الخاصة داخل تلك الأكثر اتساعًا فى دائريتها .

إن الأبجدية تحل محل ذلك وتبدله ، من أجل القراءة الصوتية يتوجب علينا أن نفرغ المشاركة المتداخلة الحواس والتبادلية ما بين حواسنا والأرض المحيطة بنا ، إن حروف الأبجدية ، كل منها يعود إلى صوت معين أو حركة صوتية للفم البشرى ، يبدأ فى العمل كمرايا تعكسنا لأنفسنا ، وهكذا فإنها تؤسس انعكاسية جديدة ما بين الأعضاء البشرية وإشارتها نفسها ، دورة قصيرة للتلقى الحسى ما بين تلك الأعضاء والأرض (" الذكاء التأملى الانعكاسى " هو تماماً ذلك اللوب الدائرى الانعكاسى ، هذا " الانعكاس " الجديد ما بين أنفسنا وإشارتنا المكتوبة) إن التجارب البشرية والأحداث تبدأ فى أن تصبح ممتعة بطريقتها ، ومستقلة عن علاقتها مع الدوائر الطبيعية .

إن تسجيل الأحداث الميثولوجية كتابة أيضاً خبرة جديدة للديمومة ، والثبات ، والنوعية غير المكررة لتلك الأحداث ، حالما يتم تثبيتها على سطح الكتابة ، فإن الأحداث الميثولوجية لا تعود قادرة على تغيير شكلها للتناسب مع أوضاع حالية مُستحدثة ، إن الأحداث الحالية يتم تجريدها وسرقتها من أسطوريتها والميثولوجيا الممكنة لها ، والتشبيه القصصى . عند كتابة الأساطير فإن الأحداث المعاصرة تتطلب تحديداً عارياً ومتميزاً غير معروف بعد ، فيما بعض تلك الأحداث العارية تصبح عرضة للوصف أو التسجيل الكتابى فإنها أيضاً تصبح ثابتة بذلك فى خصوصيتها وتفاصيلها ، وهكذا فإنها تفرض مكانها المحدد فى داخل التعاقب البطىء للأحداث المسجلة ، وهكذا تفعل القصة الشفاهية تدريجياً مانحة الطريق للتاريخ المكتوب ، إن الشكل الدائرى للزمان الأرضى يتلاشى وراء الوعى الجديد للتطور الذى لا يمكن عودته للخلف للأحداث المُشيَّئة ، والزمان التاريخى الطولى يصبح واضحاً .

لكن الآن دعونا نعود للخلف لدقيقة ، ذلك أنه عبر المناقشة فى هذه الطريقة الملعونة نوعًا ما لتأثير الكتابة الأبجدية على نشوء مفهوم " الفضاء " و " الزمان " الطولى لربما أكون قد تركت الانطباع بأن الفضاء والزمان كانا دائمًا – للناس الشفاهيين ولنا – أبعاداً غير مميزة للتجربة المعاشة ، وإن ثورة التعليم والكتابة ببساطة قد حلت محل الشخصية المعاشة لهاتين الظاهرتين المميزتين بالفعل . فى الحقيقة – على كُل – فإن الاختلاف فى حد ذاته والتمييز ما بين " الفضاء " عن "الزمان" قد وُلِدَ فى حد ذاته من خلال التغييرات والتحولات اللغوية والاستيعابية التى نناقشها نحنَ ، ذلك أن الزمان الذى هو دائرىّ أو استدارى هو " فضائى " بالقدر نفسه كما هو زمانى أو " وقتى " .

عدم التمييز ما بين الفضاء والزمان
في الكون الشفاهي

إننا نلامس هنا أحد أهم الحدود التى تمنع التفهم الحقيقى ما بين الغرب الحديث الأبجدى والثقافات الأصلية الشفاهية ، على غير غرار الزمان الطولى فإن الزمان الذى يستوعب دائريًا لا يمكن تجريده بشكل جاهز عن ظاهرة الفضاء أو المكان الذى يمثله عن - على سبيل المثال - الدورات الدورية الدائرية للشمس ، والقمر ، والنجوم ، على غير غرار الخط المستقيم ، الأكثر من ذلك ، الدائرة تُعلم وتغلق الحقل الفضائى ، وبالفعل فإن الفضاء المرئى الواضح الذى نجد أنفسنا فيه عادة عندما نخطو فى الخارج هو فى حد ذاته محاطًا بلغز دائرى اصطلحنا على تسميته " بالأفق " أو المدى ، إن رسوم وكونتور الأفق الدقيق يتنوع بشكل كبير فى أراضٍ مختلفة ، ومع ذلك كلما تسلقنا للوصول إلى قمة كبرى فإن الشخصية الدائرية للعالم المرئى تصبح واضحة وظاهرة ، وهكذا فإن الزمان الدائرى ، الزمن المعاش والمجُرَّب لثقافة شفاهية له الشكل نفسه الذى يرون ويفهمون به المكان أو الفضاء . وكلا الدائرتين هما فى الحقيقة واحد :

" إن اللاكوتا يحددوَن السنة كدائرة حول حدود العالم ، إن الدائرة رمز للاثنين معًا الأرض (بآفاقها المستديرة) والزمان ، إن تحولات شروق الشمس وغروبها حول الأفق خلال مسار السنة يعكس خطوط وشكل الوقت والزمان ، الوقت والزمان كجزء من الفضاء " .

على المسطحات العالية فى جبال الروكى ، حيث الأفق المرئى متسع وعريض بشكل خاص ، وهى ذات ترتيبات دائرية للصخور والأحجار متجمعة حول الذروة الأساسية ، إنه من المعروف أن ذلك " العَجَل الطبى " مازال مستخدمًا لدى الكثير من قبائل أمريكا الشمالية ، وكان يتخذ وظيفة الروزنامه لديهم ، أو بالأحرى إنها تمكن

الشخص ليُعَرِّف نفسه داخل بُعد ليس فضائيًا أو زمانيًا بشكل أوحدى وخالص . إن الصخرة الضخمة تقع بالتحديد داخل مكان انبعاث الشمس الشمالى ، محددة مكانًا هو بالقدر نفسه فى الزمان (عصا الصيف) والمكان ، إن اتحادًا مماثلاً – من ذلك النوع الذى هو " بالنسبة إلينا " بُعدين مختلفين تمامًا ، الفضائى والزمانى – يوجدُ مابين الآزتيك فى أوقات الغزو ، بحسب دييجو ديوران ، راهب إسبانى وصل إلى المكسيك فى النصف الأول من القرن السادس عشر :

" يكتب ديوران فى تقريره أنه ما بين الآزتيك ، الذين يوزعون سنواتهم ويقسمونها دائريًا بحسب نقاط رئيسية ، السنوات التى يهابُها الناس كانت للشمال والغرب ، بما أنهم يتذكرون أن معظم الأحداث غير السعيدة قد حدثت تحت تلك العلامات " .

وهكذا فإن مزاجًا دائريًا من الوقت لا يُميز نفسه بشكل جاهز عن الحقل الفضائى والمكانى حيث يجد الأشخاص الشفاهيون أنفسهم غارقين فيه بشكل مُعاش . غير أنه علينا أن نتذكر أن هذا الفضاء المُعاش هو فى حد ذاته مختلف جدًا عن الفراغ العدمى ، الجامد ، الذى اصطلحت الحضارة الأبجدية على تسميته " بالفضاء " أو الفراغ ، كما قد رأينا أعلاه ، الفضاء بالنسبة للثقافة الشفاهية تتم خبرته مباشرة كمكان ، أو أماكن – كبعد مميز ومستوى وجود يحتوى على أماكن متنوعة لكل منها قوته وطريقته فى تنظيم حواسنا والتأثير على وعينا ، على غير غرار تجريدية "فضاء" أبدى ومتجانس فإن المكان من الموازين النوعية الأولى ، حقل نابض يخفق للخبرة والتجربة المعاشة ، قادر على تحريكنا حتى فى هدوئه وثباته ، إنه مزاج للمكان ، إذن ، هو الذى دائما وقتى وزمانى ، ولا يتوجب علينا أن نندهش من أن الناس الشفاهيين يتحدثون عما هو بالنسبة إلينا ظاهرة فضائية تمامًا ، كانبعاث لعمليات حية وحيوية ، وعن المكان فى حد ذاته أو الفضاء كنوع من الديناميكية التى تتكشف على الدوام ، على سبيل المثال تحليل حديث فى طـــول كتاب للمفاهيم الفضائية ما بين الدِنى ، أو النافاجو ، يستخلص التالى بالنسبة إليهم :

"الفضاء ، مثل الأشياء أو التكوينات فى داخله حيـوى ، أى أن كل "التكوينات" ، " الأشياء " ، أو الوحدات المثلة للعمل والتلقى يجب أن تؤخذ بالاعتبار كوحدات منشغلة باستمرار فى العمليات بالكيفية نفسها ، الوحدات الفضائية والعلاقات الفضائية هى "نوعية " بالحس والمنطق نفسه ولا يمكن اعتبارها محددة بوضوح ، وجاهزة ككمية وجامدة فى عنصرها " .

إن المؤلفين يؤكدون – لذلك – أن أطروحة معقدة ومُركَّبة للفضاء – الزمان (أو بكلماتهم " الزمان – الفضاء ") سوف تكون غالبًا ترجمة نسبية أكثر لخبرة الناڤاجو المعاشة ،" عن ماهى تمييز واضح لمفاهيم ذات بُعدٍ واحد للزمان وثلاث أبعاد للفضاء" .

إن حالة مشابهة كان قد اكتشفها عالم اللغة الأمريكى بينجامين لى هورف فى تحليلاته المركزة والمستفيضة حول لغة " الهوبى " خلال مرحلة الثلاثينيات من ١٩٣٠ وحتى عام ١٩٤٠م ، هورف وجد أنه ليس هناك من مرجع لأى بُعد مُستقل للزمان فى الحقيقة ، ولا مصطلحات أو تعبيرات يمكن أن " تعود أو ترجع إلى الفضاء بطريقة كهذه كأن تستثنى هذا العنصر للوجود أو البعد الذى ندعوه بالزمان أو الوقت ، وهكذا فإنه عبر الإيماء بترك معنى يمكن الرجوع إليه على أنه الزمان أو الوقت" ، إن ما ندعوه " بالوقت " بكلمات أُخرى لا يمكن فصله عن خبرة الهوبى بالمكان أو الفضاء :

" فى وجهة نظر الهوبى هـــذه (تلك التى ندعـوها) الوقــت أو الزمـــان تختفى و (ذلك الذى ندعوه) الفضاء يُستبدَل ، وهكذا ألا يعود متجانسًا وفضاءً مباشراً مفرَّغًا من الزمان لحواسنا المفترضَة أو آليات نيوتن الكلاسيكية " .

إن أطروحات هورف الساحرة كانت غالبًا ما تؤخذ ببساطة ، للباحثين وطلابهم ، لتعنى – ما بين أشياء أُخرى – بأن ناس الهوبى لا يمتلكون وعيًا وقتيًا أو زمانيًا من أى نوع ، أو بأن لغة الهوبى جامدة بشكل مطلق ، وليس لديها من طريقة للتمييز ما بين الأحداث الأولى واللاحقة ، أو ما بين أحداث أو مسافات أقل من التى تحدث فى ذلك الذى " نحن " ندعوه بالزمان ، إن مثل ذلك الفهم المغلوط بلا شك قد تم تشجيعه من قبل مبالغات هورف الكثيرة قد قاد العديد من علماء اللغة فى السنوات الحالية إلى تحدى نتائج ومكتشفات هورف ، إن عدداً من الباحثين العاملين عن قرب مع اللغة الخاصة بالهوبى قد ادَّعوا أنهم نقضوا نتائج هورف بشكل كامل ، إن مثل ذلك النقض على كُلٍ هو أطروحات فى حد ذاتها معتمدة على قراءة مسطحة ومبسطة لنتائج هورف ، على رفض قائم على أن هورف لم يكن يؤكد غياب الوعى الزمانى ما بين الهوبى ، ولكن بالأحرى غياب – فى مسارهم – لأى مفهوم ميتافيزيقى وما وراء طبيعى للزمان يمكن عزله عن وعيهم الديناميكى بالفضاء أو المكان .

فيما هورف لم يجد أطروحات منفصلة للفضاء والزمان ما بين الهوبى إلا أنه كشف فى لغة الهوبى تمييزاً ما بين نموذجين أساسيين للوجود ، والذى دعاه

اصطلاحياً " بالمتحقِّق " " والمُحقَقَ " ، " المُحقق " يتجاوب بشكل عام مع أطروحتنا عن الوجـود " الموضـوعى " ، وهو يتكون من " كل ذلك الذى هو ، أو الذى كـان مفـتوحـًا للحواس ... بدون محاولة للتمييز ما بين الحاضر والماضـى ، غير أنه يستثنى كل شىء ندعوه بالمستقبل " . " المتحقق " ، على صعيد آخر :

" يتكون من كل ذلك الذى ندعوه بالمستقبل ، ولكنه ليس ذلك فقط ، إنه يتضـمن أيضًا وبشكل غير منفصل كل ذلك الذى ندعوه بالذهنى - كل شىء يظهر أو يبدو أو يوجد فى العقل ، أو كما يفضل أن يدعوه الهوبى بالقول فى " القلب " ليس فقط فى قلب الإنسان ، ولكن فى قلب الحيوان ، والنبات ، والأشـيـاء ، وفى الوراء هناك وفى دواخل كل الأشكال والمظاهر للطبيعة ، وفى قلب الطبيعة (نفسها) ... " .

إن " المُحـقق " - بكلمات أُخرى - هو ذلك الجانب من ظاهرة واضحة بالفعل بالنسبة لحواسنا ، فيما " المُتحقق " هو ذلك الذى ليس ظاهرًا أو واضحًا بعد ، ليس بالحاضر بعد بالنسبة للحواس ، ولكنه مفترض أن يكون نفسيًا يجمع نفسه نحو التحقق فى داخل أعماق كل الظاهرة الحسية المحسوسة ، إنه إحساس الشخص ، وشعوره ، وتفكيره ، ورغباته ، إنها كلها جزء من - وبالتالى مشاركة مع - تلك الرغبة الجماعية والتحضير الضمنى فى كل الأشياء - من انبعاث ونضج الذرة ، إلى تشكيل السحب وسقوط الأمطار - وبالفعل إن النوايا البشرية خصوصًا عندما تتركز فى الاحتفالات الدينية والصلوات تساهم مباشرة لذلك الذى يصبح متحققًا فى مثل تلك الظاهرة .

فيما لغة الهوبى تنتمى إلى عائلة يوتو آزيتك من اللغات فإن دنى المجاورة أو الناڤاجو يتحدثون لغة من عائلة الآثاباسكان - مثل الكويكون وقبائل أخرى للشمال الغربى البعيد ، منذ زمن أن كان أسلاف الآباشى والناڤاجو متجهين فى البداية نحو الجنوب منذ قرون طويلة مضت (إن البدو الناڤاجو جاءوا أولاً واحتكوا مع أُناس البيوبلو فى وادى ريو الكبير منذ حوالى ستمئة سنة مضت ، وبالتالى تكيفوا وتأقلموا فى صحراء أريزونا منذ ما يقرب من مئتى سنة مضت) على الرغم من ذلك فإن لغة الناڤاجو أيضًا تبدو أنها حافظت على أطروحة واسعة عن تأثير الرغبة البشرية والخيال على العالم الحادث باستمرار ، إنها أطروحة مماثلة جدًا لتلك التى وجدها هورف ما بين الهوبى . فى عام ١٩٨٣ م . وفى دراسة عن المواصفات اللغوية للناڤاجو تعزى

مبكرًا لادعاء مؤلفين بأن "الوجود" بالنسبة للناڤاجو ، " يجب أن يُفهَم كتحقق مستمر ... (ومثل) سلسلة من الأحداث ، بدلاً من أحوال أو أوضاع تحدث خلال الزمان " . ثم إنهم يذهبون إلى اقتراح بأن الناس الغربيين ، وذلك الذى يدعونه " المستقبل " يتم معايشته وتجربته لدى الناڤاجو على أنه :

مثل مخزون من الاحتمالات ، من الأحداث غير المكتملة الحادثة ، والظروف ، إنها (هذه الظروف) مازالت أكثر ذلك الذى «يصبح» (بدلا من يكون) ويتضمن فى عملية «للتحقق» من هذه الظروف نفسها . إن الكائن البشرى يستطيع - عبر أفكاره ورغباته - أن يمارس تأثيراً على كل تلك «الإمكانيات» أو الاحتمالات» .

ومن ثم ، فيما كان أى تمييز واضح مابين الفضاء والزمان نجد فى أمثلة لكلا اليوتو - آزتيك والآثاباسكان بمجموعات لغاتها ، تفريقًا طفيفًا مابين المحقق وغير المتحقق فضائيا ، أى أن هناك إحساسًا بالفضاء كانبثاق مستمر من الباطنى إلى الخارجى كوجود ، وللنوايا البشرية كمشاركة مع ذلك الانبثاق المحيط .

إن عدم التمييز مابين الفضاء والزمان كان أيضًا واضحًا فى مناقشتنا فى الفصل الأخير حول أطروحات أبوروجونى أستراليا من الشيرنجا ، أو زمن الأحلام مثل الزمان - البعيد للكويكون ، فإن زمن الأحلام لايعود إلى الماضى بأى معنى حرفى (إلى زمان أو وقت منته تم الفروغ منه) ، ولكن بالأحرى إلى الزمان ذى الصفة الباطنية النفسية لمحيط الأرض الحاضنة ، إن طرقا مختلفة من خلال أراضى الحاضر تمتلىء بقصص مختلفة منذ زمن الأحلام ، وبالفعل فإن كل حفرة ماء ، كل غابة ، كل بحيرة أو ينبوع يمتلك حلمه الذاتى ، وحياته الضمنية الخاصة ، إن حيوية كل مكان - الأكثر من ذلك - يتم إنعاشها عبر الاستثارة البشرية ، وإحياؤها عبر الأحداث المحكية المتبطنة بداخله ، إن زمن - الأحلام إذن هو أساس المحيط الفضائى والمكانى ، إنه ليس بمنظومة من الأحداث الجاهزة المحددة والساكنة فى ماضٍ منته ، ولكن إنها العمق نفسه للحاضر المعاش - النوم الأرضى ، أو الحلم ، والذى منه خارجًا تصبح الأرض المحيطة قابلة للاستمرار فى الحاضر ، ومرة أخرى الحلم البشرى ، النوايا البشرية ، الفعل البشرى والغناء يشارك بوضوح فى ذلك الحضور القادم .

إن أمـثلة كـثـيـرة أخـرى يمكن طرحـهـا ، إن هذه الأمـثلة القليلة من الجـوانب المتـضـاربة للأرض يجب أن تكون كـافـيـة على الأقل لعـرض ذلك «الزمـان» المنفـصل «والفـضـاء» ، على أنهـا ليست أطـروحـات قـاطعـة وكليـة فى الخبـرة البـشـرية ، إنه فى الأغلب بدون نظام رسـمى للأرقـام والأطروحـات اللغوية ليس من الممكن التـجـريد الكامل لحس رسـمى «بالزمان» المتطور من الخبرة المباشرة للبيئة الحية المتكونة ، أو مـايوازى الشىء نفسه ، لتجميد الخبرة الديناميكية للمكان الأرضى إلى حدس «لفضاء» جـامد ، ومـتـجـانس ، إذا كـانت هذه هى الحـال فـإن الكتـابة إذن يجب أن يُعـتـرف بهـا كظرف ضرورى للاعتقاد بفضاء وزمان مطلق ومميز تماماً .

منفيون فى الكلمة

بحسب ميرسى إلياد فإن العبرانيين القدماء كانوا أول ناس «يكتشفون» حالة الزمان الطولى ، غير المتكرر :

«لأول مرة ، كرَّس الأنبياء قيمة للتاريخ ، ناجحين فى تجاوز الرؤية التقليدية للدائرة (المفهوم الذى يضمن أن كل شئ سوف يتكرر للأبد) ، واكتشفوا زمنًا ذا بعد وطريق واحد ، إن هذا الاكتشاف لم يكن قبوله كاملاً ومباشراً فى وعى جميع الناس من اليهود ، وبقيت المفاهيم القديمة لزمن طويل قائمة» .

بالنسبة للعبرانيين القدماء أو ما نعرفه عنهم من خلال عدسة التوراة العبرية - إن العودة الدائرية للأحداث الفعلية تطلبت اهتمامًا أقل عن تلك الأحداث التى كانت مميزة وغير مسبوقة (الكوارث الطبيعية ، والحصارات ، والمعارك ، وأشباه ذلك) ذلك أن هذه الأحداث غير المتكررة كانت مؤشراً لإدارة (يهوى - YHWA) أو الله فيما يتعلق بالعبرانيين . وبمصطلحات إلياد ، فإن هذه الأحداث المميزة ،والتى كانت توابعها غالبًا ما تكون مدمرة (إما بالنسبة للعبرانيين أو أعدائهم) قــــد تم تفسيرها عبر الأنبياء " كغضب سلبى " وعقوبات ، وتعبيرات عن سخط يهوى عليهم ، وبهذا التفسير فإن هذه الأحداث غير المسبوقة قد تطلبت نوعًا من الاتساق لم يكن معروفًا من قبل ، وهكذا بدأت فى الوقوف خارجًا عن التجليات الدائرية للظاهرة الطبيعية ، والشعب العبرانى وصل إلى فهم نفسه فيما يتعلق بهذا النموذج الجديد ، وغير المتكرر للزمن ، أى فى العلاقة مع التاريخ .

" لأول مرة نجد تكريسًا وقبولاً متزايدًا لفكرة أن أحداث التاريخ تمتلك قيمة فى حد ذاتها ، فيما يتعلق بالبعد الخاص بأنها محددة ومقدرة بمشيئة الله " .

ومع ذلك من الضرورى أن ندرك ذلك الذى " لا " يذكره إلياد فى مناقشته - إن العبرانيين أيضًا هم الثقافة الأبجدية الحقيقية الأولى التى نعرفها ، هم أول "أصحاب الكتاب" ، وبالفعل فى حَدَثِ تأسيس الشعب اليهودى - الصرخة العظيمة على جبل

سيناء – " نقش " موسى الأوامر التى أملاها يَهْوَى (أكثر أسماء الله مخافةً) على لوحين من الحجارة ، ومن المفترض أنها كانت فى كتابة أبجدية (الأكاديميون المعاصرون يحددون الخروج الكبير من مصر حوالى عام ١٢٥٠ ق.م تقريبًا، لقد كان فى ذلك الوقت تحديدًا أن حدث أن الاثنين وعشرين حرفًا للألف – باء شُرِع فى استخدامها فى منطقة كنعان ، أو فلسطين) .

فى الحقيقة إن الوعى الجديد والاعتراف بالزمان غير الأسطورى أو الميثولوچى وغير المكرر فى الكتابة العبرانية يمكن استيعابه فقط بالمراجعية للكتابة الأبجدية فى حد ذاتها ، إن تسجيل القصص الحضارية عبر الكتابة – كما قد رأينا – يُثَبِّت الأحداث القصصية فى مكانها وخصوصيتها ، مزودًا إياها بدوام جديد وغير متحول فيما كتابتها فى تسلسل ثابت لأحداث متميزة متشابهة ، إن إحساسًا جديدًا بالزمان كتسلسل غير مُكرر بدأ فى فرض حضوره على الإحساس العام وفى تضاد مع الدائرية اللامتناهية للكون ، إن المستويات المتنوعة للكتابة فى التوراة العبرانية هى أول تسجيل يتم الحفاظ عليه لهذا الإحساس والمنطق الجديد .

كما قد طرحنا أيضًا الألف – باء القديمة باعتبارها أول نظام كتابة صوتى تمامًا مميزًا ومانحًا الأولوية للصوت البشرى ، إن الإسرائيليين الذين تزايد تعليمهم وجدوا أنفسهم فى قبضة علاقة حيوية لا مع الأشكال الطبيعية المعبرة من حولهم ولا مع الرسوم الجامدة أو الأصنام المألوفة فى الكتابة – التصويرية أو الثقافات الأيدوجرافية، ولكن مع كامل قوى الصوت البشرى ، لقد كان صوتًا سبق بوضوح وتجاوز ، كل حياة فردية – الصوت ، سوف يبدو للأبدية نفسها – ولكنه بالرغم من ذلك خاطب الشعب العبرانى مباشرة ، متحدثًا أولاً وأخيرًا عبر الحروف المكتوبة .

فيما محيط الأرض الطبيعية المرئى يقدم للثقافة الشفاهية القبلية مع منشط للذاكرة ، لتذكر قصصها الأزلية القديمة – كتابةٌ أبجدية مكنت القبائل العبرانية من الحفاظ على قصصها الحضارية بشكل منضبط ، حتى عندما كان الناس منقطعين لأجيال كثيرة عن الأرض الفعلية التى حدثت فيها تلك القصص ، عبر حملها للسطح المكتوب القصص الحيوية التى حملها قبل ذلك الأراضى نفسها فإن النص المكتوب أصبح نوعا من الأرض المتنقلة بالنسبة للناس العبرانيين ، وبالفعل إنه فقط هكذا عبر فضيلة الأرض المتنقلة تمكن اليهود من الحفاظ على ثقافتهم الواحدة ، وبالتالى أنفسهم

فيما تنقلوا فى كل مرحلة من مراحل المنفى من الأراضى الفعلية التى حدثت فيها القصص القديمة .

ومع ذلك فإن الكثير من القصص المكتوبة فى التوراة هى قصص بالفعل حول ضياع المكان ، المنفى ، إن أكثر القصص قدما فى التوراة العبرانية تتشكل حول - منذ البداية - محور النفى ، منذ طرد آدم وحواء من جنة عدن ، إلى رحلة التيه الطويلة للإسرائيليين فى الصحراء ، إن الإحساس اليهودى بالمنفى لم يكن أبداً مجرد حالة من الانفصال عن مكان محدد بعينه ، عن أراضٍ محددة ، لقد كان (ومازال) انفصالا عن الإمكانية نفسها للكينونة الكاملة فى الوطن أو البيت ، إن هذا الإحساس الأعمق بالضياع ، هذا الإحساس بالاستعداد الجاهز والدائم لكينونة المنفى غير منفصل كما أقترح عن التعليم الأبجدى ، هذا السحر العظيم والصعب الذى كان العبرانيون أول رعاته الحقيقيين .

إن الكتابة الأبجدية يمكن أن تشاغل الحواس البشرية فقط إلى المدى الذى تهدد فيه هذه الحواس - على الأقل مبدئيا - مشاركتها التلقائية مع الأرض الحية ، أن تبدأ فى القراءة أبجديا أن تكون جاهزا هكذا للضياع من المكان ، مقطوعا عن الغذاء الحسى للحقل الأكثر من بشرى للأشكال ، غير أنه أيضا الإحساس والشعور بالمذاق الذى مازال عالقا لذلك الغذاء ، وبذلك التوق والحنين للأمل بأن مثل ذلك التواصل قد يستعاد فى يوم ما . «ذلك أن كينونة أن تكون يهوديا (كما يكتب إدموند جيبس) يعنى نفى نفسك فى الكلمة وفى الوقت نفسه البكاء والعويل لمنفاك» .

إن الألم ، والوجع ، والحزن لهذا المنفى هو تماماً الأثر لذلك الذى تم ضياعه ، والتحدى للحميمية المنسية ، إن القصص فى سفر التكوين تتناغم بشكل عميق مع القوى الحية للأماكن ، وإن تلك القوة العالقة هى التى تمنح مثل تلك الرموز القوية للخروج والمنفى ، إن القصص ممتلئة بأسماء الأماكن المقدسة ، والكثير من هذه القصص تبدو متمحورة حول الحديث عن أماكن محددة وكيف اكتسبت أسماءها الخاصة ، فيما هذه الأماكن المقدسة لاتبدو أبدا بأنها تمتلك قواها الذاتية تماما (الكثير - على سبيل المثال . منها تأخذ قداستها من واقع أن يهودياً تحدث هناك أو كشف عن نفسه لأحد أبطال تلك القصص فيها) ، إن المكان الأرضى الطبيعى بالرغم من كل شىء يبقى عنصراً بنائيا للفضاء التوراتى .

الأكثر من ذلك أن مسيرة الزمان لقدماء العبرانيين لم تكن تماما طولية ، إن الأيام المقدسة الموصوفة فى التوراة مرتبطة عن قرب بالدوائر المزدوجة للشمس والقمر ، الأكثر من ذلك أن الزمان التاريخى غير المتكرر والذى طرحه إلياد يبدو بأنه يتناسب مع الإحساس بالانفصال الوجودى والمنفى ، إنه هكذا إذن فى العادات العبرية ، النفى من أبدية جنة عدن (وفيما بعد ، هدم المعبد) ينعكس فى المرآة ، فى الطرق الأخرى للتاريخ المتعاقب ، بالوعد بالعودة من المنفى ، مجىء المسيح ، ونهاية أو آخرة للزمان المنفصل ، إن مسيرة الزمان للأمام بمعنى أنه أخيرا سوف ينفتح للخارج ، متدفقا من جديد فى الأبدية الفضائية للمكان الحى (الأرض الموعودة) ، وهكذا نحو العصر الذهبى للسلام مابين كل الأمم ، إن الأبدية تكمن لا فى الجنة المنفصلة (قدماء العبرانيين لم يعرفوا مثل ذلك البعد أو الوجود) ولكن فى الوعد بمستقبل متصالح مع الأرض .

إن الزمان والمكان مازالا متأثرين بعمق ببعضهما بعضًا فى التوراة العبرية ، إنها ليست أبدا تماما مميزة وذلك أنهم مازالوا يبلغون ، مهما كانوا بعيدا ، عبر الخبرة التشاركية للمكان .

لقد تبقى لقدماء اليونانيين - مسكونين بنسختهم من الأبجدية - أن يشتقوا أطروحة كاملة بدونما مكان عن الأبدية - وجود غير مادى ، وزكى ، لأفكار خالصة تستريح تماما خارج العالم الحسى . إنه من الواضح أن الأبجدية الإغريقية ساهمت فى نوع من التجريدية النظرية مختلفة تمامًا عن تلك الموظفة لدى الرسل العبرانيين وكتابتهم ، جزئيا يمكن أن يُعزى هذا إلى الاختلاف التاريخى الشديد للمسار العبرانى واليونانى ، والتناقض الواضح مابين بشر متنقلين فى الصحراء مقابل ناس من أهل البحر الساحليين ، بالإضافة إلى منظومة من التأثيرات على الثقافة والحضارة الإغريقية التى وصلت مثل الأبجدية من البعيد ، ولكنه أيضا من عواقب تغيير أساسى بسيط غير أنه عميق تم تقديمه إلى الأبجدية عبر الكتبة الإغريق عندما اقتبسوا هذا النظام للكتابة من الإبداع المبكر للسامية ، يتوجب علينا أن نترك للفصل القادم مناقشة حريصة لهذا التحول الأساسى البنائى وتداعياته الحية المجربة ، هنا نحن بحاجة فقط إلى ملاحظة أن المفكرين الإغريق كانوا أول من بدأ فى الطرح التشييئى والموضوعى للفضاء والزمان كأبعاد متميزة ومنفصلة تمامًا .

غير أنها كانت عملية متشظية ومشتتة ، الناتجة عن الوصف المستفيض ، التحليلى ، والكتابات المتمحصة لأفراد كثيرين ومدارس فكرية ، إن المؤرخين الأوائل مثل هيكاتيوس من ميليتوس (٥٥٠-٤٨٩ق.م) ، وهيرودتوس ، (٤٨٠-٤٢٥ق.م) وثيوسيديدس (٤٦٠-٤٠٠ق.م) كانوا روادًا فى استخدام النثر المكتوب بدلا من الشعر لتسجيل الأحداث الماضية ، لقد مارسوا سخرية جديدة فيما يتعلق بقصص الآلهة والإلهات للبيئة الحية ، وعبر فصل أحداث الماضى عن التقاليد - الملتحمة لإيقاعات الشعر والقصص المغناة ، لقد خلخلوا الزمان نفسه من دائرة الأحداث للأرض الحسية فاتحين الباب للمجال غير المتكرر ، للزمان التاريخى الممتد بلا تحديد فى الماضى .

بعد قرن من ذلك سعى أرسطو طاليس (٣٨٤-٣٢٢ق.م) إلى تحديد بعد الزمان كما يجعل نفسه مشهودًا فى خبراتنا ، لقد استخلص أن «الزمان هـو بالتحديد : عدد حركة فيما يتعلق بالسابق واللاحق» إن الزمان ، بكلمات أخرى ، هو الذى يحسب كلما قسنا حركة مابين الدقائق السابقة ثم اللاحقة لذلك المطروح الذى ينجلى ، وهكذا فإن الزمان غير منفصل عن الرقم والتسلسل ، إنه يبدو فى كتابة أرسطو طاليس كسلسلة طويلة مستمرة من النقاط ، كل نقطة محددة «للآن» تقسم الماضى عن المستقبل .

بعد ذلك بقليل فى نصه المتميز والمؤثر «العناصر» فإن عالم الجبر الإغريقى يوسيليد (٣٠٠ق.م) طرح عبر تعريفاته وتحديداته الكثيرة أن الفضاء أو المكان نفسه يمكن أن يستوعب كوجود متجانس تماما ، غير محدود ، ذى أبعاد ثلاثة ، إن الشخصية المتجانسة لفضاء يوسيليد كان قد أشير إليه خصوصًا عبر تأكيداته بأن الخطوط المستقيمة المتوازنة - بغض النظر عن المدى الذى تمتد إليه فى اتجاهها - لايمكن لها أن تتقابل ، وفيما يصح هذا الوضع بالنسبة للفضاء المثالى المسطح الذى لايحمل ملامح أو تكوينات ، فإن العالم المعاش والمجرب الذى نسكنه ونحيا فيه لاينطبق عليه ذلك عادة ، وبالفعل نحن نعرف الآن أن أجواء الأرض نفسها - سطحها نفسه الذى نسكنه - يحدد الوضع المتوازى ليوسيليد : إن خطين ممكنين مستقيمين يبدآن متوازيين لبعضهما بعضًا على السطح المنحنى للجو سوف يلتقيان لاحقا ويتقاطعان ، مثل مدارىْ الخط المدارى والقطب الشمالى . وإننا مازلنا نرى عادة السطح المنحنى للأرض ، بكل عدم عاديته فى التضاريس والأماكن (جباله ووديان أنهاره) أن يكون

مجسدا بداخل الفضاء ذى الأبعاد الثلاثة مفتقدا أى انحناءات أو تقاطعات خاصة به ، هو شهادة غرائبية للتأثير الدائم لمفاهيم يوسيليد ، إن افتراضات يوسيليد زودت القواعد الكلاسيكية للأطروحات الغربية العلمية للفضاء منذ النهضة وحتى الأعمال التى أنجزها ألبرت أينشتاين ، وحتى خبرتنا «البديهية» المفترضة اليوم تبقى بعمق تحت تأثير مثل تلك الفرضيات .

فيما التقنيات المتطورة للأطروحات الرقمية والمقاييس لعبت دوراً واضحًا فى تطور هذه الأوصاف المبكرة فإن انتشار التعليم الأبجدى كان يلعب دوره وراء المشاهد ، مبدلاً العلاقات فى التلقى والاستيعاب مابين الإغريقيين والعالم الحسى ، وهكذا تدريجيًا يكشف الأبعاد الجديدة والواضحة للفضاء والزمان الذى طبقت عليه الأرقام والمقاييس فيما بعد .

فضاء مُطلق ، وزمن مطلق

ومع ذلك فإن وصفًا دقيقًا «لفضاء» متكامل «وزمن» متتابع ككينونات موضوعية قائمة كان عليها أن تنتظر حتى اختراع الكتابة المطبوعة ، ذلك أنه كان انتشار النصوص المطبوعة (النصوص التى إلى ذلك الوقت كان يتم نسخها بدقة باليد وحفضها مثل الكنوز فى مكتبات الرهبان والجامعات) فى مجتمع واسع من الأشخاص ، وبالتالى انتشار الأدبيات التى بالتالى توجت كيفية الكتابة الأبجدية وصعدتها بحيث غلبت كطريقة تفكير على الشفاهية التشاركية للخبرة بالطبيعة ، إن التفريق الدقيق مابين «الزمن» والمكان أو «الفضاء» كان مستحيلا طالما كانت نسبة كبيرة من المجتمع مازالت تحيا المحيط الطبيعى الحى من حولها ، وطالما كانت الظاهرة المادية (الفضاء) مازالت تُستوعب عبر الكثيرين على أنها تمتلك حيويتها وتلقائيتها وزمنيتها الخاصة ، إن إحراق عشرات الآلاف من النساء أحياء (معظمهن كن مداويات بالأعشاب ، أو قابلات ولادة ، أو من خلفيات ريفية) على أنهن «ساحرات» خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلادى يمكن فهمه بشكل مفيد على أنه الإبادة التى جربت – وكانت ناجحة تقريبًا – لآخر التقاليد الشفاهية المحافظ عليها فى أوروبا ، آخر التقاليد المتجذرة فى الخبرة التشاركية ، المباشرة عن النباتات ، والحيوانات ، والعناصر – بهدف تمهيد الطريق لهيمنة المنطق الأبجدى على العالم الطبيعى الذى يتم إرغامه باستمرار على المنظومة الآلية والمحايدة من أجل تشييئه .

لقد كان إسحق نيوتن فى عمله «الرياضيات الأساسية» لعام ١٦٨٧ الذى استطاع أخيرًا أن يمنح تشكيلا مطلقا «لزمن» مطلق منفصل «وفضاء» بإطار ضرورى لكونه الذى يدور على عقارب الساعة :

«زمن مطلق ، حقيقى ، وحسابى ، من نفسه ومن طبيعته ، يتدفق متساويًا بغض النظر عن أى شىء خارجى ...» .

«فضاء مطلق ، له طبيعته ، بغض النظر عن أى شىء خارجى ، يبقى دائمًا متشابهًا وغير متحرك ...» .

عبر هذه التشكيلات قصد نيوتن تمييز «الزمن المطلق» عن ذلك «الزمن النسبى» والذى هو ببساطة نظام التتابع للأحداث المستوعبة ، وأن يميز «الفضاء المطلق» عن ذلك «الفضاء النسبى» والذى هو نظام التعايش المشترك مابين الأشياء المستوعبة ، وفيما «الزمن النسبى» مجرد علاقة مابين الأحداث المادية ، وهكذا فإنه لايكون له وجود بمعزل عن تلك الأحداث ، فإن «الزمن المطلق ، الحقيقى ، والحسابى» هو بالنسبة لنيوتن ، حقيقة مستقلة لايمكن لنا أن نستوعبها مباشرة ، ولكنها تبطن كل الأحداث المادية وعلاقاتها . وأيضًا فإن «الزمن المطلق ، الحقيقى ، والحسابى» يوجد مستقلا عن كل الأشياء المستوعبة . فى حد ذاته هو خاوٍ - عدم ، مثل الزمن المطلق ، إنه لا متناهٍ فى مداه ، لايمكن خلقه أو تدميره ، ولا جزء منه يمكن تمييزه عن أى جزءٍ آخر .

عبر افتراض وجود ذلك الفضاء الفارغ وغير المتحرك - فإن هذا الفضاء نسبى لأى ولكل حركة - استطاع نيوتن بذلك أن يحسب حركة القمر أو الأرض النسبية لذلك الفضاء المطلق ، لقد كان فقط عبر افتراض هذه المرجعيات المطلقة أن استطاع هو أن يشتق نظريته حول الجاذبية الكونية ، أو نظرية «الجاذبية» . بعد طباعة ونشر «المبادئ» فإن نظريات وافتراضات نيوتن فيما يتعلق بالفضاء والزمن تم تحديها عبر عدد من الفلاسفة ، ولقد وجد نفسه فى مناظرات ممتدة مع مفكرين مشهود لهم مثل ليبينز وبيركلى حول سؤال إذا ماكان الشخص يستطيع عقليا تمييز المطلق عن النسبى بالنسبة للفضاء أو الزمن ، غير أنه بالرغم من أنهم تحدوا الشخصية المطلقة لفضاء وزمن نيوتن ، فإنه لا أحد من هؤلاء المفكرين تحدى الافتراض للفرق المطلق مابين الفضاء والزمن - ذلك الافتراض الذى صار الآن مشتركًا بأن الفضاء والزمن هما بعدان مختلفان كلية للخبرة والتجربة .

فى عام ١٧٨١م ، قبض إيمانويل كانط فى عمله «نقد العقل الخالص» على المناظرات المتعلقة بالطبيعة المطلقة والنسبية للزمن والفضاء ، لقد اتفق مع نيوتن حول أن الزمن والفضاء مطلقان ، وأنهما كانا مستقلين عن الأشياء والأحداث المحددة ، غير أن كانط كانت هذه الأبعاد المميزة بالنسبة إليه لاتنتمى إلى العالم المحيط إذ إنها توجد فى حد نفسها ، غير أنها كانت أشكالا ضرورية للوعى البشرى ، الشكلان الاثنان اللذان يستطيع العقل البشرى أن يشكل الأشياء التى يستوعبها عبرهما ، وهكذا فإنه فيما أنكر بأن الفضاء والزمن يوجدان بالضرورة بمعزلٍ عن الخبرة البشرية ، فإن عمل كانط بدا وكأنه يؤسس بقوة أكبر من ذى قبل - علىٰ الأقل فيما يتعلق بالبشر - «لفضاءٍ» و «زمن» ذى أبعاد مميزة ولايمكن الفرار منها .

ولا حاجة للقول بأن كتابات كانط لم يمكن ترجمتها للغات الناڤاجو أو البنتوبى .

الجزء الثانى

الزمن الحاضر الحى

عندما عدت إلى أمريكا الشمالية بعد ارتحالى مابين أهالى البلاد فى إندونيسيا والنيبال سرعان ماوجدت نفسى تائها ومشوشا وانتابتنى الحيرة تجاه جوانب كثيرة من حضارتى ، افتراضات كنت أراها بديهية فى السابق ، أو تلك التى كنت قد قبلتها منذ طفولتى كحقائق وفرضيات ثابتة غير قابلة للاهتزاز ، الآن صارت واهنة وذات منطق ضعيف بالنسبة إلىّ ، الاعتقاد - على سبيل المثال - «بماضٍ» و «مستقبل» واضح وثابت أين «كانت» مستويات الوجود غير المرئية التى كانت تمتلك قوى كبيرة على حيوات عائلتى وأصدقائى ؟ كل شخص كنت أعرفه بدا وكأنه يبذل جهداً كبيراً فى التفكير والمحاولة للتشبث بالماضى - مهووسين بالتصوير بالكاميرا والتسجيل بالڤيديو للأحداث وباستمرار يتحدثون ويتصورون تصورات عن المستقبل - مرسلين باستمرار بدفعات وأقساط لمنازلهم ، وسياراتهم ، وحتى من أجل أجسادهم ، وكنتيجة لكل تلك الانشغالات والهموم حول الماضى والمستقبل ، كل شخص بدا (بالنسبة إلىّ فى حالتى الجديدة التى عدت بها) وكأنه غير واعٍ لدرجة غريبة بالأحداث المتكشفة من حوله «فى الحاضر» . كانوا يبدون جهلة تماماً وغير مدركين لكل تلك الظواهر التى كان علىّ أن أصفى نفسى لها من أجل التواصل مع السحرة الأصليين فى مسار حقل عملى : حيوات الحيوانات الأخرى ، الحركات الضئيلة الصغيرة للحشرات والنباتات ، كلام الطيور والعصافير ، المذاقات فى الريح ، قطعان الأصوات والروائح ... إن عائلتى وأصدقائى كلهم بدوا جاهلين بالحضور الحسى للعالم ، إن الحاضر بالنسبة إليهم بدا لاشئ أكثر من مجرد نقطة ، لحظة تفصل الآن مابين «الماضى » و «المستقبل» ، وبالفعل فإننى كلما دخلت أكثر فى حوارات مع عائلتى وأصدقائى كنت أكثر استعدادا للشعور بانقطاع وعيى ، كما لو كان ذلك عبر مسطح من الزجاج العاكس ، عن الحياة الخاصة بالأرض والطبيعة ...

إن هناك تمريناً مفيداً كنت قد صممته آنذاك لأجنب نفسي السقوط بشكل كامل في الجهل الحضاري للزمن الطولي ، وأنت مرحب بك لتجريبه عندما تكون في المرة القادمة هناك في الخارج . إنني أحدد نفسي في مكان أو فضاء مفتوح نسبياً - تل منخفض جيد لذلك بشكل خاص ، أو حقل واسع - إنني أسترخي قليلا ، آخذ عددا من الأنفاس ، أحدق حولي ، ثم أغلق عيني ، وأسمح لنفسي لتبدأ في الشعور بكامل كتلة ماضٍ ، كامل الأحداث التي قادت إلى هذه اللحظة ، وأدعو إلى وعيي ، أيضا ، كامل مستقبلي ، كل تلك المشاريع والإمكانيات التي تكمن هناك منتظرة تحقيقها ، إنني أتخيل ذلك الماضي وهذا المستقبل ، كمنطادين منفوخين واسعين من الزمن ، منفصلين عن بعضهما بعضاً مثل كرتين من الساعات الزجاجية ، غير أنهما متصلان في اللحظة المفردة حيث أقف متأملاً إياهما ، ثم آنذاك ، ببطء شديد ، أسمح لهاتين الكرتين من الزمن في البدء في تسريب عناصرهما إلى تلك اللحظة الدقيقة التي مابينهما ، إلى الحاضر ، ببطء وعلى مهل في البداية تبدأ اللحظة الراهنة في النمو ، متغذية بذلك التسرب من الماضي والمستقبل فإن اللحظة الراهنة للحاضر تنتفخ بنسب تجعل معها تلك الأبعاد الأخرى تتقلص ، وسريعاً ماتصبح كبيرة وضخمة جداً ، والماضي والمستقبل يتقلصان إلى مجرد عقد على حافة تمدد واسع ، عند هذه النقطة أسمح للماضي والمستقبل بالذويان تماما ، وأفتح عيني ... .

إنني أجد نفسي واقفا في منتصف الأبدية ، حاضراً واسعاً وغير محدود ، العالم بكامله يرتاح داخل نفسه - الأشجار على حافة الحقل ، همهمات الجنادب في الحشيش ، السحب الدائرية تتوالى كالأمواج عبر السماء ومن الأفق للأفق ، في البعيد ألاحظ الطريق الترابي المنحني وسيارتي المغبرة تقف على حافته - هذه أيضا تبدو وأنها تملك مكانها في هذه اللحظة المنفتحة للرؤية ، هذا الحاضر الأبدي ، والروائح - إن الهواء مفعم بروائح من الغابة ، والحشيش ، والتراب من تحت الأقدام - الكثير من الرسائل التي تطوف مابين العناصر المختلفة في الأرض المستديرة ، إن البقايا المتآكلة لشجرة صفصاف متلاشية تقف لوحدها هناك في الحقل لاتبدو في هذه الأبدية ميتة بالفعل ، إنها محاطة بأحراش محبة ، وبصخور على حافة ذلك الدغل ، ويتحاورون مع هذه الشجرة العجوز حول الظلال ونور الشمس .

أخطو مقترباً ، أرى أن الجذع المتجعد حول الشجرة يعبره خطان من النمل ، أحدهما يتحرك للأعلى على الجذع والآخر يتجه نحو التربة ، من هذه المسافة القريبة أرى أيضا أن الظلال على الصخرة ليست ظلالا على الإطلاق ، ولكن بقعا من الغصن تنتشر خارجاً من نقط مختلفة من سطح الصخرة ، بأنسجة مختلفة وأحجام - أسود

مطفى ورمادى متكسر وأحمر طحينى عميق - كما لو أنه عبرهم تعبِّر الصخرة عن أمزجتها الداخلية . أحك ساقى ، من الغريب أن وضوح وتجلى هذا العالم لا يتقلص ، أمشى على الأرض ، أستدير حولى ، وحتى أقف على رأسى ، غير أن هذا الحاضر المفتوح لايختفى ، عدد من الغربان السوداء المحلقة تتسابق مابين الأشجار مطاردة بعضها بعضًا فى حركات مفاجئة ورشيقة ، أحدها يهبط على الشجرة المتجعدة ، «كاهر ! ... كاهر ! كاهر» الآن ينسل نحو الأرض أمامى مباشرة «كاهر ! » ويقف هناك ناظرا إلىّ ، على جنب ، عبر عينيه البنفسجيتين . إن أجفانه ترمش برشاقة مثل الستائر المعدنية ، إنه ينط من حولى ومنقاره الكبير ينفتح «كواهر !» أحاول أن أجيبه ، «كاور !» ويبدأ الطير فى التقدم إلى الأمام، إن الغراب لاينط ، أرى ذلك ، لكنه يمشى ، بحمق على هذه الأرض ، أستطيع أن أرى ريشه الصغير مغطيا منخريه على منقاره فيما النسيم يحمله من على الأرض ، وأحس بنفسى محمولا عبر النسيم الدائر نحو حافة الغابة ....

إن الأشياء مختلفة فى هذا العالم دونما «الماضى» و«المستقبل» ، إن جسدى يرتجف فى هذا العالم مثل الحيوان ، أعرف تمامًا أنه فى وقت ما من هذا الوقت ، يتوجب علىّ أن أعود إلى بيتى وكتبى ولكن هاهنا أيضًا بيتى، ذلك أن جسدى فى بيته ، فى هذا الحاضر المفتوح ، بعقله ومنطقه ، وإن هذا ليس بمجرد توهم أو هلوسة ، هذه الأبدية - إن هنالك شيئًا ما ملحًا تمامًا ، مستقرًا تمامًا ، وغير قابل تمامًا للاهتزاز حول هذه التجربة لكى تكون مجرد سراب ....

إن الصلابة غير المهتزة لهذه التجربة غريبة بالفعل ، إنه يبدو أن له علاقة بتلك الصلة مابين هذه الأطروحة الوقتية التى ندعوها «بالحاضر» والأرض الفضاء المتسعة التى نحيا فيها ، عندما أسمح للماضى والمستقبل بالذوبان ، خياليا ، فى الراهن للحاضر المعاش، فإنه عندئذ «الحاضر» نفسه يتمدد ليصبح حقلاً حاضنًا فى حضوره ، وهذا الحضور مشع وحى وتلقائى يفرض الشكل الدقيق والخطوط المناسبة للأرض الحسية المحيطة بنا ، وكأن ذلك شكله الأصلى ! إنه ذلك التناسب المدهش مابين المفهوم الوقتى (الحاضر) والمفهوم المكانى (الحضور الحاضن للأرض) الذى يبرر كما أعتقد ذلك الاستقرار النسبى والطبيعة الصلبة لهذه الخبرة ، وهذا يدفعنى للتساؤل فيما إذا كان «الزمن» و«الفضاء» متميزين إلى ذلك الحد الذى نعتقده ، ليس هناك أى جانب لهذا البعد والوجود زمنى بشكل محدد ! ذلك أنه يتألف من أشياء مكانية - فضائية لها كثافتها ووزنها ، وهى مكانيا ممتدة من حولى من كل الجوانب ، من الأشجار القريبة وحتى السحب البعيدة ، ومع ذلك فإنه ليس هناك جانب أيضا مكانىّ وجامد بشكل

ثابت ، ذلك أنه كل كائن مدرك – من الصخور وحتى النسيم وسيارتى تلك فى البعيد – يبدو مشعا بالحياة والحسية فى هذا الحاضر المفتوح ، وإننى غير قادر على فصل المكان عن الزمان ، أو العكس ، إننى مستغرق فى العالم .

فى عام ١٩٠٥ م ، تحدى ألبرت أينشتاين رؤية نيوتن حول الزمن المطلق والفضاء المطلق بأطروحته حول «نظرية خاصة للنسبية» إن معادلات أينشتاين فى هذا وفيما بعد فى «النظرية العامة للنسبية» لم تتعامل مع الزمان والفضاء ، لقد افترضت بدلا من ذلك وجود كونتنيوم ذى وحدة واحدة سماها أينشتاين «فضاء – الزمن» فضاء الزمن ، على كل ، كان مفهومًا تجريديًا عاليًا غير ممكن التفكير به بمعزل عن الرياضيات المركبة والمعقدة لنظرية النسبية ، إن كشوفات أينشتاين الرياضية – بكلمات أخرى – فعلت القليل لتحدى فرضية كانت بأن الفضاء والزمان المنفصلين كانا ضروريين وأشكالا لايمكن تجنبها فى كل الاستيعاب العادى ، وفيه الفضاء – الزمان يمتلك موضعه داخل النظام المفاهيمى للفيزياء النسبية فإن خبرتنا المباشرة «للاستيعاب» كانت ماتزال تحت افتراض بأنها متشكلة بحسب الأبعاد المنفصلة للزمان والفضاء .

وهكذا فقد سقطت فى تقاليد علم الظواهر لتدعو للتساؤل ذلك الفرق مابين الفضاء والزمان على مستوى خبرتنا المفاهيمية المباشرة ، بالطبع إن علم الظواهر لم ينطلق لكى يهدد ذلك التمييز والفرق ، ولكن فقط لمراقبة – بأكبر قدر ممكن من القرب – الكيفية التى تقدم فيها الظواهر نفسها إلى خبرتنا المباشرة ، المعاشة ، وبالفعل فإن علماء الظواهرتية مالوا لافتراض – فى البداية – تمييز واضح مابين الفضاء والزمان ، لقد كان نحو نهاية البحث والاستقصاء فقط فيما يتعلق بظاهرة «وعى الزمان» أن كان إدموند هسيلر قد بدأ فى طرح أن خبرة الزمان متجذرة فى بعد أعمق للخبرة أى أنها ليست فى حد ذاتها وقتية بشكل محض .

مساعد هسيلر ، عالم الظواهرتية الألمانى مارتين هايديجر ، عاد مرة أخرى وتكرارًا إلى التحليل الخاص بالخبرة الوقتية ، فى كتابه الضخم والمهم «الكينونة والزمان» كشف هايديجر ، أن تحت سطح الفكرة الأرسطية للزمان كتسلسل لا نهائى من «نقط الآن» إحساسًا منسيًا بالزمان وكونه الغموض الحقيقى للكينونة ، كقوة غريبة – مقاومة فى أساسها لكل أشكال التشييء والتمثل – وأنه بالرغم من ذلك تشكل وتصنع الإمكانية لكل علاقاتنا مع بعضها بعضًا والعالم ، إن هذا الغموض لايمكن تمثيله بدقة بسبب أنه أبدا لايتماثل مع نفسه ، زمان أساسى ، بالنسبة لهايديجر ، أنه منذ البدء خارج نفسه ، أو «غرائبى» ، وبالفعل الماضى ، والحاضر ، والمستقبل هنا كما قد وصفهم هايديجر «كالغرائبيات» الثلاثة للزمان ، الطرق الثلاثة التى عبرها

الحيوية الديناميكية للوجود تفتحنا نحو ذلك الذى هـــو خارج ذواتنا ، نحو ذلك الذى هو «آخر» .

ومع ذلك فـإن هـايديجـر بالتـدريج وصل إلى الشك بأن هذا الحس الإيحـائى المفاهيمى للزمان لايمكن التمسك به بمعزل عن خبرتنا السابقة للمفاهيمية بالفضاء ، وعليه فإنه فى مقالة مهمة كُتبت فى مرحلة متأخرة من عمله مـال هايديجر ، نحـــو بُعد أكثر أساسية ، والذى دعاه هو «الزمان – الفضاء» بُعد وجودى ليس وقتيا بكامله ولا مكانيًا بكامله ، حيث «الزمان» و «الفضاء» مشتقان بشكل مصطنع عبر عملية التجريدية .

فى أثناء ذلك فإن موريس ميرلو بونتى عمّق باستمرار أبحاثه حول الخبرة الاستيعابية والتلقى ، وأيضًا وصل فى أعماله الأخيرة للتأكد على بعد وجودى للتجربة أكثر أصالة عن الفضاء والزمان ، ومن حيث تم اشتقاق هذين البعدين منه ، فى ملاحظات عمله حول «المرئى وغير المرئى» يكتب ميرلو بونتى حول «هذا الزمان نفسه الذى هو الفضاء ، وهذا الفضاء نفسه الذى هو الزمان ، والذى كنت سوف أعيد اكتشافه عبر تحليلى للمرئى واللحم» ، غير أن هذا التحليل تم ابتساره عبر موته المفاجئ فى عام ١٩٦١م .

وهكذا فإن كل علماء الظواهرتية الثلاثة – هسيرل ، وهايديجر ، وميرلو بونتى – توصلوا بشكل مستقل فى مسار أبحاثهم المنفصلة إلى تصور أن التمييز التقليدى مابين الفضاء والزمان كان غير ممكن من وجهة النظر المباشرة ، لتجربة ماقبل الاستيعاب المفاهيمى ، كان هايديجر وميرلو بونتى الاثنان يطمحان نحو نهاية حياتهما لصياغة نموذج أكثر مباشرة للوعى ، بعد أكثر أساسية والذى خواصه ليست صارمة لا مكانيا ولا وقتيا ، ولكن بالأحرى بطريقة ما الاثنين معًا .

لقد رأينا أن مثل تلك الكيفية من الخبرة مألوفة بالنسبة للشعوب والناس الشفاهيين ، الأصليين ، والذين بالنسبة إليهم الزمان والفضاء لم يكونا منفصلين أبدا ، إن تقاليد علم الظواهر – كما قد يبدو – كانت تطمح نحو إنعاش مثل تلك الخبرة من داخل الوعى نفسه ، جاهدة لتتذكر – فى أعماق الفكرة التأملية الانعكاسية – التلقى الصامت حيث هناك تولد مثل تلك التأملات ، لا أحد من هؤلاء المفكرين كان ناجحًا تمامًا فى خلق المصالحة من جديد مابين الزمان والفضاء ، ومع ذلك فإن كتاباتهم الأخيرة تحمل مفاتيح وطلاسم لأولئك الذين يكافحون اليوم لجلب عقولهم وأجسادهم إلى بعضها بعضا من جديد ، وهكذا من أجل كسب وعى متدفق بالدماء للحاضر .

علم التخطيط (التوبولوچى) الأرضى للزمان

" إننى أبقى واقفًا على هذا التل تحت السحب المكتظة ، جلدى يقشعر بالأحاسيس ، إن الامتداد للحاضر يمسك بجسدى فى قبضته ، إن حواسى الغريزية – الحيوانية كلها يقظة ، أذناى متآلفتان مع تعددية الأصوات الدقيقة ، الشعيرات الصغيرة على وجهى تسجل كل حركة فى النسيم ، إننى متجسد فى هذه اللحظة المفتوحة ، عضلاتى تتمدد وتتقلص مع الحشائش ، إن هذا الحاضر يبدو لانهائيًا ، غير قابل للاستنزاف، ماذا إذن قد صار من الماضى والمستقبل ؟ "

لقد عثرت على طريقى لهذا الامتداد الحى عبر إذابة الماضى والمستقبل فى هذا الحاضر الحسى الذى يحيط بى ويحتوينى ، هل قمت بذلك بإزاحتهما تمامًا ؟ لا أظن ذلك ، أنا ببساطة قمت بإزاحة تلك الأبعاد كما يتم استيعابها تقليديًا – كأبعاد وجود مستقلة بمعزل عن الحاضر الحسى ، إننى عبر السماح للماضى والمستقبل بالذوبان فى اللحظة الراهنة للحاضر أكون قد فتحت طريقًا لتعافيهما التدريجى – لم يعودا مستقلين ، أبعاد وجود عقلية ، ولكن الآن كجوانب للحاضر القائم ، لهذه الأرضية التى تحتضن جسديًا ، وهكذا الآن أركعُ فى منتصف هذه الأبدية ، أصابعى العادية تحتضن التربة وعيناى تشربان المسافات ، محاولة أن تكشف – فى الأرض الحية – الماضى والمستقبل أين يمكن أن يسكنا .

ميرلو بونتى فى أحد الأوراق التى عُثر عليها فى مكتبه بعد موته ناقش المجال نفسه :

" بأى حس هذه الأرض المرئية تحت بصرى ليست خارجية لـ ... للحظات الأخرى من الزمان والماضى ، لكنها تحتويهم حقيقة وراء نفسها بشكل متبادل ، مع دواخل نفسها ، وليست هى وهم بجوار بعضهما بعضًا " فى " الزمان " .

وهكذا نحن نوجه هذا اللغز : أين – فى داخل الأرض المرئية – نستطيع أن نحدد مكان الماضى والمستقبل ؟ أين مكانهما فى العالم الحسى ؟

بالطبع يمكن لنا أن نقول إننا نستوعب الماضى من حولنا من كل جهة ، فى الأشجار العظيمة التى تنمو من البذور وتتلف منذ زمن طويل ، فى الضفاف المتآكلة للأنهار ، أو الشقوق المتسعة فى طريق قديم ، وأيضًا إننا نحدق فى المستقبل حيثما ننظر مراقبين سحبًا عاصفة تنبثق من الأفق ، أو شبكة عنكبوت تتشكل ببطء أمام أعيننا، بما أن كل ذلك الذى نستوعبه هو بالفعل بمعنى ما ، يحبل بالمستقبل ، لكن كيف إذن يمكننا " التمييز " ما بين هذين البعدين من الوجود الوقتى أو الزمانى ؟ نحن بالتأكيد نملك حسًا بأن الماضى والمستقبل ليسا هما الشىء نفسه ، وبالرغم من ذلك فإنهما مرتبطان بشكل غريب بكل ذلك الذى نستوعبه ، كيف إذن يميزان نفسيهما فى التلقى ؟ لو أننا قلنا أن " الماضى " هو حيث يأتى منه كل مانراه و " المستقبل" هو حيث كل شىء يمضى إليه ، فإننا ببساطة نتوسل السؤال ، مسمين نطاقين واضحين ومع ذلك نبقى عاجزين عن تحديدهما مكانيًا فى داخل الأرض المستوعبة ، وكأنما الماضى والمستقبل هما بالفعل حدس خالص للعقل يوجد فى بُعد غير مادى خارج العالم المحسوس ، هذا افتراضيًا مايدعو الكثير من العلماء والفلاسفة إلى تأكيد أن الحيوانات الأخرى لاتمتلك وعيًا حقيقيًا بالزمان – لاوجود لديها للإحساس بالمستقبل أو الماضى – بما أنها تفتقر لأى ذكاء يمكن له أن يفهم هذا البعد غير الحسى .

كحيوان أنا نفسى أبقى متشككًا فى كل هذه الأطروحات ، كل تلك الطرق التى عبرها تدعى فصيلتى من الكائنات امتلاكها لمصدر لحقيقة من المفترض أنها ترقد خارج عالمنا الجسدى المادى وحيث النباتات والأحجار والينابيع تمتلك كينونتها وخارج هذا النطاق الأرضى الذى نتشارك وجودنا فيه مع الحيوانات الأخرى، ومع ذلك كفيلسوف أشعر بالضغط علىَّ لتفسير تلك الغوامض ، تلك "الأزمنة " التى هى بشكل ما " ليست بالحاضر " ، تلك " الأحيان " الأخرى ، وهكذا الآن دعونا نجلب الحيوان البشرى والفيلسوف فى ذواتنا معًا ، نحاول أن نحدد مكانيًا : "الماضى " و " المستقبل " فى هذه الأرض الحسية .

أولاً ، علينا أن نهتدى ببعض الإرشاد المنهجى من ميرلو بونتى ، والذى فى عام ١٩٦٠ كان يكافح بالفعل لمنح صوت لهذا " الزمان أو التوقيت نفسه هو الفضاء أو المكان ، والمكان هو نفسه الوقت أو الزمان " . فى عمله الأخير وصف ميرلو بونتى العلاقة مابين العالم المتلقى والمحسوس والعالم الذى به من افتراضنا كمثال تجريدى غير متجسد بأفكاره : " إنه عبر الاستعارة من تكوين العالم يكون بناء وتشكيل كون

الحقيقة والأفكار بالنسبة إلينا " ، إن هذه الكلمات تؤكد أساسية العالم المادى المتجسد فى ارتباطه بكون الأفكار ، إنها تقترح إن تشكيلات أفكارى غير المادية الواضحة منقولة ومستخلصة كما قد كان من تشكيلات العالم المحسوس والمستوعب . إذا ما قرأنا ميرلو بونتى وكلماته بدقة وقبلنا بإرشادها فإننا نكشف أن ما نصبو للعثور عليه هنا واقتناصه - فى مسعانا العميق - هو جوانب محددة للأرض المستوعبة والتى أعادت خصائصها المحددة أو شكلها إلى تلك الفكرتين المُلِحّتين : "الماضى" ، و"المستقبل" .

إننا نبحثُ - بمعنى ما - عن تشكيل متجاوب أو متماثل مابين التشكيل المفاهيمى للماضى " و " المستقبل " والتشكيل المستوعب للعالم الحسى المحيط بنا .

إذا ما أخذنا نوعًا من طرق ميرلو بونتى ، أنه لمارتين هايديجر علينا أن نلتفت من أجل بنائية دقيقة لوصف " الماضى " و " المستقبل " عبر مسيرة حياته ، من أول وحتى آخر كتاباته ، منح هايديجر اهتمامًا خاصًا لظاهرة الزمن ، وإنه هو أكثر من أى مفكر آخر الذى طور علم ظاهرة الأبعاد الزمنية ، فى منتصف مقالة من أعماله الأخيرة " الزمن والكينونة " يسأل هايديجر السؤال ذاته الذى طرحناه نحن أنفسنا : " أين الزمن ؟ هل الزمن فى كل شىء ، وهل يملك له مكانًا ؟ " ثم إنه يذهب إلى التمييز بأن الزمن الذى يبحث فيه عن " الفكرة " المشتركة للزمن كمتتابعات طولية " للآن " :

" من الواضح أن الزمن ليس باللاشىء ، وبحسب ذلك فإننا نتوخى الحذر ونقول : هنالك وقت . ونصبح حذرين أكثر ، وننظر بتفحص وتمعن إلى ذلك الذى يُبدى نفسه على أنه الوقت ، عبر النظر قدمًا إلى الكينونة بإحساس الحاضر ، غير أن الحضور بمعنى الحاضر يختلف كثيرًا عن الحاضر بصيغة الآن ... " الـ" حاضر كحضور وكل شىء من ذلك الذى ينتمى إلى مثل ذلك الحضور يتوجب أن يدعى بالزمن الحقيقى ، بالرغم من أنه ليس هناك من شىء حالىّ ومباشر حوله من الـزمن ، ذلك أن الـزمن عادة ما يتمثل فى ذلك الحس من التتابعات لسلسلة محسوبة من (الأوان) " .

إن حركة هايديجر الفلسفية هنا للكشف وراء الحاضر المقدر على أنه " الآن " حس عميق بالحاضر " كحضور " ، يقارب حركتنا نحن التجريبية لمد " الآن " الدقيق عبر إذابة " الماضى " و " المستقبل " كما تتم خبرتهما تقليديًا محددين بذلك أنفسنا فى حاضر متسع ، وفسيح ، ومفتوح ، والذى نحن أيضًا ندعوه " الحاضر

كحضور"، وبحسب هايديجر ، إنه فقط من داخل هذه الخبرة للحاضر كحضور يستطيع ذلك " الزمن الحقيقى " (والذى فيما بعد فى المقالة سوف يدعوه " الزمان – المكان أو الفضاء ") أن يبدأ فى جعل نفسه واضحًا ومشهوراً ، فى حالتنا إن الحاضر قد صمم نفسه كحضور فقط عبر أخذ خطوطه الدقيقة من الأرض الطبيعية المرئية التى تحتضننا ، نحن الآن أحرار فى النظر من حولنا فى هذه الأرض الشاسعة ، من أجل مكان الماضى والمسقبل .

وهايديجر يقدم لنا مفتاحًا مساعداً ، فى " الكينونة والزمان " يكتب عن الماضى ، والحاضر ، والمسقبل على أنها " الانتشاءات "الثلاث للزمن ، مقترحًا بأن الماضى والحاضر والمستقبل كلها تجذبنا خارج أنفسنا ، إن الزمن مثير فى أنه يفتحنا نحو الخارج ، نحو ماذا ؟ الثلاث انتشاءات للوقت ، بحسب هايديجر ، " ليست تعاقبية فى الشكل الذى يمضى فيه الشخص ، بالأحرى هناك ينتمى لكل رحلة وإثارة " حالة " يتنقل إليها الشخص ..." إن كل انتشاءة للوقت تحملنا "، يقول هايديجر ، نحو " أفق " محدد .

حالما نمنح اهتمامنا لهذا الوصف الغريب سوف نلاحظ تجاوبًا واضحًا مابين التشكيل المفاهيمى للزمن ، كما قد وصفه هايديجر ، والتشكيل المتلقّى للأرض والطبيعة المحيطة بنا ، الأفق نفسه ! هايديجر يستخدم مصطلح " الأفق " كرمز تشكيلى ، طريقة للتعبير عن الطبيعة المثيرة للزمن ، تمامًا كما تبدو قوة الزمن أنها تضمن بأن الحاضر المستوعب دائمًا مفتوح ، دائمًا مكتشف بالفعل وراء نفسه ، وهكذا فإن الأفق البعيد يبدو وكأنه يمسك بالأرض الطبيعية المستوعبة مفتوحة ، رابطًا إياها دائمًا بذلك الذى يرقد فيما هو أبعد عنها .

إن الأفق المرئى ، بمعنى أنه نوع من المنفذ ، ينضم إلى الحاضر للأرض المحيطة إلى ذلك الذى يتجاوز هذا الحضور المفتوح ، إلى ذلك الذى يختفى فيما هو أبعد من الأفق ، إن الأفق يحمل الوعد بشىء أكثر ، شىء آخر ، هنا نحن صنعنا أول اكتشاف لنا : الطريقة التى بالأماكن الأخرى – أماكن غير حاضرة بشكل مباشر فى داخل أرضنا المستوعبة – هى بالرغم من كل شىء متصلة بالأرض والطبيعة الحالية عبر الأفق المرئى ، وهكذا دعونا نسأل : هل من الممكن أن مستويات الوجود أو المجالات التى نبحث عنها ، مكان " الماضى " وذلك الخاص " بالمستقبل " ، هى تمامًا وراء الأفق ؟

بالتأكيد هذه خطوة أولى مفيدة ، ذلك أنه من الواضح أنه لا الماضى ولا المسقبل هما تمامًا فى مخارج ضمن المفتوح فى الحاضر المُستوعَب ، ومع ذلك فإنهما يبدوان

متضمنين فى كل شىء، بما أن الأفق متضمن بالفعل لكل ذلك الذى يرقد فيما هو أبعد من الأفق فى داخل محيط الأرض الذى يصل كل شىء فى الحاضر ، يبدو ممكنًا أن نفترض أن كلا الماضى والمستقبل يسكنان فيما هو وراء الأفق .

ومع ذلك فإن هذا يدعنى حائرًا بعض الشىء ذلك أننى قادر إذن على حساب ذلك الاختلاف مابين الماضى والمستقبل ، إن الأفق لمحيط الأرض والطبيعة المستوعبة يتم تقديمه كما أعرف عبر العلاقة مابين جسدى والمجال الفسيح لجسد الأرض ، إن هذا ليس مجرد شىء قد قرأته أو تعلمته فى المدرسة ، لقد صار مشهودًا وحقيقيًا بالنسبة لى فى مجال مسار رحلاتى الكثيرة عبر الأرض ، مراقبًا الأفق الذى يتراجع باستمرار كلما مشيت نحوه مراقبًا إياه متسعًا بشكل غير متوقع ومحيطًا بى حتى وإن كان هو نفسه محتفظًا بمسافته ، ومع ذلك إذا مانظرت خلفى خلال ارتحالى فإننى أرى أن الحافة الغامضة أيضًا تتبعنى ، محتفظة بمسافتها ورائى كما هو الوضع من أمامى ، وتدريجيًا مبتلعًا هذه الأراضى عندما أمشى ، أقود السيارة ، أو العجلة بعيدًا عنها ، أيمكننى إذن أن أستخلص أن المستقبل وراء ذلك الجزء من الأفق نحو الجهة التى أواجهها ، فيما الماضى وراء ذلك الجزء من الأفق الذى يرقد خلفى ؟ إذن لسوف أحتاج فقط إلى الالتفاف حولى من أجل أن يتحول ماضىّ إلى مستقبلى ، والعكس صحيح ، غير أن هذا لايبدو صحيحًا تمامًا ، إذا ما ارتحلت نحو الأفق - نحو أى جزء من ذلك الأفق - سوف أقوم بالفعل بالكشف عن أشياء وأماكن جديدة كانت سابقًا فى مستقبلى ، وراء الأفق بالتأكيد أستطيع أن أحاول أن أعكس ، مثلما عندما أرتحل عائدًا نحو المدينة البعيدة حيث كنت أعيش ، لكن فى هذا أنا لست ناجحًا بدقة ، ذلك أن تلك المدينة ، عندما أصل لم تعد حيث كانت ، إن مبنى المدرسة القديم الآن يقف نصف منهار فى حقل كثرت فيه الحشائش المنسية والزهور البرية ،الحرش حيث فى كل ربيع كنت معتادًا على انتظار وصول طيور اللقالق - قد اختفى تحت مجمع ضخم جديد ... .

لقد تغيرت الأرض ، لا أستطيع ، تبدو رحلة نحو الماضى بالطريقة نفسها التى أستطيع أن أرتحل فيها نحو المستقبل ، ذلك أن الماضى " لايبقى " ماض فيما هو أبعد من الأفق ، إنه لاينتظرنى هناك مثل المستقبل .

إن عدم الاتساق الغريب هذا للماضى والمستقبل فيما يتعلق بالحاضر إلى الحد الذى جعل هايديجر يصفه فى مقالته الأخيرة " الكينونة والزمان " فيما فى " الكينونة والزمان" يكتب هايديجر عن الشخصية المركزية ، المثيرة للزمن - للزمن فذلك الذى

يجذبنا خارج ذواتنا فاتحًا إيانا لذلك الشيء الآخر - في هذه المقالة الأخيرة يؤكد على المركزية فى الامتداد الداخلى لطبيعة الزمن ، واصفًا الزمن كغموض باستمرار يقترب منا من الخلف ، مادًا ومقدمًا هدية الحاضر الذى بالرغم من ذلك يختفى خلف ذلك الحدث لتلك التقدمة ، إن مثل تلك الأوصاف قد تبدو غريبة ، وحتى غير محببة لآذاننا ، ومع ذلك يتوجب علينا أن نصغى إليها عن قرب ، ذلك أنه حالما نضجت أفكار هايديجر ،فإنه سعى حثيثًا لفك قيود الوعى البشرى من قيود الافتراضات البالية ، بدقة عبر استخدام كلمات مألوفة بطرق غير عادية خاصًا المصطلحات ومحررًا إياها من الاستخدام التقليدى ، وهكذا فإن الماضى والمستقبل تمت صياغتهما هنا كقوى خفية تقترب منا ، مقدمة وفاتحة الحاضر فيما بالرغم من ذلك تبقى منسحبة ، ومخفية عن الحاضر نفسه الذى تجعله ممكنًا ، فى وصف هايديج كلا الماضى والمستقبل يبقيان مختفيين عن الحاضر المفتوح الذى يجلبانه بالتبادل ، ومع تلك الكيفية التى يخفى فيها المستقبل نفسه فى تقدمه مختلف تمامًا عن الطريقة التى يخفى فيها الماضى نفسه فى معطياته ، وبالتخصيص ، المستقبل ، أو ذلك الذى سوف يأتى ، يحفظ بحضوره ، فيما الماضى أو ذلك الذى قد كان ، يرفض حضوره، إن المستقبل يحتفظ فيما الماضى يرفض فى أكثر أوصافه اكتمالاً لتدرج الزمن، يضع هايديجر الوضع هكذا :

" ماقد كان ، والذى عبر رفض الحاضر يسمح لذلك الذى سيعبر الحاضر والذى لم يعد بالحاضر ، والمجىء نحونا لذلك الذى سوف يأتى ، والذى عبر احتفاظه بالحاضر يسمح لذلك الذى هو حاضر والذى لم يعد حاضرًا - الاثنان [يصنعان] تحقيقًا للطريقة للانفتاح المتد الذى يمنح الحاضر فى المفتوح ".

إن السمة الغريبة للغة هايديجر هنا هى جزء من مشروعه : إنه يحاول أن يجنب استخدام الأسماء لأشكال محددة سوف تجمد التدفق الوقتى ، إنها تمامًا تلك الغرابة التى تمكن كلماته من الاقتراب وفتحنا نحو التشكيل الصامت لذلك الغموض الذى ندعوه بالزمن ، إذا ماتفحصنا تلك الكلمات من الداخل من ضمن الحاضر المفتوح للأرض حولنا ، فإننا نقاد للسؤال : أين يمكن لنا أن نستوعب ذلك " الاحتفاظ " وهذا " الرفض " الذى يتحدث عنه هايديجر ؟ أين يمكن لنا أن نبصر ذلك الرفض وهذا الاحتفاظ الذى ينفتح ويجعل من الممكن ذلك الحضور الحسى للعالم من حولنا ؟

لقد سبق أن لاحظنا السحر الذى ينغلق به الأفق ومع ذلك يبقى مفتوحًا للأرض والطبيعة الواضحة : تمامًا عبر إخفاء أو الأفضل من ذلك الاحتفاظ بذلك الذى يرقد

فيما هو أبعد من ذلك ، وهكذا فإن الأفق يمكن بالفعل أن يتم الإحساس به كاحتفاظ أو تحفظ ، ولكنه من الصعب أن يكون رفضًا .

إن شفاه الأفق للأرض والسماء يمكن أن تلامس بعضها بعضًا غير أنها أبدًا غير مغلقة ، ونحن نعرف بأنه إذا ما ارتحلنا نحو الأفق ، سوف يفتح ويكشف لنا تدريجيًا ذلك الذى يحتفظ به الآن .

أين ، إذن ، يمكن لنا تحديد مكان الرفض الذى يتحدث عنه هايديجر ؟ هل نتلقى ذلك الرفض من أى مكانٍ حولنا ؟ الأكثر أهمية من ذلك : كيف لنا حتى أن نعرف ذلك الذى نبحث عنه ؟ هنا مرة أخرى ، يقدم هايديجر مفتاحًا فى " الزمن والكينونة " ، يكتب حول الماضى والمستقبل " كغيابات " هى عبر غيابها فى حد ذاته تهمنا ، وهكذا فإنها تجعل من نفسها محسوسة ضمن الحاضر ، إن هذا التوصيف يساعدنا كثيرًا .

الآن على الأقل نستطيع أن نقول ما ذلك الذى نبحث عنه فى محاولتنا لتحديد مكان الماضى والمستقبل ، إننا نقتفى أمزجة الغياب ذلك عبر الطريقة نفسها لكينونة الغياب، تجعل نفسها محسوسة داخل الحضور الحسى للأرض والطبيعة المفتوحة ، أو بمصطلحات ميرلو بونتى (مصطلحات المرئى وغير المرئى) يمكن لنا أن نقول إننا نبحث عن جوانب معينة غير مرئية للبيئة المرئية ، مناطق معينة غير مرئية والذى يمثل اختباؤها بشكل ما تمكينًا أو ينتج الوضوح المرئى المفتوح للأرض من حولنا ، الأبعد من الأفق هو مجرد غياب كذلك أو مجال غير مرئى .

وهكذا فإنه يجب أن نسأل الآن : هل هناك جانب آخر غير مرئى ، غياب آخر فى منطقة هى عبر اختفائها تمامًا ضرورية نوعًا ما للحضور المفتوح للأرض والطبيعة ؟

بالتأكيد هنالك تلك الأوجه التى لا أستطيع أن أراها للأشياء أو الأجساد المحيطة بى - جوانب الأشجار التى تواجه الطريق من أمامى ، أو الجانب الآخر لتلك الصخرة المغطاة بالغصن - ومع ذلك فإن مثل تلك الاحتجابات شكلية كلها - بمعنى - لذلك الذى يرقد مختفيًا وراء الأفق ، إن الجانب الآخر من هذه الصخرة - على سبيل المثال - محجوب عن نظرتى غير أنه ليس رافضًا لها ، ذلك أننى أستطيع أن أكشفه عبر المشى إلى هناك ، تمامًا مثل ماأستطيع أن أكشف ذلك الراقد وراء الأفق عبر إطالة رحلتى نحوه .

ماذا عن جسدى الخاص ؟ حسنًا ، معظم جسدى حاضر لوعيى ، وواضح لنظرتى ، أستطيع أن أرى مفاصلى ، أعضاء جسمى ، وحتى أنفى، بالرغم من أن

ظهرى بالطبع مختف وراء أفق كتفى ، إن ماهو خلف جسدى غير متاح لنظرى ، ومع ذلك فإننى أعرف أنه موجود ، وأنه مرئى لطيور الغربان القابعة ، والغابات المختفية فيما وراء الأفق، ماتزال مرئية وحاضرة لأولئك الذين يعيشون فيها هناك .

ومع ذلك فيما أبحث فى الجانب غير المرئى من جسدى سرعان ماألاحظ منطقة أخرى غير مرئية : تلك لكامل ماهو بداخل جسدى ، ودواخل جسدى ليست - بالطبع - غائبة تمامًا ، غير أنها مختبئة عن الرؤية بطريقة مختلفة جداً عن اختفاء ظهرى ، أو تلك الأشياء التى ترقد فيما وراء الأفق ، إنها لحظة ، ألاحظ سريعًا وفجأة من الكيفية الشاسعة من الغياب أو عدم المرئى مناسبة تمامًا للأرض والطبيعة الحاضرة ، إنه غياب كنت قد أوشكت على نسيانه تماماً ، إنه غياب ذلك الذى هو تحت الأرض .

مثل ماوراء الأفق فإن الغياب تحت الأرض غياب مألوف جداً وضرورى جداً للحاضر المفتوح للعالم من حولنا ، بحيث أننا نأخذه على أنه أمرٌ مسلمٌ به تمامًا ، وهكذا فإنه كان صعبًا للغاية بالنسبة إلىّ أن أجلبه إلى الوعى ، لكن حالما فعلت ذلك فإن رؤية هذا المجال الخفى بدأ فى توضيح وإعادة توازن القوى المغناطيسية للمنطقة الأخرى غير المرئية فيما وراء الأفق .

ذلك أن هذين سوف يبدوان المجالين الأساسيين من حيث الأشياء تدخل إلى الحاضر المفتوح للأرض والبيئة الطبيعية ومن حيث أيضًا تخرج منها ، إن الظواهر الحسية المنطقية باستمرار تبدو منها وباستمرار تتلاشى من خلالها ، إن أحد التقاطعات هو ممر للدخول للأمام ، أو فى داخل انفتاح شاسع ، والآخر هو هبوط إلى أو صعود من كثافة معبأة ، فيما الأفق المفتوح يحتفظ بالمرئى لذلك الذى يرقد خلفه فإن الأرض هى أكثر حسماً فى إخفائها لما يرقد فى باطنها ، إن هذا الحسم ، ذلك " الرفض " لمفاتيح الدخول إلى ذلك الذى يرقد فى باطنها هناك فى الأسفل تحت الأرض هو الذى يمكن الأرض بثبات لدعم تلك الظواهر التى تتحرك وتحيا على سطحها ، وهكذا فإنه بالرغم من أن الغياب فيما وراء الأفق وذلك الذى هو تحت الأرض هما مغذيان لبعضهما بعضًا فإنهما يتناقضان بوضوح فى علاقتهما بالحاضر المستوعَب . يمكننا أن نصف ذلك التواصل فيما بينهما والتناقض كالتالى :

" إن ذلك الذى هو أبعد من الأفق ، عبر الاحتفاظ بحضوره يقبض مفتوحًا على الأرض والطبيعة المستوعَبة ، فيما ذلك الذى هو تحت الأرض عبر رفضه لحضوره ،

يدعم الأرض والطبيعة المستوعبة ". إن التقابلية والتناسق مابين هذين المجالين تحمل تشابهًا غير خفى للتقابلية والتضاد مابين " المستقبل " (أو ذلك الذى سوف يأتى) و"الماضى " (أو الذى قد كان) ، فى وصف مارتين هايديجر السابق الذى يحتفظ بالحضور والذى يرفض الحضور ، كلاهما يتيحان الحضور المفتوح للحاضر . هل نجرؤ فى الشك بأن هذين الوصفين يصفان الظاهرة الواحدة نفسها ؟ أعتقد أننا نستطيع ، ذلك أن هذا التوصيف مكتمل .

عبر قراءة ميرلو بونتى وهايديجر معًا وعبر وضع كلماتهما فى علاقة مع خبراتنا الخاصة ، نكون قد بدأنا فى ملاحظة أن الماضى والمستقبل - هذين البعدين الغريبين - قد يكونان مكانيين أو فضائيين بقدر ما هما زمنيين أو وقتيين ، وبالفعل لقد بدأنا فى وضع هذين البعدين لكشف أماكنهما فى داخل العالم المحسوس ، إن التجريد المفاهيمى الذى نصطلح عليه عادة بلفظ " المستقبل " سوف يبدو بأنه مولود من خلال وعينا الجسدى لذلك الذى هو مختف وراء الأفق لذلك الذى يتجاوز ، وبذلك يحتفظ مفتوحًا ، بالحاضر الحى . وذلك الذى اصطلحنا عليه عادة" الماضى " سوف يبدو متجذرًا فى حسنا الحى بذلك الذى هو مخفى تحت الأرض ، ذلك الذى يقاوم ويرفض وبذلك يدعم الحاضر الحى كأرضية وأفق ، فإن هذه الأبعاد ليست وقتية أكثر مما هى مكانية فى الوقت نفسه ، وليست بذهنية أكثر منها تجسيدية وحسية فى الوقت نفسه .

نستطيع الآن أن نكشف كيف استطاع ميرلو بونتى أن يقترب من هذا الاكتشاف عبر قراءة تعليقاته فى نوفمبر - ١٩٦٠ على ضوء اكتشافاتنا :

"بأى حس هى الأرض المرئية تحت ناظرى غير خارجية بالنسبة إلىّ ، وملتصقة نظاميًا بـ ... اللحظات الأخرى للزمان والماضى ، ولكن تجعلها فى الحقيقة وراء نفسها تبادليًا ، داخل نفسها ولكنها ليست هى وهم بحذاء بعضهما بعضًا (فى) الزمن " .

ذلك أننا الآن نستطيع أن نفهم هذا الوراء أو الخلف وذلك الداخل أو الباطن بطريقة وكيفية دقيقة جدًا ، إن الأرض والطبيعة المرئية تملك اللحظات الأخرى من الزمن " فيما وراء نفسها " بدقة فى ذلك الذى ينتظره المستقبل فيما وراء الأفق ، تمامًا كما هو وراء أو خلف كل كينونة أراها ، كما هو غير المرئى " الجانب الآخر " للمرئيات الكثيرة المحيطة بى ، والأرض المرئية تمتلك اللحظات الأخرى من الزمن " فى داخل نفسها " تمامًا فى ذلك الماضى الذى يحافظ على نفسه تحت الأرض ، كما هو فى دواخل كل كينونة أتلقاها وأستوعبها ، إن الأرض والطبيعة الحسية - بكلمات

أخرى – ليست فقط مفتوحة فى ذلك المستقبل البعيد الذى ينتظر فيما وراء الأفق ولكن أيضاً فى داخل المستقبل القريب ، فى داخل الحقل المحصن بالإمكانيات والمنتظر وراء كل شجرة ، من حيث العنكبوت يمكن له فى أى لحظة أن يأتى زاحفاً إلى وعينا ، وإن هذه الأرض والمحيط الحى مدعوم لا بذلك الذى هو أكثر استقراراً وبذوره فى الماضى تحت الأرض ، ولكن بالماضى المحصن الذى يستريح داخل كل شجرة ، وكل واحدة من الحشائش ، وفى داخل كل عضلة وخلية من أجسادنا .

إنه هكذا يمكن لعلماء البيئة وأنظمتها أن يدرسوا الماضى القريب لمكان محدد عبر " الدخول فى قلب "عدد من الأشجار الواقفة من أجل حساب دوائرها الداخلية وتفسير الاتساعات المتعددة لمحيط تلك الدوائر (إن المستوى المتسع بشدة ، أربع عشرة دائرة تطرح فعلاً من المطر الغزير منذ أربعة عشر عاماً مضت فى أعماق الماضى ، فيما سطح دائرة رفيعة بشكل كبير يخبرنا عن عام لم تهطل فيه الأمطار) إن الماضى الأعمق يمكن بحثه عبر حفر " مكانى ترابى " لكشف المستويات المختلفة من التربة وتفسير التشكيل والتكوين لتلك المستويات (مستوى من الفحم ، على سبيل المثال ، يطرح حريق غابة فى أعماق الماضى) فى أثناء ذلك ، علماء الحفريات الأثرية وعلماء الجيولوجيا يحفرون بشكل أعمق فى الأرض فى الحاضر من أجل كشف آثار الأزمنة القديمة .

ذلك الذى قد كان ، وذلك الذى سوف يأتى ليسا فى مكان آخر ، إنها ليست أبعاداً مستقلة عن الحاضر الذى نعيش فيه ، إنها بالأحرى الأعماق ذاتها للمكان الحى ، العمق الخفى والمستتر فى أبعاده والعمق المختبئ الذى نقف عليه .

مدفوعين بمسار مركزية المكان لدى الناس الأصليين ، الشفاهيين ، والذى يبدو أنه يفتقد لأى تمييز خالص مابين " الفضاء " و " الزمان " ، ومدفوعين أيضاً بتحليلاتنا للكتابة وآثارها الواضحة ، كنا نبحث فى إمكانية التصالح مابين الزمان والمكان ، وإذا كان التفريق مابين هذين البعدين ليس تفريقاً أو تمييزاً ضرورياً فإن علينا أن نكون قادرين على عرض الإمكانية لطريقة أخرى لرصد الأحداث ، طريقة حيث الجوانب المكانية والزمانية ليسا متمايزين فيها .

ولقد نجحنا فى عرض أنه هنالك على الأقل طريقة واحدة لتوحيد الخبرة بالزمان والمكان ، أى أنها بالفعل ممكنة إن تصالح – استيعابياً – الزمانى والمكانى بكيفية تبرر الانفتاح الواضح لذلك الذى اصطلحنا على دعوته " بالمستقبل " والانغلاق الواضح الذى اصطلحنا على دعوته " بالماضى " وبناءً على ذلك فإن مصالحة استيعابية مثل

تلك كان يظن أنها مستحيلة – عادة بسبب المكان أو الفضاء – حتى الفضاء المستوعب كان يفترض بأنه متجانس ، وبذلك يفتقد أى تشكيل متناسق يمكن له أن يتجاوب به مع التناسق الواضح للزمان ، إنه من الواضح – على كل – أنه عندما يكون وعينا بالزمان مرتبطًا بوعينا بالمكان ، المكان نفسه أو الفضاء يتحول ، المكان لايعود معاشًا على أنه فراغ متجانس كفضاء ، ولكنه يكشف نفسه كذلك الحقل الفسيح و الثرى المتشكل حيث نحن منغمسون فيه ، ذلك الاتساع المشع والتشكيل عبر الأرض والأفق معًا ، إنها الأرض تمامًا والأفق اللذان يحولان الفضاء التجريدى إلى المكان – الزمان ، وهذه السمات للأرض والأفق قد تم منحنا إياها عبر الأرض ، وهكذا فإننا عندما نسمح للزمان والمكان بالامتزاج معًا فى مكان – زمان متوحدين نعيد اكتشاف الأرض الحاضنة لنا .

لسوف يبدو – إذن – أن الفصل المفاهيمى للزمان والمكان – التفريق الأدبى والتمييز مابين طولى متقدم وفضاء بلا ملامح ، ومتجانس – يعمل على خسوف الأرض الحاضنة عن الوعى البشرى ، طالما شكلنا حيواتنا بحسب المقاييس الافتراضية بالمكان والفضاء الجامد والخط الطولى للزمان ، فإننا سنكون قادرين على تجاهل أو غض النظر عن اعتمادنا الكبير على الأرض من حولنا ، إنه فقط عندما يكون المكان والزمان متصالحين فى حقل واحد متحد للظاهرة يستطيع الحضور الحاضن للأرض أن يصبح واضحًا مرة أخرى بكل قواه وأعماقه ، كالأرضية نفسها والأفق نفسه لكامل معرفتنا .

أعماق الحسِّ

إن الأهمية التى قد قاد إليها تحليلنا نحو المكان فى ظاهرة مأخوذة على سبيل اليقين كأرض وأفق سوف تبدو غريبة لمعظم القراء ، وبالفعل لكل منا من الذين تربوا فى ثقافة تطلب منا أن لا نثق فى خبرة حواسنا المباشرة وأن نؤقلم أنفسنا بدلاً من ذلك على أسس حقيقية "موضوعية " ، تجريدية معروفة فقط عبر المقاييس الحسابية والأدوات التكنولوجية والتورطات الأخرى البشرية المحضة ، لكن بالنسبة لتلك الثقافات الأصلية التى مازالت مشاركة فى العالم الأكثر مما هو بشرى بالنسبة لأولئك البشر الذين لم يحولوا بعد تركيزهم الصافى من الأرض والطبيعة الحية نحو النظام البشرى الخالص للإشارات - فإن ألغاز ماهو تحت الأرض وما وراء الأفق (ما هو بدواخل الأشياء والجانب الآخر من الأشياء) تبقى محسوسة كغوامض قوية شاسعة ، مجالات أساسية من حيث ذات يوم دخلت الكائنات إلى العالم الحى ، ومن حيث ذات يوم سوف تخرج منه .

على سبيل المثال ، بين معظم القبائل الأصلية للجنوب الغربى الأمريكى حيث أعيش - بما فيهم مابين آخرين ، الهوبى ، والزونى ، والتتيوا ، والكيريسان ، وشعوب النافاجو - الناس يعتقدون أنهم قد جاءوا إلى هذا العالم من تحت الأرض ، بحسب الزونى وحكايات البعث لديهم أو الخلق فإن كل الناس (البشر والحيوانات الأخرى) عاشوا فى الأصل فى العالم المظلم الرابع تحت الأرض فى داخل هذا الكون ، تم استدعاؤهم من هناك بواسطة الشمس ، التى مع القمر يسكنان العالم المُنير فوق سطح الأرض ، وهكذا فإن الحيوانات - الناس جمعوا كافة مالديهم من أشياء مقدسة لصناعة المطر ، ولجذب البذور كى تنمو ، وتسلقوا إلى الأعلى على قصبة من خلال كل العوالم الأربعة تحت الأرضية - من خلال عالم الرماد ، وعالم رائحة السلفور ، وعالم الضباب ، وعالم المجنحين بالريش - حتى انبعثوا أخيراً فى العالم ، من السيبابو ، أو مكان الانبعاث انتشر الناس آنذاك وبدأوا فى الاستقرار فى الأراضى .

إن الانبعاثَ أحدُ المعتقدات الأكثر قداسة وانتشاراً مابين سكان أمريكا الشمالية الأصليين اليوم ، بالرغم من أنه واضح بشكل خاص فى الجنوب الغربى فى تكوين

القصة حول انبعاث الناس من تحت الأرض متسلقين عادة على قصبة أو عصا أو شجرة ، تشابهاً مع انبعاث الذرة من التربة والنباتات والمحاصيل الأخرى لدى القبائل الزراعية فى الجنوب الغربى ، إن البشر الذين يتسلقون من تلك الأعماق بحثاً عن ضوء الشمس والمطر هم مثل الذرة التى تنمو من خلال التربة .

غير أن هذا الانبعاث قريب أيضاً من العملية التى تولد بها كل الثدييات بما فيها البشر فى هذا العالم ، منبعثين من الظلمة لأرحام أمهاتهم إلى الأرض الفسيحة ، المفتوحة، " عندما صعدنا إلى سطح هذه الأرض ، كنا مثل طفل يولد من خلال رحم أمه ". فى الواقع حكايات مبكرة لانبعاث الزونى سُجِّلت فى القرن الماضى ، تصل فترة طويلة من قبل الوجود البشرى ، أخبار عن أن الشمس كانت تعيش مع الأرض ، وهكذا فإن الحياة قد حُبِلَ بها فى أعماق الرحم الرابع للأرض ، وهكذا فإن الانبعاث يمكن أن يُفهمَ كولادة جماعية لكل الناس – وكل الحيوانات والنباتات – بعد فترة طويلة من التخلف فى الأعماق المظلمة للأرض .

إن أكثر الاحتفالات الطقوسية المقدسة لدى قبائل البويبلو المتجولة تأخذ مكانها فى " الكيڤا " ، تحت الأرض أو غرف جزئية تحت الأرض تدعى أيضاً " الأرحام " عبر عدد كبير من أناس البويبلو ، يدخل الشخص " الكيڤا "عبر النزول عبر سلم من خلال حفرة على السطح ، وبعد الاحتفال الطقسى يغادر الشخص "الكيڤا "عبر تسلق السلم نفسه خابراً من جديد ، ومجدداً الانبعاث الرئيسى من عالم ماتحت الأرض. فى الواقع أنواع كثيرة من الفتحات الأرضية – حفر ، كهوف ، أخاديد ، ثقوب صغيرة فى الأرض وحتى فى الصخور – كلها تعتبر " سيبابو " عبر بشر البويبلو ، وهكذا فهى تذكرهم بأصولهم تحت الأرض التى تدعم وجودهم الآن .

إن الخبرة الفردية للولادة تتصل هكذا بالانبعاث الجماعى للحياة من تحت الأرض ، وشبيها بذلك الموت البشرى ، بالنسبة للبشر الشفاهيين هو ليس مجرد حدث شخصى ولكنه أيضاً تحول فى الأرض ، عملية حيث عبرها تتفتح حسية الفرد ووعيه للخارج للانضمام إلى الحقل المحيط لما هو أكثر من بشرى من الحواس . فى حكاية قديمة للباونى ، الرجل الميت يعود كشبح ، قائلاً : " إننى فى كل شىء ، فى الحشائش، والماء "، إن الميت لايترك العالم المحسوس ساعياً نحو جنة غير مادية ، وبالأحرى فإن طاقة وحيوية شخص قد مات غالبًا مايُعتقد بأنها ترتحل إلى ماهو أبعد من الأفق المرئى، إلى أرض قريبة حيث كل الأجداد والأسلاف يجتمعون فيها تقليدياً ، ومن حيث مازالوا يؤثرون على الأحداث على سطح أرض الأحياء ، فيما بين أناس البويبلو الذين

سبق ذكرهم – على سبيل المثال – يُعتقد أن الأموات يرتحلون إلى قرية " الكاشيناس " والتى هى بالنسبة إلى الزونى مكانها محدد تحت بحيرة يتم الارتحال إليها خلال سبعة أيام إلى الغرب ، " الكاشيناس " الأسلاف الأشبه بالآلهة عادة ما يعودون بانتظام إلى أناس البويبلو من أجل الاحتفالات الطقسية الموسمية حيث يتم تمثيلهم وتشخيصهم ، أو يتمثلون عبر الراقصين الذين يرتدون الأقنعة ، غير أن الكاشيناس يزورون أيضًا أناس البويبلو أيما وقت يشاؤون كسحب محملة بالأمطار تقترب من ما وراء الأفق ، حاملة السائل المانح للحياة والضرورى جدًا للذرة والنباتات الأخرى التى يعتمد عليها البشر الرعويون والزراعيون :

" إن الهوبى – مثل البويبلو الآخرين – يعتقدون بأن أسلافهم يخصبون السحب ، ويجلبون الأمطار التى سوف تنعش وتغذى محاصيلهم التى تعتمد عليها حياتهم وقوتهم ، إن ضرورة الموت ... تصبح أكثر أهمية لذلك ... الموت يجلب إلى الوجود الأسلا ف الذين يتحولون إلى سُحُب والكاشيناس الذين يجلبون المطر ، السائل الذى يغذى الذرة والأغذية الأخرى التى بالتالى تغذى الهوبى أنفسهم ، وفى الدائرة الأبدية الموت يغذى الحياة نفسها " .

مابين القبائل الأخرى غيرالزراعية أيضًا الموتى غالبًا مايُعتقد أنهم يرتحلون إلى أرض فيما وراء الأفق ، من حيث يمكن لهم العودة فيما بين الأحياء متخفين كحيوانات أو عناصر طبيعية أخرى ، وبالفعل لعدد كبير من أهل القنص إن المجال فيما وراء الجبال ، أو ما وراء المحيط كان حيث فصائل كثيرة من الحيوانات تسكن عندما لم يكونوا ظاهرين فى الأرض الطبيعية الحالية ، مجال حيث الغزال أو سمك السالمون كان يعتقد أنهم يخلعون أقنعتهم وتخفيهم الحيوانى ويحيون فى شكل شبه بشرى. لطرح مثال واحد لذلك فإن هنود سكاغيت الحمر فى الشمال الغربى لأمريكا الشمالية آمنوا بأن أسماك السالمون عندما لاتكون تسبح فى الأنهار فإنها تحيا فيما وراء الأفق فى شكل بشرى ، وهكذا فى القرن التاسع عشر ، عندما ارتحل عدد من هؤلاء الهنود الحمر إلى الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ورأوا الفائض من البشر ذوى البشرة الشاحبة يعيشون هناك جلبوا معهم تقارير بأنهم قد وصلوا إلى بلاد السالمون وأنهم قد رأوا أسماك السالمون ، تتمشى هناك على أنها كائنات بشرية .

أما بالنسبة إلى قبائل السهول الأمريكية – على الأقل فى القرن التاسع عشر – فإن سكن الموتى فيما وراء الأفق كان من المعتقد أنه كان أرضًا ممتلئة دائمًا بفائض من النباتات الغذائية والوعول البرية – " أرض القنص السعيدة" فى الأسطورة

المعروفة – فيما بعض الأفكار والأطروحات للشعوب الأصلية مثل هذه حول أراض خصبة وغنية حيث كان الأسلاف يعيشون كانت على الأرجح المصدر حتى لمعتقدات مسيحية حول الجنة السماوية . إنه من المهم ملاحظة أنه بالنسبة للشعوب والناس الشفاهيين فإن مثل تلك المجالات لم تكن أبداً مقطوعة عن العالم الحسى للحاضر المعاش ، لم تكن منعكسة تماماً خارج العالم المعاش والمجرب ، غير أنها كانت محسوسة كشىء غامض ، مختفٍ فى أعماق العالم الحسى فى حد ذاته .

إذا بذلنا بعض الاهتمام بحياة ونشاط القوى الكونية العظمى – الشمس والقمر ، وتكتلات النجوم – سوف نرى أن حتى هذه الكينونات المطروحة عادة كأعلى سمو عمودى تصاعدى فإنها تبدو أنها تنبعث من وتعود إلى الأراضى التى هى فيما وراء الأفق ، وهكذا فإن هنود الشوشونى الحمر – على سبيل المثال – أكدوا أن الشخص الميت " يتبع الدرب الحليبى " نحو أرض الموتى وهذا لا يحتاج إلى الإشارة ، كما يدّعى بعض علماء الأنثروبولوجيا بأن الشوشونى يؤمنون بالجنة السماوية ، ذلك أن الدرب الحليبى هو مجرد آثار خطوات أو " طريق " تتبعه أرواح الموتى ، وهذا الأثر – كما نرى بوضح – يقود بدقة إلى ما وراء الأفق .

مع ذلك يجب علينا هنا أن نشير إلى الالتباس الغريب ، إن ماهو أبعد من الأفق أو وراءه هو ذلك المجال حيث تذهب الشمس عندما تغادرنا ، والمجال الذى منه تنبعث عند الفجر ، إنه حيث يذهب القمر ويعود من هناك ، غير أننا نستطيع القول أيضاً بأن الشمس تغرق فى عالم ماهو تحت الأرض ، والقمر ينبعث من تحت الأرض ، ذلك أننا عندما نبذل اهتماماً قريباً لخبراتنا الحسية المباشرة لبزوغ وغياب القمر نرى أن رحلته فيما وراء الأفق هى أيضاً معاشة كحركة تحدث على الأرض وفيها ، وبالفعل فإن بزوغ الشمس فى كل صباح هو انبعاث أيضاً من تحت الأرض كما هو انبعاث الخنزير البرى مع نهاية الشتاء ! وهكذا ، على سبيل المثال هذه هى الكلمات لكتاب من الكيوا يدعى من سكوت ومادى :

" (أين تعيش الشمس ؟) ... بالنسبة للطفل الهندى الأحمر الذى يسأل السؤال ، يجيب والداه ، (الشمس تعيش فى الأرض) . إن راصد الشمس فيما بين أناس البويبلو فى الريو جراند والذى تتضمن مهمته المقدسة أن يراقب فى كل يوم النقطة ذاتها من حيث تنبعث الشمس على خط السماء – يعرف فى الأعماق ضمن كينونته أن الشمس حية وأنها غير قابلة للتقسيم مع الأرض ، وهو يرجع فى كلماته إلى المكان الشرقى على أنه " بيت الشمس " ... هل يتوجب على شخص ما أن يقول للشمس :

"أين تذهبين ؟ " إن الشمس لابد أنها سوف تجيب : " إننى ذاهبة إلى البيت " ، وإنه يفهم حالاً أن البيت هو الأرض ، كل الأشياء حية فى هذا الاتحاد العميق حيث الكل عناصر ، كل الحيوانات ، كل الأشياء ... إن أبى يتذكر ذلك ، كولد كان قد راقب باندهاش وشىء مثل الخوف الرجلَ العجوز كوى - خان - هول ، " طائر التنين " يقف فى الضوء الأول ، ذراعاه ممدودتان ووجهه المرسوم مثبت نحو الشرق ، (راصداً الشمس خارجة من الأرض)" .

من وجهة نظر علم الظواهرتية يعتقد أن المدار الضوئى للشمس يرتحل نحو الأرض كل مساء ، متحركًا طوال الليل عبر كثافة ماتحت الأقدام كى ينبعث مع الفجر فى الجانب المعاكس للعالم المرئى ، بالنسبة إلى بعض الحضارات أو الثقافات الأصلية فإنه بدقة خلال هذه الرحلة عبر الأرض تقوم الشمس بتخصيب الأرض التى تحبل بالحياة النارية مانحة البزوغ للأشياء الحية - البشر وغير البشر - والتى تُونع على سطح الأرض .

وهكذا فإن الرحلة إلى ما وراء الأفق يمكن أن تقود نحو ما تحت الأرض ، والعكس صحيح ، نحن نبدأ برؤية بعض الضوء من هويتها السرية ، بالنسبة للناس الشفاهيين ، لتلك المناطق التوبوغرافية التى اصطلحنا على تسميتها " بالماضى " و" المستقبل " - الكيفية الغريبة التى عبرها هاتين الكيفيتين من الغياب تستطيع بالرغم من كل شىء التحول من واحدة إلى أخرى ، والتحديق فى بعضها بعضا ، مثل الأمزجة إنه هكذا فإن الكثير من الثقافات الأصلية لديها اصطلاح واحد لتحديد الماضى العميق والمستقبل البعيد. فيما بين الأنويت فى جزيرة بافين على سبيل المثال ، فإن المصطلح Uvatiarru يوفاتيارو يمكن ترجمته على أنه كلا الاثنين " الماضى البعيد" " و " المستقبل " إن دائرية الماضى البعيد والمستقبل البعيد أو ذلك الذى قد كان إلى ذلك الذى سوف يأتى قد يبدو أنه يأخذ مكانه باستمرار ، فى الأعماق هناك تحت الحاضر المرئى ، فى ذلك المكان حيث الأراضى غير المرئية فيما وراء الأفق تبدو فى التكشف ثقافة غير مرئية تحت أقدامنا .

إن مارتين هايديجر والذى بأوصافه الدقيقة للماضى والمستقبل قد ساعدنا فى الانتباه إلى هذين المجالين كبعدين حقيقيين لمجال التلقى والاستيعاب - لم يكتب حول هذين البعدين الوقتيين فقط ، على كل ، ولكن عن " ثلاثة " بما فيها الحاضر ، فى "الكينونة والزمان " ، أكد هايديجر أن الحاضر يمتلك إثارته الخاصة ، وتجاوزه المنضبط ، هو ملكه " حيث " يرتحل الشخص فيه ، إن نتيجة ذلك ظاهرة يمكن

إخفاؤها لا ضمن الماضى أو المستقبل فقط، ولكن أيضًا ضمن الكثافة نفسها للحاضر فى حد ذاته ، فـى كون أن هناك بعدًا خفيًا ، مغناطيسيًا ، فى قلب الحاضر المحسوس ، حيث الظاهرة يمكن لها أن تنسحب خارج ذلك الذى ينبعث باستمرار ، وهكذا فى " الكينونة والزمان " ، يكتب هايديجر بأنه " حتى فى الحاضر نفسه ، هناك دائمًا تلعب نوع من المقاربات والجلب ، أى نوع من الحضور ". كما لو أنه بشكل مركب هناك ، هنالك نموذج للغياب أصلى كليًا بالنسبة للحاضر ، والذى منه الحاضر نفسه يصبح حضورًا : " فى الحاضر ، أيضًا ، الحضور يُمنح " .

هل هنالك إذن كيفية أو مزاجية أخرى للغياب أو اللامرئية بخاصة بشكل كامل بالأرض والطبيعة المفتوحة ؟ لقد لاحظت بالفعل ، هنا فى ضمن الحاضر الراهن المستوعب الطبيعة الخفية لذلك الذى يرقد فيما وراء جذوع الأشجار ، والأحجار التى تحيط بى ، من ما يتجاوب للشخصية غير المرئية لذلك الذى يرقد فى الجانب الآخر لهذه التلال القريبة ، وبالتالى إلى تلك الأراضى الكاملة وراء الأفق للحاضر الراهن ، من حيث كينونات كثيرة تدخل الأراضى المرئية وإلى حيث ظواهر عديدة تنسحب ، تتأخر ، وأخيرًا تنتهى تمامًا من مجال الرؤية ، لقد تعرضت أيضًا إلى الشخصية الخفية والمتوارية لذلك الذى يرتاح فى الداخل ضمن جذوع تلك الأشجار ، وبداخل الأحجار والتلال الذى يتجاوب بالتالى للطبيعة غير المرئية لما هو تحت الأرض حيث تنبثق الكائنات ، وبداخل ذلك الذى يتعثرون بداخله ، ويتحللون ، ويختفون ، هل هناك أسلوبية أخرى واضحة للغياب فى الكثافة نفسها للحاضر الراهن تمتلك خصائصها المميزة ، وليست مجرد تعديلات لما تحت الأرض أو ما وراء الأفق ؟

بعض أنواع التخفى مُركب ، وهو فى الخارج بشكل جاهز ، من حيث الأرض المرئية نفسها باستمرار تأتى إلى الحاضر ؟

لربما أكون أدفع هذه المنهجية إلى حد زائد فى محاولة لتحديد لا الحاضر المتحفظ عبر المستقبل والحاضر الرافض عبر الماضى لكن أيضًا هذا التخفى للحضور من داخل الحاضر نفسه . بالنسبة للآن ، أكثر من ذى قبل ، أشعر بالحيرة والتشوش – غير قادر على القبض على المعنى أو استيعاب ذلك الذى أبحث عنه ، حتى وأنا أحدّق هناك فى الخارج عبر تلال الأشجار ، عقلى يبدو متورطًا بتلك الأسئلة، بأفكار وإسقاطات تحول بينى وبين الإحساس المباشر والاستجابة للأرض الحية من حولى ، أحاول أن أسترخى ، وهكذا أبدأ فى التنفس بعمق أكثر ، مستمتعًا ببرودة النسيم وهو يتدفق من خلال أنفى ، شاعرًا بصدرى ومعدتى يتمددان ببطء ويتقلصان ، إن تفكيرى

يبدأ فى الاسترخاء والثرثرة الباطنية، بالتدريج تتخذ إيقاع التنفس والزفير والشهيق والكلمات نفسها بدأت فى الذوبان طائرة للخارج مع كل نفس لتمتزج مع التنفس الصامت للأرض ، إن المونولوج الداخلى يتناغم ببطء مع حركة أشجار الصنوبر والسحب المشبعة بالمطر .

فراشة تحوم عن قرب ، أجنحة مذهبة تبحر فى النسيم الناعم مع بعض الخفقان اللحظى لأجنحتها قبل أن تستقر على وردة بيضاء ، إن الحشائش تتقافز مع النسيم ، فيما الزهور البرية ترتجف بتَلاّتها ، منتظرةً الحشرات المهمهة التى تتحرك من واحدة لأخرى ، الأريج يفوح من البتلات الجديدة على الأوركيد الضخمة، عند الجدول تهتز لا عبر الكائنات المجنحة ولكن عبر أنفاس أنفى التى تصل إليها من البعيد ، متحركة مثل شبكات العنكبوت على النسيم الناعم ، إن جسدى الحساس الآن يستيقظ بوضوح فى العالم ، وتدريجيًا أصبح واعيًا بمزاجية وكيفية ثالثة للامرئى ، ببعد غير مرئى حيث أنا غارق من خلاله بعمق إلى درجة أننى الآن حتى أستطيع بصعوبة جلبه إلى الوعى الكامل ...

إنها لامرئية الهواء .



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٧)

نسيان وَتَذكُّر الهواء

« دعونا نجلسُ هنا .. في البراري المفتوحة لا يمكن لنا أن نرى الطُّرُق السريعة أو أي سور . دعونا لا نصنع بطانيات لنجلس عليها ، ولكن نُحس الأرض بأجسادنا ، والتربةَ ، والحشائش البرية . دعونا نجعل من الحشائش فراشنا ، شاعرين بحدتها ونعومتها . دعونا نصبح مثل الأحجار ، والنباتات ، والأشجار ، فلنكن حيوانات ، نفكر ، ونُحس مثل الحيوانات . أصغوا إلى الهواء . يمكن لكم أن تسمعوه ، تُحسوا به ، تتذوقوه " Woniya Wakan " وونيا واكان – « الهواء المقدس » – الذى يُجدد الجميع عبر أنفاسه . وونيا ، وونيا واكان – الروح ، الحياة ، النَفَس ، التجدد – إنه يعني كل ذلك . وونيا : نحن نجلس معًا ، لاتلمسوا ، ولكن ثمة شيء ما هناك ، إننا نحسُ به فيما بيننا كحضور ، طريقة جيدة ، حسَنة للبدء في التفكير حول الطبيعة ، الحديث عنها ، بالأحرى تحدثوا إليها ، تحدثوا إلى الأنهار ، إلى البحيرات ، إلى الرياح كما نتحدث إلى أقربائنا » .

جون فاير ليم ديير



أى غموضٍ هو الهواء ، أى لُغزٍ هو لهذه الحواس البشرية ! من جانبٍ ما الهواء هو أكثر أشكال الحضور طوعية فى التسمية ، يحيطُ بى ، يحضننى ، ويداعبنى من الجانبين : الداخل ، والخارج ، متحركًا بأمواجه على بشرتى ، متدفقًا من بين أصابعى ، مستديرًا حول ذراعى ووركى ، ملتفًا على سطح فمى من الداخل ، متسللاً بيسر عبر عنقى وحنجرتى ليملأ رئتى ، وليغذى دمى ، وقلبى ، وذاتى ، لا أستطيع التصرف ، لا أستطيع التكلم ، لا أستطيع التفكير بفكرة واحدة دونما المشاركة لهذا العنصر المتدفق . إننى غارق فى أعماقه كما السمكة فى أعماق البحر .

مع ذلك فالهواء – من جانب آخر – هو أشد أنواع الغياب المعروفة لهذا الجسد ، ذلك أنه تمامًا غير مرئى ، إننى أعرفُ جيدًا أن ثمة شىء ما هناك – أستطيع أن أُحس وأشعر به متحركًا فى مواجهة وجهى وأستطيع أن أتذوقه وأن أشمهُ ، وأستطيع حتى أن أسمعه وهو يتحرك فى داخل أذنىّ وعلى أغصان الأشجار ، ومع ذلك فإننى لا أستطيع أن أراه ، أستطيع أن أرى الحركة الثانية التى يدخلها إلى تحويل أشكال السُحُب ، الطريقة التى يحنى بها أغصان أشجار القُطن ، وإرساله بالتيارات على سطح النهر . خفقات أجنحة الريش لنسرٍ يحلق فى السماء فوق الرؤوس ، صوت ورقة شجر وهى تسقط ، شبكة عنكبوت وهى تُنسج ، الحركة البطيئة لبذرة عبر المكان ، كل ذلك يجعله واضحًا ، لعينى ، الحضور الحِسى للهواء . ومع ذلك فإن هذه العيون لا تستطيع أن ترى الهواء نفسه .

وعلى غير غرار السمة والشخصية الخفية لذلك الذى يرقد فى ما وراء الأفق ، وعلى غير غرار الطبيعة غير المرئية لذلك الذى يسكن تحت الأرض فإن الهواء غير مرئىٍ فى مبدئه ، ذلك الذى هو اليوم يرقد فيما وراء الأُفق يمكن على الأقل أن يتجلى جزئيًا عبر الارتحال نحو المستقبل ، كما أن ذلك الذى ينتظر تحت الأرض يمكن بكيفية ما أن يُكشف عبر الحفريات فى الماضى والقديم .

غير أن الهواء لايمكن أن يكون أبدًا منفتحًا لعيوننا وأبصارنا ، لايمكن تجسيده ، إنه غير مرئى فى حد ذاته ، إنه الوسيلة التى عبرها يمكن لنا أن نرى كل شىء آخر على أرضية الحاضر .

وهذا اللغز غير المرئى هو الغموض نفسه الذى يمكِّن الحياة من أن تحيا وتعيش ، إنه يوحِّدُ أجسادنا المتنفِسَة لا مع ما تحت الأرض فقط (مع الحياة الغنية للتربة ،

الأملاح والمعادن فى الصخور والأعماق) وليس مع ما وراء الأفق فقط (مع الغابات الكثيفة والمحيطات) ولكن أيضًا مع دواخل الحياة لكل ذلك الذى نستوعبه فى الحقل المفتوح للحاضر المعاش - الحشائش وأوراق الأشجار ، والغربان ، والحشرات والسحب المتجولة . ذلك الذى تتنفسه النباتات وتلقى به إلى الخارج نحن الحيوانات نتنفسه ونأخذه إلى الداخل ، وذلك الذى نخرجه فى أنفاسنا تتنفسه النباتات فى الداخل : الهواء ، يمكن لنا أن نقول هو الروح للأرض المرئية ، المجال السرِّىّ من حيث كل الكائنات تتزود بغذائها وقوتها ، وكما هو الغموض نفسه للحاضر المعاش إنه أكثر أشكال الغياب حميميةً ، من حيث الحاضر هو حضور ، وهكذا هو مفتاح للحضور المنسى للأرض .

لا شيء أكثر ألفة بالنسبة للثقافات الأصلية الكثيرة والمتنوعة حول الأرض من الاعتراف بالهواء ، والرياح ، والنفَس كجوانب لقوى مقدسة واحدة ومتفردة . عبر فضيلة حضوره الطاغى ، ولا مرئيته المحضة ، وتأثيره المؤثر والمحقق لكل كيفيات الظاهرة المرئية فإن الهواء للناس الشفاهيين هو المعيار الأصلى ذلك الذى لا يوصف ، غير القابل للمعرفة ، ومع ذلك لا يمكن إنكار حقيقيته وتأثيره وحضوره ، إن روابطه الواضحة مع الكلام - الحس بأن الكلمات المنطوقة هى أنفاس متشكلة (حاول نطق كلمة واحدة بدون الشهيق والزفير فى الآن نفسه) ، وبالفعل إن كون الجُمَل المنطوقة تتخذ قواها التواصلية من تلك الوسيلة غير المرئية التى تتحركُ فيما بيننا - تمنح الهواء جمعًا مع المعنى اللغوى والفكرة ، وبالفعل فإن عدم القدرة على وصف الهواء يبدو متصلاً بعدم القدرة على وصف الوعى فى حد ذاته ، وعلينا أن لا نندهش أو نستغرب لكون الكثير من الناس الأصليين يرون الوعى أو « العقل » لا كقوى تسكن داخل رؤوسهم ، ولكن بالأحرى كقيمة هم أنفسهم فى « داخلها » ، بالإضافة إلى الحيوانات الأخرى والنباتات والجبال والسحب .

وبحسب روبرت لولور (باحث كان قد عاش ودرس فيما بين الثقافات الأصلية فى أستراليا) ما بين شعب الأبوروجونى فإنهم يميلون إلى اعتبار الكينونات المرئية من حولهم - الصخور ، الأشخاص ، أوراق الأشجار - على أنها تجوهر مثل الكريستال وانعكاساته وعى الوعى ، فيما الوسيلة غير المرئية ما بين الكينونات تتم

معايشتها كما يدعوها الغربيون « اللاوعى » ، المجال الإبداعى ولكن غير المرئى من حيث يبزغ مثل ذلك الوعى . وهكذا فإن « الشيرينجا » – " Alcheringa " ، أو زمن الحلم – الذى يحتوى على مجال شبيه بالحلم فى أحداثه من حيث الحاضر المرئى ينبعثُ باستمرار – يسكن لا بداخل التلال وتضاريس الأرض المحيطة فقط ولكن أيضًا فى الأعماق غير المرئية للهواء نفسه ، فى الكثافة للوسيلة نفسها التى تتدفق بداخلنا ومن كل ما يحيط بنا ، إن هذا يقود شعب الأبوروجونى فى أستراليا لمنح أهمية بالغة للظاهرة الجوية المتنوعة ، إن برق الرعد تتم تجربته كدفقات عنيفة من أعماق الحلم ، الطيور والعصافير الذين يُجَنحون طريقهم عبر اللامرئى غالبًا ما تتم خبرتهم والإحساس بهم على أنهم رُسُل للاوعى ، فيما قوس قزح (ثعبان قوس قزح) الذى يتقوس عاليًا عبر السماء ثم يغطس من جديد فى أعماق الأرض يُحَس بأنه يمثل ويُشخِّصُ كل القوى الخطيرة ، القهرية ، مع ذلك فإنها قوى مانحة للحياة فى الأرض ، ذلك أن قوس قزَح يتم إدراكه على أنه « الحافة » نفسها للحلم ، وعلى أنه المكان حيث بواطن إمكانيات اللاوعى ، غير المرئى يبدأ فى التمثل للرؤية التى تصبح ممكنة له .

الرياح والأرواح فى السهوب الكبرى

إن الهواء الموجود فى كل مكان ومع ذلك فإنه غير مرئى بطبيعته يجعل المعتقدات الأصلية والتعاليم الخاصة بغموض هذا العنصر فيما بين أكثر الأمور قداسة وسرية فى التقاليد الشفاهية ، إن التعاليم الأصلية فيما يتعلق بالريح أو النَفَس من الأمور الصعبة للغاية لمتابعتها وتسجيلها ، ذلك أنه لتمنح صوتًا لها دون ضرورة لربما يكون بمثابة انتهاك للغموض والقدسية لهذه القوة المحيطة بنا ، ذلك الحضور الغامض والجاذب (أو الغياب) والذى هو من الواضح أنه ضرورى وحتمى لحياة المرء ولحياة الأرض .

إننا نعرف بالفعل أن الهواء كان قوة مقدسة غير مألوفة لمعظم الشعوب الأصلية لأمريكا الشمالية فيما بين الهنود الحمر فى الجنوب الشرقى - على سبيل المثال - فإن الإله الخالق - الإله الوحيد المساوى أو الذى يتجاوز الأرض والسماء بقواه - يُدعى "Hesakitumesee" « هيساكيتوميسى » أى سيد النَفَس ، إن هذه الكينونة هى التى ترسل بالضباب ، والرياح ، والأجواء والمناخات الأُخرى عبر الأرض ، ومؤثرة على مصائر البشر .

وبالنسبة لشعب « اللاكوتا » فإن أعظم مقدس أو "Wakan" « واكان » فهو جانب من « الواكان تانكا » ، الغامض العظيم ، هو « التاكو شانشكان » أى السماء المحيطة ، يعرفها سحرة الشامان على أنها ببساطة « الساكَان » ، تاكو شانشكان يُحَس بأنها فى كل مكان ، الروح الحاضرة فى كل مكان ، وهى تخترق الحياة ، والعاطفة ، والحركة ، والأفكار فى كل شىء ، ومع ذلك فإنها مرئية لنا فقط على أنها زرقة السماء (إنها تلك الألوهية التى يقوم بعض الأشخاص المعاصرين من اللاكوتا

بدعوتها ، بالإنجليزية ، الروح العظيمة) « تات » – الريح – يخلقها الساكّان من عنصره ، لكى تكون مصاحبة للساكّان ولكى تحمل أوامره وأمانيه ورسائله عبر العالم . (الساكّان والتيت – السماء والريح – يتم الحديث عنهما أحيانًا على أنهما الكينونة ذاتها بالنسبة لسحرة الشامان من اللاكوتا) ، ولقد كان هوتيت هو الذى ضاجعَ آيت – امرأة جميلة من شعب البافالو – ومن هذا التزاوج منح الولادة لريح الشمال ، وريح الشرق ، وريح الجنوب ، وريح الغرب (بالإضافة إلى «يم» ، الإعصار الصغير أو غبار الشيطان) . إن هذه الرياح الأربع هى التى تشكل وتمنح سحرها الخاص لكل طقس من الطقوس التى يمارسها اللاكوتا اليوم .

أثناء ذلك فإن غليون السلام هو أكثر الأشياء « واكان » من كل ممتلكات اللاكوتا ، منحوتٌ من صخرة الغليون القرمزية التى توجدُ فقط فى سهوب الشمال – صخرة تُعْتَبر خلاصة دماء الأسلاف المتخثرة – فإن الغليون المقدس يتم تدخينه وإشعاله فى طقس شعائرى خلال كل الاحتفالات المتنوعة للاكوتا ، من رقصة التعرّق حتى رقصة الشمس ، إن دخان الغليون يجعل العالم غير المرئى مرئيًا للتنفس ، وفيما هو يتصاعد من الغليون فإنه يجعل التدفقات والأمواج فى الهواء نفسه مرئية ، يجعل الاتصالات غير المرئية مرئية ما بين أولئك الذين يدخنون الغليون فى تقدُمَة وكل الكينونات الأخرى التى تحيا فى داخل هذا العالم : الناس ذوى الأجنحة ، الآخرين الذين يمشون والناس الزاحفين ، والكائنات ذات الجذور المتعددة – الأشجار ، الحشائش ، البرسيم ، العفَن – الأكثر من ذلك فإن الدخان المتصاعد يحمل صلوات أهل اللاكوتا إلى كائنات السماء : إلى الشمس والقمر ، إلى النجوم ، إلى كائنات البرق والسحُب ، وإلى كل تلك القوى التى يحتضنها « الوونيا واكان » أو الهواء المقدس .

« وونيا واكان – الهواء المقدس – الذى يجد الكل والجميع عبر أنفاسه ، وونيا ، وونيا واكان – روح حياة ، نَفَس ، تجدُّد – إنه يعنى كل ذلك . وونيا – نجلسُ معًا ، لا تلمسوا ، لكن ثمة شىء ما هناك ، إننا نحسه فيما بيننا ، كحضور » .

فى افتتاح أى طقس احتفالى فإن الشخص – المداوى بين اللاكوتا يملأ ويشعل الغليون المقدس ، ثم قبل تدخينه بنفسه يقدم قطعة الفم إلى ريح الغرب ؛ ذلك من أجل أن تشارك تلك الريح بنفسها فى التدخين ثم بدوره عارضًا الغليون للتدخين لريح

الشمال ، ثم ريح الشرق وأخيراً ريح الجنوب ، فيما رسل الآلهة - الرياح - هى أول القوى التى يتم مخاطبتها فى أى احتفال .

إن رياح الاتجاهات الأربعة هى أيضًا مربوطة بعمق بالحس الدائرى للمكان والزمان ، شامان عجوز من اللاكوتا يدعى « سورد » سيف ، تمت محاورته فى بداية القرن العشرين ، ذكر أنه فى أى احتفال بعد تقدمة قطعة الفم من الغليون المُشعَل لكل من الرياح الأربعة فإنه :

« يتوجبُ على الشامان أن يحرك الغليون بالكيفية نفسها حتى تشير قطعة الفم من جديد نحو الغرب ، وأن يقول : مدوراً ، فإننى أكملُ الأرباع الأربعة والزمان . إنه يتوجبُ عليه أن يفعل ذلك لأن الرياح الأربعة هى الأرباع الأربعة للدائرة والجنس البشرى يعرف لاحيث يمكن أن تنبعث منه ، والغليون يجب أن يكون تقدمة مباشرة نحو تلك الرياح ، إن الأربعة أرباع تحتضن كل ذلك الذى هو فى العالم وكل ذلك الذى هو فى السماء ، من أجل ذلك عبر إدارة الغليون فإن التقدمة تصبح لكل الآلهة ، إن الدائرة رمزٌ للزمان ، لوقت النهار ، وقت الليل ، وقت القمر ، وهى دوائر فوق العالم ، وزمان السنة هو دائرة حول حدود العالم ، من أجل ذلك فإن الغليون المُشعَل وقد تحرك فى دائرة كاملة هو تقدمة لكل الأزمنة » .

بعد إكمال الدائرة فإن الشامان يُشير بقطعة الفم فى الغليون نحو السماء ، ويقدمه للريح «تيت» أبى الرياح الأربع ، أخيراً إذن « يتوجب على الشامان أن يدخن الغليون وفيما يفعل ذلك يجب عليه القول : إننى أُدخن مع الروح العظمى . دعونا نحصل على يومٍ أزرق » .

الهواء ، والوعى فيما بين الدنى أو الناڤاجو

فيما الهواء يُعتقد أنه مقدس عبر كافة شعوب أمريكا الشمالية الأصلية فإن أكثر الوثائق المطولة لتفسير الهواء ربما تكون لشعوب الدنى ، أو الناڤاجو ، ولمفهوم « نيلشى » الهواء المقدس ، وقد أسىء فهم ذلك لزمن طويل عبر علماء الأنثروبولوجيا ، بأن مصطلح الناڤاجو « نيلشى » يعود إلى الجسد الكامل للهواء أو المناخ بما فيه الهواء عندما يتحرك ، وكذلك الهواء فى دوائره بداخلنا ونحن نتنفس ، وبحسب جيمس كيل ماكنيلى ، فى كتابه الموثق « الريح المقدسة فى فلسفة الناڤاجو ، نيلشى » « تعنى الريح ، الهواء أو الجو » ، وهى ضرورية لكل الطبيعة ، وذلك الذى يكفل الحياة والحركة والكلام والوعى لكل الكائنات ، الأكثر من ذلك فإن الريح المقدمة تخدم كوسائل للتواصل ما بين كل الكائنات والعناصر فى العالم الحى . إن نيلشى بذلك ذو أهمية مركزية محضة للدنى ، أو الناڤاجو ووجهة نظرهم من العالم » .

بالرغم من أن نيلشى مفهوم لدى الناڤاجو على أنه متفرد ، وظاهرة متحدة ومتجانسة ، فإن الريح فى كليتها هى أيضًا مفترض بأنها مُشكّلة من جوانب كثيرة متنوعة ، جمع للرياح الجزئية كل منها لديه أسماؤه بلغة الناڤاجو ، أحد أولئك – "Ailch'i hwii Siziinii" أو « الريح ضمن الواحد » – يعود إلى ذلك الجزء من كامل الريح التى تدور فى دواخل كل شخص ، إن هذه الفكرة قد تم إساءة فهمها مبكرًا من قبل البعثات التبشيرية ، وعبر المبشر المهم / وعالم الأجناس الأب بيراد هيل ، على أنها ظاهرة مرتبطة بالروح الشخصية فى المعتقد المسيحى ، وهكذا فإن « الريح فى داخل الواحد » ، تم تفسيرها – حتى حديثًا – على أنها الروح غير المادية أو النفس ، كينونة كاملة تمامًا تدخل الشخص عند مولده ، وتتصرف كالمورد الداخلى لحياته أو حياتها والسلوك ، ومن ثم فإنها ترحل من الشخص عند مماته ، وفقط حديثًا

قام بعض علماء الأنثروبولوجيا مثل «ماكينلى» بمحاولة الخروج من عُصَابات العمى التفسيرية التى فرضها عالم وجهة النظر المسيحية من أجل الاعتراف بأن القوى السائدة فى الحضارة الغربية بالنسبة للروح الداخلية الخالصة أو العقل قد عاشها الناڤاجو كمعطيات للرياح المحيطة أو الجو والمناخ فى العموم ، إن « الريح فى داخل الواحد » ليست بأى طريقة متجانسة ومستقلة ، ذلك أنه عبر العمليات المستمرة للتبادلية مع الرياح المتنوعة المحيطة بالواحد والتى هى بالفعل جزء كامل من الريح المقدسة فى حد ذاتها يمكن لنا أن نقترب من الخبرة الشفاهية للهواء عبر تأمل كلمات عجائز الناڤاجو أنفسهم ، وعبر البحث فى التأثير المهيمن للرياح ، أو الهواء ، فى داخل كون الناڤاجو أنفسهم .

« الريح وُجِدَت أولاً كشخص ، وعندما بدأت الأرض فى الوجود كانت الريح ترعاها ، لقد بدأنا فى الوجود حيث الظُلْمَة ، راقدين على بعضنا بعضًا حدثت . هنا ، ذلك الذى كان ينام فى الأعلى أصبح الفجر ، ناشرًا بياضه ، ذلك الذى كان رقادًا فوق بعضنا بعضًا آنذاك ، هذه هى الريح ، إنها (الريح) كانت ظُلْمة ، لهذا السبب فإنه عندما يحل الظلام عليك ليلاً فإنه يتنفس نسيمًا بديعًا ، إنه هذا ، إنه شخص ، يقولون هم . من هنالك عندما يحل الفجر ، جميلاً متحولاً إلى خطوط بيضاء عبر الفجر ، فإنه عادة يتنسم . إن الريح توجد بجمال ، إنهم يقولون . فى الخلف هناك فى عوالم تحت الأرض ، كان ذلك شخصًا على ما يبدو » .

فى عوالم تحت الأرض بالفعل فى تلك الأزمنة أو المجالات تحت التربة ، سابقًا لابتعاث البشر المقدسين فى عالم الحاضر ، وُجِدَت الريح وقدمت كلا الأمرين : التنفس والإرشاد إلى الآخرين المقدسين ، مثل الإنسان الأول ، الإله المتحدث ، ومناداة الإله ، عندما انبعث هؤلاء البشر المقدَّسون من التربة إلى عالم الأرض هذا بسطحها كانوا مصحوبين بالريح ، وكان بالفعل التمييز قائما على أنها رياح الظلام والفجر ، الريح الآن تميزُ نفسها أكثر إلى الريح الزرقاء للظهيرة والريح الصفراء للغروب ، إن هذه الرياح الأربعة انتشرت من مكان الانبعاث ثم حددت الأرض أماكنها عبر الاتجاهات الأربعة ، عبر الأفق فى العالم - امرأة الفجر فى الشرق ، فتاة الأفق الأزرق

فى الجنوب ، ولد الأفق الأصفر (أو غروب المساء) فى الغرب ، ورجل الظُلمَة (أو الليل) فى الشمال (إن الأسماء الدقيقة لتلك الرياح تتنوع من أغنيةٍ لأخرى ، غالبًا يتم الحديث عنها ببساطة على أنها الريح البيضاء ، والريح الزرقاء ، والريح الصفراء ، والريح المظلمة) . إن هذه الرياح الأربع – أو الأربعة كلمات ، كما تُسمى – يُقال بأنها وسائل التنفس للجبال الأربعة المقدسة التى تتعالى بوضوح على حافة كون الناڤاجو ، واحد فى كل اتجاه . « إنها (أى الرياح) تقف بدواخل الجبال ، تلك (الجبال) منذ ذلك الوقت عبرها ، هى مقدساتنا حتى نهاية الزمان » . شبيه بذلك ، الشمس والقمر يمتلكان رياحهما الخاصة ، والتى هى وسائلهما للحياة والتنفس ، رياحٌ أخرى تحيط وتتحرك فيما بين هذه القوى الكبرى ، على اعتبار أنها وسائلها للتواصل مع بعضها بعضًا ومع الظواهر الأخرى ، من منزلها المقدس فى كل اتجاه من الاتجاهات الأربعة فإن الريح المقدسة يُقال أنها تقارب وتدخل إلى الظواهر الطبيعية المتنوعة للعالم ، وهكذا لتقدم وسائل الحياة ، والحركة ، والفكرة، والكلام للنباتات، والحيوانات ، وكل الناس فوق سطح الأرض ، بما فيهم أهالى الناڤاجو أنفسهم .

إن الريح كما يعتقد الدِنى حاضرة فى داخل الشخص منذ اللحظة نفسها التى تم الحبلُ به ، عندما ريحان : إحداهما من سوائل الجسد من الأب وأخرى من سوائل الأم تشكلان ريحًا واحدة فى داخل الجنين ، إنها حركة تلك الريح هى التى تُنتجُ الحركة والنمو فى تطور الجنين ، عندما يولَد الطفل ، يقول الناڤاجو إن الريح بداخله « تطلقهُ وتكشفه » ، وأنه آنذاك عندما يبدأ الطفل فى التنفس فإن ريحًا أخرى « محيطة » تدخلُ إلى الطفل ، إن هذه الريح قد تكون أُرسِلَت من أحد الجهات الأربع عبر الأفق ، أو من الشمس ، أو القمر ، أو من الأرض والتَربة نفسها – وبالفعل من الممكن أن يكون من أية ظاهرة طبيعية – بالطبع إن الريح المعينة التى تدخل مع النَفَس الأول سوف يكون لها تأثير قوى وفعال على المسار الكلى لحياة ذلك الشخص ، ومع ذلك فإن رياحًا أخرى سوف تدخل فى أوقات أخرى فيما بعد فى تطور الطفل ، وهكذا وكما يكتب ماكينلى « إن الطفل الذى ينمو يُعتَقَد بأنه باستمرار موضوع تحت تأثير الرياح الموجودة من حوله » .

وبالرغم من أنها غير مرئية فإن الريح المقدسة يمكن إدراكها عبر دورانها وآثار حركتها التى تتركها باستمرار فى العالم المرئى ، إن الرياح التى تدخل الكائن

الإنسانى تترك علاماتها أو آثارها - حسب معتقدات النافاجو - فى خطوط ونماذج الدوائر التى ترى على أصابع اليد والقدم ، وفى النماذج الدائرية التى يصنعها الشعر وهو ينبعث من رؤوسنا ، وكما يشرح أحد كبارهم :

« إن هناك خطوطًا ودوائر على حافة أصابعنا ، إن الرياح تلتصق هناك ، إنها الطريقة نفسها التى تلتصق بها فى أصابع أقدامنا ، والرياح توجدُ علينا هنا حيث البُقع الناعمة ، حيث هناك استدارة ، على قمم رؤوسنا بعض الأطفال لديهم دائرتان ، البعض يملك واحدة فقط ، أنت ترى ، إننى أقول أن أولئك (الذين يملكون اثنتين) يعيشون عبر وسائل الريحين ، إن هذه (الرياح التى تلتصق) بالدوائر على أطراف أصابعنا تُمسكُ بنا وتشدنا للأرض ، وتلك التى على أطراف أصابع أيادينا تشدنا إلى السماء ، وبسبب هذه نحن لا نسقط عندما نتحرك من حولنا » .

الأبعد من ذلك ، إنها الريح التى تمكننا من الكلام ، لقد لاحظنا بالفعل من قبل أن الرياح الأربعة للاتجاهات تُسمى أيضًا « الكلمات الأربعة » بما أننا نتحدث فقط عبر وسائل التنفس ، الريح نفسها - النَفَس الجماعى - يُقال أنها تقبض بقوة اللغة :

« إنه فقط عبر وسائل الريح يمكن لنا أن نتحدث ، إنها توجد على طرف ألسنتنا » .

مُلخصًا هذه المفاهيم المتنوعة ، يكتب ماكينلى :

« بحسب معتقدات ومفاهيم النافاجو إذن فإن الرياح توجدُ فى كافة ما حولنا وفى دواخل الفَرد ، داخله وخارجه عبر أعضاء التنفس ودوائر سطح الجسد ، ذلك الذى بالداخل وذلك المحيط بالشخص هو الشىء نفسه وهو قدسى » .

أخيرًا ، والأعمق من ذلك فإن هذه الوسيلة غير المرئية التى يستغرق فيها الجسد هى التى تزودنا بالقدرة على الفكرة الواعية ، لقد ذُكرَ بالأعلى أن الجبال المقدسة فى الاتجاهات الأربعة لديها رياح متنوعة تتحرك فيما بينها كوسائلها للاتصال والتواصل مع بعضها بعضًا ومع الكينونات الأُخرى ، إن الريح غير المرئية التى تدور بدواخلنا ومن حول كل شخص فرد يُفترَض أنها تتكون جزئيًا من مثل تلك الرياح المرسلة من الاتجاهات الأربعة ، اثنان من تلك الرياح غالبًا ما يتم الحديث عنهما على أنهما الرياح

الصغيرة أو أطفال الريح ، يُعتقَد أنها « وسيلة المعرفة » للشخص ، إن هاتين الريحين الصغيرتين تعلقان بدوائر آذاننا الاثنتين ، وإنه من هناك يمكن لهما أن يقدما الإرشاد إلينا ، محذرينا من صعوبات قريبة ، ومساعدين إيانا للتخطيط وصنع الاختيارات . عندما يجد شخص من الناڤاجو نفسه مفكرًا عبر الكلمات فإن ذلك يُقال بأنه صوت إحدى أو كلتا الريحين الصغيرتين تتحدثان عبر أذنيه ، بالطبع فإن أطفال الرياح هؤلاء مجرد موجات صغيرة ببساطة فى داخل الجسد الفسيح للنيلشى – الريح القدسية – التى توجدُ فى كل مكان ، وبكلمات أحد عجائزهم : « تلك التى تدعى طفل الريح ، إن ذلك مثل الحياة فى المـاء » أى أنه ، طفل الريح غير منفصل عن الجسد الدائر للهواء الذى نغرق فيه بكاملنا .

إن مثل تلك الرياح الصغيرة من الجهات الأربع تحيا لا فى الآذان البشرية فقط ولكن فى آذان أو أشباه الآذان من الجوانب لكل الأشياء الحية ، مزودة إياها بوسائل السمع والمعرفة ،والتواصل مع الآخرين ، إنه هكذا إذن الحيوانات الأُخرى – على سبيل المثال – تعرف ما الذى نفكر به نحن البشر حولهم : « عندما نفكر بهم بشكل طيب – الخيول ، وقطعان الماشية ، والماعز ، وكل شىء نحيا به – إنهم يعلمون به عبر وسائل الريح ، إنهم يعرفون تفكيرنا » . بعض كبار السن يقولون إنه فى هذه الأيام الرياح الصغيرة من الجهات الأربع لم تعد تنصحنا أو تتحدث إلى أهالى الناڤاجو بوضوح شبيه بما كان فى الماضى ، لكن مثل تلك الرياح الصغيرة ما زالت تتحدث بوضوح فى آذان حيوانات أُخرى ، مخبرة إياها عن ذلك الذى يحدثُ فى العالم ، وحيوانات مثل الكيوتى أو البومة غالبًا ما توصل تلك المعرفة إلى أهالى الناڤاجو ، محذرة البشر من أحوال خطيرة عبر أصوات معينة وسلوك معين .

الآن ، عندما نرجع إلى الرياح المتعددة والمتنوعة (مثل رجل الفجر أو امرأة الفجر ، وامرأة السماء الزرقاء ، ورجل الغروب ، والريح المظلمة وطفل الريح ، والريح الدائرية ، والريح اللامعة ، وريح الظلمة الزاحفة ، ورياح أخرى) . فإن الناڤاجو لايتحدثون عن كينونات تجريدية أو مثالية فكرية ولكن عن ظواهر فعلية – عن ذر الرياح ، النسائم ، الأعاصير ، الهبوب ، وأنفاس يستوعبونها عبر الوسيلة المتدفقة التى تحيط بأجسادهم وتسرى عبرها . إن الاعتقاد العميق بالوحدة الشاملة للنيلشى ،

يعتقد الناڤاجو أن كل تلك الرياح الجزئية تعبيرات داخلية لغموض واحد غير قابل للانتقاص منه ، ومن الواضح أن ذلك قد وُلِدَ عبر الرصد والملاحظة للتعددية الطقسية التى صنعتها أنفاسها - أو عبر الحرارة المرتفعة فى موجات من أثر الشمس ، أو أغصان الأشجار كما تتقسم فى مهب الريح ، أو الارتجافات الدقيقة لذيل ثعبان الجرس . إن كل تلك الشواهد للأمواج الهوائية المحيطة بهم وبدواخلهم ليست قوى مستقلة تمامًا ولكنها بالأحرى تعبيرات لحظية بلاغية فى ضمن ودواخل الجسد الفسيح للهواء فى حد ذاته .

غير أنه من الواضح أن هنالك نوعًا من الاستقلالية الإقليمية أو الهوية للرياح المختلفة والتى هى جزء من الأجواء الكلية - الهواء الدافئ والجاف العالق بالمناطق الرملية فى كل فترة مما بعد الظهر من الواضح أنه مختلف عن النسيم البارد الذى يهب عبر أشجار القطن على ضفاف النهر ، بالنسبة للناڤاجو هناك رياح غير متوقعة أيضًا كرياح ثابتة ، رياح مساعدة ورياح ضارة ورياح خطيرة محددة ، على سبيل المثال يمكن لها أن تُبَدِّل شخصية الرياح الطيبة فى دواخل الكائن أو الشخص الحى ، أو يمكن لها أن تجلب صعوبات وأذى إلى المجتمع أو إلى الأرض ، إن كل شخص يجب أن يستقصى ويبحر عبر هذا العالم من التأثيرات غير المرئية المتنوعة بحذرٍ واهتمام كبير مقويًا صلاته مع الرياح الطيبة المتنوعة عبر احترامه للأرض نفسها ، جاهدًا لوضع حياته فى تناغم أو "Hozho" « هوشو » ،مع الاتجاهات الأربع ، وفى تواصل مع الأرض والسماء ، مع الشمس والقمر والنجوم .

مثل الجبال فى الاتجاهات الأربع ، ومثل الحيوانات والنباتات الأخرى فإن البشر أنفسهم أحد الأماكن التى تعيش وتتجول فيها الرياح ، واحد من مراكزها المتعددة ، وتمامًا مثل ما نتغذى ونتأثر بالهواء عمومًا فكذلك أيضًا أفعالنا وأفكارنا تؤثر فى الهواء بدورها ، أى بمعنى أن الفرد ليس حياديًا فيما يتعلق بالهواء المقدس ، وبالأحرى هو يشارك فيه كأحد أعضائه ، إن رغباته ونواياه (ريحه الداخلية) تشارك مباشرة فى حياة الريح غير المرئية من كافة ما حوله ، وبذلك يمكن إشغال والتأثير الكامن على أحداث فى الأراضى والطبيعة المحيطة -وحتى ، ببعض المقاييس ، إضفاء الخصب على الأمطار ومياه السحب ، واختمار البذور، وتزاوج الحيوانات وتكاثرها

فى المواسم ، وبذلك فإن التركيز فيما بين الناڤاجو ، وبالفعل فيما بين الكثير من الشعوب الأصلية ، على تركيز الأفكار والصلوات من أجل التأثير ومساعدة الانبعاث المستمر لأحداث أرضية مثل تلك من غير الواضح (الضمنى ، غير المرئى) وإلى الفعلى والواضح (المرئى) من أشكال الوجود .

إنه عبر هذه القوى الطقوسية للكلام والغناء يستطيع الناڤاجو ويتمكنون بقوة كبيرة من التأثير والتبديل للأحداث فى الكون المحيط بهم ، وبحسب جارى ويذيرسبون فى دراسته المهمة حول « اللغة والفن فى كون الناڤاجو » فإن الناڤاجو يعتبرون فعل الكلام والخطاب على أنه تشكيل خارجى للأفكار « إنه فرض للشكل على العالم الخارجى » ، حيث يمكن عبر ذلك تحويل وتغيير مجرى الهواء المحيط بهم ، وبسبب أن الهواء أو الريح هو الوسيلة نفسها والوسيط حيث القوى الطبيعية الأخرى تحيا وتتصرف ، فإنه عبر تحويل الهواء عبر الغناء فإن المغنى يمكن له أن يؤثر بشكل باطنى على نشاطات القوى الطبيعية العظمى نفسها .

عندما يكون شخص من الناڤاجو راغبًا فى تجديد أو إعادة بناء فى العالم ، لحالة الانسجام والتناغم للصحة والجمال والتى يعبر عنها أهل الناڤاجو بكلمة « هوشو » فإنه يتوجب عليه أولاً أن يسعى - عبر إقامة الشعائر - إلى خلق ذلك الانسجام والتناغم والسلام فى داخل كينونته وذاته نفسها ، مع تأسيس مثل ذلك « الهوشو » فى داخل نفسه فإنه يستطيع آنئذ بنشاط نقل تلك الحالة من التوازن والصحة والعافية إلى الأكوان المحيطة الأخرى ، عبر تحويل قوى الأغنية أو الصلاة ، أخيرًا بحسب ويذيرسبون :

« بعد أن يكون الشخص قد عكس الهوشو فى الهواء عبر شكل شعائرى وطقوسى فإنه حينئذٍ مع نهاية ذلك الطقس ، يتنفس ذلك الهوشو من جديد معيدًا إياه إلى نفسه ، ويجعل نفسه جزءًا من ذلك النظام ، والانسجام ، والجمال الذى كان قد عكسه فى العالم عبر طقوس ووسائل الكلام والغناء » .

إن هذا الاقتباس الصغير من ويذيرسبون يجعله واضحًا بشكل خاص ذلك التواصل ، وحتى الشخصية الدائرية للعلاقة ما بين أهالى الناڤاجو والكون الحى الحميم الذى يتجلى فيهم ويتضمنهم . إنهم خاضعون ومحايدون فى الوقت نفسه

باحترام للقوى الأخرى لهذا العالم ، أو بالأحرى إنهم - كلا الجانبين - محايدون خاضعون ونشيطون وفعالون فى الوقت نفسه ، ممارسون الشهيق والزفير ، ومتلقون التغذية والإنعاش من الكائنات المختلفة ومغذينها بنشاط وفاعلية بدورهم ، كما يُقال ويُنطق فى طرق المباركة وطقوسها :

« مع كل شىء يملك حياة ، مع كل شىء يملك قوة الكلام ، مع كل شىء يملك القوة للتنفس ، مع كل شىء يملك القوة للتعليم والإرشاد ، مع ذلك فى البركة والمباركة سوف نحيا » .

بالنسبة للناڤاجو إذن فإن الهواء - وخصوصًا فى قدرته للتزويد بالوعى ، الفكرة والكلام - له خصائص كان الأوروبيون بحضارتهم الأبجدية تقليديًا قد اعتبروها داخلية وخاصة « بالعقل » أو « النفس » البشرية الفردية ، ومع ذلك فعبر إغراء هذه القوى للهواء ، وعبر الإصرار على أن « الرياح بداخلنا » مستمرة بشكل خالص مع الريح فى العموم - مع الوسيلة غير المرئية التى نغرق فيها ونوجد - فإن كبار الناڤاجو قد اقترحوا بأن ذلك الذى ندعوه « العقل» « ليس بملكنا » ، أى أنه ليس خاصية أو ملكية بشرية ، وبالأحرى فإن العقل كريح خاصية وملكية للعالم المحيط ، حيث البشر - مثل بقية الكائنات - يشاركون ويتعايشون ، إن وعى شخص ما ، الإحساس بالذات الشخصية نسبيًا أو النفس هو ببساطة ذلك الجزء من الهواء المحيط الذى يدور فى الداخل ، عبر وحول جسد شخص معين ، وبذلك فإن ذكاء شخص ما يُفترَض منذ البداية بأنه مشارك كليًا مع النفس الدائرة للأرض ، إن أى أذى غير ضرورى يقع على الأرض يُحَسُ تمامًا فى دواخل وعى كل أولئك الذين يحيون بداخل تلك الأرض ، وهكذا فإن الصحة ، والتوازن ، والعافية لكل شخص أمر غير منفصل عن الصحة والعافية العامة للأرض والطبيعة المحيطة .

إن تعريف الناڤاجو وربطهم للوعى بالهواء - حدسهم بأن النفس ليست قوى غير مادية تسكن بدواخلنا ، وإنما بالأحرى غير مرئية ، ومع ذلك فعبر وسيلة ممكنة حيث نحن (مع الأشجار ، والسناجب ، والسحب) مستغرقون - لابد أن يبدو غريبًا فى بادئ الأمر وحتى غير منطقى بالنسبة لأشخاص من السلالة الأوروبية ، مع ذلك فدقائق قليلة من البحث « الإبستمولوجى - فى علم الاشتقاق والصرف » سوف

يكشف أن ذلك التعريف والإسناد ليس غريباً تماماً بالنسبة للحضارة الأوروبية كما قد يفترض المرء ، وفى الواقع فإن مصطلحنا الإنجليزى - "Psyche" النَّفْس - مع كل مشتقاته العصرية الحديثة مثل « علم النفس » - "Psychiatory" ، "Psychology" و "Psychotherapy" الطب النفسى ، والعلاج النفسى - فإنها كلها مشتقة من الكلمة اليونانية Psychê والتى تمثل لا « الروح » أو « النفس » المحضة فقط ، أو «العقل» ولكن أيضاً « النَفَس» ، أو « التنفس » أو « هَبّة الهواء » ، إن الاسم اليونانى نفسه كان قد تم اشتقاقه من الفعل "Psychin" ، والذى يعنى « أن تتنفس » ، أو « أن تنفخ » فى حين أن كلمة يونانية قديمة أخرى للـ « الهواء ، الريح ، والنَفَس » - هى مصطلح "Pneuma" ، من حيث اشتققنا مصطلحات وكلمات مثل "Pneumatic" و "Pneumonia" - أيضاً وفى الوقت نفسه فإنها تمثل ذلك المبدأ الحيوى الذى تدعوه اللغة الإنجليزية "Spirit" أى « الروح» .

بالطبع الكلمة روح فى حد ذاتها بالرغم من كل مضامينها الأثيرية وغير الحسية ، مرتبطة مباشرة للتجسيد نفسه لنظام التنفس عبر الجذر المشترك فى الكلمة اللاتينية "Spiritus" والتى تمثل كلا « النَفَس » و « الريح » ، وشبيه بذلك الكلمة اللاتينية للروح « أنيما - anima » - من حيث قد تطورت مصطلحات إنجليزية مثل "animal" - حيوان - "animation" باعث للحيوية ، "animisim" حيوية - نشاط ، و "unanimus" جماعى وكلى ، (بمعنى بعقل واحد جماعى أو روح واحدة) وكذلك يمثل « الهواء » و « النفَس » ، الأكثر من ذلك أن تلك لم تكن معان منفصلة ، إنه من الواضح أن أنيما - "anima" ، مثل "Psyché" ، فى الأصل كانت تسمى ظاهرة عناصر تشكل بشكل ما كلا الأمرين : ذلك الذى ندعوه الآن « الهواء » وذلك الذى نصطلح عليه الآن بمصطلح « الروح أو النفس » أما الكلمة الأكثر تخصيصاً فى اللاتينية "animus" ، والتى تمثل « ذلك الذى يفكرُ بدواخلنا » فإنها كانت مشتقة من الجذر الهوائى نفسه "anima" الذى هو نفسه مشتق من مصطلح يونانى أقدم ، يعنى « الريح » .

إننا نجد ارتباطاً مثيلا بذلك « للعقل » - "mind" مع « الريح » "wind" والنفس أو التنفس "breath" فى عدد كبير من اللغات القديمة .

وحتى كلمة موضوعية ومحترمة علمياً مثل الجو "atmosphere" فإنها تعرض روابط قديمة فى أصولها مـع الـكـلمـة السنسكريتية "atman" - آتمان ، والتى تمثل « الروح » تمامًا كما تمثل « الهواء » و « التنفس » . وهكذا فإن مصطلحات كثيرة عظيمة نعود إليها الآن تعود إلى الهواء كوسيلة محايدة وسلبية تمامًا وغير حساسة هى بوضوح مشتقة من كلمات كانت قد ميزت الهواء وعرفته مع الحياة والوعى ، وكلمات تبدو الآن أنها مصممة لتشخيص عقل غير متجسد ماديا أو روح هى مشتقة من مصطلحات وكلمات كانت فى يوم ما تسمى التنفس والأنفاس والنَّفَس على أنها المادة نفسها لذلك اللغز والغموض .

إنه يصعب أن نتجنب الاستنتاج أنه بالنسبة للحضارات والثقافات القديمة لحوض البحر المتوسط وعلى مستوى ليس بأقل عن ذلك الخاص باللاكوتا والناڤاجو - فإن الهواء كان فى يوم ما حضوراً متفرداً ومقدساً . وكمصدر مُجرَب ومعاش لكلا النفس والروح ، سوف يبدو أن الهواء قد كان فى يوم ما محسوساً بأنه الأمر والشىء فى حد ذاته للوعى ، الجسد الخافت للعقل ، وهكذا بما أن الوعى بعيداً عن أن يكون مُجرَّبًا كنوعية تميز البشر عن بقية الطبيعة كان فى الأصل قد أُحِس به على أنه ذلك غير المرئى الذى يضم المخلوقات البشرية إلى الحيوانات الأخرى والنباتات إلى الغابات والجبال ، ذلك أنه قد كان غير المرئى أو غير المُبصَر ولكنه الوسيلة المشتركة للوجود .

ولكن كيف إذن أن أصبح الهواء فاقداً لمزاياه النفسية ؟ كيف صارت النفس منسحبة بدقة عن العالم المحيط بنا ، تاركة شجرة الصنوبر ، والعناكب ، والأحجار ، وسحب العاصفة دونما ذلك العمق النفسى الذى كانوا جميعًا يحيون فيه (بدونما ، بالفعل ، أى ارتباط نفسى أو حتى اتصال نسبى) ؟ كيف صارت النفس ، الروح ، أو « العقل » متراجعين أو متراجعة بانسحاب كلى نحو الجمجمة البشرية ، تاركة الهواء نفسه كحضور نحيف ، شاحب ، ومضمون سلفًا ، موازيًا بشكل مألوف اليوم بمجرد الفضاء الفارغ ؟ واصل القراءة .

الريح ، والنَفَس ، والكلام

مثل الكثير من اللغات العتيقة واللغات القبائلية فإن اللغة العبرية تمتلك كلمة واحدة لكلا الكلمتين "روح" و "ريح" - والكلمة هى "ruach" ، والمدهش هاهنا هو المركزية الواضحة لـ "ruach" الريح الروحية بالنسبة للتدين العبرى المبكر ، إن مركزية روح - "ruach" ، وارتباطها القريب مع القدسى والإلهى يتضح فى الجملة الأولى نفسها للكتاب المقدس العبرى :

"عندما بدأ الله فى خلق السماء والأرض - كانت الأرض فارغة ، غير متشكلة ، وكانت العتمة على السطح للأعماق والريح "ruach" من الله تهب على المياه ..." .

فى أول بداية الخلق وحتى قبل وجود الأرض أو السماء كان الإله حاضراً كريح تتحرك فوق المياه ، تذكر الأهمية المشابهة للريح لدى الناڤاجو وقولهم بأن : "الريح وجُدَت أولاً ... ثم عندما بدأت الأرض فى الوجود قامت الريح برعايتها" ، والنَفَس - كما قد علمنا من خلال الجزء الثانى من التلمود - هو أكثر عناصر الارتباط حميمية رابطة البشر والمُقدس والإلهى ، إنه ذلك الذى يتدفق بأكثر الوسائل مباشرة ما بين الإله والإنسان ، ذلك أنه بعد أن شكل الله أرضيًا (آدم) من طين وغبار الأرض أو الأديم (adamah - أدمَه بالعبرى) نفخ فى الأرض نَفَس الحياة ، واستيقظ البشر . وبالرغم من أن "ruach" قد تستخدم لتعنى النَفَس ، فإن الكلمة العبرية المستخدمة هنا neshamah - نسِمَه ، تعود إلى النسَم والتنفس ، والنسمة والروح ، فيما "ruach" فى عمومها إلى الريح ، أو الروح ، فى العموم neshamah - نسمَة تمثل عادة الجانب الشخصى والفردى أكثر من الريح ، ريح أو نَفَس جسدٍ محدد - مثل "الريح من الداخل" لشخص من الناڤاجو ، بهذا المعنى فإن neshamah تستخدم أيضًا لتمثل الوعى الواعى .

نحن المعاصرين والحديثين نميل إلى رؤية الثقافة العبرية القديمة عبر العدسات المرتحلة للأفكار الإغريقية والمسيحية وحتى الدراسة اليهودية ، والكثير من فهم الذات اليهودية الحديث تأثر بشكل كبير وتم تلقينه عبر عصورٍ من التفسيرات الهيلينية المسيحية ، إنه بهذه الكيفية أن صار الكثير من الأشخاص اليوم يربطون العبرانيين القدماء مع مفاهيم وأفكار بالية على أنها الاعتقاد بجنة وجحيم غير أرضيين ، أو عقيدة فى روح شخصية غير مادية أو تجسيدية وخالدة ، ومع ذلك فإن مثل تلك الأطروحات الثنائية ليس لها من مكان حقيقى فى الكتاب المقدس العبرانى ، إن الاهتمام الدقيق والحَذِر للشواهد تقترح أن التدين العبرى القديم كان أكثر تجسيدية مادية ، وأكثر تفاعلاً مع الأرض الحسية مما نفترض بحكم العادة .

بالتأكيد أن قدماء العبرانين كانوا - كما قد رأينا - من بين أول المجتمعات الذين صنعوا استخداماً للغة الصوتية المكتوبة ، وكانوا من أوائل من امتلك الأبجدية ، الأكثر من ذلك على غير غرار آخرين من الأقوام السامية لم يقصروا استخدامهم للأبجدية على التسجيلات الاقتصادية والسياسية ، لكنهم استخدموها لتسجيل قَصصهم القديم وقصص أجدادهم وأسلافهم ، وعاداتهم وقوانينهم وتشريعاتهم ، لقد كانوا ربما أول قومٍ يحولون بشكل كلى مشاركتهم الحسية بعيداً عن الأشكال للطبيعة المحيطة نحو منظومة صوتية لغوية خالصة من الإشارات ، وبذلك كانوا يجربون الاستقلالية الإبستمولوجية العميقة عن البيئة الطبيعية التى صارت ممكنة عبر هذه التكنولوجيا الجديدة والقوية ، أن تتم المشاركة الفعلية بنشاط مع الأشكال المرئية للطبيعة صار يُعْتَبرُ نوعاً من الوثنية بالنسبة لقدماء العبرانيين ، "إنها لم تكن الأرض ولكن الحروف المكتوبة التى صارت تحمل الآن الحكمة القديمة" .

ومع ذلك فبالرغم من أن العبرانيين رَفضوا كل أشكال الانشغالات الحيوية مع الأشكال المرئية للعالم الطبيعى (سواء مع القمر ، والشمس ، أو تلك الحيوانات - مثل الثور المقدس لأقوامٍ أُخرى فى الشرق الأوسط) غير أنهم بالرغم من ذلك احتفظوا بعلاقة تواصلية مع الوسيلة غير المرئية أو الوسيط مع ذلك العالم - مع الريح والنَفَس .

إن قوة هذه العلاقة يمكن استخلاصها مباشرة من خلال التكوين نفسه لنظام الكتابة العبرية الأبجدية (الألف - باء) إن هذه الأبجدية القديمة التاريخية فى تضاد مع اشتقاقاتها الأوروبية لم يكن لديها حروف لذلك الذين صرنا ندعوه "بالحروف الساكنة" "the Vowels" ، إن الحروف الاثنين والعشرين للألف باء العبرية كانت كلها متحركة ؛ لذلك فمن أجل أن تقرأ أيضًا مكتوبًا بالطريقة العبرية التقليدية كان على الشخص أن يستخلص نطق الحروف الساكنة والحركات الصحيحة صوتيًا عبر عموم النص ، ثم يضيفها عند القراءات الصوتية للمقاطع المكتوبة .

إن انعدام الحركات المشكَّلة هو مجرد تفسير جزئى عبر التشكيل اللغوى للكلمات فى اللغات السامية ، حيث الكلمات مع التشكيلة نفسها من الحركات (عادة ما يتم جمعها فى مقاطع من ثلاثة) تميل إلى معنى مقارب لبعضها بعضًا ، إن هذا التشكيل اللغوى ضَمِنَ أن شخصًا فصيحًا فى اللغة العبرية يمكن - ببعض الجهد - له قراءة النص العبرى دون مساعدة أو استعانة بحركات التشكيل المكتوبة .

بالرغم من ذلك ، فإن حروفًا إضافية للتشكيل الصوتى كانت سوف تسهل القراءة بشكل كبير لقدماء العبرانيين ، إن واقع أن بعض العبرانيين اللاحقين يكتبون آخذين إرشادهم من الممارسة المعهودة للآراميين أحيانًا ما كانوا يستخدمون الفتحة والضمة والكسرة لاقتراح نطق صوتى معين - هو شاهد على أن افتقاد الحركات الصوتية المكتوبة كان بالفعل محسوسًا كصعوبةٍ وعثرةٍ لغوية ، عندما ، فى القرن السابع ق.م ، إشارات الحركات فى شكل نقط صغيرة وخطوط مقدمة تحت وفوق الحروف تم تقديمها أخيرًا إلى النصوص العبرية ، الفائدة من تلك الإشارات أو العلامات جعلها عنصرًا معتادًا ومهمًا للكثير من النصوص العبرية فيما بعد .

سبب آخر، ربما يكون أكثر أهمية لغياب الحركات المكتوبة فى الأبجدية الألف - باء التقليدية كان له علاقة بطبيعة النطق الصوتى لتلك الحركات فى حد ذاتها ، فيما التشكيل هو تلك الأشكال التى تقوم بها الشفاه ، أو الأسنان ، أو اللسان ، أو اللثة ، أو الحنجرة ، فإن الجرعات المتدفقة لحظيًا من النَفَس وما إلى ذلك تمنح شكلاً لكلماتنا وجُملنا ، فإن حركات التشكيل هى تلك الأصوات التى تُصنَع عبر حركة النَفَس

نفسه ، أى أن حركات التشكيل ليست بأى شىء آخر سـ ى صوت النَفَس ، والنَفَس لقدماء الساميين كان الغموض فى حد ذاته للحياة والوعى ، غموض غير منفصل عن الـــ Rouch غير المرئية – الريح المقدسة أو الروح ، إن النَفَس كما قد لاحظنا ، كان العنصر الحيوى الذى نفخ فى آدم عبر الله ذاته ، والذى بذلك قد منح الحياة والوعى للجنس البشرى ، إنه من الممكن إذن أن الكتبة العبرانيين قد امتنعوا عن خلق حروف متميزة للأصوات التشكيلية بهدف تجنب صنع تمثيل واضح وتجسيد لغير المرئى . أن تخلق تجسيداً أو تمثيلاً مرئيًا لحروف التشكيل لأصوات النَفَس ، كان سوف يكون تجسيداً ، كما هو غير قابل للتجسيد ، أن تمنح الوضوح والشبه المرئى للقدسى والإلهى كان سوف يكون تمثيلاً مرئيًا للغامض والذى فى جوهره المقدس نفسه ، الريح القدسية ، ولذلك فإن هذا لم يُفعل آنذاك .

بالطبع نحن لا نعرف إذا ما كانت فكرة تخيل الحركات الصوتية التشكيلية أو أصوات النَفَس كانت حتى قد حدثت أو مرت بأذهان الكتَبَة الساميين القدماء ، إنه من الممكن تمامًا أن كانت علاقتهم مع الريح والهواء ، وإحساسهم بالمقدس فى ذلك العنصر قد أعار سحر تواصله لكل الكلام المنطوق ببساطة قد استثنى مثل تلك الفكرة من حتى طرحها ، على أى حال ، سواء كان التجنيب لأطروحة التشكيل الصوتى المكتوب كان واعيًا أو غير ملتَفتٍ إليه ، فإن غياب حركات وحروف التشكيل المكتوبة تسير إلى اختلافٍ عميق ما بين أبجدية الألف باء القديمة السامية والألف باء المشتقة منها والتى تبعتها الأوروبية .

على سبيل المثال ، على غير غرار نصوص كان قد كتبها الإغريق أو الرومان فى أبجديتهم فإن نصًا عبريًا ببساطة لم يكن من الممكن خبرته كمزدوج – بديل ، أو واقف – على استعداد – للعالم الحسى ، الأرضى ، إن الحروف العبرية والنصوص لم تكن كافية فى ذاتها بهدف أن تُقرأ ، كان لابد من الإضافة إليها متخذة روحها من نَفَس القارئ ، الهواء غير المرئى ، الغموض نفسه الذى يسكن الأراضى الحية ، كان أيضًا ضرورة لإحياء الحروف المرئية ، لجعلها حية وقادرة على الكلام ، إن الحروف فى حد ذاتها هكذا بقيت خارجيًا معتمدة على عالم الحياة التجسيدية ، بعناصرها – لقد تم

تنشيطها وتفعيلها عبر النَفَس نفْسه لذلك العالم ، لم يكن من الممكن قطعه من ذلك العالم من دون فقدان كل قواها ، بهذه الكيفية فإن غياب حروف التشكيل وحركاته المكتوبة ضَمِن أن اللغة العبرية والتقاليد بقيت منفتحة للقوى لذلك الذى يتجاوز المجتمع البشرى المحض - لقد ضمن أن المنطقية العبرية سوف تبقى متجذرة بالرغم من كل شيء فى الأرض الحية (فيما الكتاب المقدس العبرى سوف يصبح - كما قد رأينا - نوعًا من أرضية الوطن المتجولة بالنسبة للبشر اليهود ، فإنه لا يمكن تمامًا أخذه من مكان الأرض المتنفسة نفسها والذى تعتمد تلك النصوص عليه ، وهكذا فإن القضايا الملحة والمكررة للمنفى والحنين الطويل للعودة يتكرر عبر التاريخ اليهودى منذ القدم وحتى الوقت الحالى) .

إن غياب حركات التشكيل المكتوبة فى العبرية القديمة تضمن أن القارئ للنص العبرى التقليدى كان عليه بشكل فعال أن "يختار" النَفَس الصوتى المناسب أو حركات التشكيل ، ومع ذلك فإن حركات وحروف تشكيل مختلفة كانت غالبًا ما تُنوِّع الحركات الساكنة (كما تغير المعنى للجمع الساكن "RD" فى اللغة الإنجليزية ، سوف يتنوع بحسب إذا ما أدخلنا ضمة أو واو (O) صوتية طويلة فيما بين هذين الحرفين السكانين "Road" ، أو كسرة أو ياء طويلة "e" "Read" ، أو فتحة "i" "Ride" ، أو حرف "e" "Red").

إن القارئ للنص العبرى التقليدى يتوجب عليه أن يختار بفاعلية أحد وسائل النطق ويُغلِّبها على الأخرى ، بحسب المعنى المناسب داخل النص المكتوب ، ومع ذلك فإن المعنى الدقيق لتلك الفحوى سوف يكون قد تم تحديده عبر حروف التشكيل المحددة التى كان القارئ قد اختارها .

إن النص العبرى التقليدى - بكلمات أُخرى - يتطلب بشكل واضح وخارجى المشاركة الواعية للقارئ ، إن النص لم يكن أبدًا مكتملاً فى حد ذاته ، إنه يتوجب أن يفعله القارئ وينشغل به عبر تلك المهمة ، وأن يمنح بزوغًا لقراءة محدودة ، فقط بالعلامة - فقط عبر كونها قد أخذت وفسرت بشكل فعال عبر قارئ محدد - استطاع النص أن يصبح مليئًا بالمعانى ، ولم يكن هنالك معنى محدد ، مفرد ، إن الالتباس

تضمن افتقاد حركات التشكيل المكتوبة التى تضمن تلك القراءات المختلفة ، الظلال المتنوعة للمعنى كانت دائمًا محتملة .

إن بعض أشكال المشاركة الفعالة ، كما قد رأينا ، ضرورية لكافة أشكال أفعال القراءة الصوتية ، سواء فى الإغريقية ، أو اللاتينية ، أو الإنجليزية فى نصوصها مثل هذا النص ، غير أن التشكيل الخالص الساكن لنظام الكتابة العبرية كان يستوجب هذه التشاركية - التفاعل الإبداعى ما بين القارئ والنص واع بشكل خاص وخارجى ، إنه ببساطة لم يكن من الممكن أخذه على سبيل المتاح والمضمون ، أو نسيانه ، وفى الحقيقة إن الانشغال المستعد للانشغال مع النص كان قد صار ضرورة عبر غياب حركات التشكيل الصوتية المكتوبة ، قد أعار "تفاعلا" عميقًا أو "تأويلاً" لشخصية المجتمع اليهودى وفهمه لأكثر تعاليمه قُدسية . إن الأستاذ العالم بارى هولتز قد تماشى مع هذا الفهم فى مقدمته لكتاب حول النصوص المقدسة فى اليهودية :

"إننا نميل عادة للتفكير فى القراءة على أنها مهمة محايدة وسلبية ، ولكن بالنسبة لتقاليد النصوص اليهودية كانت أى شيء آخر سوى ذلك ، إن القراءة كانت تواصلاً حماسيًا ، حميمًا وفعالاً مع كلمة الله الحية ، لقد كانت تتضمن تحديًا لكشف معانٍ سرية خفية ، وتفسيرات غير مسموعة ، قضايا ذات وزن وأهمية كبرى . إن قراءة فعالة وفى الحقيقة متفاعلة كانت منهجهم وطريقتهم للاقتراب من النص المقدس المدعو بالتوراة وعبر عملية القراءة تلك للعثور على شيء ما كان جديدًا تمامًا وعتيقًا جدًا فى الوقت نفسه ...

عبر "التفاعلية" إننى أعنى أن أقترح أنه لبعض الحاخامات لهذا التقليد ، إن التوراة دَعت لاستجابات حية وديناميكية ، إن النصوص العظيمة بدورها هى التسجيل لتلك الاستجابات ، وإن كل نصٍ بدوره يصبح المناسبة لتعليق تالٍ وتفاعل ، إن التوراة تبقى حية بشكل لا متناه بسبب أن القُراء لكل جيل يُتبع أو يُستجد يرونها هكذا ، آخذين قداستها بشكل جاد ، ومضيفين عطاءاتهم ومشاركتهم إلى القصة ، بالنسبة للتقاليد فإن الثورة تتطلب التفسير والتأويل" .

أى أن القارئ يجب عليه أن يستجيب بشكل فعال للتوراة ، ويجب أن يجلب إبداعه الفردى الخاص إلى حوارٍ مع التعاليم من أجل أن يكشف معانٍ جديدة وغير مسبوقة ، إن اليهود يجب أن يدخلوا فى محاورة مع التعاليم المُتلقاة لأسلافهم ، أن يسألوها ويناقشوها ويجاهدوا معها . إن الكتاب المقدس اليهودى ليس أطروحة جاهزة من القصص والقوانين غير المتغيرة والجامدة ، إنه ليس جسداً ثابتًا لحقائق دوغمائية ولكنه لغز حى لابد من مساءلته ، والصراع معه ، وتأويله وتفسيره بشكل طازج وحى مع كل جيل ، ذلك أنه ، كما يُقال – إن الإرشاد والهداية التى يمكن للتوراة أن تقدمها فى جيلٍ ما مختلفة تمامًا عن ذلك المنتظر تقديمه إلى جيل آخر .

إن هذه التقاليد المستمرة للتأويل النصى والشروحات والتعليقات ومن التعليقات المتراكمة فوق تعليقات أخرى قد منحت البزوغ للنصوص الكثيرة السابقة للكتاب المقدس فى التقاليد اليهودية ، من الميشنا ، والتلمود ، ومجموعات الميدراش (أو المدارس) ، إلى الزوهار (أو السحر) وأعمال الكابالا اليهودية الأخرى ، إنها فى مجموعها كل تلك النصوص تُعرف على أنها "التوراة الشفاهية" ، بما أنها كلها تأصلت فى النقاش الشفاهى والتعليقات والشروحات على "التوراة المكتوبة" ، وعلى التعاليم المباشرة التى كشفها موسى – أول كاتب يهودى – على جبل سيناء ، إن عملية تدوين التعليقات والتأويلات الشفاهية مع نية المحافظة عليها بدأت فى القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد .

إن أول تلك التجميعات هو التلمود ، وهو اليوم يُطبعُ بالمستوى الأساسى للنص ، الميشينه ، فى قلب كل صفحة ، ومع التعليقات المصاحبة على النص مرصوصة من حولها فى مستويات متلاحقة ، كما قد كانت ، وهكذا فإنها بترتيبها الواضح المرئى فى التلمود تعرض حسًا بالنص المكتوب لا كمادة نهائية ومحدودة ولكن كعملية عضوية ، ذات نهايات مفتوحة للتفسير والتأويل نحو كينونة متطورة وقابلة للمواجهة والانشغال بها .

قـوة الحـروف

ومع ذلك فـإن هذا الحس بالنص المكتـوب على أنه غمـوض حـى ومُعـاش ليس فى أى مكان أكثر وضوحًا منه فى الكابالا - التقاليد السـحرية للصـوفية اليـهودية - وذلك أنه هنا ليس هو النص فقط بكامله ولكن "الحروف" نفسـها التى يعتَقَدُ بأنها حيـة ! إن كل حـرف من الألف - باء الأبجدية يفتـرض أهل الكابالا بأن لديه وفيـه الشـخصيـة الخـاصة به ، سـحره العمـيق الخـاص ، وطريقتـه فى تنظيم وجـود كـامل من حـوله ، وبسبب أن الوصايا المكتوبة كانت قد أمليت بشكل محدود ومحسوم إلى موسى عبر الله مـباشرة على جبل سيناء فـهكذا إن الحـروف المكتـوبة تشكل أو النصـوص العبـرية - الحـروف الاثنين والعشـرين للألف باء الأبجـدية - يُفـتَرَضُ بـأنهـا الآثار المرئيـة للنطق الإلهى والمقدس .

وبالفعل فإن بعض علماء الكابالا ادعوا بأنه كان عبر الجيل الأول للحروف الاثنين والعشرين ، ثم بعد ذلك ضمـهم إلى مثل ذلك النطق على أنها "ليكن هناك نور" ، أن الله تحدث الكون المرئى نفسه ونطقه إلى الوجود ، إن الحـروف ، أى بمعنى ما ، هـى تركيز منطقى وحسى لقوى الخلق نفسها .

إنه عبر التـأمل ، عند القراءة ، لا على الجُـمَل المكتوبة والعبـارات ، ولا حتى على الكلمـات ولكن عـلى وفـى " الحـروف" بمفـردها التى تحـدقُ فـيـه من سطح الورقـة ، يسـتطيع الصـوفى اليـهـودى أن يدخل فى تواصل مـباشـر مـع الطاقات الإلهـيـة ، عـبر حسـاب وجمـع واستـبدال الحروف لعبارات وجُمَل محـددة وكلمات حتى تفقد الكلمـات (نفسـها) كلَ أو أى مـعنى واضح وفقط الحروف تقف فى المقدمـة بكامل عُريها المركز . كـان عـالم الكابالا يستطيع أن يجلب نفسـه إلى مراحل وأحـوال تزداد وتتـصـاعـد فى وعيـهـا ، مُـوقظَةً القـوى الإبداعيـة الخلاقـة التى كـانت قبل ذلك ترقـد نائمـة فى دواخل

جسده ، فى بعض الأحيان عندما يكون الممارس يقرأ بتلك الكيفية السحرية المُرَكزة "فإن الحروف تنبعث فى الحياة بحسب ما يناسبها" ، وتبدأ فى "التحدث" مباشرة إلى الصوفى ، على الأقل واحد من الممارسين كان متنبهًا ليرى تلك الحروف المكتوبة وهى تتمدد "لتصبح فى حجم الجبال" أمام عينيه ، آخرون كانوا قد سجلوا بأن لحساب وجمع وإعادة حساب وجمع الحروف ، كانوا قد رأوا الحروف فجأة "تتخذ أجنحة وتطير عاليًا من سطح الصفحة !" .

إن معرفة قريبة بالحروف الحية ومعرفة عملية بطاقاتها الفردية كان من المفترض أن تمنح عالم الكابالا قدرات سحرية يمكن عبرها أن يهون من المعاناة والآلام ، والأمراض ، ويعين بها العالم من حوله ، إن علماء الكابالا بكلمات أخرى ، اعتبروا الألف – باء (الأبجدية) ، على مستوى عالٍ من الكثافة والألوهية فى شكلها من أشكال السحر ، ولذلك فإنهم طوروا بشكل واعٍ مشاركتَهُم الصافية مع الحروف المكتوبة .

بما أن حروف الألف – باء الأبجدية أيضًا فى أحيان ما تخدم على أنها أرقام بالنسبة لليهود (مع الحرف الأول ، ألِف ، مشيراً إلى رقم ١ ، الحرف الثانى ، باء ، رقم ٢ ، وحتى الرقم ١٠ ، ومع الحروف الأخرى ممثلة ٢٠،٣٠،٤٠ ، ... إلخ، وكذلك حروف أخرى تمثل ١٠٠،٢٠٠،٣٠٠،٤٠٠) كلمات مكتوبة وعبارات يمكن أيضًا أن تقارن عبر حساب القيمة الرقمية الكاملة للحروف التى تُشكلها . إن أحد الوسائل أو التكنيكات فى الكابالاية تدعى **gematria** بمعنى جمع طرح ، عبر الاثنين معًا الاستبدالية للحروف وحساب قيمتها الرقمية فإن الصوفيين يستطيعون أن يعرضوا الموازى الخفى والمراسلات فيما بين الكلمات المختلفة والأسماء المتُضمنَة فى النصِ . (**Elohim**) بمعنى "اللهم" على سبيل المثال ، أحد الأسماء الأكثر قدسية لله فى الكتاب المقدس العبرى ، يمكن أن تُرى على أنها تمتلك نفس القيمة الرقمية مثل الكلمة العبرية للطبيعة (**hateva**) (طبيعة) ، كشاهد للوحدة الخفية ما بين الله والطبيعة ، (مثل تلك الأطروحات الكبرى ، التى تربط ما بين الله والطبيعة – هى مألوفة لعدد كبير من ممارسى الكابالا – قد تدهش علماء البيئة المتنوعين اليوم والذين يتهمون الدين العبرى بأنه قد نفى كل القدسية عن العالم الطبيعى) .

وبالفعل ، فإن كل أسماء الله الكثيرة فى الكتاب المقدس العبرى والحروف التى تُشكلها ، لها وضع أساسى فى نظرية الكابالا ، مقدمة مفاتيح ضرورية للممارس الذى يسعى إلى الخبرة المباشرة مع الإلهى والقُدسى ، مُعظَمٌ بين هذه الأسماء الاسم الرباعى الأضلاع ، ذو الحروف الأربعة YHWH ، "يَهْوَه" ، غالبًا ما يكتب فى النصوص غير العبرية على أنه Yahweh (يهويه) ، والكيفية الحقيقية لنطق هذه التشكيلة الرباعية الحروف العظيمة والقوية يُقال إنها قد نُسيت منذ القديم ، وعلى الرغم من ذلك فإن بعض أكثر الممارسات الكابالية المكثفة تتضمن نطق كل حرف من هذه التشكيلة الرباعية الأضلاع بشكل منفصل ، جامعة إياه بدورها مع كُلٍ من الاحتمالات الخمسة للنَفَس الصوتى ، أو حركات التشكيل ، إن ممارسةً أكثر تفصيلاً ويُعتقد أنها خطيرة للغاية تتضمن عزل كل حرف فى التبديل والجمع ، مرة فى كل وقت ، مع كل الحروف الأخرى للألف - باء الأبجدية ناطقين كل واحدة من تلك التشكيلات ، بدورها ، مع كل تشكيل حرف صوتى مختلف ، عبر التلاوة الدقيقة لذلك المحتوى على شكل أرضى فى شكل إنسان بشرى ، كان يُقال أن ذلك يُمكِّن الشخص من جلب الشكل الخزفى الطينى - agolem (غُليم) - إلى الحياة .

إن مفتاحًا للسحر المتعاطف يتضمن فى هذا المحتوى يمكن أن يُوجَد فى تعاليم القرن الثالث عشر لعالم الكابالا العظيم إبراهيم أبو لافيه ،والذى أكدَ أن حركات التشكيل المنطوقة والحروف المصمتة المكتوبة متداخلة ومتشابكة "مثل الروح والجسد" أن تجمع حروف التشكيل المحترقة - النَفَس الصوتى - مع الحروف الساكنة المرئية كان نوعًا من تنفس الحياة والنفخ فى الطين ، كما كان YHWH "يهوه" قد أعارَ أنفاسه لأبى البشرية آدم .

أخيرًا يتوجبُ علينا أن نُقرَّ بالأهمية المتسعة فى داخل التقاليد الصوفية اليهودية للنَفَس والتنفُّس فى حد ذاته ، فى القرن الثالث عشر فى "السُحار" أهم نصوص الكابالية ، الشخصية الأساسية ، الكاهن شيمون فى فصيلة يوهيه ، أصرَ أن الاتحاد ما بين البشر والله يمكن التأثير عليه بشكل أفضل عبر وسيلة التنفس ، وبحسب الكاهن شيمون فإن الملك سليمان قد تعلم من أبيه الملك داود تقنيات

التنفس الخاصة ببعث النَفَس القُدسى ، التطلع إلى الإلهى ، "عبر تعلم وممارسة الأسرار الخاصة بالنَفَس ، كان سليمان يستطيع أن يجلو الحجاب الجسدى للطبيعة عن الأشياء المخلوقة وأن يرى الروح بدواخلها " . بكيفية مدهشة من بقايا احتفالات طقوسية للناقاجو أو اللاكوتا فإن ابن الكاهن شيمون ويدعى إليعزار بدأ فى جلسة صلاة عبر الأداء السحرى ليأمر "الرياح أن تأتى من كل الاتجاهات الأربع وأن تملأ أنفاسهُ" ، وأمر وأرشد صحبَه أن يديروا الهواء المتَنَفَس من كل الجهات الأربع بالتبادل فى داخل أجسادهم ، فى مكانٍ آخر فى "السُحَار" فإن أحد أصحاب الكاهن شيمون يتحدث حول "نَفَس الروح" المُرسل من قِبل YHWH يهوه ليدخل إلى جسد الشخص الفاضل عند الولادة ، وشديد الشبه "بالريح من داخل الشخص " لدى أهل الناقاجو ، "فإن نَفَس – الروح الذى يدخل عند الولادة يُرشد ويدرب الكائن الإنسانى ويُعدُه لكل صراط مستقيم" إن هذا الحِس بالولادة كوسيلة ما بين الفرد والإلهى يُطرَحُ ممثلاً فى تعليق صلاةٍ من القرن التاسع عشر لأحد سادة الهادية (والهادية كانت موجة مشعة للصوفية اليهودية اكتسحت يهود شرق أوروبا فى القرنين الثامن والتاسع عشر) :

"إذا كانت الصلاة خالصة وغير ملوثة

فبالتأكيد إن النَفَس الإلهى

الذى يتصاعد من شفاهك

سوف ينضم إلى نَفَسِ الجنة

والذى دائمًا يتطاير إليك

من الأعلى ...

وهكذا فإن ذلك الجزء من الله

والذى هو بداخلك

يعود إلى التوحد مع منبعه" .

ومع ذلك وهكذا فإن النَفَس المقدس لا يدخل فقط إلى بنى الإنسان (مقدمًا الوعى والإرشاد) ، ولكنه أيضًا يُحيى ويحافظ على كامل العالم الحسى ، مثل الريح نفسها ، فإن نَفَس الله يحيطُ بالطبيعة كلها . فى نص كلاسيكى بعنوان "البوابة للوحدة والعقيدة" فإن سيد الهادية فى القرن الثامن عشر شنير زالمان للادى يصف كيف أن المقاطع الصوتية والحروف للنطق الإلهى الخالق مثل "ليكن هناك الضياء والنور" أو "فليجلب الماء قُدمًا حشود الكائنات الحية" ، بالتدريج يحيى عبر سلسلة مركزة من الحسابات الرقمية والحرفية الأسماءَ الدقيقة ، ومن ثم الأشكال المحدودة لكل كينونات وكائنات الطبيعة (فى العبرية مصطلح واحد ، davar داڤار ، تعنى المعنيين "كلمة" و "شىء") ، ومع ذلك فإنه بدون التدفق المستمر للنَفَس الإلهى ، والذى يدعوه شنير زالمان "نَفَس فمه" فإن كل الحروف التى تقف بدواخل الأشياء فى هذا العالم – كل الحروف بتركيباتها التى تُجَسِّد فى الخصوص الحيوانات ، والنباتات ، والأحجار – سوف تعود إلى منبعها غير مختلفة أو متمايزة فى التوحد الإلهى ، وإن العالم المحسوس والحسى إلى جانب الكائنات الحسية ، سوف يفنى ، وتمامًا مثل ما الحروف المتحركة فى النص التقليدى العبرى تعتمد – لقواها التواصلية – على النَفَس الصوتى الذى يُحييها ، فكذلك الحروف القدسية الإلهية والحروف المتشكلة بتركيباتها والتى تكون الكون المادى الفيزيائى معتمدة على النَفَس الإلهى والذى باستمرار ينطق بها كى تكون ، إن كل الأشياء تتجاذب وتهتز مع "النَفَس لفمه" .

وإنه عبر هذه الخاصية للنَفَسِ المستمر تتمكن الطبيعة من التجدد دائمًا ، إن العالم من حولنا أمر إلهى مستمر ومتتابع ! وهكذا فإن نشاط الخطاب والكلام مثل التنفُّس يربطُ البشر لا مع الله فقط ولكن مع كل ما يحيطُ بنا ، من الأحجار وإلى العصافير ، إن هذا موضح ببساطة فى تعليق صلاة آخر للهادية :

"انظر إلى صلاتك على أنها تحرك الحروف

حيث الجنة والأرض

وكل الأشياء الحية قد خُلقت .

إن الحروف حياة الجميع ،

عندما تُصلى عبرها ،

فإن كل الخَلق ينضمُّ إليك فى الصلاة .

إن كل شىء من حولك يمكن رفعه ،

وحتى أُغنية عصفورٍ عابر

يمكن لها أن تنضم إلى مثل تلك الصلاة .

آخذين بالاعتبار الأهمية الباطنية الموضوعة على الريح والنَّفَس فى التقاليد العبرية قد ننجرُّ إلى التساؤل حول إذا ما كانت منذ زمن طويل قبل استخدام الكتابة الصوتية والأبجدية (الألف - باء) ، التوحيد لدى إبراهيم وسلالته كان قد وُلد عبر طريقة جديدة من خِبرة الهواء غير المرئى ، حِس جديد للاتحاد لذلك الحضور غير المرئى الذى يتدفق لا فقط بداخلنا ولكن فيما بين كل الأشياء ، مانحًا إيانا الحياة والكلام حتى فيما هو يتحرك ويحرك الحشائش المتراقصة والسحب المتجمعة ، هل من الممكن أن قوى عظمى كانت فى يوم من الأيام تتمثل كإله محلى للعاصفة صارت موضع تعميم عبر أحد القبائل البدوية المتجولة ، لتكون تلك القوى الكبرى للجو والطقس المحيط نفسه ؟ إننا نعرف أن الغموض المفرد العائد إلى أبناء وأطفال إبراهيم كان قوى غير محددة أو مقننة كان لا يمكن تحديدها مكانيًا ضمن أية ظاهرة مرئية ، وكان لا يمكن تشكيلها فى صورة أى وثن أو صنم . وسابقًا لاستخدام الكتابة عبر موسى ، ثم الكَتَبَة التالين ، على أى حال ، فإنه قد يكون أن تلك القوى لم تكن هشة ولكن ببساطة غير مرئية ، إنها كانت قد تمت خِبرَتها لا كقوى تجريدية تمامًا "خارج" الطبيعة الحسية ولكن كمثل الوسيلة غير المرئية أو الوسيط ، الروح ، الريح أو الروح التى تُحيى العالم المرئى .

إنه من المميز والمدهش جداً أن أكثر أسماء الله قداسة ، الحروف الأربعة ، تتشكل من أكثر الحروف الشبيهة بالنَفَس Y و H و W ، والتى كانت أحياناً تُستَخدَمُ عبر قدماء الكَتَبَة لتقف ممثلة لحروف تشكيل معينة ، إن أكثر أسماء الله قدسية سوف يبدو هكذا على أنه أقرب الأشباه للنَفَس الناطق – اسمٌ متحدث به كما قد كان عبر الريح . بعض الدارسين المعاصرين للكابالا يقترحون أن النُطق المنسى للاسم قد يكون متضمنًا لتشكيل المقطع الأول ، "Y-H" ، فى همس النَفَس الداخل ، والمقطع الثانى ، "W-H" ، فى همس النَفَس الخارج ، إن كامل الاسم هكذا يشَكِّلُ دائرة مفردة للنَفَس ، إذا كانت شكوكهم صحيحة بأى شكل من الأشكال فإذن إن الغموض التاريخى الذى تطرحه رباعية الحروف هذه قد لا يكون منفصلاً عن غموض التنفس – هذا الشهيق والزفير الذى يربطنا إلى غير المرئى .

طارحين كل التساؤلات جانبًا – على كُلٍ – يتوجب أن يكون واضحًا من المناقشة المطروحة أن العنصر التشكيلى المتحرك للمخطوطة العبرية والكتابة قد شجعت علاقة متميزة وخاصة مع النصوص المُقَدسَة ، ومع القدسى والمقدس فى العموم . فى الخصوص إن غياب الحروف التشكيلية الساكنة من الكتابة قد شكلت : ١) علاقة واعية متداخلة ومتشابكة مع النص – وحتى بالنسبة للبعض ، مشاركة خارجية حية مع الحروف المكتوبة نفسها ، ٢) احتراما مستمرا ومتواصلا للهواء – لذلك الوسيط غير المرئى الذى يحرك وينشِّط الحروف المرئية فيما هو يحيى ويسكن الأراضى والمحيط المرئى . وفيما بالتأكيد هم قد طوروا مسافة أدبية جديدة عن العالم المحيط للطبيعة فإن العبرانيين – أول "أصحاب الكتاب" – بالرغم من كل شىء احتفظوا بعلاقة شفاهية عميقة مع الوسيلة غير المرئية أو الوسيط لهذا العالم ، مع الريح والنَفَس .

نسيان الهواء

إنها بدقة هذا الوعى الشفاهى بالأعماق غير المرئية التى تحيطُ بنا – هذا الحس بالهواء غير المرئى كغموض ساحر يربط ما بين البشر وعوالم ما هو أكثر من بشرى – هى التى كانت قد شُطِرَت وفُصِلَت عبر قدماء الكتبة الإغريق .

عندما قاموا باقتباس الأبجدية السامية العتيقة الألف – باء ليقوموا باستخدامها والانتفاع منها ربما فى القرن الثامن ق.م ، فإن الكَتَبَة الإغريق اتخذوا (مع بعض التعديلات) فى الكتابة الأشكال والأسماء أيضًا للحروف السامية الأولى ، ومع ذلك – كما قد ذكرنا فى الفصل الرابع – فإن تلك الأسماء لم تمثل مرجعية خارجية للإغريق ، كما كانت بالنسبة للعبرانيين ، تذكر إنه بالنسبة للعبرانيين ألف (بالإغريقية : ألفا) كانت تُمثل لا الحرف الأبجدى الأول فقط ولكن أيضًا وبشكل حيوى وأساسى أكثر الثور أو الجاموس ، وكذلك الباء (بيتا بالإغريقية) كانت تعنى بيت ، و"ج" تعنى جمل ، ... إلخ .

لكن بالنسبة إلى الإغريق فإن هذه الكلمات كانت مجرد تسميات للحروف فى حد ذاتها ، ولم يكن لها أى أهمية أخرى أو معنى آخر رمزيًا ، وفيما الأسماء للحروف تشظت معانيها وأهميتها الرمزية الخارجية الخاصة بالعالم فى الانتقال والتحول حول البحر الأبيض المتوسط فإن أى تشابه أو تَمَثّل للكتابة التصويرية أو المرسومة ما بين الحروف المكتوبة وتلك الظواهر فى الطبيعة والعالم (الجاموس ، البيوت ، الجمال ، إلخ) كان قد نُسى أيضًا ، فى المرحلة نحو اليونان – بكلمات أخرى – فإن الحروف المكونة للألف – باء تخلخلت وتركت وراءها روابطها البصرية وفحواها مع حياة العالم المحيط وبذلك فإنها أصبحت أكثر تجريدية كمنظومة رمزية .

غير أن الإغريق أدخلوا وقدموا أيضًا عنصرًا جديدًا غريبًا إلى الأبجدية ، ابتكارًا كان سوف يزيد بالضرورة من القدرة التجريدية لهذا النظام الكتابى أكثر بكثير من العوامل المذكورة سابقًا أعلاه ، ذلك أن الكتبة الإغريق قدموا وأدخلوا نظام الحركات الصوتية المتحركة إلى النظام السابق الساكن للحروف .

فى الواقع ، الكثير من الحروف الجديدة كانت قد تم تبنيها واقتباسها من النظام القائم بالفعل للحروف السامية الموجودة ، صفات وشخصيات محددة فى الألف - باء السامية كانت تمثل سواكن لم يكن لها من وجود فى اللغة الإغريقية ، وقد كانت هذه كما يبدو حروفًا فائقة الصعوبة مما دعى إلى تعديلها عبر الكتبة الإغريق لتُمثل أصوات أو حركات متحركة . إن الحرف ألف على سبيل المثال لم يكن حرفًا متحركًا ولكنه ساكن فى الاستخدام العبرى العتيق ، لقد كان يمثل فتحة فى القصبة الهوائية سابقة لنطقه ، وبما أن الإغريق لم يكن لديهم استخدام أو منفعة من الساكن ، فإنهم قاموا باقتباس ذلك العنصر والذى دعوه (ألفا) ، ليمثل صوتا للحركات هو A وحـــروف أخرى عبرية تم استبدالها لتُمَثِل حركات الكسرة والفتحة E ، I والضمة O ، أخيرًا قام الإغريق بإضافة حرف Upsilon ، والذى أصبح بمرور الوقت هو الحرف الرومانى U .

إن الأبجدية الناتجة عن ذلك كانت مختلفة جداً ونوعًا آخر من الأدوات عن الخلق السامى المبكر لها ، إنه ذلك الذى سوف يكون له تأثير مختلف جدًا على الحواس التى تنشغل به ، وعلى اللغات المختلفة المتنوعة التى اقتبسته على أنه ملكها الخاص وصنيعتها ، ذلك أن إضافة حركات التشكيل المكتوبة مكنت من إمكانية أكبر بكثير لكتابة وتسجيل المنطوق المحكى على السطح للصفحة ، إن نصًا مكتوبًا بالأبجدية الجديدة لم يكن فيه أى من الغموض والالتباس الذى - كما قد رأينا - كان جزءًا من النص العبرى التقليدى ، فيما بالنسبة لأى نص عبرى بطولٍ كافٍ كان هنالك إمكانيات متعددة ممكنة لقراءته ونطقه ، أو قراءته ، كل منها سوف يدعو إلى منظومة مختلفة نسبيًا ومعانٍ أخرى ، وإن نصًا إغريقيًا مُقارنًا بذلك سوف يكون أميل إلى قبول معنى واحد صحيح للقراءة ، إنه هكذا أصبحت النصوص المكتوبة بالإغريقية (ومن بعد

بالرومانية) أبجدية لم تكن تدعو إلى ذلك النوع من التفسيرات والتأويلات النشيطة والمتغيرة والمتجددة باستمرار والتى كانت ضرورية ومطلوبة للنصوص العبرية ، إن المشاركة التفاعلية المرتبطة بالقراءة – فى تحويل سلسلة من الإشارات البصرية الواضحة إلى سلسلة الأصوات – يمكن لها الآن أن تصبح مألوفة تمامًا ، أليفة وآلية ، ذلك أنه لم يكن هنالك من اختيارات فى كيفية نطقها الصوتى خارج النص ، إن كل المفاتيح لمشاركة الشخص تمت تهجئتها وتوضيحها على الصفحة ، متصلة نسبيًا بالنصوص السامية ، إذن فإن النصوص الإغريقية كان لها استقلال مدهش ، لقد بدا أنها تقف وحتى تتحدث بطريقتها الخاصة بها .

ومع ذلك فإن الدقة البادية والاكتفاء العملى للأبجدية الجديدة تم إنجازه بثمن فادح جدًا ، ذلك أنه عبر استخدام العناصر والشخصية الواضحة لتمثل النَفَس المسموع الصوتى ، فإن الكَتَبَة الإغريق بالتالى قامـــوا " بإلغاء قدسية " النَفَس والهواء عبر تقديم وتزويد تمثيلات بصرية لذلك الذى قد كان – بمحض طبيعته – غير مرئى ، إنهم أعدموا الغموض للمناخ والجو المحيط وجعلوه عدميًا ، ناقضين عدم القبض على ذلك العنصر والذى كان كلا الأمرين هنا وفى الوقت نفسه ليس بها ، حاضرًا للجلد والبشرة ومع ذلك فإنه غائب عن الأعيُن ، عظيم ومتسام ويفوق كل شىء فى الوقت نفسه .

إن عظمة الهواء المذهلة قد سكنت تمامًا فى طبيعته غير المقبوض عليها وغير المرئية ، إن قدرته على منح الحركة والحياة للطبيعة المرئية فيما يبقى – فى حد ذاته – غير مرئى وغير قابل للقبض عليه ، إن الكتابة العبرية كانت قد حفظَت ذلك الغموض عبر الامتناع عن تمثيل الهواء نفسه رمزيًا على الحجر أو الصفحة – عبر رفض تصويره خياليًا أو عبر الرسم ، أو تشييئه . إن ذلك الدفق غير المرئى الذى يحافظ على الأمرين : الكلمة والعالم المرئى ، عبر كسر هذا المُحَرَّم أو التابو ، عبر تحويل غير المرئى إلى مرئى مُسَجَّل فإن الكتبة الإغريق قد أثروا فى إذابة تلك القوى الحيوية والأساسية للهواء .

إن تأثيرات هذا الذوبان والاضمحلال على مستوى التلقى لم تكن ، بالطبع ، واضحة تمامًا دَفعة واحدة فى اليونان ، كما قد رأينا كانت الأبجدية الجديدة قد لاقت

معارضة ضخمة ورفضًا فى شكل ثقافة شفاهية متطورة جدًا ومزدهرة ، وهكذا فقد استغرقت عددًا من القرون لتجعل من نفسها محسوسًا بها داخل المسار المشترك المعتاد للمجتمع ، وفى زمن متأخر مثل منتصف القرن السادس ق.م . فإن الفيلسوف آناكسيمينز كان مازال قادرًا على تأكيد التالى :

"وكما أن النَفَس Psychê كونها الهواء ، تمسك بالكائن ليتماسك وتمنحه الحياة ، فكذلك النَفَس والهواء يقبضان بالعالم والكون بكامله ليتماسك ويمنحه الحياة" .

بعد قرنٍ ونصف من ذلك عندما صارت الأبجدية تُدرَسُ أخيرًا داخل المنهج التعليمى وبذلك صارت منتشرة خلال الثقافة والحضارة الإغريقية ، فإن أفلاطون وسقراط كانا قادرين على تحوير التعامل مع مصطلح النَفَس - Psychê - والذى بالنسبة إلى آناكسيمينز كان مرتبطًا تمامًا مع النَفَس والهواء - مستخدمين المصطلح الآن للإشارة إلى شىء ما ليس فقط غير مرئى ولكنه غير مدرك تمامًا .

إن Psychê لم تكن أبدًا جزءًا من العالم الحسى المحسوس ، ولكنها كانت بالأحرى كلمة حول بُعد آخر ، غير حسى أو تجسيدى بالمطلق ، إن كلمة Psychê كانت بمعنى آخر لم تعد قوى غير مرئية ومع ذلك قوى فعّالة مشاركة باستمرار عبر فضيلة التنفس مع الجو المحيط ، ولكن ظاهرة تجريدية إلى حد كبير صارت الآن مُتضمَّنَة داخل الجسد الحى كما لو أنها فى الحبس .

لقد رأينا مُسبقًا كيف أن العلاقة الجديدة التى كتب أفلاطون حولها ما بين النفس الخالدة والمجال المتسَامى "للأفكار" الخالدة ، كانت فى حد ذاتها معتمدة على التحالف الجديد ما بين الثقافة الأدبية للكتابة والحروف المرئية (والكلمات) للأبجدية ، نستطيع الآن أن نكشف أن هذه العلاقة ما بين النفس والأفكار غير المتجسدة كانت معتمدة أيضًا على النسيان التدريجى للهواء والنَفَس ، وهذا فى حد ذاته أتاح الإمكانية عبر انتشار التقنية الجديدة ، ذلك أنه كان فقط عندما صار الهواء غير المرئى فاقدًا لسحره لدى الحواس البشرية أن صار ذلك الآخر الأكثر غير مرئية بديلاً للهواء وأخذ مكانه - المجال الأثيرى الكلى "للأفكار" الخالصة والذى كانت "نفْس" أفلاطون العقلانية متصلة بها كما قد كان النَفَس المبكر فى القديم قد صار الآن جزءًا متضمنًا من الجو والمجال الحى .

إن أولئك الذين يتحدثون حول "تقاليد ثقافة يهودية – مسيحية" يفشلون فى الكشف عن المناهج المختلفة بشكل واضح ومميز والتى تميز وتُفرق ما بين العقيدتين اليهودية القديمة والمسيحية ، إنها اختلافات تتجذر جزئيًا فى التأثيرات الحسية لنظامى الكتابة المختلفيْن والمستخدمين فى هاتين الحضارتين بتقاليدهما المرتكزة على الكتاب والنص ، على غير غرار التوراة العبرية فإن الإنجيل المسيحى الجديد كان مكتوبًا فى الأصل أساسًا بالأبجدية الإغريقية ، وبهذا فإن العقلانية المزدوجة التى عززتها الكتابة الإغريقية بنظامها كانت فى وقت مبكر فى تحالف مع الميثاق المسيحى ، وتحت هيمنة الكنيسة فإن الاعتقاد بجنة سماوية غير حسية أو أرضية ، والطبيعة الأساسية الأثيرية غير المُجَسدَة للروح البشرية – فى حد ذاتها "مسجونة" ، كما قد طرح أفلاطون ، فى العالم المادى الجسدى – قد صاحبت الأبجدية فى انتشارها ، أولاً عبر أوروبا ومن ثم عبر القارتين الأمريكيتين ، ومن حيث كانت الأبجدية تتقدم فإنها سعت وقامت بإلغاء سحر هواء الأشباح والتأثيرات غير المرئية عبر تجديد الهواء من الحياة ، وأعماقه الروحية النفسية .

فى العالم الحى الشفاهى لما قبل المسيحية وأوروبا الفلاحية فإن كل الأشياء – الحيوانات ، والغابات ، والأنهار ، والكهوف – كان لديها القوى للخطاب والكلام التعبيرى ، والوسيط الأساسى فى هذا المسار الجماعى كان الهواء ، فى غياب الكتابة ، النطق البشرى ، سواء كان مُجسدًا فى الأغانى والأناشيد ، أو الحكايات والقصص ، أو الأصوات التلقائية ، كان ذلك غير منفصل عن النَّفَس المُتَنَفَّس ، إن المجال غير المرئى كان هكذا إذن الوسيط المشترك المفترض فى كل أشكال التواصل والخطاب ، مجال لتأثيرات مبطنة تعبر ، وتشاغل ، وتتخذ الأشكال الحية ، إن هذا المجال غير المرئى ومع ذلك مسيطر وحاضر وقوى للروائح والهمسات للحياة النباتية والنَّفَس الحيوانى ، كان أيضًا هو المجال غير المرئى لأصوات الأسلاف ، موطن الحكايات التى لم تُقل وسوف تُحكى بعد قليل ، والأشباح والمخلوقات الذكية الروحانية ، إنه نوع من الحقل الجماعى للمعنى من حيث تنبثق باستمرار أشكالُ الوعى الفردى وحيث تقود باستمرار ، مع كل زفير وشهيق .

يمكن لنا أن نقول إن الهواء على أنه النبع المرئى للحاضر استصرخ ودعى إلى وعى للتحول والتسامى مختلف جداً عن ذلك التسامى الكامل والكلى الذى طرحته الكنيسة ، إن التداخل المعاش والمُجَرَّب ما بين المرئى وغير المرئى – تلك الثنائية المناسبة تماماً لعالم الحياة الحِسية – كان أكثر من حقيقى ككل وبعض من الجنة الأخرى التى هى (غير حسية أو تجسيدية) أرضية بالمطلق .

وهكذا فإنه قد كان الانتشار الآخذ فى التطور والتقدم للمسيحية كان معتمداً بشكل كبير على انتشار الأبجدية ، وبالتالى فإن تلك الحملات التبشيرية المسيحية وبعثاتها كانت العامل الأهم لتقديم المعرفة والتعلم الأبجدى سواء فى مراحل القرون الوسطى أو الحديثة ، إنه لم يكن كافياً التبشير بالمعتقدات المسيحية : كان على المرء إقناع القبائل غير المتعلمة بالبدء فى استخدام التقنية التى تعتمد عليها تلك العقيدة ، فقط عبر تدريب الحواس للمشاركة مع الكلمة المكتوبة كان الشخص يستطيع أن يأمل فى كسر مشاركتهم الحسية مع الطبيعة المحيطة بهم ، وفقط عندما كان النص المكتوب قد بدأ فى التحدث سوف تبدأ أصوات الغابات والأنهار فى التلاشى ، وإنه فقط آنذاك سوف تستطيع اللغة أن تخلخل ربطها التاريخى للنَفَس غير المرئى ، الروح تفصل نفسها عن الريح ، والنَفْس تعزل نفسها عن الهواء المحيط بها ، الهواء الذى كان فى يوم ما الوسيط نفسه للتبادل المُعَبر ، سوف يصبح خاوياً باستمرار ومُفَرَّغاً وظاهرة غير ملحوظة ، ضاعت عبر الوسيط الغريب الجديد للكلمة المكتوبة .

الخلايا الحية ، والحدود

إن النسيان المتنامى للهواء – فقدان الثراء غير المرئى للحاضر – كان قد صاحبه حالة مبطنة فى الوعى الإنسانى ، لقد رأينا للتو كيف أن الكلمة الإغريقية القديمة psychê ، النَفْس ، أو الروح ، كانت قد تحولت من ظاهرة مصاحبة للهواء والنَفَس إلى كينونة غير مادية أو مجسدة تمامًا فى قبضة مصيدة ، كما قد كان الجسد البشرى على صلَة مع الكلمة المكتوبة انبعثت عقلانيةٌ مستقلة بوضوح إلى الخبرة البشرية ، ذاتٌ جديدة يمكن لها أن تدخل فى علاقة مع آثارها الشفاهية ، يمكن لها أن تشهد وتبحث فى جُملها وآرائها حتى وهى تُشكِّلُ ذلك ، ويمكن لها بذلك التفاعل الانعكاسى مع نفسها بمعزل عن الأشخاص الآخرين وعن العالم الأرضى الحى المحيط بها ، إن هذه العقلانية الجديدة تبدو وكأنها مستقلة عن الجسد – تبدو ، بالفعل ، من نظام آخر كلية وتمامًا – بما أنها قد وُلِدَت عبر الحروف والنصوص والتى عبر ميزة عدم تغيرها تتعارض بوضوح مع الحياة المتحركة للجسد ودفق الطبيعة العضوية ، إن كون هذه العقلانية الجديدة قد أصبحت ترى نفسها كذكاء منفصل يسكن فى " الداخل " ضمن الجسد المادى يمكن فقط فهمه بالعلاقة مع الهواء المنسى ، مع ذلك النسيان لذلك الوسيط الحسى ولكن غير المرئى الذى يتدفق باستمرار إلى الداخل والخارج للجسد المُتَنَفِس ، رابطًا ما بين الأعماق الخفية فى دواخلها مع الأعماق غير المرئية المحيطة بنا .

يُمكِنُ لنا أن نستوعب بشكل أفضل تلك التطورات الغريبة – انسحاب العقل عن الطبيعة الحِسية وتخلقه المتطور داخل الجمجمة البشرية – عبر الأخذ فى الاعتبار أن كل لغة بشرية بأسرارها نوع من الحدود المُستوعَبة التى تحيط مثل حجاب شفاف ، وتقف فيما بين أولئك الذين يتحدثون اللغة والأراضى والطبيعة المحيطة التى يعيشون

فيها ، وفيما ننمو في ثقافة أو حضارة معينة أو لغة نبدأ بشكل مبطن في بناء احتكاكنا وتواصلنا الحسي مع الأرض من حولنا بطريقة معينة ، باذلين الانتباه نحو ظواهر معينة فيما نتجاهل ظواهر أخرى ، مميزين ما بين الكثافات ، والأطعمة أو الذائقة ، والنغمات بما يتناسب مع المقابلات اللفظية المُتَضَمنة في اللغة . إننا ببساطة لا يمكننا اتخاذ مكان لنا داخل أي مجتمع من المتحدثين البشر دون أن تأمر حواسنا بأن تكون في كيفية مشتركة معهم ، دونما بذلك أن نقصُر ونحدد مداخلنا التلقائية إلى العالم الطبيعي البَرى الذي يحيط بنا ، إن أية لغة محددة أو طريقة للكلام أو الحديث بذلك تقبض علينا لنتماسك ضمن مجتمع محدد من المتكلمين من البشر ، فقط عبر استثارة حدود أثيرية ما بين أجسادنا الحساسة والحسية والأرض الطبيعية الحسية .

وعلى الرغم من ذلك فإن الحدود المُستوعبة التي تسنها أية لغة ربما تكون قابلة للثغرات وسامحة للتجاوزات ، وبالفعل بالنسبة للكثيرين من البشر الأصليين والشفاهيين إن الحدود التي وضعتها لغاتهم أميل إلى أن تكون مثل خلايا حية طبيعية لينة وطرية ، تربط ما بين الناس وأراضيهم ومحيطهم الطبيعي ، بدلاً من أن تكون حدوداً حائطية ذات جدران صلبة تعزلهم عن الأرض . عبر التأكيد على أن الحيوانات الأخرى لها لغاتها الخاصة بها ، وأنه حتى حفيف أوراق الشجر نفسه نوع من الأصوات ، فإن البشر الشفاهيين يربطون ما بين حواسهم والأصوات المتحركة والاختلاجات للأرض المحلية ، وبذلك يضمنون أن طرائقهم للتحدث تبقى على صلة معرفية مع الحياة لتلك الأرض ، تبقى الخلايا الحية الرقيقة في الطبيعة محسوسة في لغتهم ، ومعترف بها وبدرجة ما من خطورتها وسحرها ، مكان حيث العلاقات ما بين البشر والعوالم الأكثر من بشرية يجب أن تكون دائمًا محور نقاش وتواصل . إن ممارسي الشامان المعهودين في الثقافات والحضارات الشفاهية يتجولون بدقة في هذا النطاق أو هذه الحافة ، إن الدور الرئيسي لمثل أولئك السحَرة - كما قد طُرح عبر هذا الكتاب - هو أن يتصرفوا كوسطاء ما بين البشر والمجالات الأكثر من بشرية ، عبر الإزالة المستمرة للعوائق الحسية التي تدخلها اللغة المشتركة فصليًا مذيبين الحدود المستوعبة من أجل المواجهة المباشرة ، والمحادثة والتواصل ، وعقد الصفقات مع أنواع

الذكاء والوعى المختلفة خارج نطاق الذكاء البشرى – مع البومة ، أو الحيوانات الأخرى – ومن ثم العودة للانضمام للمسار المشترك ، إن الشامان يحافظ على أن يكون المسار البشرى غير جامد أو متصلب ، ويحافظ على الخلايا الحية الرقيقة المستوعبة متدفقة ومنصبة ، ضامنًا أعظم تناغم ممكن ما بين المجتمع البشرى والأرض الحية ، ما بين المألوف والسحرى .

إن انبثاق أو اقتباس النظام الرسمى للكتابة قد صَلَّبَ بشكل كبير حدود الاستيعاب الأثيرى المؤسس بالفعل عبر اللسان المشترك ، الآن اللغة المحكية صار لها مقابل يطفو ، ثابت وغير متحرك ، ما بين الجسد البشرى والعالم الحسِّى ، ومع ذلك فيما الكتابة الرسمية بذلك صَلَّبت الحدود اللغوية المستوعبة فإن الكثير من أنظمة الكتابة العتيقة ضمنيًا تعود إلى الحواس البشرية ، إلى ذلك الذى يرقد فيما هو "أبعد" من الحدود ، إن الكثير من الكتابات ذات الصور والرسوم بعناصرها المشتقة لا يمكن لها إلا أن تُذكر الجسد القارئ بميراثه فى الحقل الأكثر مما هو بشرى للأشكال الحية ، إن اللغة ليست – هنا – ملكية بشرية خالصة إنها تبقى مرتبطة أيًا كانت المسافة بالحقل الأكبر للقوى المُعَبِّرَة .

إن التطور للكتابة الصوتية قد ضاعف من تجميد وتحديد الحدود المستوعبة المُتضمنة فى داخل المجتمع البشرى ؛ ذلك أن العناصر المكتوبة لم تَعُدْ معتمدة ضمنيًا على الحقل الأوسع للظواهر الحسية ، إنها تعود فى مرجعيتها بدلاً من ذلك إلى منظومة بشرية محدودة من الأصوات . إن الحروف كما قد قلنا بدأت فى العمل كمرايا تعكس المجتمع البشرى إليه من جديد ، على الرغم من ذلك حتى هذه الحدود من الانعكاسات والمرايا يمكن أن تبقى بشكل ما منفتحة نحو ذلك الذى يرقد فيما هو أبعد منها ، لقد رأينا أنه فى الأبجدية (الألف – باء) الأصلية أن الحروف المتحركة أو أدوات التشكيل ، أو بالأحرى غيابها ، قد قدم ثغرات ، الفتحات فى الخلايا الحية الرقيقة للغة عبر – حيث الريح غير المرئية – النَفس الحى يمكن له أن يبقى متدفقًا فيما بين البشر والعوالم الأكثر من بشرية .

لقد كان فقط من خلال سد تلك الثغرات الأخيرة – عبر إدخال الحروف المرئية والحركات للأصوات أو الحروف المتحركة نفسها – أن صارت الحدود المُستَوعَبة مؤسسة وقائمة عبر اللغة المشتركة التى شمعتها أو ختمتها بشكل مؤثر ، وإن ذلك الذى قد كان فى يوم ما ثغرات من خلايا حية رقيقة قد أصبح الآن حدوداً غير قابلة للاختراق ، تهو للمرايا . إن الكَتَبَة الإغريق ، بمعنى ، إنهم قد حولوا الحدود المتنفسة ما بين الثقافة والحضارة البشرية والأرض الحية إلى حدود جامدة وصلبة فاصلة ما بين داخل خالص عن خارج خالص ، مع إضافة حركات التشكيل المكتوبة ، مع ملء تلك الفراغات ، أو الثغرات ، فى الأبجدية المُبَكِّرة فإن اللغة البشرية صارت نظامًا فى أغلبيته ذاتى المرجعية ومغلق فى وجه العالم الأكبر الذى كان يحويه فى يوم ما ، وإن "الأنا" للذات المتحدثة صارت مُشمعة ومختومة فى داخل هذا الباطن الجديد .

اليوم إن الذات المتحدثة أو المتكلمة تنظر نحو "خارج" خالص للطبيعة من منظور "داخلى" خالص من المفترض أنه يسكن بشكل ما داخل الجسد البشرى المادى للدماغ أو العقل ، فى الحضارة الأبجدية فإن كل نَفس بشرية تشكل نفسها على أنها مجرد "داخل" أو باطن فردى ، "عقل" خاص شخصى ، أو "وعى" غير مرتبط "بالعقول" الأخرى المحيطة به ، أو الطبيعة والبيئة التى هو فيها ، ذلك أنه لم يَعُدْ هناك أى وسيط مشترك ، ولا تبادل تلقٍ ، ولا تعرُّق أو نظام تنفس ما بين الداخل والخارج ، لم يعد هناك أى تدفق ما بين مستوى الذات – الانعكاسية للوعى الأبجدى وكل ذلك الذى يتجاوز ذلك المجال المحدد ، ما بين الوعى واللاوعى ، ما بين الحضارة والطبيعة البرية والوحشية .

التَّذَكُّر

فى عالم العصرانية والحداثة فإن الهواء بالفعل قد أصبح أكثر الظواهر المأخوذة عرَضًا دون التفكير بها ، وبالرغم من أننا نتنشقهُ باستمرار فإننا عادة ما نخفق فى ملاحظة أن هنالك أى شىء هناك ، نحن نعود إلى الأعماق غير المرئية ما بين الأشياء – بين البشر ، أو الأشجار ، أو السحُب – برؤيتنا على أنها مجرد فضاءات فارغة ، إن لامرئية الجو بعيداً عن أن يقودنا ذلك للاهتمام والانتباه له عن قُرب ، صار الآن يمُكننا من إهماله تمامًا . بالرغم من أننا معتمدون بالكلية على تغذيته لكل الأفعال وكل أفكارنا ، فإن هذا الوسيط الغامض ليس فيه أى غموض بالنسبة لنا ، ولا تأثير واعٍ أو معنى مفتقداً لكل قدسية ، ومجرداً من كل أهمية روحية فإن الهواء اليوم هو أكثر بقليل من مشهد مزبلة منسية بشكل مناسب لضيف من المخلفات والمدمرات والغازات الصناعية ، إن انبهارنا هو فى مكانٍ آخر ، محمولاً بكل تلك الوسائط "الأخرى" – تلك الصحف ، البَث الإذاعى ، شبكات التليفزيون ، قوائم الكمبيوتر – كل تلك الحقول أو القنوات "للتواصل البشرى الخالص" والتى تستولى بشكل جاهز على حواسنا وتُشكِّلُ أفكارنا عندما صارت مشاركتنا العجوز – القديمة مع الوسيط الأصلى الأكثر من بشرى مهجورة ومنسية .

كطفل كان ينمو على مشارف ضواحى مدينة نيويورك لطالما حدقتُ فى أعمدة الدخان والسحب السوداء فى السماء ، ومع ذلك فإننى سرعان ما توقفت عن التساؤل عن المكان الذى تذهب إليه تلك الأدخنة والسحب السوداء : بما أن البشر البالغين والناضجين الذين قد قرروا مثل تلك الأشياء قد رأوا أنه من المناسب أن يلقوا بتلك القاذورات بهذه الكيفية ، فيتوجب إذن كما قد استخلصت أن يكون كل ذلك صائبًا وصحيحًا . فيما بعد وفيما كنت أتعلم قيادة السيارات كنت أراقب مع بعض الحذر

فيما الشاحنات تزأر متجاوزة إياى على الطريق السريع نافثة الدخان الأسود من أنابيبها ، غير أننى كنتُ سريعًا ما أسامحهم ، متذكرًا أن سيارتى هذه أيضًا كانت تقدم هى الأخرى ملوثاتها وغازاتها الساخنة إلى الهواء . الكُلُ كان يفعل ذلك . وكما كانت آثار الطائرات تُحلّق فوق الرؤوس وتبدو بأنها تختفى بشكل كامل فى الأزرق غير المحدود للسماء ، فإننا افترضنا بذلك أن تلك المخلفات وتلك الأدخنة والأبخرة متعددة الألوان والغازات الكيميائية كلها سوف تُلقى نفسها ، بطريقة ما ، فى الفراغ غير المرئى .

لقد كان كما لو أنه بعد انقراض أصنام الآلهة الوثنية القديمة فإن الحضارة الغربية كانت تحرق أضحيات صارت أكثر وفرة ، واستمرارية ، وبذخًا ودموية – كما لو أننا كنا نتوسل إلى قوة غير معروفة ونائمة ، محاولين إطلاق سراح تنين ضخم ، مجتهدين فى استثارة قوى غير معروفة نوعًا ما أو لطالما كانت منسية بحيث أن الإيقاظ قد يعيدنا إلى علاقة مع شىء ما مغاير ومختلف عن أنفسنا وذواتنا وتصميماتنا التى قمنا بفرضها على الكون .

وبالفعل فإن التدفق الهائل للمنتوجات التكنولوجية والملوثات منذ زمن الثورة الصناعية يمكن لها أن تستمر لزمن طويل محدد قبل أن تبدأ فى تبْديل التشكيل المحدود للعالم من حولنا ، قبل أن تبدأ تأثيراتها فى خنق أجسادنا المتنفسة ، ساحبة إيانا بلا هوادة ومعيدة إيانا إلى حواسنا وتواصلنا الحسى مع عالم الأرض الحى .

اليوم إن وسائل الإعلام التكنولوجية – الصحف والإذاعات والتلفزيونات – فى حد ذاتها قد بدأت فى الاعتراف والاهتمام وجذب الانتباه إلى تلك التغيرات التى حدثت فى الهواء نفسه ، إنه من خلال وسائل الإعلام تلك الثانوية أن صرنا حديثًا نعرف عن التراكم المهول فى الأجواء العليا لعناصر التصنيع الكيميائية التى فى كل عام تحرق حفرة – فى اتساع مستمر – سوداء فى طبقة الأوزون فى أعالى أنتاركتيكا فيما تُضعف بقية تلك الطبقة الحامية على مستوى العالم ، من وسائل الإعلام تلك عرفنا أيضًا عن الزيادة المخيفة فى ثانى أوكسيد الكربون فى الجو منذ بداية الثورة الصناعية ،

وإننا نسمع مراراً وتكراراً عن زيادة كثافة ثانى أوكسيد الكربون بالإضافة إلى غازات أخرى ذات امتصاص حرارى ، وهى بالفعل قد زادت من ارتفاع الحرارة الخطير الذى يجتاح مناخ العالم والأرض ، إنه تغيير سوف يساهم بدوره فى تهديد حياة عدد ضخم من أنظمة البيئة ، الكثير من الحيوانات وأنواع النباتات التى تعانى بالفعل من ذلك ، والكثير منها وصلت معاناته إلى درجة الانقراض عبر أفعال تلك الكثافة من سكان الأرض .

بالرغم من ذلك فإن مثل تلك المعلومات المطبوعة والمطروحة إعلاميًا واصلة إلينا كما يحدث عبر تلك القنوات التكنولوجية غالبًا ما تبقى كزحام تجريدى من الإحصائيات ، إنها تفعل القليل لتحويل وتبديل لامبالاتنا ومحايدتنا الفكرية تجاه الأرض الحسية حتى - عندما نعود من رحلة - نرى بعيوننا الضباب البُنى الذى يستقر الآن على المدينة التى نحيا فيها ، وحتى نشعر بالنسيم الكيميائى وهو يقرص الخلايا الحية اللينة والرطبة فى فتحات أنوفنا ، أو حتى حين نراقب بحذر ريحًا عاصفة وهى تخلع واجهات المخازن والبيوت ، أو ربما بعد أن نتعافى من مرضنا الخامس من الحمى فى شتاء واحد ، عندها نلاحظ أن مناعة أجسادنا ومقاومتها قد وهنت عبر الأشعة المتزايدة التى تصب يوميًا علينا من خلال السماء المرهقة ، أو مخلفات الهواء من آخر حوادث سقوط الطائرات عبر القارة .

كظواهر مأخوذة فى الاعتبار - وكذلك عبر التجربة المعاشة الحية - فإن الجو المتغير ليس مجرد عنصر من عناصر الأزمة البيئية ، ليوضع جانبًا مع تسميم المياه ، والانقراض السريع الصارخ للحيوانات والنباتات ، وانهيارات أنظمة البيئة المعقدة ، وأشكال رعب أخرى من صناعة الإنسان ، إن كل ذلك بالتأكيد وجوه متداخلة ومتصلة لنوع من الفصل المدهش ، النسيان الهائل لميراثنا البشرى لعالم أكثر من بشرى ، ومع ذلك فإن عدم احترامنا وعدم تقديرنا للهواء فى حد ذاته الذى نتنفسه هو بشكل ما أعمق وأقوى تعبير لذلك النسيان وتلك الغيبوبة المذهلة ، وذلك أنه هو الهواء نفسه الذى يحيط بنا بشكل مباشر ، الهواء بكلمات أخرى هو ذلك العنصر الذى نحن بأكثر الأشكال حميمية "فيه" ، وطالما نعيش الأعماق غير المرئية المحيطة بنا على أنها مجرد

فضاء فارغ ، سوف نتمكن من رفض وإنكار أو كبت التداخل الاعتمادى لأفكارنا مع الحيوانات الأخرى والنباتات ، والأرض الحية التى نقتات عليها وتكفل لنا حياتنا ، قد نعترف فكريًا باعتماد أبداننا على تلك النباتات والحيوانات التى نستهلكها كتغذية ومعاش لنا ، ومع ذلك فإن العقل المُتَحضِّر مازال يشعر بنفسه منفصلاً بشكل ما ، مستقلاً ، ومتكاملاً ، ومنفصلاً عن الجسد والطبيعة المتجسدة عمومًا ، وإنه فقط عندما نبدأ فى ملاحظة وتجربة – من جديد – انغماسنا فى الهواء غير المرئى فإننا نبدأ فى استدعاء ذلك الذى هو تمامًا جزء من ذلك العالم .

ذلك أن الارتباط الأساسى ما بين الوعى والهواء غير المرئى ببساطة غير قابل للتجنيب ، فيما نصبح واعين بالأعماق غير المرئية التى تُحيطُ بنا فإن الباطن أو الداخل الذى اعتدنا ربطه بالنفس الفردية والشخصية يبدأ فى مواجهة فى العالم كَكُل : إننا نُحِسُ بأنفسنا ، غارقين ومتشبعين ومعلَّقين "فى داخل" العالم الحسى ، إن هذه الأرض والطبيعة المتنفسة لا تعود مجرد خلفية محايدة وسلبية يتجلى فيها التاريخ الإنسانى ، ولكن حقل قوى من الذكاء حيث أفعالنا تشارك فيه . وفيما يبدأ نظام المرجعية الذاتية فى الانهيار ، وفيما نبدأ فى الاستيقاظ لأهمية الهواء ، والآخرين المتعددين الباطنيين والمُتَضَمَّنين معنا فى أعماقها الخصبة – فإن الأشكال من حولنا تبدو وكأنها تستيقظ ، وتعود للحياة ... .

نهاية موسيقية

انقلاب الداخل والخارج

"آه ، أن لا تكون مقطوعًا ،

ولا عبر أقل تجزئة

محرومًا من قانون النجوم .

الداخل - ما هو ؟

إذا لم يكن سماء مُضَاعَفة ،

تمتلئ بالعصافير وعميقة

برياح العودة للوطن" .

رينيه ماريا ريلكه

أن لا تكون مقطوعًا ، كما يقول ريلكه ، ومع ذلك فإننا نبدو اليوم مغتربين جداً عن النجوم ، ومنقطعين بشدة عن عالم الصقور والوعول والحجر ، إن هذا الكتاب كان يتبع ويقتفي آثار - بشكل ما - بعض الطرق التى وصل العقل الإنسانى عبرها إلى رفض وإنكار الاحتمالات الحسية ، عازلاً نفسه عن الحيوانات الأخرى والأرض والطبيعة الحية ، بكتابة هذه الصفحات كنت قد آملتُ ، أيضًا ، فى "تجديد" بعض تلك الاحتمالات والعلاقات ، فى البدء فى استدعاء وإعادة بناء جذور الوعى الإنسانى فى النظام البيئى والطبيعى الأكبر .

إن كل فصلٍ قد طرح الاعتماد المُبطن "الداخل" متعدد ومتنوع ، ظاهرة ذهنية على جوانب معينة يتم بسهولة تجاوزها أو أخذها على سبيل الحاصل لعالم الطبيعة الحسى المحيط بنا ، إن اللغة قد طُرحَت كظاهرة جسدية عميقة ، تقتات على اختلاجات وأصوات الأرض والطبيعة الحية . إن الذكاء العقلانى المُقَدَّر بشدة فى الغرب تم طرحه على أنه يعتمد على الحروف الخارجية المرئية للأبجدية ، إن الداخل أو الباطن المُفتَرَض ، الوعى الذهنى "بالماضى" و "المستقبل" تم طرحه على أنه معتمد على خبراتنا الحسية وحواسنا تلك المختبئة تحت الأرض والمخفية فيما وراء الأفق . أخيراً إن تجربة وخبرة الوعى فى حد ذاتها كانت متصلة ومتعلقة بالغوامض الخاصة بالنَفَسِ والهواء ، بالمحسوس ولكن غير المرئى فى الجو الذى نجد أنفسنا غارقين فيه .

إن العقل البشرى ليس بنوع من العناصر من خارج هذا العالم بحيث يأتى إلى البيت نفسه فى داخل جسدنا الفسيولوجى ، إنه بالأحرى متجذرٌ ومستثارٌ عبر الحقل الحسى والحواس نفسها ، متأثر بالتوترات والمشاركات ما بين الجسد البشرى والأرض الحية والطبيعة ، إن الأشكال غير المرئية للروائح والإيقاعات لغناء الجنادب وحركة كل الظلال بمنطق ما تقدم الجسد الخافت لأفكارنا وتأملاتنا وانعكاساتنا نحن ، يمكن لنا أن نقول هى جزء من لعبة النور وانعكاساته ، "إن الداخل والباطن – ما هو ، إذا لم يكن سماء مُضاعفة ؟"

عبر الاعتراف بمثل تلك الروابط ما بين الداخل – الباطن ، العالم النفسى وأرضية التلقى والاستيعاب التى تحيط بنا ، إننا نبدأ فى الانقلاب من الداخل للخارج ، مخلخلين النَفْس من قيودها ومحدوديتها ضمن مجال بشرى خالص ومغلق ، ومحررين العاطفة لتعود إلى العالم الحسى الذى يحتوينا .

إن الذكاء لا يعود ملكنا نحن فقط ولكن ملكية للأرض والطبيعة ، نحن فى داخله ، غارقون فى أعماقه ، وبالفعل فإن كل أرضية ، كل نظام بيئى ، يبدو وكأنه يمتلك ذكاءه الخاص ، شكله ومحتواه المميز من التربة ، أوراق الأشجار والسماء .

لكل مكان عقله الخاص ، ونفسه الخاصة : أشجار الصنوبر ، نار دوجلاس ، الصقر ذو الذيل الأحمر ، الأفاعى فى جحر الرمل ، الأمطار الغزيرة فى الشتاء ، الضباب على الضفاف فى الصيف ، أسماك السلمون فى الينابيع - كل أولئك معًا يشكلون حالة معينة من العقل ، ذكاء فى مكان محدد وخاص يشترك مع كل البشر الذين يعيشون فى محيط وأرضية ذلك ، ولكن أيضًا مع حيوانات الكويوتو فى تلك الوديان ، والقطط والعناكب ، وكل الكائنات التى تعيش وتصنع طرائقها فى ذلك المجال ، إن لكل مكان نفسه ، لكل سماء زرقتها الخاصة .

إن حس الكينونة والوجود فى عالم حسى محافَظ عليه فى الحكايات والقص الشفاهى والأغانى للشعوب والناس فى المجتمعات الأصلية ، فى المعتقد بأن الظواهر الحسية كلها حية وواعية ، وفى الافتراض بأن كل الأشياء تمتلك القدرة على الحديث والكلام ، إن اللغة بالنسبة للبشر الشفاهيين ليست بابتكار وإبداع بشرى ولكنها هدية من عطايا الأرض نفسها .

إننى لا أنكر أن اللغة البشرية لها خصوصيتها المتميزة ، وأنه من جانب ومنظور معين فإن المسار البشرى لديه القليل من المشتركات مع أصوات وإشارات الحيوانات الأخرى ، أو الكلام الهادر للنهر ، إننى أتمنى ببساطة أن أتذكر أن ذلك لم يكن هو المنظور الذى كان يتمسك به أوائل أولئك الذين اكتسبوا ومنحونا هدية الكلام والحديث ، إن اللغة البشرية قد تطورت من خلال مضامين حية ، إنها بالضرورة قد خدمت لآلاف السنين لا كوسيلة للتواصل فيما بين البشر فقط ولكن كطريقة وكيفية للتواصل والمديح والتعاطى مع القوى المعبرة للأراضى والطبيعة المحيطة ، إن اللغة البشرية بمعنى ما قد انبثقت لا كوسيلة فقط للتناغم والتفاهم فيما بين البشر ولكن أيضًا فيما بين ذواتنا والأرض الحية والطبيعة ، إن الاعتقاد بأن الخطاب أو الكلام ذا المعنى هو ملكية بشرية خالصة كان غريبًا وخارجًا عن المألوف تمامًا بالنسبة لتلك المجتمعات الشفاهية التى تطورت فى البداية وطورت الطرق المختلفة للكلام والحديث ، وعبر التمسك بمثل ذلك المعتقد اليوم فإننا نكون محددين ومقننين للنشاط التلقائى للغة ، عبر إنكار أن الطيور والحيوانات الأخرى لها أساليبها فى

الكلام ، وعبر الإصرار على أن النهر ليس لديه صوت شفاهى وأن الأرض نفسها خرساء فإننا نخنق تجربتنا الحية المباشرة ، إننا نقطعُ أنفسنا بعيداً عن المعانى العميقة فى الكثير من كلماتنا مفقرين لغتنا من ذلك الذى يدعمها وتقتات عليه ، ثم إننا نتعجب لماذا كثيراً ما نكون غير قادرين على التواصل حتى فيما بين أنفسنا وبعضنا بعضاً .

فى عرض العملية التى من خلالها قامت الحضارة بالانقلاب فيما على نفسها عازلة ذاتها عن الأرض والطبيعة المتنفسة كنت قد ركزت على المفهوم الغريب والتحول اللغوى الذى أتاح الإمكانية عبر تطور وانتشار أنظمة الكتابة الرسمية ، وخصوصاً تطور وانتشار الكتابة الصوتية ، غير أننى بغض النظر عن ذلك لا أتمنى أن أطرح أن الكتابة كانت العامل الوحيد فى تلك العملية - عملية معقدة ومركبة كانت بعد كل شىء فى إطار الخلق والتطور لعدد من آلاف السنين - إن عوامل أخرى كثيرة كان يمكن اختيارها ، إننى قد أشرت بشكل بسيط جداً فى هذا الكتاب إلى انبعاث الزراعة فى فجر المرحلة النيوثلية ، بالرغم من أن انتشار تقنيات الزراعة قد حول بحدة وسرعة العلاقة المعاشة ما بين البشر والكائنات والفصائل الأخرى ، كما أننى لم أطرح موضوع التطور لنظام الترقيم والأعداد الرسمى ، والتأثير النابع من ذلك على المقاييس الرقمية ، والإحصائيات ، على تفاعلنا مع الأرض ، وبالطبع فإننى قد قلت القليل ، أو لا شىء تقريبًا عن ما يتعلق بالتكنولوجيا والتقنيات التى لا تُحصى التى ابتكرتها الحضارة الأبجدية نفسها ، من الهواتف إلى التليفزيونات ، ومن السيارات إلى المضادات الحيوية ، عبر التركيز على الكلمة المكتوبة ، لقد أملت أن أعرض أقل أطروحة محددة عن أن أطرح شرحًا محدداً ، كيفيةً معينة للبحث والتساؤل حول أى عامل يمكن للشخص أن يختاره .

إنها طريقة للتفكير تسعى نحو بحث لا يهدد صلتنا وروابطنا الحيوانية مع العالم من حولنا - إنها محاولة للتفكير بما يتسق مع الحواس ، للبحث والتأمل دونما إفقار للرابط الحسى مع البوم والرياح ، إنه أسلوب للتفكير - إذن - يربط ما بين "الحقيقة" لا مع الوجه الإحصائى ولكن مع العلاقة النوعية ومستواها .

من وجهة نظر بيئية إنه ليس أساسًا هو جملنا وخطابنا الشفاهى الذى يُمثل "الحقيقة" أو "الخطأ" ، ولكنه بالأحرى نوع من العلاقات التى نحافظ عليها مع بقية الطبيعة ، إن المجتمع البشرى الذى يعيش ضمن علاقة متبادَلة المصالح ضمن الأرض والطبيعة المحيطة مجتمع - يمكن لنا أن نقول - يحيا ويعيش في الحقيقة ، إن طُرَق الكلام المشتركة فى ذلك المجتمع - الادعاءات والمعتقدات التى تُمكِّن مثل تلك التبادلية فى التلقى والاستيعاب فى أن تفرض نفسها هى - بذلك الحس المهم - "حقيقة" . إنها فى اتساق مع العلاقة الصائبة والحقة ما بين أولئك البشر وعالمهم ، أطروحات ومعتقدات أثناء ذلك ترعى وتتبنى العنف ضد الأرض ، طرق للخطاب والكلام تُمكِّن الازدواجية أو الخراب للحقل المحيط من الكائنات ، يمكن وصفها على أنها "خطأ" أو طرق غير صائبة فى الخطاب - طرق تُشجِّع العلاقة غير المراعية وغير الحساسة مع الأرض والطبيعة الحاضنة ، إن حضارة تدمر - بلا هوادة - الأرض الحية ومن فيها لا يمكن أن تكون مصاحبة "للحقيقة" والصواب بغض النظر عن كثرة الوجوه التى راكمتها وطرحتها فيما يتعلق بالأخلاقيات المحسوبة فى هذا العالم .

وبما أننى أقل اهتمامًا وانشغالاً بالحقيقة "الحرفية" للتأكيدات التى طرحتها فى هذا الكتاب والأطروحات عما أنا مهتم به أكثر ومعنىً به فى نوع العلاقات التى يمكن لها أن تجعلها متاحة ، "الحقيقة الحرفية" هى تمامًا فن وحرفة من إنتاج التعليم الأبجدى : لتكون "الحقيقة حرفية" فى الأصل كان يعنى أن تكون حقيقية بالنسبة "لحرف الكتابة" ، بالنسبة "لحرف القانون" ، فى هذا الكتاب كنتُ قد حاولت أن أعيد علاقة القارئ مع نوع الوعى الذى سبق وحدد ضمنيًا نوع الذكاء الذهنى المُتعلم للكتابة والقراءة ، إلى طريقة للتفكير والكلام تسعى لأن تكون وفية لا للتسجيلات المكتوبة ولكن للعالم الحسى نفسه ، وللأجساد الأخرى للكائنات التى تُحيطُ بنا .

ذلك أنه فى مثل ذلك الوعى الشفاهى ، أن "تشرح" أو تُفَسِّر ليس أن تقدم منظومة من الأسباب المنتهية ، ولكن أن تحكى حكاية ، وذلك ما قد حاولت فعله فى هذه الصفحات ، إنها حكاية غير منتهية ، حُكيت من زوايا مختلفة ، مجرد رتوش فى بعض الأجزاء للوحة . مكتملة بالثغرات والأسئلة والشخصيات غير المكتملة ، ولكنها حكاية بالرغم من ذلك ، وليست بمنظومة مكتملة من الوقائع .

بالطبع ، ليست كل القصص والحكايات ناجحة أو موفقة ، ثمة حكايات جيدة وحكايات رديئة القيمة إلى وجود الحكايات السيئة بالفعل ، كيف يمكن تقييمها والحكم عليها ؟ إذا كانت لا تهدف إلى حقيقة جامدة أو "حرفية" ، فكيف يمكن لنا أن نكشف إذا ما كان الشخص يحكي الأحداث بطريقة أفضل أو أكثر قيمة عن الأخرى ؟ إن الإجابة على ذلك هى التالى : إن الحكاية يجب أن يُحكم عليها بحسب ما إذا كانت "تصنع حسًا" أو منطقًا ، و"صناعة الحس" يجب أن تكون هنا مفهومة بمعناها الأكثر مباشرة : أن تصنع حسًا هو "أن تُحيى وتنعش الحواس" ، إن الحكاية أو القصة التى تصنع الحِس هى تلك التى تحرك الحواس من سُبَاتها ، مُناغمة اللسان مع الذائقة الفعلية للهواء وباعثة بالرعشة إلى الفهم فى اللحظة نفسها التى يقشعر فيها سطح الجلد ، "أن تصنع حِسًا" هو أن تحرر الجسد من قيوده وأغلاله التى فرضت عليه عبر أساليب وطرق بالية للحديث والخطاب ، وبذلك تجدد وتُنعش الوعى الذى يحس به الشخص حول العالم ، هو أن تجعل الحواس يقظة من حيث هى وهنالك .

إن البعد الذهنى ، الذاتى ، والمستقل بوضوح قد انفتح عبر الأبجدية – القدرة على التفاعل مع إشاراتنا فى غياب كلى عن المحيط الأرضى والطبيعة من حولنا – قد أزهر وأثمر اليوم حتى صار مجالاً متسعًا ذهنيًا ، امتدادًا بلا أفق لتفاعلات واشتباكات محضة، إن ذكاءنا التأملى ، الانعكاسى يسكن ويعيش حقلاً كونيًا من المعلوماتية ، باحثًا فى آخر السيناريوهات فى أصل الكون ، فيما بآلية وغياب ذهنى نضع شوكة الطعام فى حلوقنا وأفواهنا ، مؤلفين أطروحات وأفكار للقاء العلمى أو البحثى التالى ونحن نرتشف القهوة أو الكابتشينو ، ضاغطين على مفاتيح الكمبيوتر وغارقين فى عالم الفضاء الإلكترونى والسايبر بهدف أن ندخل فى شبكة عمل مع عقول أخرى بلا أجساد ومعالم حسية واضحة ، متبادلين المعلومات حول تبعات علم الخلايا والانقلابات العسكرية ، "مؤتمرين" لكل مشاكل البيئة العالمية فيما نحن فى لامبالاة ونسيان لبزوغ القمر فوق سطح البيت ، إن جهازنا العصبى يلجُ إلى النفق ، ولا نلاحظ أن كورس الضفادع بقرب النهر قد اضمحلّ هذا العام ، وتحول إلى غناء وصوت فردى منعزل ، وأن عصافير السنونو لم تعد تأتى لتغنى على الأشجار .

وفى مقابل الشخصية الواضحة ، العالمية ، وغير المحدودة لعالم التكنولوجيا المسيطرة فإن العالم الحسى – عالم تفاعلاتنا المباشرة دون وسيط – دائمًا ما يكون محليًا ، إن العالم الحسى هو الأرضية الخاصة والمعينة التى جميعنا نمشى عليها وفيها ، الهواء الذى نتنفسه ، بالنسبة إلىّ وأنا أكتبُ هذا فإن الأرض الرطبة اللينة على جانب من الجزيرة فى الساحل الشمالى – الغربى لشمال أمريكا هى الأرضية ، إنها التربة الداكنة والغنية بالأحجار مغذية جذور أشجار الصنوبر والأشجار الأخرى التى ترتفع أمام كوخى ، آخر أوراقها المتدلية من الأغصان قبل أن تطير نحو السماء عبر عواصف الشتاء ، وإنه ذلك الهواء المالح الذى يتدفق عبر النوافذ المفتوحة ، مُتبلاً بأريج الصنوبر وأعشاب البحر ، وأحيانًا بعض روائح الديزل من تأثير مركب متجه إلى الجنوب واقف بقرب جذوع الشجر المقطوعة حديثًا ، فى بعض الأحيان أيضًا يكون هنالك رائحة خفيفة من روائح الأسماك والقنادس أو كلاب البحر ، فى كل يوم مجموعة من القنادس تتسلل من المياه الخضراء نحو الصخور القريبة عندما يعلو الموج ، واحدًا أو اثنين من البالغين منها وثلاثة صغار ، أجساد لزجة ، أحدهم على الأقل يجر سمكة نصف حية ما بين أسنانه ، إن كلب البحر أيضًا يتنفس هذا الهواء البرى الطبيعى ، وعندما تعصف رياح العواصف بالجزيرة ، فإنهم يمدون أعناقهم نحو ذلك الانبعاث غير المرئى ، ليشربوا أكوامًا من ذلك الهواء .

فى باطن ودواخل هذه الجزيرة ، فى أعماق الغابة الأشياء أكثر هدوءًا ، إن قوى ضخمة وعمودية تقف هناك غير عابئة بالرياح ، إن جذوعها تمتلئ بالتشققات وتتقاطع عليها خطوط النمل ، ودود الأخشاب ، والخنافس بمختلف الأشكال والأحجام ، واحد من طيور ناقرى الأخشاب ينقر جذعًا ما فى مكان ما ، إن الإيقاع المنتظم يصل إلى أذنى دونما صدى ، غارقًا فى الطحالب والإبر المثقلة بقطرات المياه التى أخذت ساعات لتنزلق على الجذوع من أعالى الشجر (كل نقطة تتحرك على الشقوق المتتابعة جامعة وزنها من نقط عديدة ، ثم منزلقة عبر الغصن والطحالب والعناكب الصغيرة ، نحو الغصن الآخر) ، أخشاب الشربين المتساقطة والشَوكران ، وشجرة سبروس عتيقة ذات قنوات محددة تنام متغضنة بين الحشائش ، الأغصان المتشابكة لها تقف مانعة سرب الغزلان الرقيقة عن الرؤية وأنا أُتابعها .

إن الغزلان فى هذه الجزيرة قد هجروا حديثًا فراء الصيف نحو فراء الشتاء الكثيف ، أراقبهم من البعيد عند المغيب ، لم يعد البُنى الدافئ هو اللون لأشعة الشمس على التربة ، إن فراءهم الآن قد صار رماديًا فى مقابل جذوع الأشجار وظلالها وكل تلك السماء الرمادية ، إن الكائنات الهادئة تبدو تمامًا جزءًا من تلك الأرض والمحيط المتنفس ، نفس الكثافة والملمس والألوان المتحولة مع تغير الفصول المحلية .

إن الأشخاص من البشر ، أيضًا ، يتم تشكيلهم بحسب الأماكن التى يحيون ويستوطنون فيها ، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى ، إن إيقاعاتنا الجسدية ، وأمزجتنا ، ودوائر الإبداع والركود ، وحتى أفكارنا بالفعل منشغلة ومتأثرة بالأشكال والأحوال المتغيرة للأرض ، ومع ذلك فإن تناغمنا العضوى مع الأرض والطبيعة المحلية يتشتت مع انشغالنا المتزايد بإشاراتنا ، مشدودين ومنومين مغناطيسيًا بالتكنولوجيا التى اخترعناها ، فإننا نقطع اتصالنا - الدائرى بتبادل التلقى والاستيعاب الحسى ما بين أجسادنا المتنفسة والأرضية المادية والطبيعة التى نحيا فيها وبها ، إن الوعى الإنسانى ينطوى ويتكشف لنفسه والحواس - عندما يكون المشهد الضرورى لانشغالنا مع الطبيعة البرية والحية - يصبح أكثر عزلة وانفصالاً وعقل تجريدى طبع إلى تجاوز الحقيقة العضوية التى صارت الآن تبدو عشوائية بشكل مزعج .

إن الذكاء الأبجدى يفرض ادعاءه فى الأرض عبر تسطيحها ، ويَمدُ هيمنته عليها عبر رسم خطوط متصلبة مستقيمة وزوايا دقيقة على امتداد جسد القارة - عبر أمريكا الشمالية ، عبر أفريقيا ، عبر أستراليا - محددًا الولايات والمقاطعات ، القرى والأرياف مع اعتبار غائب عن احترام وتقدير الشعوب والبشر الشفاهيين الذين كانوا يعيشون ومايزالون هناك ، بحسب منطق حسابى متجاهل تمامًا لحياة تلك الأراضى .

إذا ما قلتُ إننى أعيش فى "الولايات المتحدة" ، أو فى "كندا" ، فى "كولومبيا البريطانية" ، أو فى "نيومكسيكو" ، إننى أضع نفسى وأموضعها ضمن تخطيط فى المنظومة البشرية الخالصة ، إننى بذلك أقول القليل أو لا شىء تقريبًا حول المكان

أو الموضع الأرضى والطبيعى الذى أحيا وأستوطن فيه ، لكننى ببساطة أقوم بتأسيس مكانى المؤقت فى داخل هندسة متحولة ومتغيرة سياسيًا واقتصاديًا وحضاريًا بقواها التى تجهد للحفاظ على نفسها ، اليوم وغالبًا على حساب الأرض والطبيعة الحية فإن الخطر العظيم هو أن أكون أنا والكثير من الأشخاص الطيبين قد نصل إلى تصديق أن أجسادنا المتنفسة بالفعل تعيش وتستوطن تلك التجريدات ، وأننا سوف نعرض حيواتنا للذوبان الجماعى ، والحماية والدفاع ، أو المشاركة فى مصير تلك الكينونات وانقراضها بدلاً من رعاية وتغذية وحماية الأماكن الفعلية التى هى قوام حيواتنا على المستوى الجسدى .

إن الأرض التى تتضمن وجودنا لها بلاغتها ولغتها الخاصة ، ولها خطوط طولها وأسلوبها وإيقاعاتها التى لابد من الاعتراف بها إذا ما أردنا للأرض أن تتنفس وتنتعش وتزدهر ، مثل تلك النماذج – على سبيل المثال – هى تلك التى تتبعها الأنهار وهى تهدر باتجاه المحيط ، أو سلسلة الجبال التى ترتفع مثل ظهر للسهول ، حوافها تصل إلى السحب التى تتجمع وتُطلق أمطارها على جانب من تلك السلسلة ، تاركة منحدرات فيها جافة وشبيهة بالصحراء . خط آخر هو الحدود ما بين نوعين مختلفين جداً من أسرة الصخور التى قد شكلتها الرياح والأحداث الطبيعية فى قصة ورواية تلك القارة التاريخية ، أو ما بين نوعين مختلفين من التربة ، كل منهما يدعو لنوع مختلف من السكان من النباتات والأشجار لتضع جذورها فيها ، مجموعات مختلفة ومتنوعة من الحيوانات تنظم نفسها ضمن تلك الحدود الخافتة ، محددين حركاتهم فى الأرض بما يكفى احتياجاتهم من الغذاء والحماية الضرورية لأماكن الحياة متجنبين الحيوانات المفترسة أو القاتلة . آخرون ، كائنات معينة معتادة على الهجرة تتبع مثل تلك النماذج فيما هى تتحرك بما ينسق مع الفصول الطبيعية ، ويصوغون طرقًا ودروبًا ومناطق غائبة بالفعل عن البشر الحاليين والأمم ، والولايات ، وما يتفرع من ذلك من حدود وتحديدات ، إننا فقط عندما نتجاوز المنطق البشرى المستثنى للآخرين والفارض باستمرار نفسه على الأرض والطبيعة فإننا نستطيع أن نقبض بالرؤية على ذلك الآخر ، المنطق الأقدم وهو يفعل فعله فى العالم ، وفقط عندما نقترب من حواسنا ، ونبدأ فى

الثقة ، من جديد ، الذكاء الطبيعى لأجسادنا وحواسنا ، نستطيع أن نبدأ فى الملاحظة والاستجابة للمنطق واللغة الباطنية الخافتة للأرض والطبيعة .

إن هنالك تبادلية حميمية فى التلقى والاستيعاب لتلك الحواس ، فيما نلمس جذع شجرة فإننا نشعر بأن تلك الشجرة "تلمسنا" ، وعندما نعير آذاننا للأصوات المحلية ونجعل أنوفنا فى تحالفٍ مع ما يفوح من المواسم فإن الأراضى والطبيعة تدريجيًا تسهم فى تناغمنا بدورها ، إن الحواس - بمعنى ما - هى الكيفية والطريقة الأساسية التى تستطيع الأرض والطبيعة عبرها إخبارنا بأفكارنا وإرشاد أفعالنا ، إن برامج هائلة مركزية ومبادرات كونية وحلولاً أخرى من "الأعلى للأسفل" لن تكون أبدًا كافية لإصلاح وترميم وحماية صحة الأرض الحية "ذلك أنه فقط على مستوى تفاعلاتنا المباشرة ، الحسية مع الأرض من حولنا نستطيع أن نلاحظ بشكل صحيح ونستجيب للاحتياجات المباشرة للعالم الحى" .

ومع ذلك فإن مستوى حسية وحساسية أجسادنا للأرض مدهشة ، ومتنوعة بشكل غير قابل للتقنين أو الاختصار ، إنها تكشف نفسها لحواسنا لا على أنها كوكب متجانس داعيًا المبادئ الكونية والتعميمات ، ولكن على أنها ذلك المجال من الغابات والمحضون بالمياه ، أو البرارى التى تجتاحها الرياح ، أو صمت الصحارى ، إننا نستطيع أن نعرف الاحتياجات والضرورات لأى منطقة أو إقليم معين فقط عبر المشاركة فى خصوصيته - عبر أن نكون على ألفةٍ مع فصوله ودوائره وأساليبه ، يقظين ومنتبهين لسكانه الآخرين .

بالتأكيد ، إن الشخصية المركزية والمرتكزة على المكان بالنسبة للثقافات الشفاهية الأقدم لم تكن أبدًا بدون نواقص ، مندمجة بشكل رائع مع أنظمة البيئة والطبيعة المحيطة بها ، فإن الثقافات الشفاهية كثيرًا ما كانت مرتبطة جدًا بأراضيها المحددة والخاصة إلى درجة أن طبيعة وأنظمة بيئة أخرى - أشكال ونماذج أخرى من الزهور ، والأعشاب والمناخات - كانت قد تبدو مخيفة ، ومهددة وحتى مرعبة ، وفيما مثل تلك المخاوف قد ساعدت فى تحديد التداخلات على مستوى الأراضى ما بين

المناطق المجاورة ، وبذلك ربما ساعدت على تقليص الإمكانية من الصراعات والحروب القبلية ، فإنه كان مازال هناك أوقات وأزمنة عندما كانت مجموعات وعُصَب بشرية مضطرة للتواجد خارج حدود أراضيها المألوفة سواء بسبب التغييرات فى الطقس والمناخ ، أو التحولات فى طرق الهجرة للفرائس ، أو ببساطة بالصدفة ، وفجأة يجدون أنفسهم فى عالم حيث حركاتهم وطقوسهم وصلواتهم وحكاياتهم قد تبدو وكأنها تفقد كل المعانى السابقة ، حيث الأشكال لنماذج وتضاريس الأرض تفتقد الانسجام والتفاهم بالنسبة إلى تجربتهم المعاشة الحية ، " حيث لا شىء يبدو أنه يصنع حِسًا" .

بدونما منظومة من الحكايات ، والقصص ، و الأغانى المناسبة للمحيط الطبيعى الجديد ، وبدونما نظام سلوك أو إتيكيت مناسب "لتلك" الأراضى وخيراتها من الغذاء ، والوقود ، والملاذ والحماية – فإن القادمين الجدد التائهين والمرعوبين غالبًا يمكن لهم ببساطة أن يثيروا الاضطراب وحتى يدمروا ويخربوا جزءًا كبيرًا من المجتمع الحى العضوى والطبيعى ، إن انقراض عدد كبير ومتنوع من الحيوانات الذى كان قد حدث مباشرة بعد الهجرات البشرية الأولى فى البداية عندما عبرت مضيق بيرنج وانتشرت من خلال شمال وجنوب أمريكا لربما قد كانت ساهمت فى ذلك – ربما تحت مثل تلك الأحوال والظروف – عبر افتقاد نماذج ثقافية ولغوية متناغمة مع أنظمة البيئة المختلفة والمتنوعة لتلك القارة ، موجة مماثلة من الانقراض والتدمير تبدو وكأنها قد حدثت فى زمن مبكر ، خلال القرون الأولى من التدفق البشرى إلى أستراليا ، فيما أشكال انقراض وتدمير قد رافقت علامة وصول فصيلتنا من الكائنات فى عدد من أنظمة وطبيعة البيئة فى جُزر كثيرة ، بما فيها نيوزيلنده ، وهاواى ، ومدغشقر ، إن مثل تلك الأحداث تطرحُ بأنه فيما يتعلق بالتناغم والتأقلم العميق مع مواصفات وشخصية المكان للكثير من البشر والشعوب الشفاهية قد انبثق بعد عددٍ من الأجيال فى أرضية معينة عامة .

إنه من الواضح أيضًا أن تقاطعات وتجارب ما بين مجموعات بشرية من مناطق مختلفة تمامًا فى طبيعتها يمكن لها أحيانًا أن تثير العنف – فى بعض الحالات تصل إلى عنف دموى تمامًا – وهذا مجرد نتيجة لانعدام مقياس للأكوان الثقافية والرعب

الناتج عن أن تقوم كل مجموعة بالتأثير على الأخرى ، إن مثل تلك الاعتبارات لابُد أن تقودنا إلى التساؤل حول إذا ما كان هناك حس غريب من المشترك البشرى قامت إمكانيته عبر انتشار الأنظمة الرسمية للكتابة وأنه ليس بشيء شديد القيمة بعد كل شيء ، أليس هنالك ثمة شيء ما شديد القيمة حول المعتقد الحديث والعصرى ، حول المساواة بين البشر بالرغم من أنه قد تم إنجازه على حساب تأقلمنا وتناغمنا الثقافى مع أماكن معينة نستوطنها ، أليس هنالك ثمة شيء ما رائع حول انتشار الاعتراف بأننا جزء من أرض وكون واحد غير قابل للتجزئة ؟

ربما هنالك ، ومع ذلك فإنها قيمة متقلقلة وغير ثابتة ، ذلك أنه فى اللحظة ذاتها التى صارت فيها التجمعات السكانية البشرية فى كل قارة تعترف بالكوكب على أنه أرض متواحدة وكاملة ، فإننا نكتشف أن فصائل من كائنات ومخلوقات أخرى تنقرض وتذوى بشكل سريع وتنتهى ، وبأن الأنهار تختنق من النفايات الصناعية ، وبأن السماء نفسها مجروحة ، فى اللحظة نفسها التى انتشرت فيها أخيراً فكرة المساواة بين البشر عبر الكلمة المطبوعة أو وسائل الإعلام الإلكترونية ، فى كل أمة صار من الواضح بأنه بالفعل ليس بشيء أكثر من فكرة ، وأنه فى بعض أشد الأمم والشعوب "تطوراً" فإن البشر بالرغم من كل ذلك يدمرون بعضهم بعضاً هنالك ، جسدياً وعاطفياً ، بأعداد غير مسبوقة – سواء عبر الحروب ، عبر الطمع والجشع المتزايد للمؤسسات والشركات ، أو عبر الانتشار السريع للامبالاة .

من الواضح إذن أن ثمة شيء ما مفتقدٌ بشدة ، بعض العناصر الضرورية قد تم إهمالها ، بعض الجوانب الضرورية من الحياة قد تم تجاوزها إلى درجة خطيرة ، وضُعِت ونُحيت جانباً ، أو ببساطة قد تم نسيانها من خلال الاندفاع اللاهث نحو عالم مشترك ، من أجل أن يتم الحصول على الصورة والخيال المدهش والمُوَحَّد للأرض بكاملها وهى تدور فى عتمة وظلام المكان والفضاء ، فإن البشر ، كما يبدو ، كان عليهم أن يسعوا إلى شيء ما له القيمة نفسها . إن الإنسانية والنُبل الذى يتأتى من تلك الكينونة التى هى بكاملها جزء من ذلك العالم الذى يدور ، لقد نسينا ذلك الوزن الذى يتأتى من الحياة والعيش فى علاقة محكية ومتبادلة التلقى والاستيعاب مع عشرات

الآلاف من الأشياء ، عشرات الآلاف من الكائنات التى تحيط بنا من كل جانب فى تواصلها .

إننا نستطيع فقط أن نجدد ذلك التواصل - واضعين أرضية قدراتنا التى عثرنا عليها من جديد من أجل تجريد حرفى فى تلك الأشكال الشفاهية الأقدم للخبرة المعاشة والحية - آنذاك فقط سوف تستطيع قدرات الذكاء التجريدى أن تجد معناها الحقيقى ، إنه بالتأكيد ليس بالأمر الذى يعنى "العودة للوراء" ، ولكن بالأحرى الوصول إلى اكتمال الدائرة ، توحيد قدراتنا وإمكانياتنا لسبب جيد مع تلك الطرق الأكثر حسية وتقليدية من المعرفة والعلم ، سامحين لرؤى جذور العالم المشترك نفسه بالتواجد فى انشغالاتنا ، ومشاركتنا ، وتواصلنا المباشر مع المحلى والخاص ، أما إذا - على كل حال - ببساطة أصررنا على الاستمرار فى عزلتنا الانعكاسية فإنه آنذاك سوف تُثبت كل مثاليتنا وأفكارنا التجريدية ومساعينا وآمالنا لوحدة العالم أنها مجرد وهم وهذيان فظيع . إذا ما لم نسارع فى تذكير أنفسنا بمحيطنا الحسى والطبيعى ، إذا ما لم نستعد الاعتراف بتضامننا مع الكائنات الذكية والحساسة الأخرى التى تحيا وتستوطن وتُمثِّل ما يحيط بنا فإن ثمن مشتركاتنا البشرية قد يكون انقراضنا وفناؤنا المشترك .

وبالفعل فإن الكثير من الأشخاص والمجتمعات سواء ضمن أو خارج الأمم والدول الصناعية هم بالفعل منشغلون فى مثل تلك العمليات من التذكر ، أفراد ذوو خلفيات مختلفة ومتنوعة وقدرات مختلفة - كلهم قد انجذبوا نحو تلك الممارسة التى يسميها البعض "إعادة التوطين" ، لقد بدأوا فى تحديد أنفسهم لأماكنهم الخاصة والمحددة وللمناطق البيئية والطبيعية التى يعيشون ويحيون فيها ، الكثير منهم على سبيل المثال قد أصبحوا دارسين مهتمين بالنباتات والأشجار التى تنمو فى أراضيهم ، متعلمين الخصائص الغذائية أو العلاجية لكل نبتة ، وارتباطها بحشرات معينة وحيوانات ، آخرون قد اتخذوا لهم معلمين من الحيوانات المحلية نفسها ، قاضين أوقات فراغهم فى رصد الهجرات ، أو متعلمين دائرة الحياة والسلوكيات لكائنات محدودة ، إنهم يعملون على ترميم وإعادة إصلاح تلك العادات التى تلفت ، وتدريجيًا لإعادة ميزان الكائنات الأصلية التى كانت قد دُمِّرَت عبر عبث البشر وقسوتهم ، عاملين معًا ، إنهم

يغلقون ذلك المصنع الذى يلوث ويُدَمِّر ، وإنهم يغوون سمك السالمون ليعود إلى ينابيعه ، فى قلب المدينة إنهم يبذرون ويزرعون الحدائق الجماعية بالكائنات والفصائل المنقرضة ، ويقيمون الولائم للمشردين ، فى كل زاوية هم يسعون إلى نشر مثل ذلك السلوك وتلك القناعات فيما بين المجتمع البشرى بما يتناسب مع الإقليم ، والأكثر استجابة ومسؤولية للمحيطات الطبيعية الأرضية .

فى أمريكا الشمالية فإن لهذه الحركة التلقائية والمتنامية أسماء كثيرة ، فى الحقيقة إنها أقل من كونها حركة وهى أكثر بمنطق وإحساس مشترك وعقلية يتشارك فيها الأشخاص الذين - بحسب جُملة روبنسون جيفر - "وقعوا فى الحب مع الخارج" مع العالم الذى يحيط بهم ، وفيما يزداد عمق عاطفتهم وولعهم بالأرض فإنهم يختارون أن يقاوموا الميل المعاصر للانتقال دائمًا إلى مكان آخر من أجل عمل أفضل أو حياة أكثر ترفًا ، ويكتفون بدلاً من ذلك بأن يكرسوا أنفسهم للأراضى والطبيعة التى قد أعلنت ملكيتها لهم ، أن يقابلوا كرم الأرض بإخلاص ووفاء طيب وبرىء ، إنهم يحيون وينعشون حواسهم عبر الدخول فى تواصل تلقى واستيعاب مع المحيطات الحسية بهم ، إن ذلك لا يمنعهم أو يعوقهم عن الانشغال بالحقائق والوقائع السياسية للأقاليم والدول ، ولا من مساندة مبادرات على مستوى الولاية والتصويت فى الانتخابات الوطنية ، إنهم يحملون الوعى - بالرغم من ذلك - بأن المؤسسات السياسية والاقتصادية ليست فى تحالف مع الحقائق والوقائع الأرضية والطبيعية وأنها فى الأغلب لن تدوم ، وأن مثل تلك التكوينات مثل الشبح أو الفانتوم الأثيرى الذى لابد لنا من الانتباه إليه دون أن نعيره القدرة على تشتيتنا عن ما هو "هنا" فى الحقيقة . إن مثل أولئك الأشخاص يتحالفون بذواتهم لا مع الثقافة الأحادية الآخذة فى الانتشار للبشر ، ولا مع الرؤى التجريدية حول الاقتصاد العالمى ، ولكن مع جانب أكثر إمكانية للمحافظة عليه من التنوع الإقليمى والاعتماد المتداخل فى شبكته من المجتمعات ذات الاكتفاء الذاتى - تعددية لثقافات متطورة تكنولوجيًا ومتناغمة ومتلائمة مع تكوين نبض الأماكن المحددة ، إنهم يعرفون جيداً أنه إذا ما كان للبشرية أن تزدهر بدونما تدمير للعالم الحى الذى يُبقى علينا ونعتاش منه فإنه يتوجب إذن علينا أن ننمو ونكبر خارج

تطلعاتنا المراهقة للسيطرة والهيمنة على كل ذلك آجلاً أو عاجلاً ، إنهم يظنون أن طموحنا التكنولوجي يجب أن يبدأ في وزن نفسه في شكل أقل ، سامحًا لنفسه بالتعرف على الاحتياجات المحددة لحياة الإقليم والطبيعة الخاصة . آجلاً أو عاجلاً ، سوف تكون الحضارة التكنولوجية مرغمة على قبول دعوة الجاذبية والاستقرار فى الأرض ، تشكيلاتها السياسية والاقتصادية تتنوع فى الأشكال المتنوعة والإيقاعات للأرض الأكثر من بشرية .

ومع ذلك فإن ممارسة التحالف مع الحقيقة يصعب أن يتحمل أن يكون يوتوبيا مثالية ، إنه لا يستطيع أن يؤسس نفسه على رؤى مرسومة فى رؤوسنا ومن ثم يتم عكسها على المستقبل ، إن أية خطوة ومقاربة نحو المشاكل الحالية توجهنا نحو هدف له علاقة بمستقبل مُتصَوَّر تُمسك بنا ضمنيًا فى سياق متاهة الزمن الطولى ، إنها تمسك بنا وتعرقلنا ، بمعنى ما ، فى ضمن البُعد الوهمى نفسه الذى يُمكننا من إهمال ثم فى النهاية نسيان الأرض من حولنا ، عبر عكس وإسقاط الحل فى مكان ما خارج الحاضر المستوعَب ، إنها دعوة لاهتمامنا بعيدًا عن المحيطات الحِسية ، مجبرة إيانا على بلادة الحواس ، ومع ذلك من جديد باسم الفكرة الذهنية .

إن مقاربة إيكولوجية أصيلة لا تعمل على الحصول على مستقبل مُتصَوَّر ذهنيًا ، ولكنها تسعى للدخول بشكل أكثر عمقًا داخل الحاضر الحسى والمحسوس ، إنها تسعى لكى تصبح يقظة باستمرار للحيوات الأخرى ، الأشكال الأخرى من الأحاسيس والذكاء التى تحيطُ بنا فى الحقل المفتوح للحظة الرَّاهنة ، ذلك أن الحيوانات الأخرى والسُحُب المجتمعة لا يوجدون ويعيشون فى خط طولى ، إننا نلتقيهم فقط عندما تبدأ دفقة الزمن التاريخى فى فتح نفسها للخارج ، عندما نسير ونمشى خارج رؤوسنا نحو دائرة الحياة للأرض المحيطة بنا ، إن هذا الانتشار الوحشى يمتلك زمنه وتوقيته ، إيقاعاته للعجز والمغيب ، فصوله فى التكوين والإيناع والإزهار ، إنه هنا وليس فى تاريخ طولى تسكن الغربان .

بالطبع ، إذا كنا نعيش فى كثافة المدينة أو حتى ما بين مراكز التسوق المنتشرة فى الضواحى فإن العالم الحسى نفسه يبدو وكأنه يتدفق فى مستقبل متسامٍ ، وفيما

البنايات العالية تنتشر من قواعد فارغة ، وفيما الأراضى الرطبة تمنح الطريق للطرق السريعة وملصقات ولوائح الإعلانات الضخمة ، ومع ذلك فإن هذا التقدم الذى بلا راحة يتخذ مكانه فقط ضمن الأفق الدائرى من الأرض المتنفسة ، إن مدينة نيويورك تبقى ، أولاً وأخيراً ، مستوطنة من الجُزُر على ضفاف نهر هدسون ، وعُرضَةً للمناخ الساحلى فى تلك الجغرافية . وإن كل تلك التجارة الدولية التى تحدث داخل جدرانها الزجاجية ، لا تسمح لمنهاتن بالوجود من دونما أرضيتها ما بين المياه بجزرها ومدها ، فى أثناء ذلك فإن سكان لوس أنجلوس يستيقظون غالبًا على آثار القوة المزلزلة والرهيبة لأراضيهم ، حتى نعود إلى حواسنا يجب أن نجدد صلتنا وروابطنا مع تلك الحياة الأشد اتساعًا ، وأن نُحِس بالتربة تحت الرصيف ، أن نُحِس – حتى ونحن بالداخل – بنظرة القمر وتحديقه على سقف المكان .

لكن ماذا ، إذن ، عن الكتابة ؟ إن الصفحات السابقة قد دعت الانتباه إلى الأضرار الجانبية أو بعضها من غير الملاحظة والسلبية للأبجدية – تأثيرات كانت قد كَونَت الكثير من الطريقة التى نستوعب ونفهم بها الآن ، ومع ذلك فإنها سوف تكون غلطة كبيرة لأى قارئ أن يستخلص من تلك الصفحات أنه هو أو هى يتوجب عليهما أن يهجرا الكتابة والكلمة المكتوبة ، وبالفعل فإن خطوط الحكاية التى طُرِحت ها هنا تطرح بأن الكلمة المكتوبة مُحَمَّلة بالسحر القوى والمتنفذ – السحر نفسه الذى برق ذات يوم فى عينى البومة وحركة كلب البحر .

بالنسبة لأولئك الذين منا والمهتمين بالأرض وليسوا مذهولين أو منشدِّين إلى عالم الآلات ، عالم السطوح والملمس ، والطعوم ، والأصوات المغايرة عن ما قد هندسناه وصنعناه ، فإنه لا يمكن أن يكون هناك من سؤال حول هجر الكتابة والعلم ببساطة ، فى الالتفات بعيداً عن كل الكتابة ، إن مهمتنا بالأحرى أن "نتخذ" الكلمة المكتوبة بكامل طاقاتها وقواها ، وبصبر وتؤدة ، وبحذر وانتباه ، كتابة اللغة مرة أخرى فى الأرض ، إن حرفتنا وفننا فى إطلاق سراح الذكاء ، الأرض ، الطبيعى لكلماتنا ،

محررين إياها للاستجابة لخطاب كل الأشياء نفسها ، للأخضر الناطق فى ورق الأشجار من الغصون البارزة ، إنها ممارسة لغزل القصص والحكايات التى لها إيقاع وتنطق بأرضية الصوت المحلية ، حكايات من أجل اللسان ، حكايات تَرغَبُ فى أن تُحكى مرارًا وتكرارًا ، متزحلقة خارج الشاشات الرقمية الأليكترونية وهاربة من الصفحات ذات الحروف لتسكن تلك الغابات على الشطوط ، وخنادق الصحارى تلك ، وحشائش الأرض الهامسة والوديان والمستنقعات ، العثور على جُمَلٍ تضعنا فى صلة مع عروق الرقبة النافرة وعضلاتها المرتجفة لغزال رافعًا قرنيه عاليًا فيما هو يسبح نحو اليابسة ، أو مع نملة تسحب حبوب الأرز عبر الحشائش ، أن نزرع ونبذر الكلمات ، مثل البذور ، تحت الصخور والأوراق المتساقطة – سامحين للغة بأن تتخذ لها جذورًا من جديد فى الصمت الأرضى للظلام ، والعظام ، والأوراق .

ورقة من شجر الحَوْر قد خلخلتها الريح تندفع بعيدًا مع الموج ، وفيما هى تبتعد فإنها تصطدُم بالساق النحيفة لمالك الحزين ذات زرقة عظيمة ، محدقًا بانتباه عبر ذلك السطح المتأرجح ، ثم تواصل هى ابتعادها ، إن مالك الحزين يرفع أحد ساقيه خارج الماء ، ويعيد وضعها ، فى خطوة واحدة ، وفيما أنا أراقب ، فإننى أيضًا ، أنجذبُ إلى انتشار الصمت ، ببطء تقترب مجموعة من السحب ، منزلقة بكثافتها فوق الأرض ، ضامة مالك الحزين وأشجار الحَوْر وجسدى المُحَدِّق فى أعماق كائن شاسع يتنفس ، حاضنة إيانا جميعًا داخل لحمٍ مشترك ، قصة مشتركة صارت الآن تَتَفَجَّرُ مع المطر .



المـــؤلـــف

ديڤيد إبرام : عـالم توازن بيئى وفيلسوف مؤثر ذو رؤية إبداعية خاصة كان لها عميق أثرها على حـركة الدفاع عن البيئة الطبيعية فى أمريكا الشمالية والعالم ، وقد درس ديڤيد إبرام فى جامعة ويسليان ، وحصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة ولاية نيويورك فـى ستونى بـرووك ، ونـال العـديد من المنح العلمية من عدد من المؤسسات كان من بينها مؤسسة روكفيلر ، كما نال جائزة لانان الأدبية للأعمال غير الروائية ، كما أنه ساحر متمرس ، وقد عاش وتعلم ومارس السحر بين كبار السحرة فى أدغال إندونيسيا وغاباتها ، وكـذلك فـى الـنيبال ، وفى القـارتين الأمـريكيتين . و « تعويذة الحسى » أول كتبه المنشورة .

المترجمة

ظبية خميس : شاعرة وكاتبة إماراتية مقيمة فى مصـر ، لها مجموعات أدبية شعرية ، وقصصية ، ولها مؤلفات بحثية فى الأدب العربى ، قامت بترجمة العديد من الأعمال الأدبية والثقافية منها :

– الشعرية الأوروبية وديكتاتورية الروح .

– الشعر الجديد : أنا وأصدقائى شعراء البارات ، والمقاهى ، والسجون .

– فيرونيكا تقرر أن تموت ، لباولو كويلهو .

– طفل الفجر ، لجوتاما شوبرا .

– سشغهاب بيبى لهى وى .

– تعمل فى الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية .

لها اهتمام خـاص بالثقـافات الأسيوية والعـلـوم الروحية فى مجال العصر الجديد New Age .

وقد قامت بزيارات منتظمة إلى آسيا للتعرف على ثقافاتها وعلومها .



المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .



المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	پول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

العنوان	المؤلف	المترجم
١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فاتويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . بيتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت : فتحى العشرى
١٨٤ - القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	ت : دسوقى سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجانى
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمى سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى - سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ - ليل إفريقى	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى مارديا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريين	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ - ت. س. إليوت شاعرًا وناقدًا وكاتبًا مسرحيًا	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ - فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ - الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ - البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ - الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ - السهل يحترق	خوان روافو	ت : على البمبى
٢٨٤ - هرقل مجنونًا	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ - الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ - الفن الروائى	ديفيد لودچ	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ - ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ - علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ - المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربى — روجر آلان — ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر — بوالو — ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة — جوزيف كامبل — ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث — وليم شكسبير — ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسوريانية — ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى — ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد — أبو بكر تفاوابليوه — ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية — جين ل. ماركس — ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١ — لويس عوض — ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢ — لويس عوض — ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين — جون هيتون وجودى جروفز — ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا — جين هوب وبورن فان لون — ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس — ريـوس — ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد — كروزيو مالابارته — ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ — چان – فرانسوا ليوتار — ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور — ديفيد بابينو — ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة — ستيف جونز — ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ — انجوس چيلاتى — ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج — ناجى هيد — ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى — كولنجوود — ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود — وليم دى بويز — ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية — خابير بيان — ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم — جينس مينيك — ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى — ميشيل بروندينو — ت :كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط — أ. ف. ستون — ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد — شير لايموفا – زنيكين — ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة — نخبة — ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا — جايتر ياسبيفاك وكرستوفر نوريس — ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج — مؤلف مجهول — ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢ — ليفى برو فنسال — ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى — دبليو. إيوجين كليناور — ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا — تراث يونانى قديم — ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار — أشرف أسدى — ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار — فيليب بوسان — ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة — جورجين هابرماس — ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة — نخبة — ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة — نور الدين عبد الرحمن بن أحمد — ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد — تد هيوز — ت : محمد عيد إبراهيم

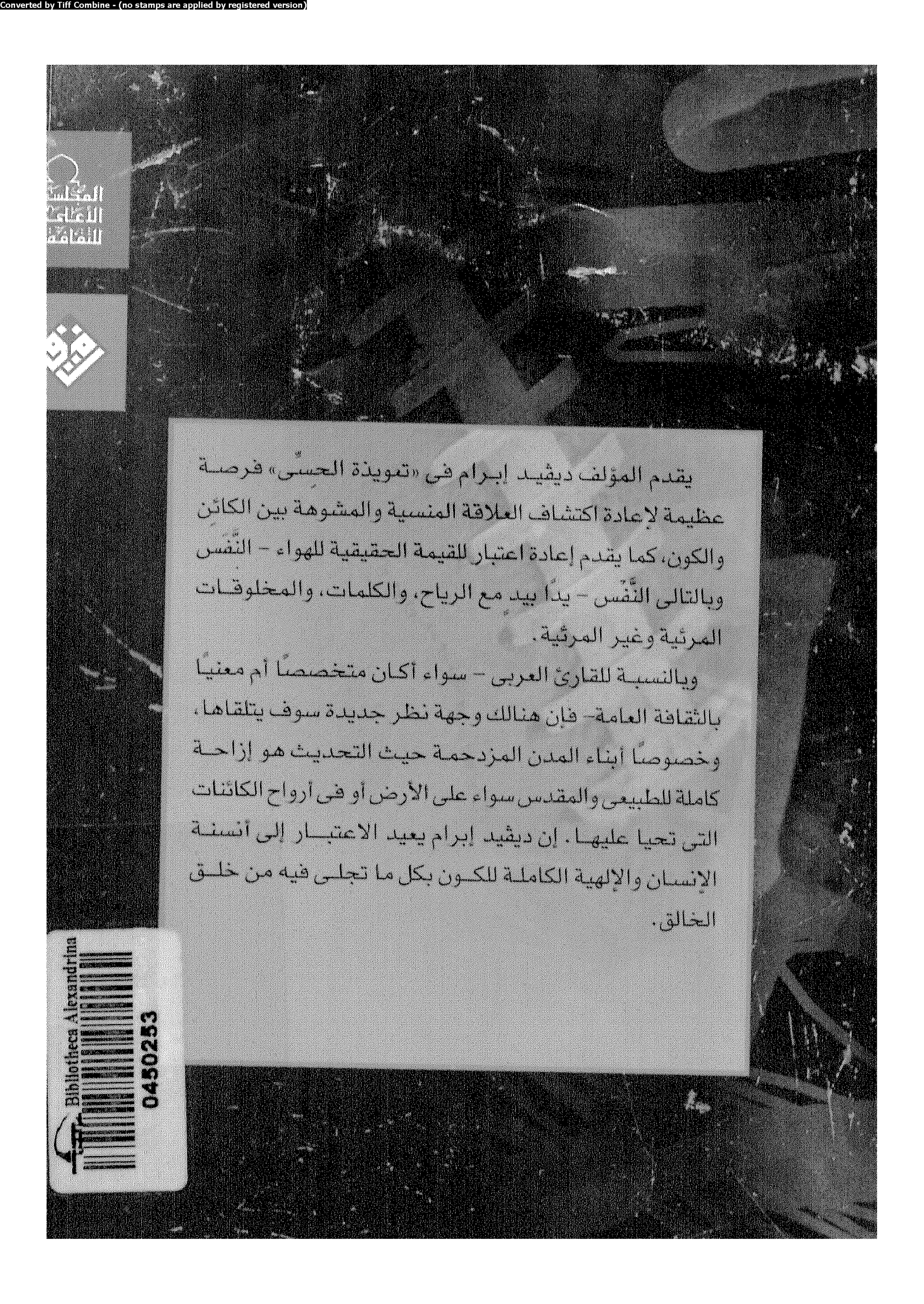
العنوان	المؤلف	المترجم
٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	أرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٣	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وآمال شاور
٣٦٢ – تلميذ بابنبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الافريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبري محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرّالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	چون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرنانلو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : نخبة
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت :محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت :إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – رية المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر
٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٨٤٨ / ٢٠٠٢





يقدم المؤلف ديفيد إبرام فى «تعويذة الحسّى» فرصة عظيمة لإعادة اكتشاف العلاقة المنسية والمشوهة بين الكائن والكون، كما يقدم إعادة اعتبار للقيمة الحقيقية للهواء - النَّفس وبالتالى النَّفَس - يدًا بيدٍ مع الرياح، والكلمات، والمخلوقات المرئية وغير المرئية.

وبالنسبة للقارئ العربى - سواء أكان متخصصًا أم معنيًا بالثقافة العامة- فإن هنالك وجهة نظر جديدة سوف يتلقاها، وخصوصًا أبناء المدن المزدحمة حيث التحديث هو إزاحة كاملة للطبيعى والمقدس سواء على الأرض أو فى أرواح الكائنات التى تحيا عليها. إن ديفيد إبرام يعيد الاعتبار إلى أنسنة الإنسان والإلهية الكاملة للكون بكل ما تجلى فيه من خلق الخالق.